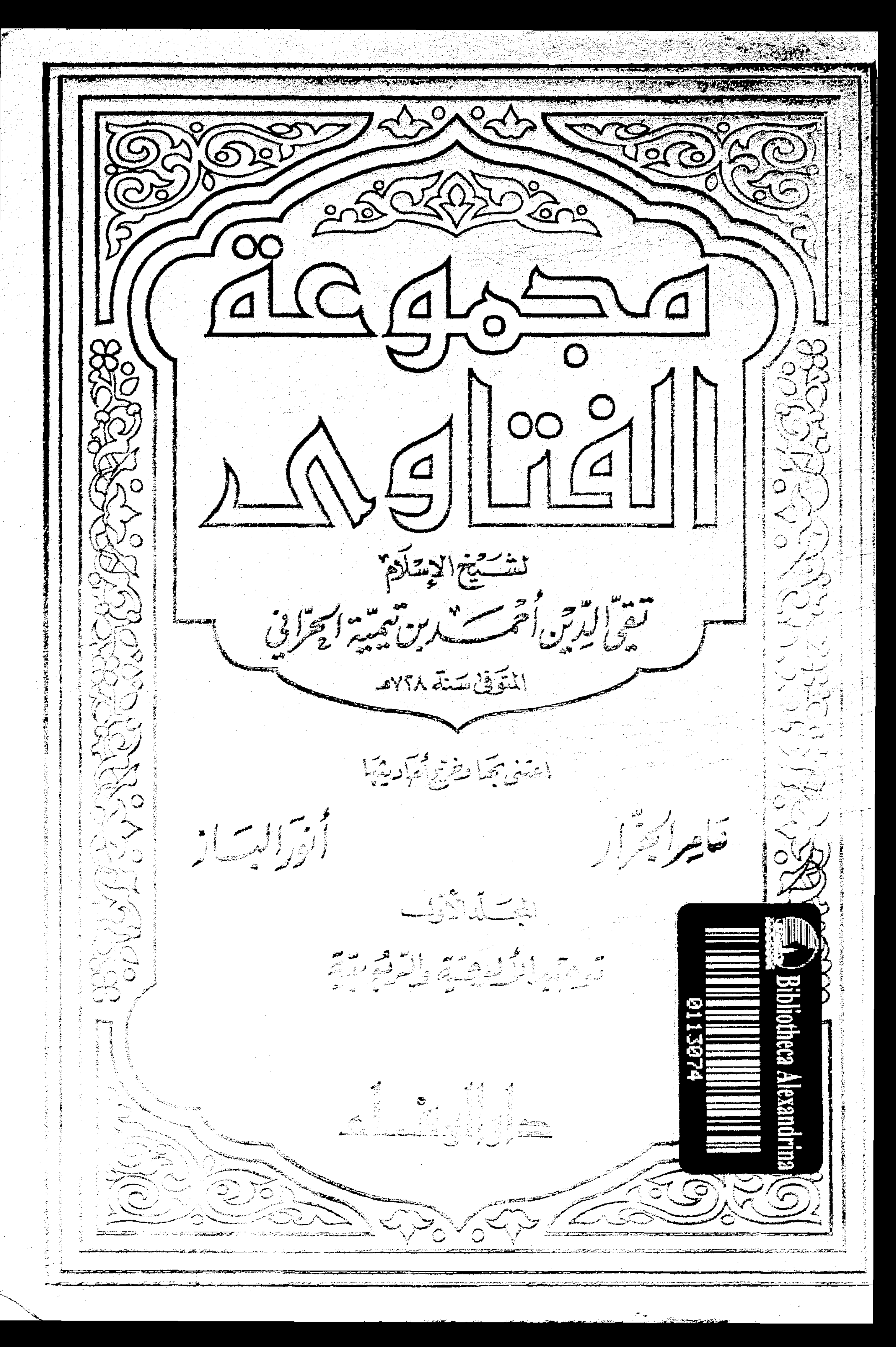

مجموعة الفتاوى
لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني
المتوفى سنة ٧٢٨هـ
اعتنى بها وخرج أحاديثها
عامر الجزار
أنور الباز
المجلد الأول
توحيد الألوهية والربوبية
دار الوفاء
Bibliotheca Alexandrina
0113074

مجموعة الفتاوى

لشيخ الإسلام

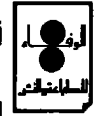
تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧ م

طبعة خاصة

لا توزع داخل المملكة العربية السعودية



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ج.م.ع ـ المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت :٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

مكتبة العبيكان ـ المملكة العربية السعودية

الرياض ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة ص.ب٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ ـــ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

مجموعة الفتاوى

لشيخ الإسلام

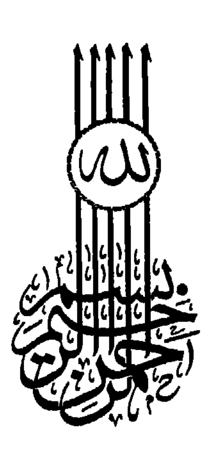
تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني

المتوفى سنة ٧٢٨هـ

اعتنى بها وخرج أحاديثها

عامر الجزار   أنور الباز

المجلد الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فلقد كانت الأمة الإسلامية – إبان عهودها الأولى – فى أوج عظمتها ، قوة وعلما وما ذاك إلا بفضل تمسكها بكتابها الكريم وسنة نبيها العظيم ، وفقه صحابتها الأجلاء . ظلت هكذا قرونا عديدة ، فحمت العقيدة ، ونشرت العلم النافع فيما يحتاجه الناس فى أمر دينهم ودنياهم .

غير أنه – ولأسباب عديدة – أخذت عوامل الضعف تنخر فى جسدها ، حتى أصبحت مطمعا لأعدائها المتربصين ، فأخذت تتعرض لهجمات وهجمات من هنا وهناك ، وتكالب الأعداء عليها من كل صوب وحدب ، فى غزو عسكرى جرىء ، وهذا بدوره مهّد لغزو الأمة فى تراثها الفكرى ، والذى هو أشد فتكا من الغزو العسكرى ، إلا أن الله – الرحيم بها – قد قيض لها فى كل زمان حماة لدينه ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين .

وكان الإمام تقى الدين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن أبى القاسم بن الخضر النميرى الحرانى أبو العباس ، والذى اشتهر بـ « ابن تيمية » – ممن عاصروا فترة ظهور التتار على المسلمين ، وما استتبع ذلك من انتشار أفكار غريبة على

ديننا الإسلامى وعقيدته السمحة ، فجند الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ علمه وقلمه وكل ما أوتى ليدافع عن عقيدة المسلمين وشريعتهم ، وفى سبيل ذلك لاقى الإمام كثيرًا من العنت والمشقة ، ما بين سجن أو نفى ، أو اتهام بالضلال ، إلا أن هذا لم يثنه عن طريقه، ولم يفت فى عضده فى الذب عن عقيدة الإسلام ، حتى تظل بيضاء نقية كما أراد لها صاحب الشريعة ﷺ .

كما كان ــ رحمه الله ــ نموذجا للداعية الحصيف الذى يفقه مقتضيات عصره وعلومه، فقد جمع بين غزارة العلم ، وعمق الفهم ، والإحاطة بعلوم الشريعة والعلوم الفلسفية والكلامية ، والعلوم الرياضية وغيرها ، التى عرفت فى عصره وقبل عصره ، مما جعل أهل العلم يطبقون على الثناء عليه ، والإذعان لإمامته فى العلوم والفنون ، وبأنه فريد عصره ، ووحيد دهره ؛ علما ومعرفة ، وشجاعة وذكاء وكرما ، ونصحا للأمة ، وأمرا بالمعروف ، ونهيا عن المنكر .

وكان من ناتج هذا الجهاد الطويل أن كتب الإمام وأملى آلاف الأوراق ، حتى بلغت تصانيفه ثلاثمائة مجلدة ــ كما ذكر صاحب فوات الوفيات ــ وقيل : وتزيد على أربعة آلاف كراسة ــ كما فى الدرر الكامنة ــ ما بين جواب على سؤال ، أو مؤلَّف لموضوع وجد الناس فى حاجة إليه ؛ كبيان لما يجب على الأمة فهمه وتعلمه من أمر دينها فى العقيدة والعبادات ، أو ذكر أحوال الفرق الضالة والمبتدعة وتحذير الأمة منها .

ولأن الله ــ عز وجل ــ يريد الخير لهذه الأمة ، فقد قيض لها من العلماء الأفاضل من أزاح التراب عن هذا التراث ، وأظهر درره للنور ، فاهتم علماء المسلمين بمؤلفات الإمام، وبدأت تظهر للنور كمؤلفات مستقلة فى موضوعات مختلفة ، فى العقيدة ، والتفسير ، والفقه ، وغيرها .

وقد ظهرت أول مجموعة من فتاوى الإمام على يد الشيخ فرج الله الكردى الأزهرى بمصر عام ١٣٢٦ هـ فى ستة مجلدات ، وتبع ذلك بعد سنوات صدور مجموعة أخرى باسم « الفتاوى المصرية » ، وزامن ذلك وتلاه ظهور أعمال متفرقة فى مواضيع متنوعة ، ظهرت فى شكل مجلد أو أكثر هنا وهناك .

ثم جاء بعد ذلك فضيلة الشيخ محمد رشاد سالم ، فشرع فى القيام على مشروع لإخراج رسائل ابن تيمية كاملة ، فبدأ فى جمع المخطوطات ونسخها وتبويبها ، إلا أنه ــ وفى أثناء عمله فى الجزء الأول من كتاب منهاج السنة ــ علم أن حكومة المملكة السعودية قد جندت الإمكانيات لإخراج مجموع رسائل الإمام ، بناء على رغبة الملك سعود

ــ رحمه الله ــ وذلك بتكليف الشيخ عبد الرحمن بن القاسم وولده محمد بالقيام على هذا المشروع الكبير . وهنا آثر فضيلة الشيخ محمد رشاد سالم الانتظار بمشروعه الذى قد بدأه؛ إذ لعل ما أقدمت عليه حكومة المملكة السعودية يكون فيه الغناء، ويوفى بالمقصود.

وحينئذ قام الشيخ عبد الرحمن يعاونه ولده محمد ــ جزاهما الله خيرا ــ بجمع شتات جزء غير قليل من المطبوعات ، وأضافا إليها جزءا مخطوطا لم يكن قد ظهر إلى النور بعد، ثم أخرجا ما تم جمعه من رسائل ــ المطبوع منها والمخطوط ــ تحت اسم « مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية » فى خمسة وثلاثين مجلدا ، وهى وإن لم تشمل كل ما للإمام من رسائل ــ كما أشارا إلى ذلك فى مقدمة عملهما ــ إلا أنه عمل غير مسبوق بما احتواه المجموع من رسائل ، فجزاهما الله خيرا .

ونظراً لأنه ــ حتى الآن ــ لم يتم إخراج أعمال ابن تيمية كاملة ، فقد عقد الناشر العزم على القيام بهذا المشروع الكبير ، أملاً منه فى تحقيق هذا الحلم الذى طالما انتظره القراء الكرام .

ولقد أُسند إلينا القيامُ على هذا العمل الضخم ، على تردد منا ، لما نعلم من ضعفنا وقلة حيلتنا أمام هذا الإمام الجليل ، غير أننا ارتأينا أن نبدأ وحسبنا أن نبذل الوسع والطاقة، آملين أن يوفقنا الله فى خدمة هذا التراث وإخراجه على أكمل وجه وأنقاه ، فهكذا أردنا ، والله من وراء القصد .

وقد تطلَّب ذلك منا أن نقوم بحصر جميع مخطوطات ابن تيمية داخل مصر وخارجها، المطبوع منها وغير المطبوع ، ومن خلال الموسوعات المتخصصة فى فهرسة المخطوطات ، للوقوف على أماكن وجودها ، وهو ما تم فعلا .

وقد بلغ ما قمنا بحصره من أعمال ابن تيمية ــ فى مختلف الفنون ــ ثلاثمائة وأربعة عشر مخطوطا ، فى اثنتين وخمسين موضعا ، داخل مصر وخارجها ، فى المكتبات الوطنية أو مكتبات الجامعات أو مراكز البحوث أو المكتبات الخاصة وغير ذلك ، وكثير من هذه المخطوطات له أكثر من نسخة مما يساعد على ضبط وتحقيق النصوص ــ إن شاء الله ــ وكان فى مقدمة هذه الأماكن من حيث وفرة النسخ وكثرتها ما يلى :

ــ المكتبة الظاهرية بدمشق ؛ إذ احتوت على ١٢٣ مخطوطا .

ــ ثم المكتبة السليمانية بتركيا ؛ إذ احتوت على ٦٧ مخطوطا .

ــ ثم مكتبة الدولة ببرلين ؛ إذ احتوت على ٥٨ مخطوطا .

ـ ثم دار الكتب المصرية ؛ إذ احتوت على ٤٣ مخطوطا .

ـ ثم مكتبة تشستربتي بأيرلندا ؛ إذ احتوت على ٣٥ مخطوطا .

ـ ثم مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض ؛ إذ احتوت على ٣٣ مخطوطا .

وهذه المخطوطات التي قمنا بحصرها ـ ولا ندعى أن هذا كل ما للإمام من أعمال ؛ إذ ربما تظهر لنا الأيام غيرها مما لم يكن في خَلَد إنسان ـ قد احتوت على كل ما ألفه الإمام أو أملاه أو خاطب به أناسا في بلدان شتى ، نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

ففى القرآن وعلومه :

ـ مقدمة فى أصول التفسير .

ـ قاعدة فى تحزيب القرآن .

ـ التبيان في نزول القرآن .

ـ جواب أهل العلم فى تفضيل آيات القرآن .

ـ تفسير سورة النور .

ـ تفسير المعوذتين .

ـ تفسير سورة الإخلاص .

ـ تفسير آيات أشكلت .

ـ قاعدة فى البسملة . . . وغير ذلك .

وفى الحديث وعلومه :

ـ أسئلة فى مصطلح الحديث .

ـ شرح حديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

ـ شرح حديث النزول .

ـ شرح حديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » .

ـ شرح حديث « كان الله ولا شىء قبله » .

ـ شرح حديث « إنى حرمت الظلم على نفسى » .

ـ مجموع أحاديث والكلام عليها . . . وغير ذلك .

وفى العقيدة والرد على المتكلمين وغيرهم :

ـ الإيمان الكبير .

ـ معجزات الأنبياء .

ـ آيات الصفات والأحاديث حولها .

ـ رسالة فى كلام الله .

ـ الجواب الباهر فى زوار المقابر .

ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

ـ مسألة العلو .

ـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة .

ـ منهاج السنة النبوية .

ـ الواسطية فى العقيدة . . . وغير ذلك .

وفى الفقه وأصوله :

ـ أصول الفقه .

ـ رسالة فى الاجتهاد .

ـ رسالة فى أقوال الصحابة وحجيتها .

ـ رسالة فى الصوم .

ـ رسالة فى قنوت النساء .

ـ تحقيق الفرقان بين التطبيق والأيمان .

ـ رسائل فى الغضب ، واللقطة ، والمزارعة ، والوقف وغيرها .

ـ شرح العمدة فى الفقه . . . وغير ذلك .

وفى التصوف والسلوك والاجتماع :

ـ الصوفية والفقراء .

ـ الحسنة والسيئة .

ـ مسألة فى بعض أعمال الصوفية .

ـ قاعدة فى أمراض القلوب .

ـ رسالة فى تحقيق التوكل .

ـ السياسة الشرعية .

ـ الرسالة التدمرية .

ـ رسالة فى السماع والرقص والغناء .

ـ رسالة فى تحقيق التوكل . . . وغير ذلك .

وفى المنطق والفلسفة :

ـ نقض المنطق .

ـ الرد على المنطقيين .

ــ الصفدية .   ــ الرسالة العرشية .

ــ الرد على الفلاسفة . . . وغير ذلك .

ثم استتبع هذا الحصر القيام بجمع المخطوطات التى لم تنشر من قبل والتى تم نشرها، وكذلك جمع ما كان مطبوعا من تراث الإمام حتى الشروع فى هذا المشروع الذى نحن بصدده ، ثم كان التفكير بعد ذلك بأى الأعمال نبدأ ؟

غير أنه استقر الرأى بأن نبدأ بجمع رسائل الإمام فى الفتاوى؛ باعتبار أن ذلك أشهر عمل يذكر عندما نتناول الكلام على تراث الإمام ، وقد يسر الله لنا ــ كما أشرنا فيما تقدم ــ الحصول على عدد كبير من المخطوطات بدار الكتب المصرية ، كانت عونا لنا فى ضبط النصوص ومراجعتها ، والتنبيه على بعض ما قد يستشكل على القراء ، بالإضافة إلى استدراك ما اعتذر عليه من سبقنا من تخريج أحاديث الكتاب وشرح غامضها ، وكذا التراجم ، مستفيدين فى ترتيب بعض الرسائل والمسائل بجهود علماء المذهب الحنبلى ، وفى بعضها الآخر بالشيخين الجليلين عبد الرحمن وولده ــ جزى الله الجميع خيرا ــ حرصا منا فى إبقاء الكتاب على شكله المتعارف عليه لدى أهل العلم ، وقد أسميناه «مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية » .

وننبه القارئ الكريم إلى أنه أثناء اطلاعنا على رسائل الإمام بدار الكتب المصرية وجدنا عددا من الرسائل لم تذكر ضمن الفتاوى ، كنا نزمع إخراجها ضمن الفتاوى ، إلا أننا رأينا أن ذلك ربما شكل عبئا على القارئ ، فآثرنا ألا نخرجه عن إلفه ، فأبقينا الكتاب كما هو دونما تعديل ، إلا أننا ــ وبعون الله تعالى ــ سوف نصدر تباعا ما لم يصدر فى الفتاوى أو غيرها من الرسائل ضمن مشروعنا الكبير لإخراج الأعمال الكاملة لهذا الإمام الجليل .

وقد كان منهجنا فى العمل على النحو التالى :

١ ــ ضبط النصوص وتوثيقها على ما كان من مطبوعات سبقت طبع الفتاوى أو تلت ذلك، وكذلك ما حصلنا عليه من مخطوطات دار الكتب المصرية بلغت حوالى ثلاثين مخطوطا فى مسائل عدة .

٢ ــ تخريج النصوص القرآنية ، وضبط ما وقع من سهو من الناسخ أو المصححين .

٣ ــ تخريج الأحاديث ، واتبع فى ذلك ما يلى :

أ ــ ما نص عليه الإمام بأنه فى الصحيحين أو فى أحدهما : اكتفينا بتخريج ما نص عليه فيهما أو فى أحدهما وربما ذكرنا غيرهما من السنن .

ب ـ ما نص عليه الإمام بأنه فى السنن : اكتفينا بما نص عليه إذا كان من بينها من يهتم بالحكم على درجة الحديث ، وإلا اجتهدنا بتخريج الحديث من غير ما أشار إليه الإمام ممن اهتم من الأئمة بذكر درجة الحديث ، كالإمام الذهبى والسيوطى وغيرهما من القدامى ، أو الشيخ شاكر والألبانى وغيرهما من المحدثين.

جـ ـ ما لم ينص عليه الإمام : خرجناه من الصحيحين إن كان فيهما أو فى أحدهما بالإضافة إلى بعض السنن ، وإن لم يكن فى الصحيحين خرجناه من السنن وغيرها ، متبعين فى ذلك ما أشرنا إليه سابقا ببيان ما قاله أئمة الحديث فى درجة الحديث مما لم يكن فى الصحيحين .

٤ ـ شرح غريب الكلمات ـ سواء أكان ذلك فى الأحاديث أو غيرها .

٥ ـ توضيح ما قد يستشكل على القارئ من كلمات ، مع تصحيح الألفاظ من الناحية الإملائية واللغوية ، بعضها أشرنا إليه ، واكتفينا فى البعض الآخر بالتصحيح فقط .

٦ ـ ترجمة الأعلام التى نرى احتياج القارئ إليها .

٧ ـ عمل فهارس موضوعية لكل جزء .

٨ ـ عمل فهارس فنية عامة ملحقة بآخر المصنَّف ، بغية مساعدة الباحث على الاستفادة من هذا المؤلف العظيم .

هذا ولا ندعى أننا بلغنا الكمال فى هذا العمل الضخم ، ولكن حسبنا أننا بذلنا أقصى جهدنا ، مما قد عزمنا عليه من خدمة هذا الكتاب الجليل القدر ، آملين النصيحة من إخواننا العلماء ، سائلين الله أن ينفع به ، وأن يجزينا وقارئه وكل من أعان على إخراجه خير الجزاء ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، والحمد لله رب العالمين .

عامر الجزار **أنور الباز**

اللوحة الأولى من الرسالة العرشية

اللوحة الأولى من رسالة فضائل سورة الإخلاص

لوحة تضمنت مسألتي الحاج عن غيره، والاقتراض من الوديعة بلا أذن



لوحة ضمن الفتاوى بها مسألة الاستغاثة بالنبي ﷺ

٣٧٤

٢١٢٩ / ١٩٢٨ — بسم الله الرحمن الرحيم — ٢٠٥٤٥

مسألة

سئل الشيخ الإمام العالم العلامة، إمام الوقت فريد الدهر جوهر العلم، نخبة أبناء الزمان، مفتي الفرق، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام شهاب الدين عبد الحليم بن الشيخ الإمام العلامة مؤيد السنة مجد الدين عبد السلام ابن تيمية الحراني رضي الله عنه ونفع به آمين، في جماعة يجتمعون في مجلس ويلبسون لشخص منهم لباس الفتوة، ويديرون بينهم في مجلسهم شربة فيها ملح وماء ويشربونها، ويزعمون أن هذا من الدين، ويذكرون في مجلسهم ألفاظا لا تليق بالعقل والدين، فمنها أنهم يقولون إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألبس لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لباس الفتوة، ثم أمره أن يلبسه من شاء، ويقولون إن هذا اللباس أنزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صندوق، ويستدلون عليه بقوله تعالى: يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم الآية، فهل هذا كما زعموا أم كذب مختلق، وهل هو من الدين أم لا، وإذا لم يكن من الدين فما على من يفعل ذلك أو يعين عليه، ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين، ويزعم أن ذلك من الدين، فهل ذلك صحيح أم لا، وهل [illegible] التي يسمون بها بعضهم بعضا باسم الفتوة [illegible] بهذا أصل أم لا، ويسمون المجلس الذي يجتمعون فيه دسكرة، ويقوم المقدم [illegible] إلى الشخص الذي يلبسونه فينزع اللباس الذي عليه بيده ويلبسه اللباس الذي يزعمون أنه لباس الفتوة [illegible]

اللوحة الأولى من مسألة فى بعض أعمال الصوفية

كتـــــاب
توحيد الألوهية

قال شيخ الإسلام أحْمَدُ بن تَيْمِية ـ قَدسَ اللَّه روحه ـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، الذي يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة، سبحانه وتعالى عما يشركون، وهو اللّه لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون، الذي دل على وحدانيته في إلهيته أجناس الآيات، وأبان علمه لخليقته ما فيها من إحكام المخلوقات، وأظهر قدرته على بريته ما أبدعه من أصناف المحدثات، وأرشد إلى فعله بسنته تنوّع الأحوال المختلفات، وأهدى برحمته لعباده نعمه التي لا يحصيها إلا رب السموات، وأعلم بحكمته البالغة دلائل حمده وثنائه الذي يستحقه من جميع الحالات ، لا يحصي العباد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه لما له من الأسماء والصفات، وهو المنعوت بنعوت الكمال وصفات الجلال التي لا يماثله فيها شيء من الموجودات، وهو القدوس السلام المتنزه أن يماثله شيء في نعوت الكمال، أو يلحقه شيء من الآفات ، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرا، الذي خلق السموات والأرض ولم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا.

أرسل الرسل مُبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل وكان اللّه عزيزًا حكيمًا ، مبشرين لمن أطاعهم بغاية المراد من كل ما تحبه النفوس وتراه نعيما، ومنذرين لمن عصاهم باللعن والإبعاد وأن يعذبوا عذابًا أليما، وأمرهم بدعاء الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره المشركون. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]. وجعل لكل منهم شرعةً ومنهاجًا ، ليستقيموا إليه ولا يبغوا عنه اعوجاجًا.

وختمهم بمحمد ﷺ أفضل الأولين والآخرين ، وصفوة رب العالمين ، الشاهد البشير

النذير الهادي السراج المنير، الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذابٍ شديد. بعثه بأفضل المناهج والشِّرع، وأحبط به أصناف الكفر والبدع، وأنزل عليه أفضلَ الكتب والأنباء، وجعله مهيمنًا على ما بين يديه من كتب السماء.

وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله. هو شهيد عليهم وهم شهداء على الناس في الدنيا والآخرة، بما أسبغه عليهم من النعم الباطنة والظاهرة، وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة، إذ لم يبق بعده نبي يبين ما بدل من الرسالة، وأكمل لهم دينهم، وأتم عليهم نعمه، ورضى لهم الإسلام دينا، وأظهره على الدين كله إظهارا بالنصرة والتمكين، وإظهاراً بالحجة والتبيين، وجعل فيهم علماءهم ورثة الأنبياء، يقومون مقامهم في تبليغ ما أنزل من الكتاب، وطائفة منصورة لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى حين الحساب.

وحفظ لهم الذِّكرَ الذي أنزله من الكتاب المكنون كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] . فلا يقع في كتابهم من التحريف والتبديل كما وقع من أصحاب التوراة والإنجيل.

وخصهم بالرواية والإسناد الذي يميز به بين الصدق والكذب الجهابذة النقاد، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين لتدوم بهم النعمة على الأمة، ويظهر بهم النور من الظلمة، ويحيي بهم دين الله الذي بعث به رسوله، وبين الله بهم للناس سبيله، فأفضل الخلق أتبعهم لهذا النبي الكريم المنعوت في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب العالمين، وإلَه المرسلين، وملك يوم الدين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الناس أجمعين، أرسله والناس من الكفر والجهل والضلال في أقبح خيبة وأسوأ حال . فلم يزل ﷺ يجتهد في تبليغ الدين وهدي العالمين وجهاد الكفار والمنافقين، حتى طلعت شمس الإيمان، وأدبر ليل البهتان، وعز جند الرحمن، وذل حزب الشيطان، وظهر نور الفرقان، واشتهرت تلاوة القرآن، وأعلن بدعوة الأذان، واستنار بنور الله أهل البوادي والبلدان، وقامت حجة الله على الإنس والجان،

لما قام المستجيب من معد بن عدنان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، صلاة يرضى بها الملك الديان، وسلم تسليماً مقروناً بالرضوان .

أما بعد :

فإنه لا سعادة للعباد،ولا نجاة في المعاد إلا باتباع رسوله: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [النساء: ١٣، ١٤] فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور.

فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وإنما تعبَّدهم بطاعته وطاعة رسوله، فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله ، وما سوى ذلك فضلا عن سبيله . ولهذا قال ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » أخرجاه في الصحيحين[1] ، وقال ﷺ في حديث العرباض ابن سارية الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي: « إنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم ومُحْدَثَاتِ الأمور، فإن كل بدْعَة ضَلالة »[2]. وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هديُ محمد ، وشرُّ الأمور محدثاتُها، وكل بدعة ضلالة »[3].

وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا . فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٤، ٦٥] ، وقوله تعالى:

---

(١) البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة معلقاً (الفتح ١٣/٣١٧) وفي الصلح (٢٦٩٧) بلفظ آخر، ومسلم في الأقضية (١٨/١٧١٨) ، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في المقدمة (٤٢) ، والدارمي في المقدمة ١/ ٤٤، وأحمد ٤/ ١٢٦ .

(٣) مسلم في الجمعة (٨٦٧/ ٤٣) ، وابن ماجه في المقدمة (٤٥)، وأحمد ٣/ ٣٧١ ،كلهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا (١) اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول، وجعل متابعة الرسول سبباً لمحبة الله عبده، وقد قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فما أوحاه الله إليه يهدى الله به من يشاء من عباده، كما أنه ﷺ بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ: ٥٠] ، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فبمحمد ﷺ تبين الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، والنجاة من الوبال، والغى من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقون من الفجار، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من سبيل المغضوب عليهم والضالين.

فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت فى الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب.

فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته فى معرفة ما جاء به وطاعته؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة فى دار النعيم. والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفى من ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدّامه، فكذلك نور العقل لا يهتدى إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة، فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام.

والله ـ سبحانه ـ بعث محمداً بالكتاب والسنة، وبهما أتم على أمته المنة، قال تعالى: ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]،

(١) فى المطبوعة: « وأطيعوا »، والصواب ما أثبتناه.

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى عن الخليل: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقد قال غير واحد من العلماء: منهم يحيى بن أبى كثير وقتادة والشافعى وغيرهم: ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾: هى السنة ؛ لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من الكتاب والحكمة، والكتاب : القرآن، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة .

وقد جاء عن النبي ﷺ من عدة أوجه من حديث أبي رافع وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال: « لا أُلْفِيَنَّ أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيتُ عنه فيقول : بيننا وبينكم القرآن، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»[1]. وفي رواية: «ألا وإنه مثل الكتاب».

ولما كان القرآن متميزاً بنفسه- لما خصه اللّه به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان منقولا بالتواتر- لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتغيير والتأويل ، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد.

فأقام اللّه- تعالى- الجهابذة النقاد، أهل الهدى والسداد، فدحروا حزب الشيطان، وفرقوا بين الحق والبهتان، وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان.

وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين ـ مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث- بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث، وكان من ذلك الظاهر الجلي، الذي لا يسوغ عنه العدول؛ ومنه الخفي، الذي يسوغ فيه

---

(١) أبو داود في السنة (٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣) وقال: « هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه في المقدمة(١٣).

الاجتهاد للعلماء العدول.

وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والإسناد، فسافروا في ذلك إلى البلاد، وهجروا فيه لذيذ الرقاد، وفارقوا الأموال والأولاد، وأنفقوا فيه الطارف والتِّلاد[1]، وصبروا فيه على النوائب، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب، ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة، والقصص المأثورة، ما هو عند أهله معلوم، ولمن طلب معرفته معروف مرسوم، بتوسُّد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب ،وترك معاشرة الأهل والأصحاب، والتصبر على مرارة الاغتراب، ومقاساة الأهوال الصعاب، أمر حببه اللّه إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين اللّه. كما جعل البيت مثابة للناس وأمنًا، يقصدونه من كل فج عميق، ويتحملون فيه أمورًا مؤلمة تحصل في الطريق، وكما حبب إلى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من اللّه يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين، ويظهر به الهدى ودين الحق، الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون.

فمن كان مخلصًا في أعمال الدين يعملها للّه، كان من أولياء اللّه المتقين، أهل النعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وقد فسر النبي ﷺ البشرى في الدنيا بنوعين:

أحدهما: ثناء المثنين عليه.

والثاني: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح؛ أو ترى له.

فقيل : يا رسول الله، الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه؟ قال: « تلك عاجل بشرى المؤمن »[2]. وقال البراء بن عازب: سئل النبى ﷺ عن قوله : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فقال : « هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له »[3] .

---

(١) الطارف: المال المستحدث، والتِّلاد خلافه. انظر: المصباح المنير ، مادة « طرف » و« تلد » .

(٢) مسلم فى البر والصلة (٢٦٤٢/١٦٦)، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٢٥)، وأحمد ٥/١٥٦، ١٥٧، عن أبى ذر رضى الله عنه .

(٣) الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وقال : « هذا حديث حسن » ، وابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٨٩٨) ، والحاكم فى المستدرك فى التفسير ٢/ ٣٤٠ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى. كلهم من حديث عبادة بن الصامت، ولم أقف على رواية البراء بن عازب رضى الله عنه .

والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول اللهﷺ الربان، الحافظون له من الزيادة والنقصان، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين، بل لهم مزية على غيرهم من أهل الإيمان والأعمال الصالحات، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[المجادلة: ١١] قال ابن عباس: يرفع الله [الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات][١].

وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمدﷺ ، وجعله سُلَّمًا إلى الدراية. فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون به المنقولات، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة، أهل الإسلام والسنة، يفرقون به بين الصحيح والسقيم، والمعوج والقويم.

وغيرهم من أهل البدع والكفار، إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد، وعليها من دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل.

وأما هذه الأمة المرحومة ، وأصحاب هذه الأمة المعصومة، فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين، فظهر لهم الصدق من المين[٢]؛ كما يظهر الصبح لذي عينين. عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقًّا، وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقًا، ولكل من الطائفتين من الاستدلال، على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حَفِيّ[٣]، والله تعالى يلهمهم الصواب في هذه القضية، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية، وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية؛ فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، لما صدقوا في موالاة الله ورسوله؛ ومعاداة من عدل عنه، قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) بياض بالأصل، والزيادة من الحاكم في التفسير٢/ ٤٨١ وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) المين: الكذب. انظر: لسان العرب ، مادة «مين».

(٣) حَفِيّ : عالم. انظر: لسان العرب ، مادة «حفا».

الإيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة: ٢٢].

وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظم الناس قيامًا بهذه الأصول، لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم، ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم، بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه، ويتكلم في أحب الناس إليه، عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]. ولهم من التعديل والتجريح، والتضعيف والتصحيح، من السعي المشكور، والعمل المبرور، ما كان من أسباب حفظ الدين، وصيانته عن إحداث المفترين، وهم في ذلك على درجات: منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية، ومنهم أهل الفقه فيه، والمعرفة بمعانيه.

وقد أمر النبي ﷺ الأمة أن يبلِّغ عنه من شهد لمن غاب، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب، فقال في الحديث الصحيح: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»(١). وقال أيضًا في خطبته في حجة الوداع: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع»(٢).

وقال أيضًا: «نَضَّر الله امرأ سمع منا حديثًا فبلغه إلى من لم يسمعه، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغَلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» (٣).

وفى هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ، ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦١) ، والترمذى فى العلم (٢٦٦٩) ، والدارمى فى المقدمة ١/ ١٣٦ ، وأحمد ٢/ ١٥٩، ٢٠٢، كلهم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه .

(٢) البخارى فى الحج (١٧٤١) ، وابن ماجه فى المقدمة (٢٣٣) ، كلاهما عن أبى بكرة رضى الله عنه .

(٣) الترمذى فى العلم (٢٦٥٨)، وابن ماجه فى المقدمة (٢٣٠) ، والدارمى فى المقدمة ١/ ٧٥ ، وأحمد ٥/ ١٨٣ .

وقوله : « نضَّر » من النضارة وهى حسن الوجه ، وإنما أراد : حَسَّن خُلقه وقَدْرَه. انظر : النهاية ٥/ ٧١ .

أفقه من المبلغ؛ لما أعطى المبلغون من النضرة؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة [1]: لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة؛ لدعـوة النبي ﷺ ، يقال: نضُرَ، ونَضَرَ ، والفتح أفصح.

ولـم يزل أهل العـلـم في القديم والحديث يعظـمون نقلة الحديث، حتى قـال الشافعي رضي الله عنـه: إذا رأيتُ رجلا من أهل الحديث فـكأني رأيت رجلاً من أصحـاب النبي ﷺ. وإنما قال الشافعي هذا ؛ لأنه في مقام الصحـابة من تبليغ حديث النبي ﷺ . وقال الشافعي أيضًا: أهل الحديث حفظوا، فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا. اهـ.

---

(١) هو أبو محمد سفيان بـن عيينة بن أبي عمران الكوفي، ولد سنة ١٠٧هـ، قـال عنه ابن وهب: ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله من ابن عيينة، وتوفى سنة ١٩٨هـ. [تهذيب التهذيب ٤/١١٧].

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ :

قاعدة فى الجماعة والفرقة، وسبب ذلك ونتيجته

قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

أخبر ـ سبحانه ـ أنه شرع لنا ما وصى به نوحا، والذى أوحاه إلى محمد ، وما وصى به الثلاثة المذكورين، وهؤلاء هم أولو العزم المأخوذ عليهم الميثاق فى قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ ﴾، فجاء فى حق محمد باسم ﴿ الَّذِي ﴾ وبلفظ الإيحاء ، وفى سائر الرسل بلفظ (الوصية).

ثم قال: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾. وهذا تفسير الوصية، و﴿ أَنْ ﴾: المفسرة التى تأتى بعد فعل من معنى القول لا من لفظه، كما فى قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ ﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]. والمعنى: قلنا لهم: اتقوا الله. فكذلك قوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ فى معنى: قال لكم من الدين ما وصى به رسلاً، قلنا: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، فالمشروع لنا هو الموصى به، والموحى، وهو: ﴿ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾. فأقيموا الدين مفسر للمشروع لنا، الموصى به الرسل ، والموحى إلى محمد، فقد يقال: الضمير فى ﴿ أَقِيمُوا ﴾ عائد إلينا. ويقال : هو عائد إلى المرسل. ويقال: هو عائد إلى الجميع. وهذا أحسن. ونظيره : أمرتك بما أمرت به زيداً ، أن أطع الله ، ووصيتكم بما وصيت بنى فلان ، أن افعلوا. فعلى الأول : يكون بدلا من ﴿مَا﴾ أى شرع لكم ﴿ أَنْ أَقِيمُوا ﴾ وعلى الثانى: شرع ﴿مَا﴾ خاطبهم. ﴿ أَقِيمُوا ﴾، فهو بدل أيضاً، وذكر ما قيل للأولين. وعلى الثالث: شرع الموصى به ﴿ أَقِيمُوا ﴾ .

فلما خاطب بهذه الجماعة بعد الإخبار بأنها مقولة لنا، ومقولة لهم، عُلم أن الضمير عائد إلى الطائفتين جميعاً. وهذا أصح إن شاء الله. والمعنى على التقديرين الأولين يرجع إلى هذا، فإن الذى شرع لنا، هو الذى وصى به الرسل. وهو الأمر بإقامة الدين، والنهى عن التفرق فيه؛ ولكن التردد فى أن الضمير تناولهم لفظه، وقد عُلم أنه قيل لنا مثله ، أو

بالعكس، أو تناولنا جميعاً .

وإذا كان الله قد أمر الأولين والآخرين، بأن يقيموا الدين، ولا يتفرقوا فيه، وقد أخبر أنه شرع لنا ما وصى به نوحاً ، والذى أوحاه إلى محمد ، فيحتمل شيئين :

أحدهما : أن يكون ما أوحاه إلى محمد يدخل فيه شريعته التى تختص بنا؛ فإن جميع ما بعث به محمد ﷺ قد أوحاه إليه، من الأصول والفروع ، بخلاف نوح وغيره من الرسل، فإنما شرع لنا من الدين ما وصوا به ؛ من إقامة الدين ، وترك التفرق فيه. والدين الذى اتفقوا عليه: هو الأصول. فتضمن الكلام أشياء :

أحدها: أنه شرع لنا الدين المشترك، وهو الإسلام والإيمان العام، والدين المختص بنا؛ وهو الإسلام ، والإيمان الخاص .

الثانى : أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك، والمختص، ونهانا عن التفرق فيه .

الثالث : أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك، ونهاهم عن التفرق فيه .

الرابع : أنه لما فصل بقوله : ﴿ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾ بين قوله: ﴿ **مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا** ﴾ وقوله : ﴿ **وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ** ﴾ أفاد ذلك .

ثم قال بعد ذلك: ﴿ **وَمَا تَفَرَّقُوا**(1) **إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: ١٤]؛ فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجىء العلم، الذى بين لهم ما يتقون؛ فإن الله ما كان ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغياً، والبغى مجاوزة الحد، كما قال ابن عمر. . .(2) الكبر والحسد؛ وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم، ولا قصد به البغى، كتنازع العلماء السائغ، والبغى إما تضييع للحق، وإما تَعَدٍّ للحد؛ فهو إما ترك واجب، وإما فعل محرم؛ فعلم أن موجب التفرق هو ذلك.

وهذا كما قال عن أهل الكتاب: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [المائدة: ١٤]، فأخبر أن نسيانهم حظا مما ذُكروا به ـ وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به ـ كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهكذا هو الواقع فى أهل ملتنا، مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة فى أصول دينها،وكثير من فروعه، من أهل الأصول والفروع ، ومثلما نجده بين العلماء وبين العبَّاد ؛ ممن يغلب عليه الموسوية ، أو العيسوية ، حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة : ليست الأخرى على شىء ، كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال

(1) فى المطبوعة: « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب » ، والصواب ما أثبتناه .

(2) بياض بالأصل .

الظاهرة، والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة، كل منهما ينفى طريقة الآخر، ويدعى أنه ليس من أهل الدين، أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين ، فتقع بينهما العداوة والبغضاء.

وذلك: أن الله أمر بطهارة القلب، وأمر بطهارة البدن، وكلا الطهارتين من الدين الذى أمر الله به وأوجبه، قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم ﴾ [المائدة:٦]، وقال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فنجد كثيرًا من المتفقهة، والمتعبدة، إنما همته طهارة البدن فقط، ويزيد فيها على المشروع؛ اهتمامًا، وعملا. ويترك من طهارة القلب ما أمر به؛ إيجابًا، أو استحبابًا، ولا يفهم من الطهارة إلا ذلك . ونجد كثيرًا من المتصوفة ، والمتفقرة ، إنما همته طهارة القلب فقط؛ حتى يزيد فيها على المشروع ؛ اهتمامًا وعملا. ويترك من طهارة البدن ما أمر به ؛ إيجابًا، أو استحبابًا .

فالأولون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة فى كثرة صب الماء، وتنجيس ما ليس بنجس، واجتناب ما لا يشرع اجتنابه، مع اشتمال قلوبهم على أنواع من الحسد والكِبْر، والغِلِّ لإخوانهم، وفى ذلك مشابهة بَيِّنَةٌ لليهود .

والآخرون يخرجون إلى الغفلة المذمومة، فيبالغون فى سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته، من الشر ـ الذى يجب اتقاؤه ـ من سلامة الباطن، ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه، وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ، ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات، ويقيمون الطهارة الواجبة مضاهاة للنصارى .

وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به، والبغى الذى هو مجاوزة الحد؛ إما تفريطًا وتضييعًا للحق، وإما عدوانًا وفعلا للظلم. والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض ، وتارة يكون فى حقوق الله ، وهما متلازمان ولهذا قال : ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة:٢١٣] ، فإن كل طائفة بَغَتْ على الأخرى ، فلم تعرف حقها الذى بأيديها ، ولم تكُفَّ عن العدوان عليها .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الآية [الجاثية: ١٦]، وقال تعالى فى موسى بن عمران مثل ذلك، وقال: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣٢]؛ لأن المشركين كل منهم يعبد إلهًا يَهْواه. كما قال فى الآية الأولى: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣].

فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين ، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنا، وظاهرا.

وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم.

وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة، فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعةٌ لله ورحمته بفعل لم يأمر الله به، من اعتقاد، أو قول، أو عمل. فلو كان القول، أوالعمل، الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به ، لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سببًا لرحمته، وقد احتج بذلك أبو بكر عبد العزيز(١) في أول «التنبيه» نبه على هذه النكتة.

(١) هو أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد، المعروف بغلام الخلال، من أهم مصنفاته: «الشافي» و«المقنع»، توفى سنة ٣٦٣هـ. [شذرات الذهب ٣/ ٤٥، ٤٦].

وقـــال:

فَصْــل

قال ﷺ في الحـديث المشهـور في السنن مـن رواية فقيـهى الصحـابة، عبد الـلّه بن مسـعود، وزيد بـن ثابـت: «ثلاث لا يُغَلُّ علـيهن قـلبُ مسـلم: إخـلاص العمـلْ للّه، ومناصحة ولاة الأمر، ولـزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهـم تحيط من ورائهم»(١). وفي حديث أبي هـريرة المحفوظ: «إنَّ اللَّهَ يَرْضَى لكم ثلاثـا: أن تعبدوه ولا تشركوا بـه شيئا، وأن تَعْتَصموا بحبل اللّه جميعًا ولا تفرقوا، وأن تَنَاصَحوا من ولاَّه اللّه أمركم» (٢).

فقد جـمع في هذه الأحاديث بـين الخصال الثلاث؛ إخـلاص العمل للّه، ومنـاصحة أولي الأمر، ولزوم جماعـة المسلمين. وهذه الثلاث تجمع أصول الـدين وقواعده، وتجمع الحقوق التي للّه ولعباده، وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة.

وبيان ذلك أن الحقوق قسمان: حق للّه، وحق لـعباده. فحق اللّه أن نعبده ولا نشرك به شيئًا، كما جاء لـفظه في أحد الحديثين؛ وهذا معنى إخلاص العـمل للّه، كما جاء في الحديث الآخر. وحـقوق العباد قسمان: خـاص وعام ؛ أما الخاص فمثل: بـرّ كل إنسان والديه، وحق زوجته، وجـاره، فهذه من فروع الدين؛ لأن المكلف قد يخـلو عن وجوبها عليه؛ ولأن مصلحتها خاصة فردية.

وأما الحقوق العامة فـالناس نوعان: رعاة ورعية؛ فحقوق الرعاة منـاصحتهم، وحقوق الرعية لزوم جـماعتهم ؛ فإن مصلـحتهم لا تتم إلا باجتـماعهم، وهـم لا يجتمـعون على ضلالة، بل مصـلحة دينهم ودنياهـم في اجتماعهم واعتـصامهم بحبل اللّه جـميعًا، فهذه الخصال تجمع أصول الدين.

وقد جاءت مفسرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تَميم الدَّارِيّ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «الدين النـصيحة، الدين النـصيحة، الدين الـنصيحة» . قالوا: لمـن يا رسول اللّه؟ قال: «للّه، ولكتـابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمـين، وعامتهم»(٣). فالنصيحـة للّه ولكتابه ولرسولـه تدخل في حـق اللّه وعبادتـه وحده لا شريك له، والـنصيحـة لأئمة المسـلمين

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢.

(٢) مالك في الكلام ٢/ ٩٩٠ (٢٠) ، وأحمد ٢/٣٢٧، ٣٦٠ .

(٣) مسلم في الإيمان (٥٥/ ٩٥) .

وعامتهم هي مناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم، فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة، وأما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه، فهذه يمكن بعضها ويتَعذَّر استيعابها على سبيل التعيين.

وقال شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليما.

وبعد: فهذه قاعدة جليلة في توحيد الله، وإخلاص الوجه والعمل له، عبادة واستعانة، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم (١) مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ الآية [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]،

---

(١) في المطبوعة: « قل أرأيتم »، والصواب ما أثبتناه.

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا . الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية [الفرقان: ٥٨، ٥٩] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الآية [البينة: ٥] . ونظائر هذا فى القرآن كثير، وكذلك فى الأحاديث، وكذلك فى إجماع الأمة، ولا سيما أهل العلم والإيمان منهم، فإن هذا عندهم قطب رحى الدين كما هو الواقع .

ونبين هذا بوجوه نقدم قبلها مقدمة.

وذلك أن العبد ، بل كل حي، بل وكل مخلوق سوى الله، هو فقير محتاج إلى جَلْب ما ينفعه، ودَفْع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب؛ فلابد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه. وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد، بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر.

إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب؛ فالأول: من معنى الألوهية. والثاني: من معنى الربوبية؛ إذ الإله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكرامًا . والرب: هو الذي

يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وقوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله: ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل:٨،٩].

فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين.

الوجه الثانى: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته فى الآخرة تَقَرُّ عيُونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه؛ ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه فى عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته إياهم؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم ولا لذة، بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله، رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام؛ فلا يكفى وحده، بل هو من الحجة عليهم، وهذا معنى ما يروى: « يا بن آدم، خلقت كل شىء لك، وخلقتك لى، فبحقى عليك ألا تشتغل بما خلقته لك، عما خلقتك له ».

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما فى الحديث الصحيح، الذى رواه معاذ عن النبى ﷺ أنه قال: « أتدرى ما حق الله على عباده؟ » قال: قلت : الله ورسوله أعلم. قال: « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم. قال : « حقهم ألا يعذبهم »(١) .

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٣٧٣) ، ومسلم فى الإيمان (٣٠/ ٥٠) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٣) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٩٦)، وأحمد ٣/ ٢٦٠، ٢٦١ .

وهو يحب ذلك، ويرضى به، ويرضى عن أهله، ويفرح بتوبة من عاد إليه؛كما أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه، وقد بينت بعض معنى محبة اللّه لذلك وفرحه به في غير هذا الموضع.

فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه، إلا اللّه سبحانه، ومن عبد غير اللّه وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم، فـ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء:٢٢]، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير اللّه لم يكن إلهًا حقًا؛ إذ اللّه لا سَمِيٌّ له ولا مثل له؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها هذا من جهة الإلهية.

وأما من جهة الربوبية فشيء آخر؛ كما نقرره في موضعه.

واعلم أن فقر العبد إلى اللّه أن يعبد اللّه لا يشرك به شيئًا، ليس له نظير فيقاسُ به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد قلبه ،وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها اللّه الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كَدْحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير اللّه فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والْتَذَّ غير منعم له ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلابد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا (إبراهيم) الخليل ﷺ: ﴿ لا أُحبُّ الأفلينَ﴾ [الأنعام:٧٦]. وكان أعظم آية في القرآن الكريم:﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقد بسطت الكلام في معنى(القيوم) في موضع آخر، وبينا أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه.

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين:

أحدهما: على أن نفس الإيمان باللّه وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من

أهل الكلام ونحوهم: إن عبادته تكليف ومشقة !. وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم ؛ فإنه وإن كان فى الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس ، والله ـ سبحانه ـ يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ** ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، وقال ﷺ لعائشة: « أجرك على قدر نصبك »[١] ـ فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعى، وإنما وقع ضمنا وتبعا لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر فى موضعه .

ولهذا لم يجئ فى الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح : أنه تكليف، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف فى موضع النفى، كقوله: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، ﴿ **لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ** ﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ [الطلاق: ٧] أى: وإن وقع فى الأمر تكليف، فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذى تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك أبداً. قال الله تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥] فهذا أصل.

الأصل الثانى: النعيم في الدار الآخرة أيضاً مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق: من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى، كما فى الدعاء المأثور: « اللهم إنى أسألك لذة النَّظرِ إلى وجهك، والشَّوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضِلة ». رواه النسائى، وغيره[٢]. وفى صحيح مسلم وغيره، عن صهيب عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟! ألم يُبَيِّضْ وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟! ـ قال ـ فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه ـ سبحانه ـ فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه »[٣]، وهو الزيادة.

---

(١) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢٨٦ (٢٢٨)، والحاكم فى المناسك ١/ ٤٧١ وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ».

(٢) النسائى فى السهو (١٣٠٥، ١٣٠٦)، وأحمد ٥/ ١٩١ .

(٣) مسلم فى الإيمان (١٨١/ ٢٩٧)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٠٥)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٢٣٤)، وابن ماجه فى المقدمة (١٨٧)، وأحمد ٦/ ١٥، ١٦ .

فبين النبي ﷺ : أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة، لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره. فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم. وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ**﴾[المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه ـ تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان، ويتكلم فيهما مشايخ الصوفية والعارفون، وعليهما أهل السنة والجماعة، وعوام الأمة، وذلك من فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وقد يحتجون على من ينكرها بالنصوص والآثار تارة؛ وبالذوق والوجد أخرى – إذا أنكر اللذة – فإن ذوقها ووجدها ينفي إنكارها. وقد يحتجون بالقياس في الأمثال تارة؛ وهى الأقيسة العقلية.

الوجه الثالث : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول؛ ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن ، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول .

فهذا الوجه يقتضي: التوكل على الله، والاستعانة به، ودعاءه، ومسألته، دون ما سواه. ويقتضي أيضا : محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم ، ولكن إذا عبدوه وأحبوه، وتوكلوا عليه من هذا الوجه، دخلوا في الوجه الأول. ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولا، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم،

ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

الوجه الرابع: أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه، إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته، ضره وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس، وإن أحب شيئًا حبًا تامًا بحيث يخالله فلابد أن يسأمه، أو يفارقه. وفي الأثر المأثور: «أحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان»[1].

واعلم أن كل من أحب شيئا لغير الله فلابد أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سببا لعذابه؛ ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يأخذ بلهزمته. يقول: أنا كنزك، أنا مالك.

وكذلك نظائر هذا في الحديث: «يقول اللّه يوم القيامة: يابن آدم، أليس عدلا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا؟»[2]. وأصل التَّولِّي الحب؛ فكل من أحب شيئاً دون اللّه ولاه اللّه يوم القيامة ما تولاه، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا، فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد، أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء. وكل من أحب شيئاً دون الله لغير اللّه فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالا عليه، إلا ما كان للّه وفي اللّه، فإنه كمال وجمال للعبد، وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر اللّه وما والاه»[3]. رواه الترمذي، وغيره.

الوجه الخامس: أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ

---

(1) الحاكم فى الرقاق ٤/ ٣٢٥ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٥ وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زافر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر»، وكشف الخفاء ٢/ ٦٠ (١٧٣٤).

(2) أحمد ٦/ ١٤٥، ١٦٠ عن عائشة عن النبى ﷺ بلفظ مختلف.

(3) الترمذى فى الزهد (٢٣٢٢) وقال: «هذا حديث غريب»، وابن ماجه فى الزهد (٤١١٢)، عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ضِداً﴾ [مريم : ٨١، ٨٢].

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] كان صلاح العبد في عبادة اللّه واستعانته. وكان في عبادة ما سواه، والاستعانة بما سواه، مضرته وهلاكه وفساده.

الوجه السادس : أن اللّه ـ سبحانه ـ غني ، حميد ، كريم ، واجد، رحيم ، فهو ـ سبحانه ـ محسن إلى عبده مع غناه عنه؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانا، والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه، ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما، وإن كان ذلك أيضاً من تيسير اللّه تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل للّه. فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم، وسماع كلامهم، ونحو ذلك .

وكذلك من أحب إنساناً لشجاعته أو رياسته، أو جماله أو كرمه، فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبه، وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو- ولو بالدعاء أو الثناء - فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل للّه، فأجناد الملوك، وعبيد المالك، وأُجَرَاءُ الصانع، وأعوان الرئيس، كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم، إلا أن يكون قد عُلّمَ وأُدِّب من جهة أخرى ، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع عدل، وإحسان من باب المكافأة والرحمة،وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا.

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد منفعته بك، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته ؛ فقد دعوت مَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ.

والرب -سبحانه- يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة . فتدبر هذا ، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ، كما أنه لا يقدر عليه. ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم للّه لا

لرجائهم، وكما لا تَخَفْهُمْ فَلا تَرْجُهُمْ ، وخَف اللّه في الناس ولا تخف الناس في اللّه، وارج اللّه في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال اللّه فيه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ [الليل:١٧-٢٠] وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك، وإن كان ذلك ضرراً عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

الوجه الثامن : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض، فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن اللّه، ولا يقصدون دفعها إلا لِغَرَضٍ لهم في ذلك .

الوجه التاسع : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه اللّه عليك، فهم لا ينفعونك إلا بإذن اللّه، ولا يضرونك إلا بإذن اللّه، فلا تُعَلِّقْ بهم رجاءك.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ . أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١]. والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص:٥٧]، وقال الخليل ـ عليه السلام ـ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ الآية [البقرة:١٢٦]. وقال النبي ﷺ: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»[١]: بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟ .

فَصْــــل

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي ، فغيرك من الناس أولى ألا يكون عالماً بمصلحتك ، ولا قادرًا عليها ، ولا مريداً لها ، والله ـ سبحانه ـ هو الذى يعلم ولا تعلم ، ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٦) ، وأبو داود فى الجهاد (٢٥٩٤) ، والترمذى فى الجهاد (١٧٠٢) ، والنسائى فى الجهاد (٣١٧٩) ، وأحمد ١٩٨/٥ .

العظيم، كما في حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»[1].

فَصْــــل

وهو مثل المقدمة لهذا الذي أمامه، وهو أن كل إنسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإرادة، بل كل حي فهو كذلك له علم وعمل بإرادته. والإرادة هي المشيئة والاختيار، ولابد في العمل الإرادي الاختياري من مراد وهو المطلوب، ولا يحصل المراد إلا بأسباب، ووسائل تحصله، فإن حصل بفعل العبد فلابد من قدرة وقوة، وإن كان من خارج فلابد من فاعل غيره، وإن كان منه ومن الخارج فلابد من الأسباب، كالآلات ونحو ذلك، فلابد لكل حي من إرادة، ولابد لكل مريد من عون يحصل به مراده.

فصار العبد مجبولاً على أن يقصد شيئًا ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده، هذا أمر حَتْمٌ لازم ضروري في حق كل إنسان يجده في نفسه، لكن المراد والمستعان على قسمين:

منه ما يراد لغيره، ومنه ما يراد لنفسه. والمستعان: منه ما هو المستعان لنفسه، ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب، فهو الذي يذل له الطالب ويحبه، وهو الإله المقصود، ومنه ما يراد لغيره، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير، فهذا مراد بالعرض. ومن المستعان ما يكون هو الغاية التي يعتمد عليه العبد، ويتوكل عليه، ويعتضد به، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة، ومنه ما يكون تبعاً لغيره، بمنزلة الأعضاء مع القلب، والمال مع المالك، والآلات مع الصانع.

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس، وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين: لا بد للنفس من شىء تطمئن إليه وتنتهى إليه محبتها، وهو إلهها. ولابد لها من شىء تثق به وتعتمد عليه فى نيل مطلوبها هو مستعانها، سواء كان ذلك هو الله أو غيره، وإذا فقد يكون عاماً وهو الكفر، كمن عبد غير الله مطلقاً، وسأل غير الله مطلقاً. مثل: عُبَّاد الشمس والقمر، وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات، ويفزعون إليهم فى النوائب.

---

(1) البخارى فى التهجد (١١٦٢)، وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٨)، والترمذى فى الوتر (٤٨٠) وقال: «حديث جابر حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٨٣)، وأحمد ٣/ ٣٤٤.

وقد يكون خاصاً في المسلمين، مثل : من غلب عليه حب المال، أو حب شخص ، أو حب الرياسة، حتى صار عبد ذلك، كما قال ﷺ :«تعس عبد الدرهم! تعس عبد الدينار! تعس عبد الخميصة! تعس عبد الخميلة! : إن أعطى رضى، وإن منع سخط ! تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[1]، وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم، أو أصدقائه أو أمواله، هي التي تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية، فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤول.

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره، خضع له وذل ، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيراً ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان.

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله، فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه، وإلا فلا، فالأقسام ثلاثة؛ فقد يكون محبوباً غير مستعان، وقد يكون مستعانًا غير محبوب، وقد يجتمع فيه الأمران.

فإذا علم أن العبد لابد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه - وذلك هو صمده الذي يصمد إليه في استعانته وعبادته- تبين أن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كلام جامع محيط أولاً وآخرًا، لا يخرج عنه شيء، فصارت الأقسام أربعة:

إما أن يعبد غير الله ويستعينه - وإن كان مسلما- فالشرك في هذه الأمة أخفى من دَبيبِ النمل .

وإما أن يعبده ويستعين غيره، مثل كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له ، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم، ورزقهم، وهدايتهم، من جهته؛ من الملوك والأغنياء والمشائخ.

وإما أن يستعينه - وإن عبد غيره - مثل كثير من ذوي الأحوال ، وذوي القدرة وذوي السلطان الباطن أو الظاهر، وأهل الكشف والتأثير، الذين يستعينونه ويعتمدون عليه

---

(١) البخاري في الجهاد(٢٨٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦).

ويسألونـه ويلجؤون إليه، لكـن مقصودهم غير ما أمـر اللّه به ورسوله ، وغير اتـباع دينه وشريعته التي بعث اللّه بها رسوله.

والقسم الرابع : الذين لا يعبدون إلا إياه، ولا يستعينون إلا به ، وهذا القسم الرباعي قد ذكر فيما بـعد أيضا، لكنه تارة يكون بـحسب العبادة والاستعانة، وتـارة يكون بحسب المستعان ، فهنا هو بحسب المعبود والمستعـان ؛ لبيان أنه لابد لكل عبد من معبود مستعان، وفيما بعد بحسب عبادة اللّه واستعانته، فإن الناس فيها على أربعة أقسام.

وقال شيخ الإسلام :

فصـــل

في وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه ، فلا يعمل إلا له ، ولا يرجى إلا هو ، هو -سبحانـه- الذي ابتدأك بخلقك والإنعام عـليك، بنفس قدرته عليـك ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلا ، وما فعل بك لا يقدر عليه غيره. ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفـع ضرر ، فهو الذي يأتي بـالرزق لا يأتي به غيره، وهـو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره،كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ. أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١].

وهو ـ سبحانـه ـ ينعم عليك، ويحسن إلـيك بنفسه، فإن ذلك موجب مـا تسمى به، ووصف به نفسه؛ إذ هو الرحمن الرحيم، الـودود المجيد، وهو قادر بنفسه، وقدرته من لوازم ذاته، وكذلك رحمتـه وعلمه وحكمته، لا يحتاج إلى خلقـه بوجه من الوجوه، بل هو الغني عن العالمين﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيـدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيـدٌ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧، ٨].

وفي الحـديث الصـحيح الإلهـي :« يا عبـادي لو أن أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أفـجر قلب رجل واحد منكم ما نـقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولـو كانوا على أتقى قـلب رجل واحد منـكم ما زاد ذلك في مـلكي شيئـاً، ولو قاموا في صَعـيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئا» إلى آخر الحديث[1].

فالرب -سبحانه- غني بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، واجب له من لـوازم نفسه، لا يفـتقر في شيء مـن ذلك إلى غيره، بـل أفعاله من كـماله: كَمُلَ فَفَعَل، وإحسانه وجُودُه من كماله، لا يفعل شيـئا لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه ، بل كُل ما يريده فعـله ، فإنه فعال لما يريد . وهو -سـبحانه- بالغ أمره، فكل ما يـطلب فهو يبلغـه وبناله ويصل إليـه وحده لا يعينه أحـد ، ولا يعوقه أحد، لا يحتـاج في شيء من

(١) مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧/ ٥٥).

أموره إلى معين، وما له من المخلوقين ظهير ، وليس له ولي من الذل.

فصــل

والعبد كلما كـان أذل لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعاً لـه، كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخـلق أعظمهم عبودية لله. وأما المخلوق فكـما قيل :«احتج إلى من شئت تكن أسيرهُ، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ولقد صدق القائل :

بين التذلل والتدلل نقطـة   في رفعها تتحير الأفهام

ذاك التذلل شـــــرك   فافهم يا فتى بالخلـف[1]»

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق، إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم، كنت أعظم ما يكون عندهم،ومتى احتجت إليهم - ولو في شـربة ماء - نقـص قدرك عندهـم بقدر حاجـتك إليهـم، وهذا من حكـمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيء.

ولهذا قال حاتم الأصم- لما سئل: فيم السـلامة من الناس ؟ -قال : أن يكون شيئك لهـم مبذولاً وتـكون من شـيئهـم آيساً ، لـكن إن كـنت معـوضاً لهـم عن ذلك وكـانوا محتاجين، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم كـالمتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك .

فالرب -سبـحانه- أكرم ما تكـون عليه أحوج ما تكـون إليه، وأفقر ما تـكون إليه . والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليـهم؛ لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائـجك ، ولا يهتدون إلى مصلحتك، بل هم جهلـة بمصالح أنفسهم ، فكيـف يهتدون إلى مـصلحة غـيرهم؟! فإنهـم لا يقدرون عليـها، ولا يريدون مـن جهة أنفسهم، فـلا علم ولا قدرة ولا إرادة. والرب - تعالى- يـعلم مصالحك ويقدر عـليها ، ويريدها رحمة منه وفضلا، وذلك صفته من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريداً راحماً، بل رحمتـه من لوازم نفسه، فإنـه كتب على نفســه الرحمة، ورحمته وسـعت كل شيء، والخلق كلـهم محتاجون، لا يفعـلون شيئاً إلا لحاجتـهم ومصلحتهم، وهـذا هو الواجب عليهم والحكـمة ، ولا ينبغي لهم إلا ذلك، لكن السـعيد منهم الذي يعمل لمصـلحته التي

---

(١) هكذا بالأصل.

هي مصلحة، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك . فهم ثلاثة أصناف: ظالم، وعادل، ومحسن.

فالظالم: الذي يأخذ منك مالا أو نفعاً ولا يعطيك عوضه، أو ينفع نفسه بضررك.

والعادل : المكافئ . كالبائع لا لك ولا عليك، كل به يقوم الوجود ، وكل منهما محتاج إلى صاحبه، كالزوجين ، والمتبايعين، والشريكين.

والمحسن :الذي يحسن لا لعوض يناله منك . فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته، وهو انتفاعه بالإحسان، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر، أو طلب مدح الخلق ، وتعظيمهم ، أو التقرب إليك، إلى غير ذلك. وبكل حال : ما أحسن إليك إلا لما يرجو من الانتفاع . وسائر الخلق، إنما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم إليك، وانتفاعهم بك ، إما بطريق المعاوضة؛ لأن كل واحد من المتبايعين والمتشاركين والزوجين محتاج إلى الآخر، والسيد محتاج إلى مماليكه وهم محتاجون إليه، والملوك محتاجون إلى الجند والجند محتاجون إليهم ، وعلى هذا بني أمر العالم . وإما بطريق الإحسان منك إليهم. فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم إذا أكرموك لنفسك، فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة ، فلو قد وليت ولوا عنك وتركوك، فهم في الحقيقة إنما يحبون أنفسهم، وأغراضهم.

فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم، تجد أحدهم سيدًا مطاعًا، وهو في الحقيقة عبد مطيع وإذا أوذي أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال ، ومتى كنت محتاجا إليهم، نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك.

والرب -تعالى - يمتنع أن يكون المخلوق مكافئًا له أو متفضلاً عليه؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول- إذا رفعت مائدته-:« الحمد لله حمدًا كثيرًا طيباً مباركًا فيه غير مكفي ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا» رواه البخاري من حديث أبي أمامة[1]. بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له في ذلك، بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله، وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله، واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه، أي بموجب علمه ذلك. فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم، مثل أن يذهب ماله ولا يعلم ، بل يظنه باقيًا، فإذا علم بذهابه صار له حال آخر، فكذلك الخلق كلهم فقراء إلى الله، لكن أهل الكفر والنفاق في جهل بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به، والمؤمن يقر بذلك ويعمل بموجب إقراره، وهؤلاء هم

(١) البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨).

عباد اللّه.

فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى اللّه بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيراً إلى خالقه، وليس أحد غنياً بنفسه إلا اللّه وحده، فهو الصمد الغني عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، فالعبد فقير إلى اللّه من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته، كما قد بسط هذا في مواضع.

والإنسان يذنب دائمًا، فهو فقير مذنب، وربه تعالى يرحمه ويغفر له، وهو الغفور الرحيم، فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خير أصلا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه، وهو محتاج دائما إلى حصول النعمة ، ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد، كما قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والمراد بالسيئات: ما يسوء العبد من المصائب، وبالحسنات: ما يسره من النعم، كما قال: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾[الأعراف: ١٦٨]، فالنعم والرحمة والخير كله من اللّه فضلاً وجودًا، من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق، وإن كان -تعالى- عليه حق لعباده، فذلك الحق هو أحقه على نفسه، وليس ذلك من جهة المخلوق، بل من جهة اللّه، كما قد بسط هذا في مواضع.

والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم، كما قال : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

والنعم، وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها، فهو -سبحانه- المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها، فإنه ـ سبحانه ـ هو الذي خلق العبد وجعله مسلمًا طائعًا ، كما قال الخليل: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٧٨]، وقال: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال : ﴿ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ﴾[إبراهيم: ٤٠]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤]، فسأل ربه أن يجعله مسلما وأن يجعله مقيم الصلاة، وقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الآية [الحجرات: ٧]، قال في آخرها: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾[الحجرات: ٨].

وفي صحيح أبى داود وابن حبان: «اهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، واجعلنا شاكرين لنعمتك ،مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها علينا»[1]،وفي

---

(١) أبو داود في الصلاة (٩٦٩)، وابن حبان(٢٤٢٩) (موارد الظمآن).

الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] وفي الدعاء الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال : مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة : « اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرّي وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوَجِل (١) المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وذل لك جسده ، ورَغِمَ لك أنفه ، اللّهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفا رحيما ، يا خير المسؤولين ، ويا خير المعطين » (٢) .

ولفظ العبد في القرآن يتناول من عَبَدَ الله ، فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده ، كما قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] ،وأما قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، فالاستثناء فيه منقطع ، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء ، وقوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الإنسان : ٦] ، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُود ﴾ [ص : ١٧] ، ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠ ، ٤٤] ، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ [ص : ٤١] ، ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوب ﴾[ص: ٤٥]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾[الكهف: ٦٥] ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء :١] ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣] ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة :٢٣]، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم: ١٠] ، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان:١] . ونحو هذا كثير .وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأعراف : ١٩٤] ، ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف:١٠٢] قد يقال في هذا:إن المراد به الملائكة ،والأنبياء ،إذا كان قد نهى اتخاذهم أولياء فغيرهم بطريق الأولى،فقد قال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم :٩٣] .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم في الدَّجَّال : « فيوحي الله إلى المسيح أن لي

---

(١) أي : الخائف . انظر : لسان العرب ، مادة « وجل » .

(٢) الطبراني فى الكبير ١١ / ١٧٤ (١١٤٠٥) ، وذكره الهيثمى في المجمع ٣ / ٢٥٥ وقال : « رواه الطبراني في الكبير والصغير ، وفيه يحيى بن صالح الأبلي ،قال العقيلي : روى عنه يحيى بن بكير مناكير وبقية رجاله رجال الصحيح » .

عباداً لا يَدَان لأحد بقتالهم »[1]، وهذا كقوله: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ [الإسراء: ٥] ، فهؤلاء لم يكونوا مطيعين لله، لكنهم مُعَبَّدُونَ ، مُذَلَّلونَ ، مقهورون ، يجري عليهم قدره .

وقد يكون كونهم عبيداً : هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفاراً ، كقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] ، وقوله : ﴿ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] أي : ذَليلاً خاضعاً . ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك ، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٤ ، ٩٥] ، فذكر بعدها أنه يأتي منفرداً ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، وقال : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران : ٨٣] ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ الآية [الرعد : ١٥] ، وقال : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : ١١٦] ، فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة ، فإن هذا لا يقال طوعاً وكرهاً ، فإن الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعاً وكرهاً ، فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له : ساجد أو قانت ، بل ولا مسلم ، بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم ، وهم خاضعون مستسلمون ، قانتون مضطرون من وجوه :

منها : علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه . ومنها : دعاؤهم إياه عند الاضطرار . ومنها : خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيئته. ومنها : انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء ، فإن سائر البشر لا يُمَكِّنُونَ العبد من مراده ، بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذي يكرهه ، وهو مما أمر الله به ، وعصيانهم له في بعض ما أمر به ـ وإن كان هو التوحيد ـ لا يمنع كونهم قانتين خاضعين ، مستسلمين كرهاً ، كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذِّمة وغيرهم ، فإنهم خاضعون للدين الذي بعث به رسله ، وإن كانوا يعصونه في أمور .

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعاً، وكذلك لما يقدره من المصائب، فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعاً ، فهو مسلم لله طوعاً خاضع له طوعاً، والسجود مقصوده الخضوع، وسجود كل شيء بحَسَبه سجوداً يناسبها ويتضمن الخضوع للرب .

---

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣٧ / ١١٠) .

وقوله : « لايَدَان » : أي لا قدرة ولا طاقة . يقال : ما لي بهذا الأمر يد ولا يدان ؛ لأن المباشرة والدفاع إنما يكون باليد . انظر : النهاية في غريب الحديث ٥ / ٢٩٣ .

وأما فقر المخلوقات إلى اللّه - بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها، وأفعالها إلا به - فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله - سبحانه - الملك والحمد.

وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب ، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجاتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق.

والصواب : أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه، بل فقرها لازم لها ، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غَنَاء الرب وصفٌ لازم له لا يمكن أن يكون غير غني ، فهو غني بنفسه لا بوصف جعله غنيًا، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها، وهي معدومة وهي موجودة، فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر إلى الخالق كان معناه: أنه لا يوجد إلا بالخالق. هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل ، وما أثبته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها ، أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف.

ولكن طائفة تدعى أن افتقارها ، وخضوعها ، وخلقها ، وجريان المشيئة عليها هو تسبيحها وقنوتها ، وإن كان ذلك بلسان الحال ،ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله . وقل للأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها، وأخرج نباتها وثمارها ، فإن لم تجبك حواراً وإلا أجابتك اعتباراً ، وهذا يقوله الغزالي وغيره ، وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله: ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : ١١٦] قال: كل مخلوق قانت له باشر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذله لربه ، وهو الذي ذكره الزجاج في قوله: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ٨٣] قال : إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جِبِلِّهم ، لا يقدر أحد يمتنع من جبلة جبله اللّه عليها ، وهذا المعنى صحيح ، لكن الصواب - الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف - : أن القنوت ، والاستسلام ، والتسبيح أمر زائد على ذلك ، وهذا كقول بعضهم : إن سجود الكاره وذله وانقياده لما يريده اللّه منه من عافية ومرض وغنى وفقر ، وكما قال بعضهم في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤]. قال: تسبيحه دلالته على صانعه، فتوجب بذلك تسبيحاً من غيره ، والصواب : أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها .

والمقصود أن فقر المخلوقات إلى الخالق ، ودلالتها عليه وشهادتها ، له أمر فِطْرِيّ فطر

الله عليه عـباده، كما أنه فطرهم علـى الإقرار به بدون هذه الآيات، كما قـد بسط الكلام على هذا في مواضع، وبين الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس الشمولي ، والتمثيلي، فإن القياس البرهاني العقلي ، سواء صيغ بـلفظ الشمول ، كالأشكال المنطقية ، أو صيغ بلفظ التمثيل ، وبين أن الجامع هو علة الحكم ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد ، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين في غير هذا الموضع.

والتحقـيق : أن العلم بأن المحدث لابد لـه من محدث هو علم فـطري، ضروري في المعينات الجزئية ، وأبلغ مما هو في القضية الكلية ، فإن الكليات إنما تصير كليات في العقل بعد استقـرار جزئياتها في الوجود، وكـذلك عامة القضايا الكـلية، التي يجعلهـا كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم، كقولهم: الكل أعظم من الجزء، أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفـعان، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونـحو ذلك، فإنه أيّ كلي تصوره الإنسان علم أنه أعـظم من جزئيه، وإن لم تخطر له القضية الكـلية، كما يعلم أن بدن الإنســان بعضه أكثـر من بعض، وأن الدرهـم أكبر من بعـضه، وأن المدينة أكـثر من بعضها، وأن الجبل أكبر من بعضه، وكذلك الـنقيضان وهما : الوجود والعدم، فإن العبد إذا تصور وجود أي شيء كان وعدمه، علم أن ذلـك الشيء لا يكون موجوداً معدومًا في حالة واحدة، وأنه لا يخلـو من الوجود والعدم، وهو يقضي بالجزئـيات المعينة ، وإن لم يستحضر القضية الكلية، وهكذا أمثال ذلك.

ولما كان القياس الكلي فائدته أمر مطلق لا معين، كان إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجـب، كما نزل بـه القرآن، وفـطر الله عـليه عبـاده، وإن كانت الـطريقـة القياسـية صحيحـة، لكن فائدتها ناقـصة، والقرآن إذا استعمـل لعلة في الآيات الإلهيات اسـتعمل قياس الأولـى لا القياس الذي يـدل على المشترك، فـإنه ما وجب تنـزيه مخلوق عـنه من النقائص والعيوب التي لا كمال فيها، فالباري - تعالى- أولى بتنزيهه عن ذلك، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه كـالحياة ، والعلم، والقدرة، فالخالق أولى بذلك منه، فالمخلـوقات كلها آيات للخالـق، والفرق بين الآية وبين القيـاس: أن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه، فكل مخلوق فهو دليل، وآية على الخالق نفسه، كما قد بسطناه في مواضع.

ثم الفطر تـعرف الخالق بدون هذه الآيات، فإنـها قد فطرت على ذلك، ولـو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات ، لـم تعلم أن هذه الآية له، فإن كونها آية لـه ودلالة عليه، مثل كون الاسم يدل على المسمى، فلابد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك ، وعرف أن هذا اسم له، فكذلك كون هـذا دليلاً على هذا يقتضي تصور المدلـول عليه، وتصور أن ذلك

الدليل مستلزم له، فلابد في ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول، فلو لم يكن المدلول متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه، فمعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف إليه، لكن قد لا يكون الإنسان عالماً بالإضافة ، ولا كونه دليلا ، فإذا تصوره عرف المدلول إذا عرف أنه مستلزم له، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق، فلابد أن يكونوا يعرفونه، حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له.

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية، هي التي جاء بها القرآن، واتفق العقل والشرع، وتلازم الرأي والسمع.

والمتفلسفة -كابن سينا والرازي ومن اتبعهما- قالوا: إن طريق إثباته الاستدلال عليه بالممكنات، وإن الممكن لابد له من واجب، قالوا: والوجود إما واجب وإما ممكن، والممكن لابد له من واجب ، فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين. وهذه المقالة أحدثها ابن سينا، وركَّبها من كلام المتكلمين وكلام سلفه، فإن المتكلمين قسموا الوجود إلى قديم ومحدث ، وقسمه هو إلى واجب وممكن، وذلك أن الفلك عنده ليس محدثا، بل زعم أنه ممكن. وهذا التقسيم لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة، بل حُذَّاقُهُمْ عرفوا أنه خطأ، وأنه خالف سلفه وجمهور العقلاء وغيرهم، وقد بينا في مواضع أن القِدَم، ووجوب الوجود، متلازمان عند عامة العقلاء، الأولين والآخرين، ولم يعرف عن طائفة منهم نزاع في ذلك، إلا ما أحدثه هؤلاء، فإنا نشهد حدوث موجودات كثيرة، حدثت بعد أن لم تكن، ونشهد عدمها بعد أن كانت، وما كان معدوما أو سيكون معدوما لا يكون واجب الوجود، ولا قديمًا أزليًا.

ثم إن هؤلاء إذا قدر أنهم أثبتوا واجب الوجود، فليس في دليلهم أنه مغاير للسموات والأفلاك، وهذا مما بيَّن تهافتهم فيه الغزالي وغيره، لكن عمدتهم أن الجسم لا يكون واجبًا؛ لأنه مركب، والواجب لا يكون مركبًا، هذا عمدتهم.

وقد بينا بطلان هذا من وجوه كثيرة، وما زال النظار يبينون فساد هذا القول كل بحسبه، كما بين الغزالي فساده بحسبه.

وذلك أن لفظ الواجب صار فيه اشتراك بين عدة معان: فيقال للموجود بنفسه الذي لا يقبل العدم، فتكون الذات واجبة والصفات واجبة، ويقال للموجود بنفسه والقائم بنفسه، فتكون الذات واجبة دون الصفات، ويقال لمبدع الممكنات، وهي المخلوقات، والمبدع لها هو الخالق، فيكون الواجب هو الذات المتصفة بتلك الصفات ، والذات مجردة عن الصفات لم تخلق ، والصفات مجردة عن الذات لم تخلق ، ولهذا صار من سار

خلفهم ممن يدعي التحقيق والعرفان، إلى أن جعل الواجب هو الوجود المطلق، كما قد بسط القول عليه في مواضع.

والمقصود هنا الكلام أولاً في أن سعادة العبد في كمال افتقاره إلى ربه واحتياجه إليه؛ أي في أن يشهد ذلك ويعرفه ، ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع، وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[العلق: ٦، ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[فصلت: ٥١]، وفي الآية الأخرى : ﴿ كَانَ يَئُوسًا ﴾[الإسراء: ٨٣].

فصل

والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله، فترجو اللَّهَ فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم، كما جاء في الأثر: « ارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله» أي: لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لا رجاء مدحهم ولا خوفاً من ذمهم ، بل ارج الله ولا تخفهم في الله فيما تأتي وما تذر، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه. وفي الحديث :« إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، أو تَذُمَّهُمْ على ما لم يؤتك الله»[1] فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا، لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك، إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله؛ لما يرجوه منهم . وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أرضيت الله نصرك، ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم؛ وذلك من ضعف اليقين.

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك ، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر، كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، لكن من حمده الله

---

(١) البيهقي في الشعب(٢٠٧) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠٦/٥، ٤١/١٠، والحديث فيه محمد بن مروان ضعيف. والسيوطي في الجامع الصغير(٢٤٩٣) ورمز إليه بالضعف.

ورسوله فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم.

ولما قال بعض وفد بني تَمِيم : يا محمد، أعطني، فإن حَمْدِي زَيْنٌ وإن ذَمِّي شَيْنٌ. قال رسول الله ﷺ : « ذاك الله عز وجل »(١).

وكتبت عائشة إلى معاوية، وروى أنها رفعته إلى النبي ﷺ :«من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغْنُوا عنه من الله شيئا»(٢) هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف:«من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًا»(٣) هذا لفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين، والمرفوع أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه،وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، وهو كاف عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]. فالله يكفيه مُؤْنَةَ الناس بلا رَيْب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه، فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه، إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذي يعض على يده يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾ [الفرقان:٢٧، ٢٨]، وأما كون حامده ينقلب ذامًا، فهذا يقع كثيرًا، ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى ، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم، وهو سبحانه أعلم.

فالتوحيد ضد الشرك، فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله، فعبده لا يشرك به شيئاً كان موحداً. ومن توحيد الله وعبادته: التوكل عليه والرجاء له، والخوف منه، فهذا يخلص به العبد من الشرك. وإعطاء الناس حقوقهم، وترك العدوان عليهم، يخلص به العبد من ظلمهم ، ومن الشرك بهم. وبطاعة ربه واجتناب معصيته، يخلص العبد من ظلم نفسه ، وقد قال -تعالى- في الحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»(٤). فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد، وكما في الحديث الذي رواه الطبراني في

---

(١) الترمذي في التفسير (٣٢٦٧) وقال: « هذا حديث حسن غريب » ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥١٥/٢)، وأحمد ٣/ ٤٨٨.

(٢) الترمذي في الزهد (٢٤١٤) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٨٨ . وقال:«غريب من حديث هشام بهذا اللفظ»، والسيوطي في الجامع الصغير(٨٣٩٤) ورمز إليه بالحسن.

(٣) الترمذي في الزهد (٢٤١٤).

(٤) مسلم في الصلاة (٣٨/٣٩٥، ٤٠)، والترمذي في التفسير(٢٩٥٣) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي في الافتتاح (٩٠٩)،ومالك في الصلاة ١/ ٨٤(٣٩)،وأحمد ٢/ ٢٨٥،كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الدعاء : « ياعبادي ، إنما هي أربع، واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة بيني وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقي، فالتي لي : تعبدني لا تشرك بي شيئاً . والتي لك : عملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه. والتي بيني وبينك : فمنك الدعاء وعليّ الإجابة. والتي بينك وبين خلقي: فأت إليهم ما تحب أن يأتوه إليك»[1]. والله يحب النصفين، ويحب أن يعبدوه.

وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه، وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب ، وهو إنما يحبه لكونه طريقاً إلى عبادته، والعبد يطلب ما يحتاج أولاً ، وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم، وبذلك يصل إلى العبادة. فهو يطلب ما يحتاج إليه أولا ليتوسل به إلى محبوب الرب، الذي فيه سعادته. وكذلك قوله :« عملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه»، فإنه يحب الثواب الذي هو جزاء العمل، فالعبد إنما يعمل لنفسه، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ثم إذا طلب العبادة فإنما يطلبها من حيث هي نافعة له، محصلة لسعادته، محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له، وإن كان الرب يحب ذلك فهو يطلبه من حيث هو ملائم له، فمن عبد الله لا يشرك به شيئًا أحبه وأثابه، فيحصل للعبد ما يحبه من النعم تبعاً لمحبوب الرب، وهذا كالبائع والمشتري ، البائع يريد من المشتري أولاً الثمن، ومن لوازم ذلك : إرادة تسليم المبيع، والمشتري يريد السلعة، ومن لوازم ذلك : إرادة إعطاء الثمن.

فالرب يحب أن يحب، ومن لوازم ذلك : أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به. والعبد يحب ما يحتاج إليه وينتفع به، ومن لوازم ذلك: محبته لعبادة الله، فمن عبد الله وأحسن إلى الناس، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله، في إخلاص الدين له. ومن طلب من العباد العوض، ثناء أو دعاء أو غير ذلك، لم يكن محسناً إليهم لله. ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم في الله كان محسناً إلى الخلق وإلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم، حيث خاف غير الله ورجاه؛ لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه

---

(١) الطبراني فى الدعاء ص ٧٩٢ (١٦) وأبو يعلى (٢٧٥٧) ، والبزار في كشف الأستار في الإيمان (١٩) ، وذكره الهيثمي في المجمع ٥٦/١ وقال: «هذا لفظ أبي يعلى ورواه البزار وفي إسناده صالح المرى وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضًا»، وأورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٢٨٦) وعزاه إلى أبي يعلى.

بكل وجه، إما بمداهنتهم ومراءاتهم، وإما بمقـابلتهم بشيء أعظم من شرهم أو مثله، وإذا رجاهم لم يقـم فيهم بحق اللّه، وهو إذا لم يخـف اللّه فهو مختار للعدوان عـليهم، فإن طبع النفس الـظلم لمن لا يظلمها فكيف بمـن يظلمها؟ فتجد هذا الضـرب كثير الخوف من الخلق ،كثـير الظلم إذا قدر ،مهـين ذليل إذا قهر، فهو يـخاف الناس بحسب مـا عنده من ذلك، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس.

وكذلك إذا رجاهم فهم لا يعطونه ما يرجوه منهم ، فلابد أن يبغضهم فيظلمهم إذا لم يكن خائفا من اللّه عز وجل ، وهذا موجود كثيراً في الناس ، تجدهم يخاف بعضهم بعضاً ويرجو بـعضهم بعضـاً، وكل من هؤلاء يتظـلم من الآخر، ويطـلب ظلمه، فهـم ظالمون بعضهم لـبعض ، ظالمون في حق اللّه حيـث خافوا غيره ورجوا غيره، ظالمـون لأنفسهم، فإن هذا من الذنوب التي تعذب النفس بها وعلـيها، وهو يجر إلى فعل المعاصي المختصة، كالشرك والزنا، فإن الإنسان إذا لم يخف من اللّه اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالباً ما لم يحصل له؛ فإن نفسه تبقى طالبة لما تستـريح به وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الـلّه وعبادته ما تـستريح إلـيه وبه، فيسـتريح إلى المحرمـات من فعل الـفواحش وشرب المحرمـات وقول الزور، وذكر مجريـات النفس والهزل والـلعب، ومخالطـة قرناء السوء وغير ذلك، ولا يستغني القلب إلا بعبادة اللّه- تعالى .

فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينـفعه، ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائماً ، ولابد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلا للّه وحده، فلا تطـمئن القلوب إلا بـه، ولا تسكن النفـوس إلا إليه، و﴿ **لَوْ كَانَ فِيـهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الـلَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[الأنبياء: ٢٢]، فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة اللّه وحده لا شريك له .

فإذا لم تكن القلوب مخلصة للّه الدين، عبدت غيره من الآلهة التي يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفـسهم ، فأشركت بـاللّه بعبادة غيره، واسـتعانته، فتـعبد غيره وتسـتعين به، لجهلها بسـعادتها التي تنالها بـعبادة خالقها والاستعانة بـه ، فبالعبادة له تستغـني عن معبود آخر، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانـة بالخلق، وإذا لم يكن العبد كذلك، كان مذنباً محتاجاً ، وإنما غناه في طاعة ربه، وهذا حال الإنـسان ؛ فإنه فقير محتاج، وهو مع ذلك مذنب خطاء، فـلابد له من ربه، فإنه الذي يـسدي مغافرهُ ، ولابد له من الاسـتغفار من ذنوبه، قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ [محمد: ١٩]، فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فلـيتوكل على اللّه، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه، ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٣] ، فلا يزول فقر

العبد وفاقته إلا بالتوحيد؛ فإنه لابد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً معذباً في طلب ما لم يحصل له، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به،وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار،حصل له غناه وسعادته، وزال عنه ما يعذبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والعبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته، فلابد أن يشهد دائماً فقره إلى الله، وحاجته في أن يكون معبوداً له، وأن يكون معيناً له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ من الله إلا إليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾[آل عمران:١٧٥] أي يخوفكم بأوليائه. هذا هو الصواب الذي عليه الجمهور، كابن عباس وغيره وأهل اللغة كالفرَّاء وغيره. قال ابن الأنباري : والذي نختاره في الآية : يخوفكم أولياءه . تقول العرب: أعطيت الأموال : أي أعطيت القوم الأموال، فيحذفون المفعول الأول.

قلت :وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفًا مطلقًا، ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة ، فحذف الأول لأنه ليس مقصوداً.

وقال بعض المفسرين : يخوف أولياءه المنافقين، والأول أظهر؛ لأنها نزلت بسبب تخويفهم من الكفار، فهي إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس، وقد قال : ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾[آل عمران:١٧٥] الضمير عائد إلى أولياء الشيطان ، الذين قال فيهم: ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران:١٧٣] قبلها، والذي قال: الثاني فسرها من جهة المعنى، وهو أن الشيطان إنما يخوف أولياءه؛ لأن سلطانه عليهم، فهو يدخل عليهم المخاوف دائما، وإن كانوا ذوي عَدَد وعُدَد، وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار، أو أنهم أرادوا المفعول الأول، أي يخوف المنافقين أولياءه، وهو يخوف الكفار، كما يخوف المنافقين ، ولو أريد أنه يجعل أولياءه خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ .

وأيضًا، فإنه يعد أولياءه ويُمَنِّيهِمْ، ولكن الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين، والشيطان لا يختار ذلك، قال تعالى:﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [الحشر:١٣]، وقال:﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢]، ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالون العدو فصاروا بذلك منافقين، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم،كما قال تعالى:﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦]، وقال:﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ الآية [الأحزاب:١٩]. فكلا القولين صحيح من حيث المعنى، لكن لفظ أوليائه هم الذين

يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه السياق ، وإذا جعلهم مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم.

فدلت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم.

ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان، ولا يخاف الناس، كما قال: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[المائدة: ٤٤]، فخوف الله أمر به، وخوف أولياء الشيطان نَهَى عنه، قال تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، فنهى عن خَشْيَة الظالم وأمر بخشيته، وقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[النحل: ٥١] .

وبعض الناس يقول : يا رب، إني أخافك وأخاف من لا يخافك، فهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدًا ، فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه، وإذا قيل: قد يؤذيني، قيل : إنما يؤذيك بتسليط الله له، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه، فالأمر لله، وإنما يسلط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر، ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] .

وفي الآثار: « يقول الله : أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيها بيدي، فمن أطاعني جعلت قلوب الملوك عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بِسَبِّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ وأطيعون أعطفهم عليكم»[1].

ولما سلط الله العدو على الصحابة يوم أحد قال: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾؟! الآية [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الآيات [آل عمران: ١٤٦] والأكثرون يقرؤون: قاتل- والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف: هم الجماعات الكثيرة، قال ابن مسعود وابن عباس- في رواية عنه- والفراء : ألوف كثيرة. وقال ابن عباس في أخرى ومجاهد وقتادة : جماعات كثيرة ،وقرئ بالحركات الثلاث في الراء ،

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٥/ ٢٥٢ عن أبي الدرداء، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن راشد وهو متروك»، والديلمي في الفردوس (٨٠٣٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ مختلف.

فعلى هذه القراءة فالربيون الذين قاتلوا معه : الذين ما وهنوا وما ضعفوا . وأما على قراءة أبي عمرو وغيره ففيها وجهان :

أحدهما : يوافق الأول، أي الربيون يقتلون فما وهنوا ، أي ما وهن من بقي منهم، لقتل كثير منهم، أي ما ضعفوا لذلك ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم، بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أدَالهُم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا.

والثاني : أن النبي ﷺ قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقي منهم لقتل النبي ﷺ. وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمدًا قد قتل، لكن هذا لا يناسب لفظ الآية، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ما وهنوا، ولو أريد أن النبي قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم بل تقليلهم هو المناسب لها، فإذا كثروا لم يكن في مدحهم بذلك عبرة.

وأيضا، لم يكن فيه حجة على الصحابة، فإنهم يوم أحد قليلون والعدو أضعافهم ، فيقولون ولم يهنوا ؛ لأنهم ألوف ونحن قليلون.

وأيضا، فقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ [آل عمران : ١٤٦] يقتضي كثرة ذلك ، وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرون قتلوا في الجهاد.

وأيضا: فيقتضي أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيون كثير ، وهذا لم يوجد ، فإنّ من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون، وموسى وأنبياء بني إسرائيل لم يقتلوا في الغزو، بل ولا يعرف نبي قتل في جهاد، فكيف يكون هذا كثيراً ويكون جيشه كثيراً ؟!

والله -سبحانه- أنكر على من ينقلب ،سواء كان النبي مقتولا أو ميتًا ، فلم يذمهم إذ مات أو قتل على الخوف بل على الانقلاب على الأعقاب ، ولهذا تلاها الصديق- رضي الله عنه- بعد موته ﷺ فكأن لم يسمعوها قبل ذلك .

ثم ذكر بعدها معنى آخر: وهو أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم خلق كثير وهم لا يهنون، فيكون ذكر الكثرة مناسبا؛ لأن من قتل مع الأنبياء كثير، وقتل الكثير من الجنس يقتضي الوهن، فما وهنوا وإن كانوا كثيرين، ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم ، ولم يقل هنا: ولم ينقلبوا على أعقابهم، فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال: فانقلبوا على أعقابهم؛ لأنه هو الذي أنكره إذا مات النبي أو قتل، فأنكر سبحانه شيئين: الارتداد إذا مات أو قتل، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم في سبيل الله من استيلاء العدو؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾[آل عمران:١٤٦]. . . إلخ. ولم يقل: فما وهنوا لقتل النبي، ولو قتل وهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك، ولم يقل: ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، ومعلوم أنّ ما يصيب في سبيل الله في عامة الغزوات لا يكون قتل نبي.

وأيضًا: فكون النبي قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير، لا يستلزم أن يكون النبي معهم في الغزاة ، بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه، وهذا الذي فهم الصحابة، فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته ﷺ، حتى فتحوا البلاد شاماً ، ومصراً، وعراقاً ، ويمناً ، وعجماً ، وروماً، ومغرباً، ومشرقاً، وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون، ويكون في هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي ﷺ على دينه، وإن كان قد مات ، والصحابة الذين يغزون في السرايا، والنبي ليس معهم، كانوا معه يقاتلون، وهم داخلون في قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٩]، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾الآية [الأنفال: ٧٥]. ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهداً للمطاع ناظرًا إليه.

وقد قيل في : ﴿رِبِّيُّونَ﴾ هنا : إنهم العلماء ، فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الرباني، وعن ابن زيد هم الأتباع كأنه جعلهم المربوبين. والأول أصح من وجوه :

أحدها: أن الربانيين عين الأحبار، وهم الذين يربون الناس ، وهم أئمتهم في دينهم، ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً .

الثاني: أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم ، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين ، وإن كانوا قد أعطوا علما ومعهم الخوف من اللّه عز وجل .

الثالث : أن استعمال لفظ الرباني في هذا ليس معروفاً في اللغة.

الرابع : أن استعمال لفظ الربى في هذا ليس معروفاً في اللغة ، بل المعروف فيها هو الأول ، والذين قالوه قالوا : هو نسبة للرب بلا نون والقراءة المشهورة (ربي) بالكسر، وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء ، وقد قرئ بالضم، فعلم أنها لغات.

الخامس : أن اللّه تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد ، سواء كان من الربانيين أو لم يكن .

السادس : أنه لا مناسبة في تخصيص هؤلاء بالذكر ، وإنما المناسب ذكرهم في مثل قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾الآية [المائدة: ٦٣]. وفي قوله: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فهناك ذكرهم به مناسباً .

السابع: قيل: إن الرباني منسوب إلى الرب، فزيادة الألف والنون كاللحياني، وقيل: إلى تربيته الناس، وقيل : إلى ربان السفينة ، وهذا أصح، فإن الأصل عدم الزيادة في النسبة؛ لأنهم منسوبون إلى التربية ، وهذه تختص بهم، وأما نسبتهم إلى الرب فلا

اختصاص لهم بذلك، بـل كل عبد له فهو منسوب إليه، إما نسـبة عموم أو خصوص ولم يسم اللّه أولياءه المتقين ربانيين، ولا سمى بـه رسله وأنبياءه، فإن الرباني من يرب الناس، كما يرب الرباني السفينة ، ولهذا كـان الربانيون يذمون تارة، ويمدحون أخرى ، ولو كانوا منسوبين إلى الرب لم يذموا قط. وهذا هو **الوجه الثامن** :

أنها إن جعلت مدحاً فقد ذموا في مواضـع ، وإن لم تكن مدحاً لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح، وإذا كان منسوباً إلى رباني السفينة بطل قول من يجعل الرباني منسوباً إلى الرب، فنسبة الربيون إلى الرب أولى بالبطلان.

التاسع : أنه إذا قدر أنهم منسوبون إلى الرب، فلا تدل الـنسبة على أنهم علماء. نعم تدل على إيمان وعبادة وتأله، وهذا يعم جميع المؤمنين ، فكل من عبد اللّه وحده لا يشرك به شيئا فهـو متأله عارف باللّه، والصحابـة كلهم كذلك ، ولم يسموا ربـانيين ولا ربيين، وإنما جاء أن ابـن الحنفيـة قال لما مات ابـن عباس : اليـوم مات رباني هـذه الأمة، وذلك لكونه يـؤدبهم بما آتاه اللّه من الـعلم ،والخلفاء أفضـل منهم، ولم يسمـوا ربانيين ، وإن كانوا هم الربـانيين . وقال إبراهيم : كان علقـمة من الربانيين؛ ولهذا قـال مجاهد : هم الذين يربون الناس بصـغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنـهي. والأحبار يدخل فيه من أخبر بـالعلم ورواه عن غيره وحدث بـه وإن لم يأمر، أو ينه، وذلك هو المـنقول عن السلـف في الرباني، نـقل عن علـيّ قال: «هم الذين يـغذون الناس بالحـكمة ويربـونهم عليها»، وعن ابن عباس قال: «هم الفقهاء المعلمون»[1].

قلت : أهـل الأمر والنهي هـم الفقهاء المعـلمون. وقال قتـادة وعطاء : هم الفـقهاء العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة : واحدهم ربـاني، وهم العلماء المعلمون. قال أبو عبيد : أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية، وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين.

قلت : اللفظـة عربية منسوبة إلى ربان السفـينة الذي ينزلها ويقوم لمصلـحتها، ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون ؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل.

---

(١) انظر: ابن جرير في التفسير ٤/٧٨، ٧٩.

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

فصــل

قال الله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة :٦، ٧].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال :«اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»(١).

وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع ، مثل قوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿فَبَاءُوا (٢) بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾[البقرة: ٩٠]،وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾[آل عمران: ١١٢] ، وقال في النصارى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[المائدة :٧٧]،وقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، وقال تعالى:﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى :﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٧٩، ٨٠]،وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

---

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٤) ، وأحمد ٣٧٨/٤، وذكره الهيثمي في المجمع ٣١٤/٦ وقال : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) في المطبوعة :«وباؤا» ، والصواب ما أثبتناه .

ولما أمرنا اللّه ـ سبحـانه ـ أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصـراط المستقيم، صراط الذين أنـعم اللّه عليـهم من النـبيين، والصديـقين ، والشهداء ، والـصالحين، المغـايرين للمغضوب عليهم وللضالين، كان ذلك مما يـبين أن العبد يخاف عليه أن ينحرف إلى هذين الطريـقين، وقد وقع ذلك كـما أخبر به الـنبي ﷺ حيث قـال : « لتسلكـن سَنَنَ من كان قبلكـم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة (١)، حتى لـو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلـتموه» قالـوا : يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ »(٢) وهو حديث صحيح.

وكان السلـف يرون أن من انحرف من العـلماء عن الصراط المـستقيم ففيـه شبه من اليهود ، ومن انحرف من العباد ففيه شبـه من النصارى، كما يرى في أحوال منحرفة أهل العلم مـن تحريف الكلم عن مـواضعه، وقسوة القلوب، والـبخل بالعلم ، والـكبر وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم، وغير ذلك . وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الأنبياء والصالحين، والابتداع في العبادات ، من الرهبانية والصور والأصوات.

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تُطْرُوني كما أَطْرَتْ النـصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عَبْدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»(٣) ولهذا حقـق اللّه له نعت العبـودية في أرفع مقامـاته حيث قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾[الإسراء:١]، وقال تـعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾[النجم:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الـلَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن:١٩]. ولـهذا يشرع فـي التشهـد وفي سائر الخـطب المشروعـة، كخطب الجـمع والأعيـاد، وخطب الحاجـات عند النـكاح وغيره، أن نـقول : أشهد أن لا إلـه إلا اللّه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وكان رسول الله ﷺ يـحقق عبوديته ؛ لئلا تـقع الأمة فيما وقعت فيـه النصارى في المسـيح، من دعـوى الألوهيـة ، حتى قـال له رجـل : ما شاء الـلّه وشئت . فـقال : «أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده»(٤) ، وقال أيضاً لأصحابه :« لا تقولوا: ما شاء اللّه وشاء محمـد، بل قولوا: ما شاء اللّه ثم شـاء محمد»(٥)، وقال :« لا تتخـذوا قبري

---

(١) حذو القذة بالقذة: أي كما تُقَدَّر كُلُّ واحـدة منهما على قدر صاحبتها وتُقْطَع. يضرب مثلا لـلشيئين يستويان ولا يتفاوتان. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢٨/٤.

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦) ، وأحمد ١٢٥/٤ بلفظ مغاير.

(٣) البخاري في الأنبـياء(٣٤٤٥) ، والدارمي في الرقائق ٢/ ٣٢٠، وأحمد ٢٣/١، ٢٤ كلـهم عن عمر رضي اللّه عنه.

(٤) أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧ بلفظ «عدلاً » بدلاً من « نداً».

(٥) ابن ماجة في الكفارات (٢١١٨)، والدارمي في الاستئذان ٢/ ٢٩٥، وأحمد ٥/ ٣٩٣.

عيداً وصلوا عليّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني»[1] ، وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعْبَد، اشتد غَضَبُ الله على قوم اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد»[2]، وقال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[3].

والغلو في الأمة وقع في طائفتين : طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين ، فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئاً من الألوهية والربوبية، فهو من جنس النصارى، وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم، قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل : ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]، والتعزير: النصر والتوقير والتأييد. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح: ٨، ٩]، فهذا في حق الرسول، ثم قال في حق الله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة: ٢٤].

وذكر طاعة الرسول في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا

(١) أبو داود في المناسك (الحج) (٢٠٤٢)، وأحمد ٢/٣٦٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) مالك في قصر الصلاة في السفر ١/١٧٢ (٨٥)، وأحمد ٢/٢٤٦.
(٣) مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢/٢٣).

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[النور: ٥١، ٥٢]، فجعل الطاعة للَّه والرَّسُول، وَجَعَلَ الْخَشْيَةَ والتَّقْوي للَّه وَحدَهُ كما قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال: ﴿وَإِيَّايَ(١) فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١]، وقَال: ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٢) . وقال له عمر : واللَّه يا رسول اللَّه لأنت أحب إلى من كل أحد إلا من نفسي، فقال : « لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال : فأنت أحب إلى من نفسي قال : «الآن يا عمر»(٣).

فقد بين اللَّه في كتابه حقوق الرسول من الطاعة له، ومحبته ، وتعزيره، وتوقيره، ونصره، وتحكيمه، والرضا بحكمه، والتسليم له، واتباعه والصلاة والتسليم عليه، وتقديمه على النفس والأهل والمال، ورد ما يتنازع فيه إليه وغير ذلك من الحقوق.

وأخبر أن طاعتَه طاعتُه فقال : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، ومبايعتَه مبايعتُه فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقرن بين اسمه واسمه في المحبة فقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وفي الأذى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب :٥٧]، وفي الطاعة والمعصية فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[النساء: ١٣]، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[النساء: ١٤]، وفي الرضا فقال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. فهذا ونحوه هو الذي يستحقه رسول الله

---

(١) في المطبوعة : «فإياي» ، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) البخاري في الإيمان(١٥) ، ومسلم في الإيمان (٤٤/ ٧٠) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه(٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، وأحمد ١٧٧/٣، ٢٧٥ ، كلهم عن أنس رضي اللَّه عنه.

(٣) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢).

بأبي هو وأمي.

فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء: ٣٦]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقد جمع بينهما في مواضع، كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وكذلك التوكل كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: ١٢]، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم (١) مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والدعاء لله وحده، سواء كان دعاء العبادة، أو دعاء المسألة والاستعانة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨-٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الأنعام: ٥٢].

وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، روي عن ابن مسعود: أن قوماً كانوا يدعون الملائكة، والمسيح، وعُزَيراً، فقال الله: هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله، ويرجونه، ويتقربون إليه كما تخافونه أنتم، وترجونه، وتتقربون إليه. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

(١) في المطبوعة: «أرأيتم»، والصحيح ما أثبتناه.

﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وتوحيد اللّه، وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته، في القرآن كثير جداً، بل هو قلب الإيمان ، وأول الإسلام وآخره، كما قال النبي ﷺ : «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه»[١]، وقال : «إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أَحَدٌ إلا وجد رُوحهُ لها روحا»[٢]، وقال :«من كان آخر كلامه لا إله إلا اللّه وجبت له الجنة»[٣]، وهو قلب الدين والإيمان، وسائر الأعمال كالجوارح له. وقول النبي ﷺ :«إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نَوَى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله، فهجرته إلى اللّه ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٤]، فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل. وإخلاص الدين للّه ، وعبادة اللّه وحده، ومتابعة الرسول فيما جاء به ، هو شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله.

ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري ما يقوله في قصائده في مدح الرسول من الاستغاثة به ، مثل قوله : بك أستغيث وأستعين وأستنجد، ونحو ذلك .

وكذلك ما يفعله كثير من الناس ، من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم، والاستعانة بهم أحياء وأمواتا، فإني أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة، وبينت للناس التوحيد ، ونفع اللّه بذلك ما شاء اللّه من الخاصة والعامة.

وهو دين الإسلام العام، الذي بعث اللّه به جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]،وقال:﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

---

(١) البخاري في الإيمان(٢٥) ، ومسلم في الإيمان(٢٢/٣٦) ،كلاهما عن ابن عمر رضي اللّه عنهما.

(٢) ابن ماجه في الأدب (٣٧٩٥) ، وأبو يعلى (٦٤١) ،كلاهما عن طلحة رضي اللّه عنه واللفظ لأبي يعلى، وذكره الهيثمي في المجمع ٢/ ٣٢٧ وقال:«رجاله رجال الصحيح».

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٣ ، ٢٤٧ عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه.

(٤) البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧/١٥٥)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧) وقال:« هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، وأحمد ١/ ٢٥، كلهم عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال : «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم» (١)، وقال لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»(٢).

ويدخل في العبادة الخشية ، والإنابة ، والإسلام، والتوبة ، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾[الأحزاب: ٣٩]، وقال: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[التوبة: ١٨]، وقال الخليل: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ .وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢]، وقال: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٣]، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: ٥٢]، وقال نوح: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣].

فجعل العبادة والتقوى لله، وجعل له أن يطاع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[النساء: ٦٤]، وكذلك قالت الرسل مثل نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وغيرهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩] ، فجعلوا التقوى لله، وجعلوا لهم أن يطاعوا. وكذلك في مواضع كثيرة جداً من القرآن: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وكذلك. . . (٣).

---

(١) البخاري في التوحيد(٧٣٧٣) ، ومسلم في الإيمان (٣٠/ ٥٠) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)، وأحمد ٣ / ٢٦٠، ٢٦١.

(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال: « هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

(٣) بياض في الأصل.

وقال : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، وقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤]، وقال عن إبراهيم : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وقالت بلقيس: ﴿ إِنِّي [ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ](١) أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:١٢٥]، وقال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [البقرة:١١٢]، وقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾[النور:٣١]، ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[الفرقان:٧١]، وقال: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤]، ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم :٨]. والاستغفار: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح:١٠] ، ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]، والاسترزاق والاستنصار، كما في صلاة الاستسقاء، والقنوت على الأعداء ، قال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت:١٧]، وقال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران:١٦٠]، والاستغاثة كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، والاستجارة كما قال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ(٢)﴾؟[المؤمنون:٨٨، ٨٩]، والاستعاذة كما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾الآية [النحل:٩٨]، وتفويض الأمر كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤].

وفي الحديث المتفق عليه في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أن يقال عند المنام: «اللّهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك»(٣).

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المطبوعة .

(٢) في المطبوعة :«أفلا تتقون » ، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) البخاري في الدعوات (٦٣١١، ٦٣١٣، ٦٣١٥) ، ومسلم في الذكر والدعاء(٢٧١٠/٥٦)، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٦)، والدارمي في الاستئذان ٢/ ٢٩٠، وأحمد ٤/٢٨٥، ٢٩٠، كلهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾[السجدة: ٤]، فالوليّ الذي يتولى أمرك كله، والشفيع الذي يكون شافعاً فيه أي عوناً ، فليس للعبد دون اللّه من وليّ يستقل ولا ظهير معين وقال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[يونس: ١٠٧] ، وقال: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[فاطر: ٢]، وقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ. قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الزمر: ٤٣ ، ٤٤]، وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ. وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء ، والاستغاثة ، والخشية، والرجاء، والإنابة ، والتوكل ، والتوبة ، والاستغفار: كل هذا للّه وحده لا شريك له ، فالعبادة متعلقة بألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، واللّه رب العالمين لا إله إلا هو ، ولا رب لنا غيره، لا ملك ولا نبي ولا غيره، بل أكبر الكبائر الإشراك باللّه وأن تجعل له ندا وهو خالقك، والشرك أن تجعل لغيره شركا أي نصيباً في عبادتك، وتوكلك، واستعانتك، كما قال من قال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وكما قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴾؟[الزمر: ٤٣]، وكما قال : ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ [السجدة : ٤].

وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها، من السجود ،والركوع ،والتسبيح ، والدعاء ، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا للّه وحده.

ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا للّه وحده، لا لشمس ، ولا لقمر ولا لملك،ولا لنبي ،ولا صالح ،ولا لقبر نبي ولا صالح ، هذا في جميع ملل الأنبياء،

وقد ذكر ذلك في شريعتنا حتى نهى أن يتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات، ولهذا نهى النبي ﷺ معاذاً أن يسجد له. وقال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[1]. ونهى عن الانحناء في التحية[2]، ونهاهم أن يقوموا خلفه في الصلاة وهو قاعد[3].

وكذلك الزكاة العامة، من الصدقات كلها والخاصة، لا يتصدق إلا لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[الإنسان: ٩]، وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم: ٣٩]، فلا يجوز فعل ذلك على طريق الدين لا لملك ولا لشمس؛ ولا لقمر؛ ولا لنبي؛ ولا لصالح؛ كما يفعل بعض السؤال والمعظمين كرامة لفلان وفلان؛ يقسمون بأشياء: إما من الأنبياء وإما من الصحابة وإما من الصالحين، كما يقال: بكر وعلي ونور الدين أرسلان والشيخ عدي والشيخ جاليد.

وكذلك الحج، لا يحج إلا إلى بيت الله، فلا يطاف إلا به، ولا يحلق الرأس إلا به، ولا يوقف إلا بفنائه، لا يفعل ذلك بنبي، ولا صالح، ولا بقبر نبي ولا صالح، ولا بوثن.

وكذلك الصيام، لا يصام عبادة إلا لله، فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر، ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك.

وهذا كله تفصيل الشهادتين، اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله، والإله من يستحق أن يألهه العباد، ويدخل فيه حبه وخوفه، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول.

ولما كان أصل الدين الشهادتين، كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة، والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]؛ ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات

---

(١) الترمذي في الرضاع (١١٥٩) وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٢)، وأحمد ٦/ ٧٦، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠٢)، وأحمد ٣/ ١٩٨، كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الأذان (٦٨٨)، ومسلم في الصلاة (٤١٣/ ٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٦٠٢)، والترمذي في الصلاة (٣٦١)، والنسائي في الإمامة (٨٣٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٤٠)، ومالك في صلاة الجماعة ١/ ١٣٥ (١٦).

الدين، كما عليه خلص أهل السنة، وذكره منصور السمعاني والشيخ عبد القادر وغيرهما؛ وجعله أصل الشرك؛ وغيروا بذلك ملة التوحيد التي هي أصل الدين؛ كما فعله قدماء المتفلسفة، الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

ومن أسباب ذلك : الخروج عن الشريعة الخاصة التي بعث الله بها محمداً ﷺ، إلى القدر المشترك الذي فيه مشابهة الصابئين، أو النصارى ، أو اليهود، وهو القياس الفاسد، المشابه لقياس الذين قالوا : ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] فيريدون أن يجعلوا السماع جنساً واحداً، والملة جنسا واحداً ، ولا يميزون بين مشروعة ومبتدعة، ولا بين المأمور به والمنهي عنه. فالسماع الشرعي الديني سماع كتاب الله وتزيين الصوت به وتحبيره. كما قال ﷺ : «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»[1] ، وقال أبو موسى : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً . والصور، والأزواج ، والسراريُّ التي أباحها الله تعالى، والعبادة: عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ ﴾[النور: ٣٦، ٣٧].

وهذا المعنى يقرر قاعدة اقتضاء الصراط المستقيم ، مخالفة أصحاب الجحيم، وينهى أن يشبه الأمر الديني الشرعي بالطبيعي البدعي ؛ لما بينهما من القدر المشترك كالصوت الحسن، ليس هو وحده مشروعاً حتى ينضم إليه القدر المميز، كحروف القرآن ، فيصير المجموع من المشترك ، والمميز هو الدين النافع.

---

(١) البخاري في التوحيد معلقًا (الفتح ١٣/٥١٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨)، والنسائي في الافتتاح (١٠١٥)، وابن ماجة في إقامة الصلاة (١٣٤٢)، والدارمي في فضائل القرآن ٢/ ٤٧٤، وأحمد ٤/٢٨٣، ٢٩٦ كلهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وقال ـ رحمه الله ـ:

فصـــل

في ألا يسأل العبد إلا الله

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[الشرح: ٧، 8] قال النبي ﷺ لابن عباس: « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[١]. وفي الترمذي «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»[٢]، وفي الصحيح، أنه قال لعدي بن مالك والرهط الذين بايعهم معه: «لا تسألوا الناس شيئاً» فكان سوط أحدهم يسقط من يده، فلا يقول لأحد ناولني إياه[٣]، وفي الصحيح في حديث السبعين ألفا، الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يَسْتَرقُونَ، ولا يَكتَوُون، ولا يَتَطَيَّرُون»[٤]، والاسترقاء طلب الرقية، وهو نوع من السؤال.

وأحاديث النهي عن مسألة الناس الأموال كثيرة كقوله:«لا تحل المسألة إلاَّ لثلاثة. .»[٥] وقوله: «لأن يأخذ أحدكم حبله. .» الحديث[٦]، وقوله: «لا تزال المسألة بأحدهم. .»[٧]، وقوله : «من سأل الناس ولـه ما يغنيه. . .»[٨]، وأمثال ذلك . وقوله : « من نزلت به فاقَةٌ فأنزلها بالناس ، لم تسد فاقته» الحديث [٩].

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٦

(٢) الحديث في تحفة الأشراف ١/١٠٧ وعزاه للترمذي، وهذا الحديث سقط من النسخة المطبوعة، وكذا عزاه ابن حجر في الفتح ٢/ ٣٠٠ للترمذي ، وانظر موارد الظمآن (٢٤٠٢) ، كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ابن ماجة في الزكاة (١٨٣٧)، وأحمد ٥/٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، كلاهما عن ثوبان رضي الله عنه.

(٤) البخاري في الطب (٥٧٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢١٨/٣٧٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٦)، وأحمد ١/٢٧١، ٤٠١، ٤٠٣.

(٥) مسلم في الزكاة (١٠٤٤/١٠٩) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٩)، وأحمد ٣/١١٤، ١٢٧، كلهم عن قبيصة بن مخارق ماعدا أحمد فعن أنس.

(٦) البخاري في الزكاة(١٤٧٠) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٩٩)، وأحمد ٢/٢٥٧، ٣٠٠ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) مسلم في الزكاة (١٠٤٠/١٠٣)، وأحمد ٢/١٥: ٨٨ ، كلاهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٨) أبو داود في الزكاة (١٦٢٦)، والترمذي في الزكاة (٦٥٠) وقال:« حديث حسن»، والنسائي في الزكاة (٢٥٩٢)، وابن ماجة في الزكاة (١٨٤٠)، وأحمد ١/٤٤١ ،كلهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٩) أبو داود في الزكاة (١٦٤٥)، والترمذي في الزهد(٢٣٢٦) وقال:« هذا حديث حسن صحيح غريب»، وأحمد ١/٤٠٧، ٤٤٢ ، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فأما سؤال ما يسوغ مثله من العلم ، فليس من هذا الباب؛ لأن المخبر لا ينقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب، والسائل محتاج إلى ذلك، قال ﷺ : « هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإن شفاء العيِّ السؤال» [(1)]. ولكن من المسائل ما ينهى عنه ، كما قال تعالى : ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ [المائدة: ١٠١]. وكنهيه عن أغلوطات المسائل ونحو ذلك.

وأما سؤله لغيره أن يدعو له: فقد قال النبي ﷺ لعمر : « لا تنسنا من دعائك»[(2)]، وقال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلّى عليّ مرة صلّى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة»[(3)]، وقد يقال في هذا : هو طلب من الأمة الدعاء له ؛ لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم. كما قال للذي قال : أجعل صلاتي كلها عليك ؟ فقال : « إذاً يَكْفِيكَ الله ما أَهَمَّكَ من أمر دنياك وآخرتك»[(4)]، فطلبه منهم الدعاء له لمصلحتهم ، كسائر أمره إياهم بما أمر به، وذلك لما في ذلك من المصلحة لهم، فإنه قد صح عنه أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة، إلا وكل الله به ملكا كلما دعا دعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثله»[(5)].

---

(١) أبو داود في الطهارة (٣٣٧) ، وابن ماجة في الطهارة (٥٧٢) ، وأحمد ١/ ٣٣٠ ، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه.

و«العَيُّ» : الجهل . انظر : النهاية ٣/ ٣٣٤.

(٢) أبو داود في الصلاة (١٤٩٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) وقال:« هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجة في المناسك (٢٨٩٤) ، كلهم عن عمر رضي الله عنه.

(٣) مسلم في الصلاة (٣٨٤/ ١١)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣)، والترمذي في المناقب (٣٦١٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الأذان (٦٧٨)، وأحمد ٢/ ١٦٨ ، كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٧)، وقال:« هذا حديث حسن صحيح» بلفظ:« أجعل لك صلاتي كلها، قال: إذا تكفي همك ويغفر لك ذنبك».

(٥) مسلم في الذكر والدعاء(٢٧٣٢/ ٨٦ م ،٨٧، ٢٧٣٣/ ٨٨)، وابن ماجة في المناسك (٢٨٩٥)، وأحمد ٥/ ١٩٥ . وذكره الإمام ابن تيمية بمعناه.

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

فصـــل

العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع ، فإن الإسلام مبني على أصلين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له . والثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾ الآية [الجاثية: ١٨، ١٩]، وقال تعالى : ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**﴾ [الشورى: ٢١].

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله ﷺ ، من واجب ومستحب ، لا نعبده بالأمور المبتدعة، كما ثبت في السنن من حديث الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح[(١)]. وفي مسلم أنه كان يقول في خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[(٢)].

وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده، فلا يصلي إلا لله، ولا يصوم إلا لله، ولا يحج إلا بيت الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يخاف إلا الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو لِيَصْمُتْ»[(٣)]. وفي السنن: « من حلف بغير الله فقد أشرك »[(٤)]، وعن ابن مسعود : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا »[(٥)] ؛ لأن الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله توحيد. وتوحيد معه كذب ، خير

(١) أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجة في المقدمة (٤٢)، والدارمي في المقدمة ١/ ٤٤، وأحمد ٤/ ١٢٦، ١٢٧، ونص الحديث: «.... وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة...».

(٢) مسلم في الجمعة (٨٦٧/ ٤٣).

(٣) البخاري في الأيمان والنذور(٦٦٤٦)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦/ ٣) ،كلاهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) أبو داود في الأيمان والنذور(٣٢٥١)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٥) وقال: « هذا حديث حسن» ، وأحمد ٢ / ٣٤ ، ٩٦ ، كلهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٥) الطبراني في الكبير (٨٩٠٢)، وذكره الهيثمي في المجمع ٤/ ١٨٠ وقال: «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح».

من شرك معه صدق، ولهذا كان غاية الكذب أن يعدل بالشرك، كما قال النبي ﷺ : «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » مرتين أو ثلاثاً [(1)]. وقرأ قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج : ٣١]، وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك، فكيف الناذر لغير الله ؟. والنذر أعظم من الحلف؛ ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به، باتفاق المسلمين. مثل أن ينذر لغير الله صلاة، أو صوماً ، أو حجا، أو عمرة، أو صدقة.

ولو حلف ليفعلن شيئا، لم يجب عليه أن يفعله، قيل: يجوز له أن يكفر عن اليمين، ولا يفعل المحلوف عليه، كما قال النبي ﷺ :« من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ، ولْيُكَفِّر عن يمينه»[(2)]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل» [(3)] ، فإذا كان النذر لا يأتي بخير فكيف بالنذر للمخلوق؟ ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان في طاعة ، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء ، وإنما تنازعوا: هل فيه بدل، أو كفارة يمين، أم لا؟ لما رواه البخاري في صحيحه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من نَذَرَ أن يطيع الله فَلْيُطعْه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعْصِه»[(4)].

فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة، أو يدفع عنه مضرة، فهو من الضالين، كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة، أو تدفع عنهم مضرة.

وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين ، وقد تخاطبهم بكلام، وقد تحمل أحدهم في الهواء ، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة، وقد تأتيه بنفقة أو طعام، أو كسوة ، أو غير ذلك ، كما جرى مثل ذلك لعبَّاد الأصنام من العرب وغير العرب، وهذا كثير ، موجود في هذا الزمان ، وغير هذا الزمان، للضالين المبتدعين المخالفين للكتاب والسنة، إما بعبادة غير الله، وإما بعبادة لم يشرعها الله.

---

(١) أبو داود في الأقضية (٣٥٩٩)، وابن ماجة في الأحكام (٢٣٧٢)، وأحمد ٤/ ٣٢١ كلهم عن خريم بن فاتك الأسدي.

(٢) مسلم في الأيمان (١٦٥٠/ ١٣) ، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال:« حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح» ، والنسائي في الكبرى في الأيمان والكفارات (٤٧٢٢/ ٢) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٧٧) ، والنسائي في الكبرى في الأيمان والنذور(٤٧٢٤/ ٤) كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الأيمان والنذور(٦٦٩٢)، ومسلم في النذر (١٦٣٩/ ٤) كلاهما عن عبد الله بن عمر واللفظ لمسلم.

(٤) البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) عن عائشة رضي الله عنها.

وهؤلاء إذا أظهر أحدهم شيئاً خارقاً للعادة لم يخرج عن أن يكون حالاً شيطانياً، أو محالاً بهتانياً فخواصهم تقترن بهم الشياطين، كما يقع لبعض العقلاء منهم ، وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء ، لكن لا تقترن بهم الشياطين إلا مع نوع من البدعة، إما كفر ، وإما فسق، وإما جهل بالشرع. فإن الشيطان قصده إغواء بحسب قدرته، فإن قدر على أن يجعلهم كفاراً جعلهم كفاراً وإن لم يقدر إلا على جعلهم فساقاً ، أو عصاة، وإن لم يقدر إلا على نقص عملهم ودينهم، ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التي بعث اللّه بها رسوله ﷺ فينتفع منهم بذلك !!

ولهذا قال الأئمة : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي ، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير في الهواء وتكون الشياطين هي التى تحمله، لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين.

ومن هؤلاء : من يحمله الشيطان إلى عرفات فيقف مع الناس ، ثم يحمله فيرده إلى مدينته تلك الليلة، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء اللّه، ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا، وإن اعتقد أن هذا طاعة وقربة إليه، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لأن الحج الذي أمر اللّه به ورسوله لابد فيه من الإحرام، والوقوف بعرفة، ولابد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة؛ فإنه ركن لا يتم الحج إلا به، بل عليه أن يقف بمزدلفة، ويرمي الجمار ويطوف للوداع، وعليه اجتناب المحظورات، والإحرام من الميقات، إلى غير ذلك من واجبات الحج. وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم في الهواء ، ويحمل أحدهم بثيابه، فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة. حتى يرى في اليوم الواحد ببلده ويرى بعرفة.

ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة، فيراه من يعرفه واقفاً ، فيظن أنه ذلك الرجل وقف بعرفة! . فإذا قال له ذلك الشيخ: أنا لم أذهب العام إلى عرفة، ظن أنه ملك خلق على صورة ذلك الشيخ، وإنما هو شيطان تمثل على صورته، ومثل هذا وأمثاله يقع كثيراً ، وهي أحوال شيطانية، قال تعالى : ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[الزخرف:٣٦] . وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزله على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[الحجر:٩] وقال تعالى: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾ إلى قوله: ﴿**كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾ [طه:١٢٣-١٢٦] ونسيانها هو ترك الإيمان والعمل بها، وإن حفظ حروفها ، قال ابن عباس : « تكفل اللّه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يَشْقَى في الآخرة» وقرأ هذه الآية ، فمن اتبع ما بعث اللّه به رسوله محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة هداه اللّه وأسعده، ومن

أعرض عن ذلك ضل وشقي، وأضله الشيطان وأشقاه.

فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان، فإن هذه حال أوليائه، قال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[يونس: ٦٢، ٦٣] وتكون نعمة للّه على عبده المؤمن في دينه ودنياه، فتكون الحجة في الدين والحاجة في الدنيا للمؤمنين، مثل ما كانت معجزات نبينا محمد ﷺ: كانت الحجة في الدين والحاجة للمسلمين، مثل البركة التي تحصل في الطعام والشراب، كنبع الماء من بين أصابعه، ومثل نزول المطر بالاستسقاء، ومثل قهر الكفار وشفاء المريض بالدعاء، ومثل الأخبار الصادقة، والنافعة بما غاب عن الحاضرين، وأخبار الأنبياء لا تكذب قط.

وأما أصحاب الأحوال الشيطانية، فهم من جنس الكهان، يكذبون تارة ويصدقون أخرى، ولا بد في أعمالهم من مخالفة للأمر، قال تعالى: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسا الخبائث من النجاسات والأقذار، التي تحبها الشياطين، ومرتكبا للفواحش، أو ظالما للناس في أنفسهم وأموالهم، وغير ذلك، واللّه تعالى قد حرم ﴿ **الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ** ﴾ الآية [الأعراف: ٣٣].

وأولياء اللّه هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، وهذه جملة لها بسط طويل لا يتسع له هذا المكان، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام:

فصـــل جامع

قد كتبتُ فـيما تقدم في مواضع قبـلُ بعض القواعد ، وآخر مسودة الـفقه: أن جماع الحسنات العدل ، وجماع السيئات الظلم، وهذا أصل جامع عظيم.

وتفـصيل ذلك: أن الـلّه خلق الخلـق لعبادتـه، فهذا هـو المقصود المـطلوب لجمـيع الحسنات، وهو إخـلاص الدين كله للّه، وما لم يحـصل فيه هذا المقصود، فلـيس حسنة مطلقة مـستوجبة لثواب اللّه في الآخـرة، وإن كان حسنة من بعض الـوجوه له ثواب في الدنيا، وكل ما نهي عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة ، ووضع للشيء في غير موضعه فهو ظلم.

ولهذا؛ جمع بينهما -سبحانه- في قوله : ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾[الأعراف: ٢٩] فهذه الآية في سورة الأعراف المشتملة على أصول الدين، والاعتصام بالكتاب، وذم الـذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به اللّه، كالشرك وتحريم الطيبـات، أو خالفوا ما شرعه اللّه من أمور دينهم. كإبـليس ، ومخالفي الرسل من قوم نوح إلى قـوم فرعون، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكـتاب، فاشتملت السورة على ذم مـن أتى بدين باطل ككفار الـعرب، ومن خالف الدين الحق كلـه كالكفار بالأنبياء ، أو بعضه ككفار أهل الكتاب.

وقد جمع ـ سبحانه ـ في هذه السـورة وفـي الأنعــام وفـي غيرهمـا ذنـوب المشركـين في نوعين:

أحدهما : أمر بما لم يأمر اللّه به كالشرك، ونهي عما لم ينه اللّه عنه كتحريم الطيبات فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به اللّه. والثاني: تحريم لما لم يحرّمه اللّه.

وكذلك فـي الحديث الصحيـح حديث عياض بـن حمار، عن النبـي ﷺ ، عن اللّه تعالى : « إني خلقت عبادي حُنَفَاءَ فاجتالتهم الشـياطين، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا» [١].

ولهذا كان ابـتداع العبادات البـاطلة، من الشرك ونحـوه، هو الغالب علـى النصارى

---

(١) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥/٦٣).

و «فاجتالتهم الشياطين» : أي استخفتهم ، فجالوا معهم في الضلال. انظر: النهاية ٣١٧/١.

ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة، والمتصوفة. وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة، بل أصل دين اليهود فيه آصار وأغلال من التحريمات؛ ولهذا قال لهم المسيح: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران: ٥٠]، وأصل دين النصارى فيه تـألّه بألفاظ متشابهة ، وأفعال مجملة، فالذين في قلوبهم زيغ اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما قررته في غير هذا الموضع : بأن توحيد اللّه الذي هو إخلاص الدين له ، والعدل الذي نفعله نحن هو جماع الدين يرجع إلى ذلك، فإن إخلاص الدين للّه أصل العدل، كما أن الشرك باللّه ظلم عظيم.

وقال شيخ الإسلام :

اعلم ـ رحمك الله ـ أن الشرك بالله أعظم ذنب عُصي الله به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦] وفي الصحيحين أنه ﷺ سئل: أي الذنب أعظم ؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[1]!!. والند المثل قال تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]،وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر:٨]. فمن جعل لله نداً من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة.

فإن الله ـ سبحانه ـ هو المستحق للعبادة لذاته؛ لأنه المألوه المعبود ، الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية، فكيف يصلح أن يكون إلها؟ ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف:١٥]، وقال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وقال الله تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:١٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات:٥١]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١]، فالله ـ سبحانه ـ هو المستحق أن يعبد لذاته ، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢]، فذكر (الحمد) بالألف واللام التي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد، فدل على أن الحمد كله لله، ثم حصره في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] . فهذا تفصيل لقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه، فقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته: من المحبة والخوف ، والرجاء، والأمر، والنهي. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية، من التوكل والتفويض والتسليم؛ لأن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو المالك، وفيه أيضاً معنى الربوبية والإصلاح، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء .

---

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٢٠)، (٧٥٣٢)، ومسلم في الإيمان (٨٦/ ١٤١) عن عبد الله رضي الله عنه.

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى ، قال تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] فلا يرى نفعا، ولا ضرا، ولا حركة، ولا سكونًا، ولا قبضا، ولا بسطا ، ولا خفضًا ، ولا رفعًا ، إلا والله ـ سبحانه وتعالى ـ فاعله، وخالقه، وقابضه ، وباسطه ، ورافعه ، وخافضه. فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات، وهو علم صفة الربوبية. والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفيات .

فالتحقيق بالأمر والنهي ، والمحبة والخوف والرجاء ، يكون عن كشف علم الإلهية.

والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية ، وهو علم التدبير الساري في الأكوان، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل: ٤٠] . فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه لذلك ، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين، فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم، والجمال داخل في مشهد الربوبية.

ولهذا قيل : إن هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؛ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي ، والمحبة والخوف ، والرجاء، كما ذكرنا، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم ، وترك الاختيار، وجميع العبوديات داخلة في ذلك.

ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول ، ورأى قيام الله عز وجل على جميع الأشياء ، وهو القيام على كل نفس بما كسبت ، وتصرفه فيها ، وحكمه عليها ، فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه، وإرادته القدرية ، فغاب بما لاحظ عن التمييز والفرق، وعطل الأمر والنهي والنبوات، ومرق من الإسلام مروق السهم من الرَّمِيَّة.

وإن كان ذلك المشهد قد أدهشه وغيب عقله، لقوة سلطانه الوارد، وضعف قوة البصيرة؛ أن يجمع بين المشهدين، فهذا معذور منقوص إلا من جمع بين المشهدين: الأمر الشرعي،ومشهد الأمر الكوني الإرادي. وقد زلت في هذا المشهد أقدام كثير من السالكين،لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين؛ وذلك لأنهم عبدوا الله على مرادهم منه، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق ـ عز وجل ـ منهم؛ لأن الحق يغني بمراده ومحبوبه، ولو عبدوا الله على مراده منهم لم ينلهم شيء من ذلك، لأن العبد إذا شهد عبوديته ولم يكن مستيقظاً لأمر سيده، لا يغيب بعبادته عن معبوده، ولا بمعبوده عن عبادته، بل يكون له عينان ينظر بأحدهما إلى المعبود كأنه يراه؛ كما قال ﷺ لما سئل عن الإحسان: «أن تعبد الله

كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، والأخرى ينظر بها إلى أمر سيده، ليوقعه على الأمر الشرعي الذي يحبه مولاه ويرضاه.

فإذا تقرر هذا ، فالشرك إن كان شركاً يكفر به صاحبه. وهو نوعان:

شرك في الإلهية ، وشرك في الربوبية.

فأما الشرك في الإلهية فهو: أن يجعل للّه نداً ، أي : مثلا في عبادته، أو محبته، أو خوفه ، أو رجائه،أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره اللّه إلا بالتوبة منه، قال تعالى: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾** [الأنفال:٣٨] وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب ؛ لأنهم أشركوا في الإلهية ، قال اللّه تعالى : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** الآية [البقرة: ١٦٥]،وقالوا: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾**الآية [الزمر:٣]،وقالوا: **﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾**![ص:٥]، وقال تعالى : **﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾** إلى قوله : **﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾** [ق: ٢٤-٢٦].

وقال النبي ﷺ لحُصَيْن : «كم تعبد؟ » قال : ستة في الأرض وواحدا في السماء . قال : « فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك؟» قال : الذي في السماء . قال : « ألا تسلم فأعلمك كلمات؟» فأسلم. فقال النبي ﷺ : « قل : اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي»[2].

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها ، قال اللّه تعالى :**﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾** [لقمان:٢٥]، وقال :**﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾** إلى قوله :**﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾**؟ [المؤمنون:٨٤-٨٩]، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تُنَزِّل الْغَيْثَ ، وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم كما ذكرنا، اتخذوا من دون اللّه أنداداً يحبونهم كحب اللّه، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون اللّه كما يحب اللّه تعالى، فقد أشرك، وهذا كقوله :**﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا**

---

(١) البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩/٥)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٥)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) ، وابن ماجة في المقدمة (٦٣)، وأحمد ٢٧/١، ٥١.

(٢) الترمذي في الدعوات (٣٤٨٣) ، وقال: « هذا حديث غريب» عن عمران بن حصين رضي اللّه عنه.

يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء: ٩٦-٩٨] . وكذا من خاف أحداً كما يخاف اللّه، أو رجاه كما يرجو اللّه، وما أشبه ذلك.

وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ، فإن الرب -سبحانه- هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره، فقد أشرك بربوبيته.

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك ، فلينظر إلى المعطي الأول مثلا، فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه ، لقوله عليه السلام : «من أسْدَى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه »[1] لأن النعم كلها لله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]،وقال تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فاللّه ـ سبحانه ـ هو المعطي على الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده ، فالمعطي هو الذي أعطاه ، وحرك قلبه لعطاء غيره. فهو الأول والآخر.

ومما يقوي هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك ، رُفعت الأقلام وجَفَّت الصُّحُفُ» قال الترمذي: هذا حديث صحيح[2]. فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا اللّه، ولا يضر غيره، وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية.

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم، وأراح الناس من لَوْمه وذَمِّه إياهم، وتجرَّد التوحيد في قلبه ، فقوي إيمانه، وانشرح صدره، وتنور قلبه، ومن توكل على اللّه فهو حسبه، ولهذا قال الفُضَيْل بن عِياض -رحمه الله- : من عرف الناس استراح . يريد - والله أعلم - أنهم لا ينفعون ولا يضرون.

وأما الشرك الخفي : فهو الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه، مثل : أن يحب مع اللّه غيره.

---

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)، وأحمد ٦٨/٢، ٩٦، كلهم عن ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال: « هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد ٢٩٣/١، ٣٠٣، ٣٠٧ ، كلاهما عن عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين، والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب؛ لأن هذه تدل على حقيقة المحبة، لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته ؛لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الآية [آل عمران:٣١]. فَلَيْسَ الْكَلَام في هذا. إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى ، فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى، إذ لو كملت محبته، لم يحب سواه.

ولا يرد علينا الباب الأول؛ لأن ذلك داخل في محبته. وهذا ميزان لم يجر عليك كلما قويت محبة العبد لمولاه، صغرت عنده المحبوبات وقلت، وكلما ضعفت ، كثرت محبوباته وانتشرت.

وكذا الخوف ، والرجاء ، وما أشبه ذلك ، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه، قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته. يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة ، وكذا الرجاء وغيره، فهذا هو الشرك الخفي، الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه، إلا من عصمه الله تعالى . وقد روي أن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل[1] .

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها : الإخلاص لله عز وجل، قال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد ، ولا زهد إلا بتقوى ، والتقوى متابعة الأمر والنهي.

فصـــل

ولابد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل ، فتعتصم به ، فتقل آفاتها، أو تذهب عنها بالكلية، بحول الله وقوته.

فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة ، والخوف ، والرجاء . وأقواها المحبة ، وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة

(١) أحمد ٤٠٣/٤ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ولفظه: « اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل..».

بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة ، قال اللّه تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس :٦٢]، والخوف المقصود منه : الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم، يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً للّه لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان، قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب ؟ قلنا :يحركها شيئان:

أحدهما : كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر اللّه عز وجل بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] .

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال اللّه تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤].

فإذا ذكر العبد ما أنعم اللّه به عليه، من تسخير السماء والأرض ، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة، من الإيمان وغيره، فلابد أن يثير ذلك عنده باعثا، وكذلك الخوف ، تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض ، والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء ، يحركه مطالعة الكرم، والحلم، والعفو.

وما ورد في الرجاء والكلام في التوحيد واسع. وإنما الغرض التنبيه على تضمنه الاستغناء بأدنى إشارة، واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم ، وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه وسلم.

وَقَال شَيْخ الإسْلاَم ـ رَحمه اللّه ـ :

فَصْل

ذكر الله عن إمامنا إبراهيم خليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١ ، ٨٢] .

وفى الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود؛أن النبي ﷺ فسر الظلم بالشرك وقال: «ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾؟» (١). فأنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسفليات ، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكا لم ينزل الله به سلطاناً ، وبين أن القسم الذى لم يشرك هو الآمن المهتدى .

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف في مواضع ، فإن الإشراك فى هذه الأمة أخفى من دَبِيب النمل ، دع جليله ، وهو شرك فى العبادة والتأله ،وشرك فى الطاعة والانقياد ، وشرك فى الإيمان والقبول .

فالغالية من النصارى والرافضة وضُلاَّل الصوفية والفقراء والعامة يشركون بدعاء غير الله تارة ، وبنوع من عبادته أخرى ، وبهما جميعاً تارة ، ومن أشرك هذا الشرك أشرك فى الطاعة .

وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء ، يشركون شرك الطاعة ، وقد قال النبى ﷺ لعُدىّ بن حاتم لما قرأ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] فقال : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، فقال : « ما عبدوهم ، ولكن أحَلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم » (٢) .

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٧٦) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : « هذا حديث غريب . . . » .

حلله، والدين ما شرعه، إما دينًا وإما دنيا، وإمـا دنيا ودينًا. ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئا في طاعته بغير سلطان من اللّه، وبهذا يخرج من أوجب اللّه طاعته من رسول ، وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

وأما الشـرك الثالث : فكثـير من أتباع المـتكلمة، والمـتفلسفة ، بـل وبعض المتفـقهة والمتـصوفة، بل وبـعض أتباع المـلوك والقضـاة ، يقبـل قول متبـوعه فيمـا يخبر بـه من الاعتقادات الخبرية، ومن تصحيح بعض المقـالات وإفساد بعضها، ومدح بعضها، وبعض القائلين، وذم بعـض ، بلا سلطان من اللّه. ويخاف ما أشركـه في الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه باللّه شخصاً في الإيمان به ، وقبول قوله بغير سلطان من اللّه.

وبهذا يـخرج من شرع الـلّه تصديقـه من المرسلين، والـعلماء المـبلغين ، والـشهداء الصادقين، وغيـر ذلك . فباب الطاعة والتصديـق ينقسم إلى مشروع في حق الـبشر وغير مشروع.

وأما العبادة والاستـعانة والتأله، فلا حق فيهـا للبشر بحال، فإنه كمـا قال القائل: ما وضعـت يدي في قَصْعَةِ أحـد إلا ذللت لـه ! . ولا ريب أن من نـصرك ورزقك كـان له سلطـان عليك، فالمـؤمن يريد ألا يكون عـليه سلطـان إلا للّه ولرسوله، ولمـن أطاع اللّه ورسوله، وقبول مال الناس فيه سلطان لهم عليه، فإذا قصد دفع هذا السلطان وهذا القهر عن نفسه، كان حسنـاً محموداً ، يصح له دينه بذلك، وإن قصد التـرفع عليهم والترؤس والمراءاة بالحـال الأولى كان مذمـوماً ، وقد يقـصد بترك الأخـذ غنى نفـسه عنهـم ويترك أموالهم لهم.

فهذه أربع مقاصد صالحة: غنى نفسه وعزتـها حتى لا تفتقر إلى الخلق ولا تذل لهم، وسلامة مالهـم ودينهم عليهم حـتى لا تنقص عليهـم أموالهم ، فلا يذهبهـا عنهم ، ولا يوقعهم بأخذها منـهم فيما يكره لهم من الاستيلاء عليه، فـفي ذلك منفعة له ألا يذل ولا يفتقر إليهم، ومنفـعة لهم أن يبقى لهم مالهم ودينهم، وقد يكون فـي ذلك منفعة بتأليف قلوبهم بـإبقاء أموالهم لهم ، حتـى يقبلوا منه، ويتألـفون بالعطاء لهم، فكـذلك في إبقاء أموالهم لهم، وقد يكون في ذلك أيضاً حفظ دينـهم فإنهم إذا قبل منهم المال قد يطمعون هم أيضاً في أنواع من المعاصي ، ويتركون أنواعا من الطاعات، فلا يقبلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ذلك منافع ومقاصد أخر صالحة .

وأما إذا كان الأخذ يفضي إلى طمع فيه حتى يستعان به في معصية أو يمنع من طاعة، فتلك مفاسد أخر، وهي كثيرة ترجع إلى ذله وفقـره لهم، فإنهم لا يتمكنون من منعه من

طاعة إلا إذا كان ذليلاً أو فقيراً إليهم، ولا يتمكنون هم من استعماله في المعصية إلا مع ذله أو فقره، فإن العطاء يحتاج إلى جزاء ومقابلة، فإذا لم تحصل مكافأة دنيوية من مال أو نفع لم يبق إلا ما ينتظر من المنفعة الصادرة منه إليهم.

وللرد وجوه مكروهة مذمومة، منها : الرد مراءاة بالتشبه بمن يرد غنى وعزة ورحمة للناس في دينهم ودنياهم، ومنها : التكبر عليهم والاستعلاء حتى يستعبدهم، ويستعلي عليهم بذلك، فهذا مذموم أيضاً . ومنها : البخل عليهم فإنه إذا أخذ منهم احتاج أن ينفعهم، ويقضي حوائجهم ، فقد يترك الأخذ بُخْلا عليهم بالمنافع. ومنها : الكسل عن الإحسان إليهم، فهذه أربع مقاصد فاسدة في الرد للعطاء : الكبر، والرياء ، والبخل ، والكسل .

فالحاصل : أنه قد يترك قبول المال لجلب المنفعة لنفسه، أو لدفع المضرة عنها، أو لجلب المنفعة للناس، أو دفع المضرة عنهم، فإن في ترك أخذه غنى نفسه وعزها، وهو منفعة لها، وسلامة دينه ودنياه مما يترتب على القبول من أنواع المفاسد ، وفيه نفع الناس بإبقاء أموالهم ودينهم لهم ، ودفع الضرر المتولد عليهم إذا بذلوا بذلاً قد يضرهم، وقد يتركه لمضرة الناس ، أو لترك منفعتهم ، فهذا مذموم كما تقدم، وقد يكون في الترك أيضا مضرة نفسه، أو ترك منفعتها، إما بأن يكون محتاجاً إليه فيضره تركه، أو يكون في أخذه وصرفه منفعة له في الدين والدنيا، فيتركها من غير معارض مقاوم؛ فلهذا فصلنا هذه المسألة، فإنها مسألة عظيمة، وبإزائها مسألة القبول أيضا، وفيها التفصيل، لكن الأغلب أن ترك الأخذ كان أجود من القبول ؛ ولهذا يعظم الناس هذا الجنس أكثر، وإذا صح الأخذ كان أفضل، أعني الأخذ والصرف إلى الناس .

سئل الشيخ ـ رحمه اللّه ـ عمن قال ـ : يجوز الاستغاثة بالنبي ﷺ في كل ما يستغاث اللّه تعالى فيه : على معنى أنه وسيلة من وسائل اللّه تعالى في طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الأنبياء والصالحين في كل ما يستغاث اللّه تعالى فيه .

وأما من توسل إلى الله تعالى بنبيه في تفريج كربة فقد استغاث به، سواء كان ذلك بلفظ الاستغاثة ، أو التوسل ، أو غيرهما مما هو في معناهما ، وقول القائل : أتوسل إليك يا إلهي برسولك ! أو أستغيث برسولك عندك، أن تغفر لي ، استغاثة بالرسول حقيقية في لغة العرب وجميع الأمم.

قال: ولم يزل الناس يفهمون معنى الاستغاثة بالشخص ، قديما وحديثا، وأنه يصح إسنادها للمخلوقين ، وأنه يستغاث بهم على سبيل التوسل ، وأنها مطلقة على كل من سأل تفريج الكربة بواسطة التوسل به، وأن ذلك صحيح في أمر الأنبياء والصالحين.

قال : وفيما رواه الطبراني عن النبي ﷺ : أن بعض الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ قال: استغيثوا برسول اللّه ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ :«إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث باللّه»[1]. إن النبي ﷺ لو نفى عن نفسه أنه يستغاث به ، ونحو ذلك ، يشير به إلى التوحيد ، وإفراد الباري بالقدرة، لم يكن لنا نحن أن ننفي ذلك، ونجوز أن نطلق أن النبي ﷺ والصالح يستغاث به ، يعني في كل ما يستغاث فيه باللّه تعالى ، ولا يحتاج أن يقول على سبيل أنه وسيلة وواسطة، وأن القائل لا يستغاث به متنقصا له، وانه كافر بذلك، لكنه يعذر إذا كان جاهلا، فإذا عرف معنى الاستغاثة ثم أصر على قوله بعد ذلك صار كافراً .

والتوسل به استغاثة به كما تقدم ، فهل يعرف أنه قال أحد من علماء المسلمين: إنه يجوز أن يستغاث بالنبي ﷺ والصالح ، في كل ما يستغاث به اللّه تعالى ؟ وهل يجوز إطلاق ذلك؟ كما قال القائل، وهل التوسل بالنبي ﷺ ، أو الصالح أو غيرهما إلى اللّه تعالى في كل شيء استغاثة بذلك المتوسل به؟ كما نقله هذا القائل عن جميع اللغات، وسواء كان التوسل بالنبي ﷺ أو الصالح استغاثة به، أو لم يكن ، فهل يعرف أن أحدا من العلماء قال : إنه يجوز التوسل إلى اللّه بكل نبي وصالح؟ فقد أفتى الشيخ عز الدين

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٢ عن عبادة بن الصامت وقال:« رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث » ، وأحمد ٥/٣١٧ ولكن بغير هذا السياق.

ابن عبد السلام في فتاويه المشهورة: أنه لا يجوز التوسل إلى اللّه تعالى إلا بالنبي ﷺ، إن صح الحديث فيه، فهل قال أحد خلاف ما أفتى به الشيخ المذكور؟

وبتقدير أن يكون في المسألة خلاف، فمن قال: لا يتوسل بسائر الأنبياء والصالحين، كما أفتى الشيخ عز الدين؟ هل يكفر كما كفره هذا القائل ؟ ويكون ما أفتى به الشيخ كفراً، بل نفس التوسل به لو قال قائل: لا يتوسل به، ولا يستغاث به، إلا في حياته وحضوره، لا في موته ومغيبه، هل يكون ذلك كفراً ؟ أو يكون تنقصا؟

ولو قال : ما لا يقدر عليه إلا اللّه تعالى لا يستغاث فيه إلا باللّه، أي : لا يطلب إلا من اللّه تعالى هل يكون كفراً ،أو يكون حقا؟ وإذا نفى الرسول ﷺ عن نفسه أمراً من الأمور لكونه من خصائص الربوبية، هل يحرم عليه أن ينفيه عنه أم يجب ، أم يجوز نفيه؟ أفتونا ـ رحمكم اللّه ـ بجواب شاف كاف ، موفقين مثابين ـ إن شاء اللّه تعالى .

الجواب :

الحمد للّه رب العالمين . لم يقل أحد من علماء المسلمين : أنه يستغاث بشيء من المخلوقات ، في كل ما يستغاث فيه باللّه تعالى ، لا بنبي، ولا بملك ، ولا بصالح، ولا غير ذلك، بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، أنه لا يجوز إطلاقه.

ولم يقل أحد : إن التوسل بنبي ، هو استغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان، أو بحرمته، أو أتوسل إليك باللوح والقلم، أو بالكعبة، أو غير ذلك ، مما يقولونه في أدعيتهم ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور، فإن المستغيث بالنبي ﷺ طالب منه وسائل له ، والمتوسل به لا يدعي ولا يطلب منه ولا يُسأل، وإنما يُطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به.

والاستغاثة طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون، والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه منها، كما قال تعالى : **﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾**[الأنفال : ٧٢]، وكما قال: **﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾**[القصص: ١٥]، وكما قال تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾** [المائدة: ٢].

وأمَّا ما لا يقدر عليه إلا اللّه ، فلا يطلب إلا من اللّه؛ ولهذا كان المسلمون لا يستغيثون بالنبي ﷺ ويستسقون به، ويتوسلون به ، كما في صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب -رضي اللّه عنه- استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك

بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون[1].

وفي سنن أبى داود : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نستشفع بالله عليك، ونستشفع بك على الله، فقال : «شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه»[2] فأقره على قوله: نستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله: نستشفع بالله عليك.

وقد اتفق المسلمون على أن نبينا شفيع يوم القيامة، وأن الخلق يطلبون منه الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأما عند الوعيدية فإنما يشفع في زيادة الثواب.

وقول القائل : إن من توسل إلى الله بنبي، فقال : أتوسل إليك برسولك، فقد استغاث برسوله حقيقة، في لغة العرب وجميع الأمم، قد كذب عليهم، فما يعرف هذا في لغة أحد من بني آدم، بل الجميع يعلمون أن المستغاث المسؤول به مدعو، ويفرقون بين المسؤول والمسؤول به ، سواء استغاث بالخالق أو بالمخلوق ، فإنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على النصر فيه، والنبي ﷺ أفضل مخلوق يستغاث به في مثل ذلك .

ولو قال قائل لمن يستغيث به : أسألك بفلان، أو بحق فلان، لم يقل أحد: إنه استغاث بما توسل به، بل إنما استغاث بمن دعاه، وسأله؛ ولهذا قال المصنفون في شرح أسماء الله الحسنى: إن المغيث بمعنى المجيب ، لكن الإغاثة أخص بالأفعال ، والإجابة أخص بالأقوال.

والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ - سواء سُمِّيَ استغاثة أو لم يُسَمَّ - لا نعلم أحداً من السلف فعله. ولا روى فيه أثراً ، ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع، وأما التوسل بالنبي ﷺ ، ففيه حديث في السنن، رواه النسائي والترمذي وغيرهما : أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت في بصري فادع الله لي ، فقال له النبي ﷺ: «توضأ وصلِّ ركعتين ، ثم قل : اللّهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، يامحمد، إني أتَشَفَّع بك في ردّ بَصَري. اللّهم شَفِّع نبيك في» [3] ، وقال : « فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك» فرد الله بصره. فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به.

وللناس في معنى هذا قولان:

---

(١) البخاري في الاستسقاء (١٠١٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٢٦).

(٣) الترمذي في الدعوات (٣٥٧٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٤٩٤/١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) كلهم عن عثمان بن حنيف.

أحدهما : أن هذا التوسل هو الذي ذكر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما قال : كنا إذا أجْدَبْنَا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا [1] ، فقد ذكر عمر ـ رضي الله عنه ـ : أنهم كانوا يتوسلون به في حياته في الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم به هو استسقاؤهم به ، بحيث يدعو ويدعون معه ، فيكون هو وسيلتهم إلى الله ، وهذا لم يفعله الصحابة بعد موته ولا في مغيبه ، والنبي ﷺ كان في مثل هذا شافعاً لهم ، داعيا لهم ؛ ولهذا قال في حديث الأعمى : اللّهم فشفعه في . فعلم أن النبي ﷺ شفع له ، فسأل الله أن يشفعه فيه .

والثاني : أن التوسل يكون في حياته، وبعد موته، وفي مغيبه وحضرته، ولم يقل أحد: إن من قال بالقول الأول فقد كفر، ولا وجه لتكفيره، فإن هذه مسألة خفية، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك. واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع، كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح، وليس هو من مسائل السب عند أحد من المسلمين .

وأما من قال : إن من نفى التوسل الذي سماه استغاثة بغيره كفر، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب ، بل المُكَفِّر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله، من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبي ﷺ : «من قال لأخيه: كافر فقد باء بها أحدهما»[2].

وأما من قال : ما لا يقدر عليه إلا الله لا يستغاث فيه إلا به، فقد قال الحق ، بل لو قال كما قال أبو يزيد : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن ، فإن مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة المطلقة، كما قال النبيﷺ لابن عباس: « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[3].

وإذا نفى الرسول عن نفسه أمراً كان هو الصادق المصدوق في ذلك ، كما هو الصادق المصدوق في كل ما يخبر به من نفي ، وإثبات ، وعلينا أن نصدقه في كل ما أخبر به ،

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) البخارى في الأدب (٦١٠٤) ، ومسلم في الإيمان (٦٠ / ١١١) ، والترمذى في الإيمان (٣٦٣٧) ، ومالك في الكلام ٢ / ٨٩٤ (١) ، وأحمد ١٨/٢ ، ٤٤ ، كلهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه ص ٥٦ .

من نفي ، وإثبات ، ومن رد خبره تعظيما له ، أشبه النصارى ، الذين كذبوا المسيح في إخباره عن نفسه بالعبودية ، تعظيما له ، ويجوز لنا أن ننفي ما نفاه ، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة، والله أعلم.

وسئل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ـ رضي الله عنه ـ:

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ،وفقهم اللّه لطاعته، فيمن يقول: لا يستغاث برسول اللّه ﷺ ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وإن استدل بآيات من كتاب اللّه وأحاديث رسوله ﷺ هل ينفعه دليله أم لا ؟ وإذا قام الدليل من الكتاب والسنة فما يجب على من يخالف ذلك ؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب :

الحمد للّه، قد ثبت بالسنة المستفيضة، بل المتواترة، واتفاق الأمة: أن نبينا ﷺ الشافع المشفع، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة وأن الناس يستشفعون به، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم وأنه يشفع لهم.

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضُلال، وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل .

وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه؟

وأما من أقر بشفاعته وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ، كما رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون[1] . وفي سنن أبي داود وغيره أن أعرابيا قال للنبي ﷺ: جهدت الأنفس، وجاع العيال ،وهلك المال، فادع اللّه لنا، فإنا نستشفع بك على اللّه ونستشفع باللّه عليك . فسبح رسول اللّه ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال : « ويحك، إن اللّه لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن اللّه أعظم من ذلك»[2]، وذكر تمام الحديث فأنكر قوله: نستشفع باللّه عليك، ولم ينكر قوله: نستشفع بك على اللّه، بل أقره عليه، فعلم جوازه. فمن أنكر هذا فهو ضال مخطئ مبتدع، وفي تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك،

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٨٠ .

ولكن قال : لا يدعي إلا الله ،وأن الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات ،ونحو ذلك ـ فهذا مصيب في ذلك ، بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً ،كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، وقال : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾ [القصص : ٥٦] وكما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [فاطر: ٣] ، وكما قال تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ،وقال: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها ،والمعانى المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها، والعبارة الدالة على المعاني نفياً وإثباتاً إن وجدت في كلام الله ورسوله وجب إقرارها ، وإن وجدت في كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه ، وإلا رجع فيه إليه .

وقد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح،لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ، فهذا يرد عليه فهمه .كما روى الطبراني في معجمه الكبير : أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذى المؤمنين،فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » [(١)] ، فهذا إنما أراد به النبي ﷺ المعنى الثانى ، وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به، كما في صحيح البخارى ، عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبى ﷺ يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل ! [(٢)]

وهو قول أبي طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم ألا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ،وأن كل غوث فمن عنده، وإن كان جعل ذلك على يدي غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز .

قالوا : من أسمائه تعالى المغيث والغياث وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة ،

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٨ .

(٢) البخاري في الاستسقاء (١٠٠٩) .

قالوا: واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمي : الغياث هو المغيث، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين، ومعناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه، ومجيبهم ومخلصهم، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين: «اللهم أغثنا، اللّهم أغثنا»[1] يقال: أغاثه إغاثة وغياثا وغوثا، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾[الأنفال: ٩]، إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال، والاستجابة أحق بالأقوال، وقد يقع كل منهما موقع الآخر

قالوا: الفرق بين المستغيث والداعي: أن المستغيث ينادي بالغوث، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث. وهذا فيه نظر، فإن من صيغة الاستغاثة يالله للمسلمين، وقد روي عن معروف الكرخي أنه كان يكثر أن يقول: واغوثاه، ويقول: إني سمعت الله يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، وفي الدعاء المأثور: «يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»[2].

والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة، ففي الحديث : « أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق»[3]، وفيه « أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» [4].

---

(١) البخاري في الاستسقاء (١٠١٤) ، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٨/٨٩٧) كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٨٣ وقال:« رواه الطبراني في الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبي مدرك عن أنس، وقد ذكر الذهبي سلمة في الميزان فقال: مجهول كشيخه أبي مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث في ترجمته، وفي الميزان: أبو مدرك قال الدارقطني: متروك فلا أدري هو أبو مدرك هذا أو غيره، وبقية رجاله ثقات»، وانظر: ابن حبان في الثقات٦/ ٣٩٨.

(٣) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٨/ ٥٤)، والترمذي في الدعوات(٣٤٣٧) وقال:« هذا حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه في الطب (٣٥٤٧)، ومالك في الاستئذان ٢/ ٩٨٧(٣٤) ، وأحمد ٦/ ٣٧٧ كلهم عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها. وكذا مسلم في الذكر والدعاء(٢٧٠٩)، وأبو داود في الطب(٣٨٩٩) ، وابن ماجه في الطب(٣٥١٨)، ومالك في الشعر ٢/ ٩٥١(١١)، وأحمد ٢/ ٢٩٠ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مسلم في الصلاة (٤٨٦/ ٢٢)، وأبو داود في الصلاة (٧٨٩) ، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، وابن ماجه في الدعاء(٣٨٤١) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذا الترمذي في الدعوات (٣٤٩٣) وقال: « هذاحديث حسن» ،وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٣٠) ، وأحمد ٦/ ٥٨ ، ٢٠١ كلهم عن عائشة رضي الله عنها.

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله: « أعوذ بكلمات الله التامة» قالوا : والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق.

وكذلك القَسَم، قد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»[1] ، وفي لفظ «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وصححه[2]. ثم قد ثبت في الصحيح: الحلف بـ «عزة الله»[3]، و « لعمر الله»[4]، ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذي نهي عنه، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به، وإما مخطئ ضال.

وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله ﷺ : فهو أيضاً مما يجب نفيها، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها.

ومن هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي المشهور بالديار المصرية: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون.

وفي دعاء موسى -عليه السلام -: « اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك »[5]، ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق وكان مختصاً بالله، صح إطلاق نفيه عما سواه؛ ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوَّز مطلق الاستغاثة بغير الله، ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله.

وكذلك الاستغاثة أيضا، فيها ما لا يصلح إلا لله، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله. وقد

(١) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦/٣)، كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) الترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٥) وقال:« هذا حديث حسن»، وأبو داود في الأيمان والنذور(٣٢٥١) كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الأيمان والنذور معلقًا(الفتح ١١/ ٥٤٥)، وفي التوحيد (٧٣٨٤) عن أنس.

(٤) البخاري في الأيمان والنذور(٦٦٦٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٨٦ وقال: « رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم» . واللفظ مختلف.

يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه، وكذلك الاستنصار، قال اللّه تعالى : ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[الأنفال: ٧٢]، والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو ولا يقدر عليه إلا اللّه.

ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة، فإنه يكون إما كافراً ، وإما فاسقا، وإما عاصيا، إلا أن يكون مؤمنا مجتهداً مخطئاً فيثاب على اجتهاده، ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة، فإن اللّه يقول : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥] . وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها: فإنه يعاقب بحسب ذلك، إما بالقتل، وإما بدونه. واللّه أعلم.

وقال شيخ الإسلام :

فصــل

سَمَّى اللّه آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء، كما سماها شركاء في غير موضع ، فقال في يونس : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ. قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾[الزمر:٤٣، ٤٤]، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ [الروم: ١٢، ١٣].

وجمع بين الشرك والشفاعة في قوله : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] . فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق ، الأول : ملك شيء ولو قل ، الثاني : شركهم في شيء من الملك. فلا ملك ولا شركة ولا معاونة يصير بها نداً . فإذا انتفت الثلاثة بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة.

وقال : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم:٢٦]، وقال : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء:٥٦]، وقال في اتخاذهم قربانا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، وقال : ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٨].

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

فصـــل

في الشفاعة المنفية في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[البقرة:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة:١٢٣]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ .وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[الأعراف: ٥٣]، وأمثال ذلك.

واحتج بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر، إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب، أو أن يخرج من النار من يدخلها، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنه يخرج من النار مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأيضاً، فالأحاديث المستفيضة عن النبي ﷺ في الشفاعة: فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم، وفيهم المؤمن والكافر، وهذا فيه نوع شفاعة للكفار. وأيضاً، ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله، هل نفعتَ أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يَحُوطك ويغضب لك. قال: «نعم هو في ضَحْضَاح [١] من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[٢]، وعن عبد الله بن الحارث قال: سمعت العباس يقول: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح»[٣].

---

(١) الضَّحضاح في الأصل: ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/ ٧٥.

(٢) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٣)وفي الأدب (٦٢٠٨)، ومسلم في الإيمان (٢٠٩/ ٣٥٧)، وأحمد ٢٠٦/١، ٢٠٧، ٢١٠.

(٣) مسلم في الإيمان (٢٠٩/ ٣٥٨).

وعن أبـي سعـيد الخدري ـ رضـي الله عـنه ـ أن رسـول الله ﷺ ذكر عـنده عـمه أبوطالب، فقـال: « لعله تنفعه شفـاعتي يوم القيامة فـيجعل في ضحضاح من الـنار، يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[1].

فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب، بل في أن يجعل أهون أهل النار عذاباً ، كما في الصحيح أيضاً عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»[2].

وعن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنـى أهل النار عذاباً منتعل بنعلين مـن نار، يغلي دماغه من حـرارة نعليه» [3]،وعن النعمان بن بـشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهـون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجـل يوضع في أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه»[4] ،وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً مـن له نعلان وشراكان من نار، يغـلي منهما دماغه، كـما يغلي المِرْجَل[5] ،ما يرى أن أحداً أشد منه عذابًا ، وإنه لأهونهم عذابًا» [6].

وهذا السؤال الثاني يضعف جواب من تأول نفي الـشفاعة على الشفاعة للكفار، وإن الظالمين هم الكافرون. . . [7] .

فيقال : الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق، وهي أن يشفع الشفيـع إلى غيره ابتداء فيقـبل شفاعته ، فأمـا إذا أذن له في أن يشفع فشفـع ، لم يكن مستقلاً بـالشفاعة، بل يكون مطـيعاً له أي تابعاً له في الـشفاعة، وتكون شفاعتـه مقبولة ويكون الأمر كله للآمر المسؤول.

وقد ثبت بنص القرآن في غير آية : أن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه. كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ

(١) البخاري في مناقب الأنصار(٣٨٨٥) ومسلم في الإيمان(٢١٠/ ٣٦٠)، وأحمد ٣/ ٩، ٥٠.

(٢) مسلم في الإيمان (٢١٢/ ٣٦٢)، وأحمد ١/ ٢٩٥.

(٣) مسلم في الإيمان (٢١١/ ٣٦١)، وأحمد ٣/ ٢٧.

(٤) البخـاري في الرقاق (٦٥٦١) ، ومسـلم في الإيمان (٢١٣/ ٣٦٣)، والتـرمذي في صفة جـهنم (٢٦٠٤) وقال: « هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد ٤/ ٢٧١، ٢٧٤.

(٥) المِرْجَل: الإناء الذي يُغلَى فيه الماء. انظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣١٥.

(٦) مسلم في الإيمان (٢١٣/ ٣٦٤).

(٧) بياض بالأصل.

أذن له﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿ولا يشفعون إلاَّ لمن ارتضىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأمثال ذلك. والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية: أنه قال: ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ﴾[الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوىٰ على العرش ما لكم من دونه من وليٍ ولا شفيعٍ ﴾ [السجدة: ٤]، فأخبر أنه ليس لهم من دون الله وليّ ولا شفيع.

وأما نفي الشفاعة بدون إذنه، فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه، كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه، كما قال تعالي: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون ﴾[المائدة: ٥٥، ٥٦].

وأيضًا، فقد قال: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعًا له ملك السموات والأرض ﴾[الزمر: ٤٣، ٤٤]، فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعا، فعلم أن الشفاعة منتفية من غيره، إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه، وتلك فهي له.

وقد قال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالىٰ عما يشركون ﴾ [يونس: ١٨].

ومما يوضح ذلك: أنه نفى يومئذ الخلة بقوله: ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظالمون ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ونفعها المعروف، كما ينفع الصديق الصديق فى الدنيا، كما قال: ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئًا والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩]، وقال: ﴿ لينذر[1] يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفىٰ على الله منهم شيءٌ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]، لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه، فإنه قد قال: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين . يا عباد لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الآيات [الزخرف: ٦٧، ٦٨]،

---

(١) فى المطبوعة: « لتنذر »، والصواب ما أثبتناه.

وقد قال النبي ﷺ : «يقول الله تعالى: حقَّتْ مَحبَّتي للمُتحَابينَ فيَّ»(١) ويقول اللّهُ تعالى : « أيْنَ المُتحَابُّونَ بِجَلاَلِي ؟ اليَوْمَ أظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلا ظِلِّي»(٢).

فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد ، وأنه لا يُنفع أحد ولا يضر إلا بإذن الله، وأنه لا يجوز أن يُعبد أحد غير الله، ولا يُستعان به من دون الله، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله، ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة ، فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركا في ربوبيته ، أو إلهيته، ولا من يدعي ذلك لغيره. بخلاف الدنيا، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتُخذ غيره ربا وإلها، وادعي ذلك مدعون.

وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره، وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة، ويكون خليله ، فيعينه ويفتدي نفسه من الشر ، فقد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال ، وتارة بالإعانة وهي الشفاعة، والأموال بالفداء ، فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة. قال تعالى : ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة :٤٨]، وقال : ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، كما قال : ﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] ، فهذا هذا والله أعلم.

وعاد ما نفاه الله من الشفاعة ، إلى تحقيق أصلي الإيمان ، وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر، التوحيد والمعاد، كما قرن بينهما في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، وقوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] . وأمثال ذلك.

---

(١) مالك في الشعر ٢/ ٩٥٤(١٦) ، وأحمد ٥/ ٢٢٩، ٢٣٧، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٦٩ وقال: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، كلهم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٦/ ٣٧)، والدارمي في الرقاق ٢/ ٣١٢، ومالك في الشعر ٢/ ٩٥٢ (١٣)، وأحمد ٢/ ٣٣٨ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سئل شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ عن رجلين تناظرا ، فقال أحدهما : لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله ، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر الله ،فهذا حق . فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعده لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ،التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل ، الذين أرسلهم الله إلى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زُلفى،ويرفع درجاتهم ، ويكرمهم في الدنيا والآخرة . وأما المخالفون للرسل ، فإنهم ملعونون ، وهم عن ربهم ضالون محجوبون ، قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾ [الأعراف : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه : ١٢٣ ـ ١٢٦] ، قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ .وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون ﴾ [الأنعام : ٤٨ ، ٤٩] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً . رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]. ومثل هذا في القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين ، واليهود ، والنصارى، فإنهم يثبتون الوسائط بين اللّه وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن اللّه أمره وخبره. قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[الحج: ٧٥]، ومن أنكر هذه الوسائط فهو كَافِرٌ بِإجْمَاعِ أَهْلِ المِلَل.

والسور التي أنزلها اللّه بمكة : مثل : الأنعام، والأعراف ، وذوات: ﴿الر﴾ و﴿حم﴾ و ﴿طس﴾ ونحو ذلك ،هي متضمنة لأصول الدين ، كالإيمان باللّه ورسله واليوم الآخر.

وقد قص اللّه قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم، ونصر رسله ، والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصّافات: ١٧١-١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

فهذه الوسائط تُطاع وتُتَّبع ويقتدي بها. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[النساء: ٦٤]،وقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[آل عمران: ٣١]، وقال : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإن أراد بالواسطة : أنه لابد من واسطة في جلب المنافع، ودفع المضار، مثل : أن يكون واسطة في رزق العباد ، ونصرهم، وهداهم ، يسألونه ذلك، ويرجون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك، الذي كفر اللّه به المشركين ، حيث اتخذوا من دون اللّه أولياء وشفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار.

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها، حتى قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وقالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح، والعزير، والملائكة : فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً ، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ؟ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، فبين سبحانه : أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر.

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين.

وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، وقال تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَرْدًا ﴾[مريم:٨٨-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس :١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر:٢]، وَقَالَ تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨]، ومثل هذا كثير في القرآن . ومن سوى الأنبياء - من مشايخ العلم والدين - فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته، يبلغونهم ، ويعلمونهم، ويؤدبونهم، ويقتدون بهم، فقد أصاب في ذلك. وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة ، لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى اللّه والرسول ، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق ، بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول اللّه ﷺ، وقد قال النبي ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»(١).

وإن أثبتم وسائط بين اللّه وبين خلقه - كالحجاب الذين بين الملك ورعيته- بحيث يكونون هم يرفعون إلى اللّه حوائج خلقه، فاللّه إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم، وهم يسألون اللّه، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس ، لقربهم منهم، والناس يسألونهم، أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج . فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه، فهو كافر مشرك ، يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل. وهؤلاء مشبهون للّه، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا للّه أندادا . وفى القرآن من الرد على هؤلاء ، ما لم تتسع له هذه الفتوى .

فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس ،يكونون على أحد وجوه ثلاثة:

---

(١) البخاري في العلم معلقًا(الفتح١/ ١٦٠) ، وأبو داود في العلم(٣٦٤١)، والترمذي في العلم (٢٦٨٢) وقال:«ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. . .»، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وأحمد ٥/ ١٩٦، كلهم عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه.

إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه.

ومن قال: إن اللّه لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر، بل هو ـ سبحانه ـ يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين.

الوجه الثاني : أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته، ودفع أعدائه - إلا بأعوان يعينونه - فلابد له من أنصار وأعوان، لذله وعجزه. واللّه ـ سبحانه ـ ليس له ظهير، ولا ولي من الذل، قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

وَكُلُّ مَا في الوجود من الأسباب فهو خالقه، وربه ومليكه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم ـ في الحقيقة ـ شركاؤهم في الملك.

واللّه ـ تعالى ـ ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته، والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج. فإذا خاطب الملك من ينصحه، ويعظمه، أو من يدل عليه، بحيث يكون يرجوه ويخافه، تحركت إرادة الملك وهمته، في قضاء حوائج رعيته، إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه.

واللّه ـ تعالى ـ هو رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض، فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم، أو من يرجوه الرب ويخافه.

ولهذا قال النبي ﷺ: « لا يقولن أحدكم: اللّهم اغفر لي إن شئت، اللّهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزِم المسألة ، فإنه لا مكره له»(1). والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه، كما قال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ. وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٢، ٢٣].

فَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ من دعى من دونه ليس له ملك ولا شرك في الملك، ولا هو ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له .

وهذا بخلاف الملوك ، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مظاهراً لهم معاونا لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم ، تارة بحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك ،فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته ، يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض ، كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة.

والله ـ تعالى ـ لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغني، قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [يونس :٦٦-٦٨].

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة، قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٨].

---

(1) البخاري في التوحيد (٧٤٧٧) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٨/٢٦٧٩) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٨٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٧) وقال:« هذا حديث حسن صحيح» ، ومالك في القرآن ١/ ٢١٣ (٢٨) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى : ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء :٥٦، ٥٧]. فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله، وأنهم يرجون رحمته، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه فهو ـ سبحانه ـ قد نفى ما من الملائكة والأنبياء ، إلا من الشفاعة بإذنه، والشفاعة هي الدعاء .

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع، واللّه قد أمر بذلك، لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن اللّه له في ذلك، فلا يشفع شفاعة نهى عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة، قال تعالى :﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة:١١٣، ١١٤]، وقال تعالى في حق المنافقين:﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:٦].

وقد ثبت في الصحيح : أن اللّه نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم(١)، كما في قوله:﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقوله:﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤]، وقد قال تعالى :﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] ـ في الدعاء ـ ومن الاعتداء في الدعاء : أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله، مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم، أو المغفرة للمشركين ، ونحو ذلك. أو يسأله ما فيه معصية اللّه، كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان.

فالشفيع الذي أذن اللّه له في الشفاعة، شفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان.

ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه فإنهم معصومون أن يقروا على ذلك. كما قال نوح :﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] ،

(١) البخاري في التفسير (٤٦٧٠، ٤٦٧١).

قال تعالى: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[هود: ٤٦ ، ٤٧].

وكل داع شافع دعا الله - سبحانه وتعالى - وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وهو الذي يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة، فهو الذي خلق السبب والمسبب، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله - سبحانه وتعالى .

وإذا كان كذلك : فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومَحْو الأسباب أن تكون أسبابًا نَقْصٌ في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدْحٌ في الشرع، بل العبد يجب أن يكون تَوكُّله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله -سبحانه وتعالى - والله يقدر له من الأسباب - من دعاء الخلق وغيرهم - ما شاء .

والدعاء مشروع، أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي ﷺ في الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء، ومحمد ﷺ وهو سيد الشفعاء، وله شفاعات يختص بها ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صَلُّوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سَلُوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد! فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّتْ عليه شفاعتي يوم القيامة»[1]. وقد قال ﷺ لعمر - لما أراد أن يعتمر ودعه-: «يا أخي لا تنسني من دعائك»[2].

فالنبي ﷺ قد طلب من أمته أن يدعوا له، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها، مع أنه ﷺ له مثل أجورهم في كل ما يعملونه، فإنه قد صح عنه أنه قال : «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من

---

(١) مسلم في الصلاة (٣٨٤/ ١١)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣)، والترمذي في المناقب(٣٦١٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الأذان (٦٧٨)، وأحمد ١٦٨/٢ كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أبو داود في الصلاة (١٤٩٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) وقال:« هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٤)،كلهم عن عمر رضي الله عنه.

الوِزْر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا» (١) ، وهو داعي الأمة إلى كل هدى ، فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه.

وكذلك إذا صلُّوا عليه، فإن اللّه يصلي على أحدهم عشراً ، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له، فذلك الدعاء قد أعطاهم اللّه أجرهم عليه، وصار ما حصل له به من النفع نـعمة من اللّه عليه، وقد ثبـت عنه في الصحيح أنه قال : «مـا من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل اللّه به ملـكاً ، كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثل ذلك» (٢) ،وفي حديث آخر: « أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب»(٣).

فالدعاء للغيـر ينتفع به الداعي ، والمدعو له وإن كان الـداعي دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له. فمن قال لغيره: ادع لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلـك كان هو وأخوه مـتعاونين عـلى البر والـتقوى، فهـو نبه المسـؤول وأشار عليـه بما ينفعهما، والمسؤول فعل ما ينفعهما ، بمنـزلة من يأمر غيره ببر وتقوى ، فيثاب المأمور على فعله، والآمـر أيضاً يثاب مثل ثـوابه؛ لكونه دعا إليه، لا سـيما ومن الأدعية ما يـؤمر بها العـبد، كمـا قال تعـالى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد:١٩] ،فأمره بالاستغفار ثم قال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُـمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٦٤].

فذكر -سبحانه- استغفارهم، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمـؤمنين والمؤمنات، ولم يأمر اللّه مخلوقاً أن يسأل مخـلوقاً شيئاً لم يأمر اللّه المخلوق به، بل ما أمر اللّه العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عبادة للّه، وطاعة وقربة إلى اللّه ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان اللّه إليه، وإنعامه عليه، بل أجل نعمة أنعم اللّه بها على عباده أن هداهم للإيمان.

والإيمان قول وعمـل ، يزيد بالطاعـة والحسنات ، وكلمـا ازداد العبد عملا لـلخير، ازداد إيمانـه. هذا هو الإنعـام الحقيقـي المذكور في قـوله : ﴿صِرَاطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، وفـي قوله : ﴿وَمَن يُطِعِ الـلَّهَ وَالـرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِيـنَ أَنْعَمَ الـلَّهُ عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) مسلم في العلم (١٦/٢٦٧٤)، وأبو داود في السـنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) ،كلهم عن أبي هريرة.

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٨٧/٢٧٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٤) كلاهما عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه. وذكره الإمام ابن تيمية بمعناه.

(٣) أبو داود في الصلاة (١٥٣٥) ، والتـرمذي في البر والصلة (١٩٨٠) وقال: «هذا حديـث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، كلاهما عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.

[النساء:٦٩]، بل نعم الدنيا بدون الدين هل هي من نعمه أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم.

والتحقيق : أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه، وأما الإنعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة، إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير . والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ماله إلا عند الضرورة.

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور، فهذا من نفسه أتى، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه، إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده ، وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا ، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه، وهو الصلاة ، ولا قصد الإحسان إلى المخلوق الذي هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال، لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه، ألا ترى أنه قال في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب : إنهم «لا يسترقون»[1]. وإن كان الاسترقاء جائزاً . وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عبّاد الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث قال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، أي فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنهي، وليؤمنوا بي أن أجيب دعاءهم لي بالمسألة والتضرع.

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧، ٨] ، وقال

---

(١) البخاري في الطب (٥٧٠٥)،(٥٧٥٢) ومسلم في الإيمان (٢١٨/ ٣٧١، ٣٧٢) كلاهما عن عمران بن حصين.

تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٦٧] ، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩].

وقد بين اللّه هذا التوحيد في كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير اللّه، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه، وقال تعالى : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي يخوفكم أولياءه ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء:٧٧] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [التوبة:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور:٥٢].

فبين أن الطاعة للّه ورسُوله، وأما الخشية فلله وحده.

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾[التوبة:٥٩]، ونظيره قوله تعالى:﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته، ويحسم عنهم مواد الشرك؛ إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا اللّه، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب؛ لكمال المحبة والتعظيم، والإجلال والإكرام، والرجاء والخوف، حتى قال لهم : « لا تقولوا: ما شاء اللّه وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء اللّه ثم شاء محمد»(١) ، وقال له رجل : ما شاء اللّه وشئت. فقال : «أجعلتني للّه ندًا ؟ بل ما شاء اللّه وحده»(٢)، وقال : « من كان حالفاً فَلْيَحْلِفْ باللّه أو لِيَصْمُتْ» (٣)،وقال : « من حلف بغير اللّه فقد أشرك» (٤)،وقال لابن عباس: «إذا سألتَ فاسأل اللّه، وإذا استَعَنْتَ فاستعن باللّه،جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشيء كتبه اللّه لك، ولو جهدت أن تضرك

(١) ابن ماجه في الكفارات (٢١١٨)، والدارمي في الاستئذان ٢/ ٢٩٥، وأحمد ٥/ ٧٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٥١

(٣ ، ٤) سبق تخريجهما ص ٦٣ .

لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك»[1] ! وقال أيضاً : «لا تُطْروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا:عبد الله ورسوله» [2]،وقال : « اللهم لا تجعل قبري وَثَنًا يُعْبَد» [3]، وقال :«لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»[4]،وقال في مرضه :«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[5]، يحذر ما صنعوا، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه، فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات، قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾** [البقرة:١٦٤]، وكما جعل الشمس القمر سببا لما يخلقه بهما، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها، ويثيب عليها المصلين عليه ، لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لابد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع. فإذا لم يكمل الله الأسباب، ويدفع الموانع، لم يحصل المقصود ، وهو- سبحانه ـ ما شاء كان ـ وإن لم يشأ الناس ـ وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله.

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع، كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء.وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل »[6] .

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله، فيدعو غيره – وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه – وكذلك لا يُعْبَد الله بِالْبِدَع المخالفة للشريعة – وإن ظن ذلك – فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ، إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٦ (٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص٥١ .

(٤) أبو داود في المناسك (٢٠٤٢)، وأحمد ٣٦٧/٢ ، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) البخارى فى الجنائز (١٣٣٠) ومسلم فى المساجد (١٩/٥٢٩) .

(٦) البخارى فى القدر (٦٦٠٨) ومسلم فى النذر (١٦٣٩/ ٤) .

وسئل ـ رحمهُ الله ـ :

قال السائل : إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد ﷺ فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجـاب :

الحمد لله، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق، أو يقسم عليه به ، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء ، فقد كذب في ذلك. والله أعلم.

المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر اللّه به فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه فمفسدته راجحة، وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الورقة ، واللّه أعلم.

وسئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ :

هل يجوز التوسل بالنبي ﷺ أم لا ؟

فأجـاب :

الحمد لله، أما التوسل بالإيمان به ، ومحبته وطاعته ، والصلاة والسلام عليه ، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك ، مما هو من أفعاله ، وأفعال العباد المأمور بها في حقه، فهو مشروع باتفاق المسلمين ، وكان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يتوسلون به في حياته، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه، كما كانوا يتوسلون به .

وأما قول القائل : اللهم إني أتوسل إليك به. فللعلماء فيه قولان ، كما لهم في الحلف به قولان. وجمهور الأئمة ـ كمالك والشافعي وأبي حنيفة ـ على أنه لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء والملائكة. ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره؛ ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروذي [1]صاحبه: إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه، ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوز القسم به ، فلذلك جوز التوسل به.

ولكن الرواية الأخرى عنه ـ هي قول جمهور العلماء ـ أنه لا يقسم به، فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة والأنبياء ، فإنا لا نعلم أحداً من السلف والأئمة قال: إنه يقسم به على الله كما لم يقولوا: إنه يقسم بهم مطلقا ؛ ولهذا أفتى أبو محمد بن عبدالسلام: أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ، لكن ذكر له أنه روى عن النبي ﷺ حديث في الإقسام به فقال : إن صح الحديث كان خاصاً به ، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به، وقد قال النبي ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت»[2] ، وقال: « من حلف بغير الله فقد أشرك »[3]، والدعاء عبادة ، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع. والله أعلم.

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروذي ، صاحب الإمام أحمد، حدث عن أحمد بن حنبل ولازمه وعن هارون بن معروف ومحمد بن منهال وروى عنه أبو بكر الخلال وعبد الله الخرقي، ولد في حدود المائتين، وتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين .[سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٧٣-١٧٥].

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٦٣ .

وقال شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً ،أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فَهَدَى به من الضلالة ، وبَصّر به من العَمَى ، وأرشد به من الغَيِّ ، وفتح به أعينًا عُمْيًا ، وآذانًا صُما وقلوبًا غلفًا، فبَلَّغَ الرسالة ، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما.

ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار، وبين أوليائه وأعدائه. فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله.

وقد أرسله الله إلى الثقلين الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره. والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله، وهو دين الله، وهو عبادة الله ،وهو طاعة الله، وهو طريق أولياء الله، وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد وأتباعه.

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد ، باطناً وظاهرًا، في حياة رسول الله وبعد موته، في مشهده ومغيبه، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ، ولا بعذر من الأعذار. ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته .

وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاها عند الله، وقد قال تعالى عن موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال عن المسيح : ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] . ومحمد ﷺ أعظم جاها من جميع الأنبياء والمرسلين، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له ، فمن دعا له الرسول وشفع له

توسل إلى اللّه بشفاعته ودعائه، كما كان أصحابه يتوسلون إلى اللّه بدعائه وشفاعته، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى اللّه ـ تبارك وتعالى ـ بدعائه وشفاعته، صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم تسليما.

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى. والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به ، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة.

ولهذا نهى عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار، ونهي عن الاستغفار للمنافقين وقيل له : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:٦] ،ولكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة :٣٧].

فإذا كان في الكفار من خَفّ كفره بسبب نصرته ومعونته، فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في إسقاط العذاب بالكلية، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت: يا رسول اللّه، فهل نفعت أبا طالب بشيء ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: « نعم هو في ضَحْضَاحٍ [1] من نار،ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفل من النار» [2]، وفي لفظ : إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك، قال :«نعم ،وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح»[3] ، وفيه عن أبي سعيد أن رسول اللّه ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال:«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كَعْبَيه يغلى منهما دماغه»[4]، وقال: «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه» [5].

وكذلك ينفع دعاؤه لهم بألا يُعَجل عليهم العذاب في الدنيا كما كان ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول: « اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[6] . وروي أنه دعا بذلك أن اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب في الدنيا؛ قال تعالى :﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر:٤٥].

وأيضا، فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه اللّه أو يرزقه فيهديه أو يرزقه ، كما دعا

---

(١) تقدم معناها.

(٢ ،٣) سبق تخريجهما ص ٨٩. (٤ ،٥) سبق تخريجهما ص ٩٠ .

(٦) البخاري في الأنبياء(٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير(١٧٩٢/١٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٥)، وأحمد ١/ ٣٨٠، ٤٢٧ ، كلهم عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

لأم أبي هريرة حتى هداها الله[1]، وكما دعا لدوس فقال: « اللهم اهد دوساً وائت بهم»[2]، فهداهم الله، وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم ، فاستسقى لهم[3]، وكان ذلك إحساناً منه إليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك.

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله، لا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته، لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم، فإن الإيمان بهم وطاعتهم يوجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً وعاماً ،فكل من مات مؤمنا بالله ورسوله مطيعاً لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعاً ، ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعا.

وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم- ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً - فلا شفيع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل إبراهيم، وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له، كما قال تعالى عنه :﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداء بإبراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٤، ١١٥] ، وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « يَلْقَى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك: لا تعصني ؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم : يا رب ،أنت وعدتني ألا تُخْزِني يوم يُبْعثون، وأي خِزْيٍ أَخْزَى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل : إني حرمتُ الجنة على الكافرين، ثم يقال :انظر

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩١/١٥٨)، وأحمد ٢/ ٣٢٠ كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الدعوات (٦٣٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٤/١٩٧)، وأحمد ٢/٢٤٣ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أبو داود في الصلاة (١١٧٣) عن عائشة.

مـا تحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ مُتَلَطِّخ [1] ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[2] ، فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم جاهه وقدره، وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥]. فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه، إلا في قول إبراهيم لأبيه: ﴿ **لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** ﴾ فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبى هريرة ؛ أن النبي ﷺ قال: « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»[3]. وفي رواية: أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال: « استأذنتُ ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور، فإنها تُذَكِّر الموت» [4]. وثبت عن أنس في الصحيح أن رجلا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار»، فلما قفى دعاه فقال :« إن أبي وأباك في النار» [5]. وثبت أيضاً في الصحيح عن أبى هريرة : لما أنزلت هذه الآية ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخَصَّ فقال : « يا بني كعب ابن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها[6]» [7]،وفي رواية عنـه: « يا

---

(١) الذِّيخ : ذكر الضّباع ، وأراد بالتلطخ : التلطخ برجيعه أو بالطين . انظر : النهاية في غريب الحديث ١٧٤/٢.

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٣٥٠).

(٣) مسلم في الجنائز (٩٧٦/١٠٥).

(٤) مسلم في الجنائز (٩٧٦/ ١٠٥ مكرر) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٤)، وابن ماجة في الجنائز (١٥٧٢) ، وأحمد ٤٤١/٢ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) مسلم في الإيمان (٣٤٧/٢٠٣).

(٦) أي أصلكم في الدنيا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا، والبلال جمع بلل، وقيل : هو كلّ ما بلَّ الحلق من ماء أو لبن أو غيره، انظر: النهاية في غريب الحديث ١٥٣/١.

(٧) مسلم في الإيمان (٣٤٨/٢٠٤).

معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله، فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئًا . يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئًا ،يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا. يا فاطمة بنت رسول الله، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً»[1] وعن عائشة لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال: « يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا . سلوني من مالي ما شئتم»[2].

وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً ذات يوم فذكر الغُلُول فعظَّمه وعظَّم أمْره ثم قال : « لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رَقَبَته بَعير لَهُ رُغَاء[3] يقول: يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَمَة[4] فيقول: يا رسول الله، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغَاء[5]، فيقول : يا رسول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق[6] فيقول : يا رسول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[7] فيقول : يا رسول الله، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك» أخرجاه في الصحيحين[8] وزاد مسلم «لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح. فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك»[9] وفي البخاري عنه أن النبي ﷺ قال : «ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَار[10] فيقول : يا محمد ، فأقول: لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت . ولا يأتي

---

(١) مسلم في الإيمان (٢٠٦/ ٣٥١)،عن أبي هريرة.

(٢) مسلم في الإيمان (٢٠٥/ ٣٥٠) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٨٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) الرُّغاء: صوت الإبل . انظر :النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٤٠.

(٤) الحمحمة: صوت الفرس دون الصهيل . انظر :النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٣٦.

(٥) الثُّغاء: صياح الغنم. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٢١٤.

(٦) أراد بالرِّقاع: ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع، وخفوقها: حركتها. انظر النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٥١.

(٧) صامت : يعني الذهب والفضة، خلاف الناطق وهو الحيوان. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/ ٥٢.

(٨) البخاري في الجهاد (٣٠٧٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٣١/ ٢٤).

(٩) مسلم في الإمارة (١٨٣١/ ٢٤).

(١٠) اليُعار: صياح الشاة. انظر: النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٩٧.

أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رُغَاء فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا، قد بلغت»[1] . وقوله هنا ﷺ :«لا أملك لك من الله شيئا» كقول إبراهيم لأبيه: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين ، وقد قيل: إن بعض أهل البدعة ينكرها.

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء : من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها، وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب. وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم ، فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الله يخرج من النار قوماً بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم ، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره، ويخرج قوماً بلا شفاعة.

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[البقرة:٤٨]، وبقوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة:١٢٣]، وبقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وبقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وبقوله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان:

أحدهما : أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى في نَعْتهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ . فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨]، فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفّاراً.

والثاني : أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع؛ من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا

(١) البخاري في الزكاة (١٤٠٢).

عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة.

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصّهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة.

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال عن الملائكة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ . قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾

[طه:١٠٨، ١٠٩]، وقال صاحب يس: ﴿ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** ﴾ [يس: ٢٢ -٢٥] .

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى اللّه، وصوَّروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها اللّه ورسُوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها . قال اللّه تعالى عن قوم نوح: ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا** ﴾ [نوح :٢٣، ٢٤] قال ابن عباس وغيره: هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكَفُوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره(١)، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذَريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها ،وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي بن أبي طالب فأمره ألا يدع قبراً مُشْرِفًا إلا سَوَّاه، ولا تمثالا إلا طَمَسَه ومَحَاه، ولعن المصورين . وعن أبي الهياج الأسدي؛ قال لي علي بن أبي طالب: لأبعثك على ما بعثني رسول اللّه ﷺ: ألا تدع تمثالاً إلا طمسته،ولا قبراً مشرفاً إلا سويته(٢).وفي لفظ:ولا صورة إلا طمستها. أخرجه مسلم(٣).

فصــل

ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور. يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين:

أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته.

والثاني: دعاؤه وشفاعته، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين. ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ،فإن تاب وإلا

(١) البخاري في التفسير (٤٩٢٠) ، وابن جرير في التفسير ٦٢/٢٩.

(٢) مسلم في الجنائز (٩٣/٩٦٩) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢١٨)، والترمذي في الجنائز(١٠٤٩) وقال: «حسن» ، والنسائي في الجنائز (٢٠٣١)، وأحمد ٩٦/١، ١٢٩.

(٣) مسلم في الجنائز (٩٣/٩٦٩ مكرر).

قتل مرتداً. ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة، فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة.

وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر، لكن هذا أخفى من الأول، فمن أنكره عن جهل عُرِّف ذلك، فإن أصر على إنكاره فهو مرتد.

أما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة.

وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة- وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم - أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة، وأنه يشفع فيمن يأذن الله أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر. ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون، دون أهل الشرك، ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنقذه شفاعته من النار، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يُقِرُّوا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»[1]. وعنه في صحيح مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فَتَعَجَّل كل نبي دعوته، وإني اختَبَأتُ دعوتي شفاعة يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا»[2] وفي السنن عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يُدْخِل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً»[3] وفي لفظ قال: «ومن لقي الله لا يشرك به شيئاً فهو في شفاعتي»[4].

وهذا الأصل -وهو التوحيد -هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ

---

(١) البخاري في العلم (٩٩).

(٢) مسلم في الإيمان (١٩٩/٣٣٨).

(٣) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣١٧)، وأحمد ٢٨/٦.

(٤) أحمد ٤٠٤/٤ عن أبي موسى رضي الله عنه.

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾[النحل : ٣٦]، وقد ذكر اللّه عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[المؤمنون:٣٢].

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قـال: «بعثت بالسَّيف بين يَدَي الساعة حتى يُعبد اللّه وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظـل رُمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[1].

والمشركـون من قريش وغـيرهم - الذيـن أخبر القـرآن بشركهـم واستحل الـنبي ﷺ دماءهم وأموالـهم وسبى حريمهـم وأوجب لهم النار- كـانوا مقرين بأن الـلّه وحده خلق السموات والأرض كما قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[لقمان:٢٥]، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقال :﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ . بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١].

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفـعاء ويتقربون بعبادتهم إليـه كما قال تعالى :﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ . أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:١-٣] ،وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك.

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . بَلِ

---

(١) أحمد ٢/ ٥٠.

اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٨-٣٢].

بين ـ سبحانه ـ بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال: **﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾** [الروم : ٢٨] يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا ، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم؟

وهذا كما كانوا يقولون : له بنات، فقال تعالى : **﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾** [النحل: ٦٢]، وقد قال تعالى: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [النحل: ٥٨-٦٠].

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان:

قوم نوح، وقوم إبراهيم . فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين. ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم.

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر. وكل من هؤلاء يعبدون الجن، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم، قال تعالى: **﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾** [سبأ: ٤٠، ٤١].

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحيا ولا في الممات ولا يرضون بذلك، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم في صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم، أنا المسيح، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان، أنا علي، أنا الشيخ فلان. وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبي فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئكَ كلهم جنًا يشهد بعضهم لبعض. والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم

الفاسق.ومنهم العاصي وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخاً فيتزيا[1] في صورته ويقول : أنا فلان. ويكون ذلك في برية ومكان قفر[2]، فيطعم ذلك الشخص طعاماً ويسقيه شراباً أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة، فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحي فعل ذلك، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته، وإنما يكون ذلك جنيا، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان.

وقد قال اللّه تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِه فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦ ، ٥٧]، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح ،فبين اللّه تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد اللّه، كما أن الذين يعبدونهم عباد اللّه، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين.

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا، فإذا صورنا تمثاله - والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم - قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى اللّه. فيقول أحدهم :يا سيدي فلان، أو يا سيدي جرجس، أو بطرس، أو ياستي الحنونة مريم، أو يا سيدي الخليل، أو موسى بن عمران أو غير ذلك، اشفع لي إلى ربك.

وقد يخاطبون الميت عند قبره: سل لي ربك . أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضراً حيا، وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها: يا سيدي فلان! أنا في حسبك ، أنا في جوارك ، اشفع لي إلى اللّه، سل اللّه لنا أن ينصرنا على عدونا، سل اللّه أن يكشف عنا هذه الشدة، أشكو إليك كذا، وكذا، فسل اللّه أن يكشف هذه الكربة. أو يقول أحدهم : سل اللّه أن يغفر لي .

ومنهم من يتأول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

---

(١) فيتزيا : يظهر في هيئته . انظر: القاموس المحيط، مادة «زيى».

(٢) مكان قفر : الخلاء من الأرض ، لا نبات فيه ولا ماء. انظر: لسان العرب، مادة «قفر».

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤]، ويقولون : إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئًا، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخرى الفقهاء، وحكوا حكاية مكذوبة على مالك ـ رضي الله عنه ـ سيأتي ذكرها وبسط الكلام عليها ـ إن شاء الله تعالى.

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة ، والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم، وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب تماثيلهم - بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذي لم يشرعه الله، ولا ابتعث به رسولاً، ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجبا ولا مستحباً باتفاق المسلمين، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان.

وفيهم من يُنَظِّم القصائد في دعاء الميت، والاستشفاع به، والاستغاثة ، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين، فهذا كله ليس بمشروع، ولا واجب،ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين، ومن تَعَبَّدَ بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع، بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يُعبد إلا بما هو واجب أو مستحب.

وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقين : أحدهما: الاحتجاج بالنص والإجماع .

والثاني: القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد، فإن فساد ذلك راجح على ما يُظن فيه من المصلحة.

أما الأول فيقال: قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب.

وعلِمَ أنه لم يكن النبي ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله، شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين، ولا يستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم، فلا يقول أحد: يا ملائكة الله، اشفعوا لي عند الله، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا.

وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين: يا نبي الله، يا رسول الله، ادع الله لي، سل الله لي، استغفر الله لي، سل الله أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني، ولا يقول: أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي، أو أشكو إليك فلانا الذي ظلمني، ولا يقول: أنا نزيلك، أنا ضيفك، أنا جارك، أو أنت تجير من يستجير، أو أنت خير معاذ يستعاذ به.

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور، ولا يكتب أحد محضراً أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين، كما يفعله النصارى في كنائسهم، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين؛ أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأمته.

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئا من ذلك، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك، كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا ذكر أحد من الأئمة، لا في مناسك الحج ولا غيرها، أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين.

وكان أصحابه يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته، فتارة بالجَدْب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول: نشكو إليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب، ولا يقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين.

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة، وهي ضلالة باتفاق المسلمين، ومن قال في بعض البدع: إنها بدعة حسنة، فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب، فلا يقول أحد من المسلمين: إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله.

ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمرَ إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان، وسبيله من سبيل الشيطان، كما قال عبد الله بن مسعود: خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: «هذا سبيل الله، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1] [الأنعام: ١٥٣].

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه، ولا يخالف السنة المعلومة، وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، باتباع من خالف السنة والإجماع القديم، لا سيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين، ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع، فلا ينخرم الإجماع بمخالفته، ولا يتوقف الإجماع على موافقته.

ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصوماً بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي، وإنما اتبع من تكلم في الدين بلا علم، و﴿ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨]. بل إن النبي ﷺ مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجباً ولا مستحباً، فإنه قد حرَّم ذلك وحرَّم ما يفضي إليه كما حرَّم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد. ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي ﷺ قال- قبل أن يموت بخمس-: «إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[2]. وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال- قبل موته-: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3] يحذِّر ما فعلوا، قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

---

(١) الدارمي في المقدمة ١/٦٧، وأحمد ١/٤٣٥، ٤٦٥.

(٢) مسلم في المساجد (٥٣٢/٢٣).

(٣) البخاري في الجنائز (١٣٣٠)، (١٣٦٠)، ومسلم في المساجد (٥٢٩/١٩).

واتخاذ المكان مسجدًا، هو أن يتخذ للصلوات الخمس، وغيرها كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجداً، إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين.

فحرم ﷺ أن تُتَّخَذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده؛ لأن ذلك ذريعة إلا أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله.

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه ، كما نهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك. وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات.

ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات، وهو أظهر قولي العلماء ؛لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات، ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها ، فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة ، بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهي عنه.

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها - كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها - كان معلوماً أن دعوة الشمس ، والسجود لها هو محرم في نفسه، أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي إلى دعاء الكواكب.

كذلك لما نهي عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد - فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم- كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد .

ولهذا ؛كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين: زيارة شرعية ، وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت، كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه، قال الله تعالى في المنافقين : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة: ٨٤]، فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون. فلما نهى

عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهي الكفر، دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة.

ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يُصلَّى عليه ويُقام على قبره، إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم؛ ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول: «سلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل» ورواه أبو داود وغيره(١).

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأُحُدٍ ، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم :«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء اللّه تعالى بكم لاحقون» (٢) ، «ويرحم اللّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين» (٣)، «نسأل اللّه لنا ولكم العافية» (٤) ، « اللّهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم»(٥) . وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول اللّه ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: « السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون»(٦). والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة. فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم.

وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال : أتى رسول اللّه ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، ثم قال :« استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة »(٧) فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً ، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين، وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن

---

(١) أبو داود في الجنائز (٣٢٢١) عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه.

(٢) مسلم في الجنائز (٩٧٥/ ١٠٤) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٧) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٧) وأحمد ٢/ ٣٠٠، ٣٧٥، ٤٠٨.

(٣) مسلم في الجنائز (٩٧٤/ ١٠٣) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٧) ، وأحمد ٦/ ٢٢١.

(٤) مسلم في الجنائز (٩٧٥/ ١٠٤) والنسائي في الجنائز (٢٠٤٠)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٧) ، وأحمد ٥/ ٣٥٣، ٣٦٠.

(٥) ابن ماجه في الجنائز (١٥٤٦) ، وأحمد ٦/ ٧١، ٧٦، ١١١.

(٦) مسلم في الطهارة (٢٤٩/ ٣٩) ، وأحمد ٢/ ٣٧٥.

(٧) مسلم فى الجنائز (٩٧٦/ ١٠٨) .

ذلك أجوب للدعاء، فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك.

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم، مثل أن يتخذ قبورهم مساجد، لكان ذلك محرماً منهياً عنه، ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته، كما قال النبي ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (1) وقال: «قَاتَل اللَّه اليَهُودَ والنَّصَارى اتخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائهم مَسَاجِدَ»(2) يُحَذِّر ما صنعوا. وقال: « إن من كانَ قَبْلكم كَانُوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَمَسَاجِدَ أَلا فَلاَ تَتخِذُوا القُبُورَ مسَاجِدَ فَإنّي أنْهَاكُم عَنْ ذَلكَ »(3).

فإذا كان هذا محرما ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه، واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات، ونيل الطلبات وقضاء الحاجات؟! وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح -عليه السلام- وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم.

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى: **﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾** [نوح: 23] أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، قال ابن عباس : ثم صارت هذه الأوثان في قبائل العرب.

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه كصاحب الكتب المضنون بها وغيره، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم، فإنهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ولا أنه يعلم الجزئيات ، ويسمع أصوات عباده، ويجيب دعاءهم.

فشفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه، كما أن ما يكون من إنزال المطر باستسقائهم

---

(1) مالك في قصر الصلاة في السفر 1/ 172(85).

(2) البخاري في الصلاة (437)، ومسلم في المساجد (530/ 20) ، وأبو داود في الجنائز (3227) ، والنسائي في الكبرى في الوفاة (7092/ 5) ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) مسلم في المساجد (532/ 23) .

ليس سببه عندهم إجابة دعائهم.

بل هم يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون : إن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قد مات ولا سيما إن زار قبره، فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم اللّه بشيء من ذلك ـ بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك - ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم. وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره.

ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم، وجعل القبور أوثانا هو أول الشرك؛ ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب؛ ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم، وإنما هو شيطان، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعي أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً في ذلك.

وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره، وهي كثيرة جداً، والجاهل يظن أن ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور:

أحدها: أن يقرأ آية الكرسي بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ في الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلا صالحاً أو ملكا أو جنياً مؤمنا لم تضره آية الكرسي وإنما تضر الشياطين، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجني : اقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي ﷺ : « صَدَقَك وهو كَذُوب»[1].

---

(١) البخاري في الوكالة (٢٣١١) وفي بدء الخلق (٤٢٧٥)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٤/١٠٧٩٥).

ومنها: أن يستعيذ بالله من الشياطين.

ومنها: أن يستعيذ بالعوذ الشرعية، فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم، كما جاءت الجن إلى النبي ﷺ بشعلة من النار، تريد أن تحرقه، فأتاه جبريل بالعوذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروي عن أبي التَّيَّاح أنه قال: سأل رجل عبد الرحمن بن حُبَيْش، وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي ﷺ: كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين؟ قال: تحدَّرت عليه من الشِّعاب والأَوْدية، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ، قال: فرعب رسول الله ﷺ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد، قل ما أقول؟» قال: قل: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»[1] قال: فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل.

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن عفريتًا من الجن جاء يَفْتِكُ بي البارحة ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله - عز وجل- منه فَذَعَتُّه[2] فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه، ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾[ص: ٣٥]، فرده الله تعالى خاسئًا»[3].

وعن عائشة: أن النبي ﷺ كان يصلي، فأتاه الشيطان فأخذه ﷺ فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ: «حتى وجدت بَرْدَ لسانه على يدي، ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس» أخرجه النسائي[4]، وإسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبدالله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لُعَابِهِ

(١) أحمد ٣ / ٤١٩.

(٢) أي خنقته. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٦٠.

(٣) البخاري في الصلاة (٤٦١)، ومسلم في المساجد (٥٤١/٣٩).

(٤) النسائي في الكبرى في السهو (١/٥٥٠، ٥٥١/٢) بلفظ مختلف عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بين إصبعي هاتين ـ الإبهام والتي تليها ـ ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من صلاته قلنا: يا رسول الله، سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فاستأخر، ثم أردت أن آخذه ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة»[2].

فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد، فكيف من هو دون الأنبياء؟

فالنبي ﷺ قَمَعَ شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال، ومن أعظمها الصلاة والجهاد. وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله -سبحانه- بما نصر به الأنبياء.

وأما من ابتدع دينا لم يشرعوه، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته، وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم، فإن هذا تتلعَّب به الشياطين، قال تعالى: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾**[الحجر: ٤٢].

ومنها: أن يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال.

ومنها: أن يقول لذلك الشخص، أأنت فلان؟ ويقسم عليه بالأقسام المعظمة،

---

(١) أحمد ٣/ ٨٢، ٨٣، وأبو داود في الصلاة (٦٩٩).

(٢) مسلم في المساجد (٥٤٢/ ٤٠).

ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين.

وهذا كما أن كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشاً عظيماً وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن أن تلك الصورة هي اللّه ـ تعالى وتقدس ـ ويكون ذلك شيطانا.

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس ، فمنهم من عصمه اللّه وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر في حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة في العبادة فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور، فقال لي : يا عبد القادر ، أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك. قال : فقلت له: أنت اللّه الذي لا إله إلا هو ؟ اخسأ يا عدو اللّه. قال: فتمزق ذلك النور وصار ظلمة، وقال: يا عبد القادر، نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك . لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلاً . فقيل له : كيف علمت أنه الشيطان؟ قال: بقوله لي :«حللت لك ما حرمت على غيرك»، وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لا تنسخ ولا تبدل، ولأنه قال: أنا ربك، ولم يقدر أن يقول: أنا اللّه الذي لا إله إلا أنا.

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئى هو اللّه، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون اللّه تعالى في اليقظة ومستندهم ما شاهدوه، وهم صادقون فيما يخبرون به، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان.

وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد ، يظن أحدهم أنه يرى اللّه تعالى بعينه في الدنيا؛ لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه اللّه وإنما هو شيطان. وكثير منهم رأى من ظن أنه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطاناً. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»[1] . فهذا في رؤية المنام؛ لأن الرؤية في المنام تكون حقا وتكون من الشيطان فمنعه اللّه أن يتمثل به في المنام، وأما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا.

فمن ظن أن المرئيّ هو الميت فإنما أُتي من جهله ، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

---

(١) البخاري في العلم (١١٠) ، ومسلم في الرؤيا (٢٢٦٦/ ١٠) ، والترمذي في الرؤيا (٢٢٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩٠١) ، وأحمد ٢/ ٢٣٢، ٤١١ كلهم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

وبعض من رأى هذا - أو صدق من قال: إنه رآه - اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول.

ومنهم من يقول: هذه رقيقة ذلك المرئـي أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكل ، ولا يعرفون أنه جني تصور بصورته.

ومنهم من يظن أنه ملك، والملك يتميز عن الجني بأمور كثيرة ، والجن فيهم الكفار والفُساق والجُهَّال، وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد ﷺ ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة. وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تتنزل على أحدهم روح يقول: هي روحانية الكواكب، ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين.

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان. فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها. وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك.

وتارة يجلبون له من يريده من الإنس .

وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً.

وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد . فمنهم من يذهبون به إلى مكة عَشِيَّة عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة، مع أنه لم يحج حج المسلمين: لا أحرم ولا لبَّى ، ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال.

ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية، فلا يحرم إذا حاذى الميقات. ومعلوم أن من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرمًا، ولو قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات، وهل ذلك واجب أو مستحب؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع.

ومنه السحر والكهانة، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع. وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلك من الحكايات ما يطول وصفه، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبياً كان أو غير نبي إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله؛ كما أن الذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون في صورتهم،أو يظنون أنه في صورتهم ويقول: أنا فلان ويكلمهم ويقضي بعض حوائجهم ، فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبهم، وإنما هو من الجن والشياطين.

ومنهم من يقول: هو ملك من الملائكة، والمـلائكة لا تعين المشركين وإنما هم شياطين أضلوهم عن سبيل اللّه.

وفي مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التـي يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه.

وأهل الجاهلية فيها نوعان :نوع يكذب بـذلك كله ، ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء اللّه.

فالأول يقـول: إنما هذا خيـال في أنفسهـم لا حقيقة لـه في الخارج، فإذا قـالوا ذلك لجماعة بعد جماعة، فمن رأى ذلك وعايـنه موجودا أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً في الخارج وأخـبره به من لا يرتـاب في صدقه، كان هذا مـن أعظم أسباب ثـبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك، والعارفين به بالأخبار الصادقة.

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك ،خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقـدوا أنه من أولياء اللّه، مـع كونهم يعلـمون أنه لا يؤدي فرائض الـلّه حتى ولا الصلوات الخمس، ولا يجـتنب محارم اللّه؛ لا الفواحش ولا الظلم، بـل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التي وصف اللّه بها أولياءه في قوله تعالى :﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فيرون مـن هو من أبعد الـناس عن الإيمان والتـقوى له من المـكاشفات والتـصرفات الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء اللّه المتقين.

فمنهم من يـرتد عن الإسلام وينقلب على عـقبيه، ويعتقد فيمـن لا يصلي، بل ولا يؤمن بالرسل ، بل يسب الرسل، ويتنقص بهم أنه من أعظم أولياء اللّه المتقين.

ومنهم من يبقى حائراً متردداً شـاكًا مرتابًا يقدم إلى الكفر رِجْلا وإلى الإسلام أخرى، وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

وسبب ذلـك: أنهم استدلـوا على الولاية بمـا لا يدل عليهـا، فإن الكفار والمـشركين والسحرة والكـهان معهم من الشياطين مـن يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلـك. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

وهؤلاء لابد أن يكـون فيهم كذب وفيـهم مخالفة لـلشرع، ففيهـم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الـلّه ونهيه الذي بعث به نبيه ﷺ . وتلك الأحوال الشيـطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم، وهي دلالة وعلامة على ذلك.

والجاهل الضال يظن أنها نتيجة إيمانهم وولايتهم للّه تعالى ، وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم للّه سبحانه، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قد تكلمنا على ذلك في مسألة (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، ولم يعلم أن هذه الأحوال التي جعلها دليلا على الولاية تكون للكفار - من المشركين وأهل الكتاب - أعظم مما تكون للمنتسبين إلى الإسلام، والدليل مستلزم للمدلول مختص به لا يوجد بدون مدلوله، فإذا وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للإيمان فضلاً عن الولاية، ولا كانت مختصة بذلك ، فامتنع أن تكون دليلا عليه.

وأولياء اللّه هم المؤمنون المتقون، وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم، لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق.

وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو لحاجة للمسلمين.

والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات.

وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه، مُتَعَدٍّ حد ربه، وإن كان سببها الإيمان والتقوى. فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان، فهذا المال، وإن ناله بسبب عمل صالح، فإذا أنفقه في طاعة الشيطان كان وبالا عليه، فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو إلى كفر آخر وفسوق وعصيان؟!

ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام. ولبسط هذه الأمور موضع آخر.

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند الأوثان كإخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فإذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كلمه، ظن أن ذلك هو النبي المقبور، أو الشيخ المقبور، والقبر لم ينشق ، وإنما الشيطان مثّل له ذلك، كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ويكون هو الشيطان تمثل له في صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط.

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر : نحن لا نبقى في قبورنا، بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس. ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنازة يمشي ويأخذ بيده، إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها.

وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء اللّه، ويظنون أن

ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته، وربما قالوا :هذه روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت، حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين، ولا يعلم أن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الإنسي.

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم ، هم من المشركين الذين يدعون غير الله، كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، قال تعالى :﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠]، وقال تعالى:﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣]. ومثل هذا كثير في القرآن: ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم، فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك ، بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضي إلى ذلك، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته، فإنه ينهى من يفعل ذلك، بخلاف دعائهم بعد موتهم، فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك.

فمن رأى نبيًا أو ملكًا من الملائكة وقال له: « ادع لي» لم يفض ذلك إلى الشرك به، بخلاف من دعاه في مغيبه، فإن ذلك يفضى إلى الشرك به كما قد وقع، فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك، كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين.

ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ

الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٩]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٥، ٦].

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد، وكذلك ما روي أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أمته هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد.

وإذ لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين، ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون، لوجهين:

أحدهما : أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم ، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم فلا فائدة في الطلب منهم.

الثاني : أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي إلى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة. فلو قدِّر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة، فكيف ولا مصلحة فيه، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة فيه، فإنهم ينهون عن الشرك بهم، بل فيه منفعة ، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم، فإنهم في دار العمل والتكليف، وشفاعتهم في الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة.

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجباً على السائل ولا مستحباً ، بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه. وسؤال الخلق في الأصل محرم، لكنه أبيح للضرورة، وتركه توكلاً على الله أفضل ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨] أي ارغب إلى الله لا إلى غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فأمرهم بإرضاء الله ورسوله.

وأما في الحسب فأمرهم أن يقولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ لا يقولوا : حسبنا الله ورسوله.

ويقولوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة : ٥٩] لم يأمرهم أن يقولوا: إنا للّه ورسوله راغبون، فالرغبة إلى اللّه وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، فجعل الطاعة للّه والرسول ، وجعل الخشية والتقوى للّه وحده.

وقد قال النبي ﷺ لابن عباس: « يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ اللّه يحفظك احفظ اللّه تجده تجاهك، تعرَّف إلى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه، جَفَّ القلم بما أنت لاق، فلو جهدت الخليقة على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه اللّه عليك، فإن استطعت أن تعمل للّه بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » (١)، وهذا الحديث معروف مشهور، ولكن قد يروى مختصراً.

وقوله: «إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه» هو من أصح ما روي عنه. وفي المسند لأحمد: أن أبا بكر الصديق كان يسقط السَّوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه، ويقول : إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئا(٢). وفي صحيح مسلم عن عوف ابن مالك أن النبي ﷺ بايع طائفة من أصحابه وأسرّ إليهم كلمة خفية: « ألا تسألوا الناس شيئا ». قال عوف: فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه (٣).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب»، وقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ ولا يَتَطَيَّرونَ وعلى ربهم يتوكلون»(٤) فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم. والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك.

وقد روي فيه : « ولا يرقون » وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقي نفسه وغيره ولم يكن يسترقي ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره، وهذا مأمور به، فإن الأنبياء كلهم سألوا اللّه ودعوه كما ذكر اللّه ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم.

---

(١) أحمد ١/٣٠٧.
(٢) أحمد ١/١١.
(٣) مسلم في الزكاة (١٠٤٣/١٠٨).
(٤) سبق تخريجه ص ٦١.

وما يروى أن الخليل لما ألقي في المنجنيق قال لـه جبريل: سل ، قال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» ليس له إسناد معروف وهو باطل، بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قال ابن عباس: قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين: ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران: ١٧٣]، وقد روى أن جبريل قال: هل لك من حاجة؟ قال: «أما إليك فلا» وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره[١].

وأما سؤال الخليل لربه - عز وجل - فهذا مذكور في القرآن في غير موضع، فكيف يقول :حسبي من سؤالي علمه بحالي، والله بكل شيء عليم، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه؛ لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين، وإجابة السائلين. وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هي عليه، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافي أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته.

ولكن العبد قد يكون مأموراً في بعض الأوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روي في الحديث :«من شَغَلَهُ ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[٢] ، وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «من شَغَلَهُ قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» قال الترمذي: حديث حسن غريب[٣].

وأفضل العبادات البدنية الصلاة، وفيها القراءة والذكر والدعاء، وكل واحد في موطنه مأمور به، ففي القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن، وفي الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالتسبيح والذكر، وفي آخرها يؤمر بالدعاء ،كما كان النبي ﷺ يدعو في آخر الصلاة ويأمر بذلك. والدعاء في السجود حسن مأمور به، ويجوز الدعاء في القيام أيضاً وفي الركوع، وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل، فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به .

وقد سأل الخليل وغيره، قال تعالى عنه: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

---

(١) ابن جرير في التفسير ١٧/ ٣٤، ولم أعثر عليه في أحمد.

(٢) البيهقي في الشعب(٥٦٧) وقال: هكذا رواه البخاري عن ضرار عن صفوان في التاريخ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٦٥ وقال: قال ابن حبان: هذا موضوع ما رواه إلا صفوان بهذا الإسناد عن عطية عن أبي سعيد. قال: فأما صفوان فيروي عن الأثبات ما لا أصل له من حديث الثقات، ولا يجوز الاحتجاج بما انفرد به. قال: وأما عطية فلا يحل كتب حديثه إلا على التعجب.

(٣) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٦) ، والدارمي في فضائل القرآن ٢/ ٤٤١.

عندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ . رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ . رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٧-٤١]، وقال تعالى: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به، وقد ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وكل اللّه به ملكاً كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله»[1] أي بمثل ما دعوت لأخيك به.

وأما سؤال المخلوقِ المخلوقَ أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به، بخلاف سؤال العلم، فإن اللّه أمر بسؤال العلم كما في قوله تعالى: **﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾** [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧] ، وقال تعالى: **﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾** [يونس: ٩٤]، وقال تعالى: **﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾** [الزخرف: ٤٥]، وهذا لأن العلم يجب بذله، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه اللّه بلجام من نار يوم القيامة. وهو يزكو على التعليم، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل، ولهذا يُشَبَّه بالمصباح.

وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة ، لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده، وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها وليُّ الأمر ، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية؛ لأن المستولي يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه.

ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه، كما استطعم موسى والخضر أهل القرية. وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه. وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه؛ فالبائع يسأل الثمن، والمشترى

---

(١) سبق تخريجه ص١٠١.

يسأل المبيع. ومن هذا الباب قوله تعالى :﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به، والمسؤول مأمور بإجابة السائل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] ،وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]،وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]،ومنه الحديث: «إن أحدكم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها ناراً »[1] ،وقوله: « اقطعوا عني لسان هذا» [2].

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهي تحريم أو تنزيه، وإن كان المسؤول مأمورا بإجابة سؤاله، فالنبي ﷺ كان من كماله أن يعطي السائل ، وهذا في حقه من فضائله ومناقبه، وهو واجب أو مستحب، وإن كان نفس سؤال السائل منهيًا عنه. ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئًا من ذلك، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين، كما أشار عليه عمر في بعض مغازيه لما استأذنوه في نحر بعض ظهرهم فقال عمر: يا رسول الله، كيف بنا إذا لقينا العدو غدًا رجالاً جياعًا ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها، ثم تدعو الله بالبركة، فإن الله يبارك لنا في دعوتك. وفي رواية: فإن الله سيغيثنا بدعائك. وإنما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره[3]، وكما سألته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس[4]، وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى عباده المؤمنين، ونحو ذلك.

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفي مثله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١]،وقد ثبت في الصحاح عنه أنه قال ﷺ : «إن أمَنَّ الناس علينا في صحبته

---

(١) أحمد ٣/١٦ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ذكره العراقي في تخريج إحياء علوم الدين ٣/١٣٦ وقال: « ليس في شيء من الكتب المشهورة»، والعجلوني في كشف الخفاء (٤٨٤).

(٣) الطبراني في الكبير ١٩/٨، وأبو يعلى (١٥٤٩) وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٠٠ وقال: « رواه الطبراني وأبو يعلى وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم ، وفي إسناد أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف»، وأبو نعيم في الدلائل ص ٤١٨.

(٤) البخاري في الدعوات (٦٣٣٤)، (٦٣٧٩)، (٦٣٨١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠/١٤١) ، (٢٤٨١) .

وذات يده أبو بكر، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا»[1] فلم يكن في الصحابة أعظم مِنَّةً من الصديق في نفسه وماله.

وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا يطلب جزاء من مخلوق، فقال تعالى: ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ [الليل:١٧-٢١]، فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى ، فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد، والنبي ﷺ كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم، وتلك النعمة لا تجزى، فإن أجر الرسول فيها على الله، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وأما علي وزيد وغيرهما، فإن النبي ﷺ كان له عندهم نعمة تجزى، فإن زيداً كان مولاه فأعتقه، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**﴾ [الأحزاب:٣٧]، وعلي كان في عيال النبي ﷺ لجدب أصاب أهل مكة، فأراد النبي ﷺ والعباس التخفيف عن أبي طالب من عياله، فأخذ النبي ﷺ علياً إلى عياله، وأخذ العباس جعفراً إلى عياله، وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أن الصديق كان أمنَّ الناس في صحبته وذات يده لأفضل الخلق رسول الله ﷺ ؛ لكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه المعذبين. ولم يكن النبي ﷺ محتاجاً في خاصة نفسه لا إلى أبي بكر ولا غيره، بل لما قال له في سفر الهجرة: إن عندي راحلتين فخذ إحداهما، فقال النبي ﷺ : «بالثمن»[2] فهو أفضل صديق لأفضل نبي، وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا يطلب جزاء من أحد من الخلق، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم.

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عمن أثنى عليهم: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان:٩]، والدعاء جزاء كما في الحديث: «من أسدى

---

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢) كلاهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الطبراني في الكبير ٢٤/١٠٦ (٢٨٤) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٥٦ وقال: « رواه الطبراني وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح».

إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[1]. وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول: اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله.

وقال بعض السلف : إذا قال لك السائل: بارك الله فيك، فقل : وفيك بارك الله، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً أو ملكاً من الملوك أو غنيا من الأغنياء، فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصا لله يبتغى به وجه الله، لا يطلب به من المخلوق جزاءً ولا دعاءً ولا غيره، لا من نبي ولا رجل صالح ولا من الملائكة، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين.

وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، فلا يقبل من أحد ديناً غيره، قال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [آل عمران :٨٥]، وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء - عليهم السلام- على الإسلام ، قال نوح: **﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم : **﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٠-١٣٢]، وقال موسى: **﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾** [يونس: ٨٤]، وَقَالَتِ السَّحَرَةُ: **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾** [الأعراف: ١٢٦]، وقال يوسف: **﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾**[يوسف: ١٠١]، وقال تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾** [المائدة:٤٤]، وقال عن الحواريين: **﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾** [المائدة: ١١١].

ودين الإسلام مبني على أصلين : أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل، أمر إيجاب أو أمر استحباب، فيعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان. فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين ، وكذلك شريعة الإنجيل.

---

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧) ، وأحمد ٦٨/٢ ، ٩٦، ٩٩ كلهم عن عبدالله ابن عمر، رضي الله عنه.

وكذلك في أول الإسلام لما كـان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس كـانت صلاته إليه من الإسلام، ولما أمر بالتـوجه إلي الكعبة كانت الصلاة إليها مـن الإسلام، والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عـن دين الإسلام . فكل من لم يعبد الله بعد مـبعث محمد ﷺ بما شرعه الله، من واجب ومستحب، فليس بمسلم.

ولابد في جميـع الواجبات والمستحبـات أن تكون خالصة لله رب العـالمين ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ . وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الـلَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـدِّيـنَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الـصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الـزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِيـنُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٤ ، ٥]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيـلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيـمِ . إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ . أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ١-٣].

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبـة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمـالية ومحبة الله ورسوله والإحسـان إلى عباد الله بالنفع والمـال، هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين، لا يطلـب من مخلوق عليه جزاء : لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء، لا دعاء ولا غيره.

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا في بعض المواضع، ويكون المسؤول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال، وإذا كان المؤمـنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ، فإنه أجل قدراً وأغنى بـالله عن غيره، فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد:

مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك.

ومفسدة إيذاء المسؤول وهي من نوع ظلم الخلق .

وفيه ذل لغير الله وهو ظـلم للنفس. فهو مشتمل على أنواع الـظلم الثلاثة، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله.

وحيث أمر الأمة بـالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما يـنتفعون به، كما يأمـرهم بسائر الواجبات والمسـتحبات، وإن كان هو ينتـفع بدعائهم له فهـو أيضا ينتفع بما يـأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة، فإنه ثبت عنـه في الصحيح أنه قال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[1]، ومحمدﷺ هو

(١) مسلم في العلم (٢٦٧٤/ ١٦)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه في المقـدمة (٢٠٦) وأحمد ٢/ ٣٨٠ كلهم عن أبـي هريرة رضي الله عنه.

الداعي إلى ما تفعله أمته من الخيرات، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ولهذا لم تجرِ عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال؛ لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء. وليس كذلك الأبوان، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثل أجره، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب، كما قال في الحديث الصحيح: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»[1] . فالنبي ﷺ - فيما يطلبه من أمته من الدعاء - طلبه طلب أمر وترغيب، ليس بطلب سؤال . فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه، فهذا أمر الله به في القرآن بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] . والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة. ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ ، فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»[2] ، وفي صحيح البخاري عن جابر، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال: « من قال حين سمع النداء: اللّهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد. حلت له شفاعتي يوم القيامة» [3] ، فقد رغب المسلمين في أن يسألوا الله له الوسيلة، وبيَّن أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومن هذا الباب الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال: « لا تنسنا يا أخي من دعائك»[4]، فطلب النبي ﷺ من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلي عليه، ويسلم عليه، وأن يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات،

---

(١) مسلم في الوصية (١٦٣١/ ١٤)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، وأحمد ٢/ ٣٧٢، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم في الصلاة (٣٨٤/ ١١).

(٣) البخاري في الأذان (٦١٤).

(٤) سبق تخريجه ص٦٢.

فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان إليه. وهو ﷺ أيضاً ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به، وينتفع أيضاً بالخير الذي يفعلونه من الأعمال الصالحة ومن دعائهم له.

ومن هذا الباب قول القائل: إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قال: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قال: النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قال: الثلثين؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك» رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما[1].

وقد بسط الكلام عليه في (جواب المسائل البغدادية). فإن هذا كان له دعاء يدعو به، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته، فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة: «آمين، ولك بمثله» فدعاؤه للنبي ﷺ أولى بذلك.

ومن قال لغيره من الناس: ادع لي - أو لنا- وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره، ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير، فهو مقتد بالنبي ﷺ، مؤتم به، ليس هذا من السؤال المرجوح.

وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به في ذلك، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله. وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع.

وأما سؤال الميت فليس بمشروع، لا واجب ولا مستحب، بل ولا مباح، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة؛ لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة، والشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة، بل إما أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة، وكلاهما غير مشروع.

فقد تبين أن ما فعله النبي ﷺ من طلب الدعاء من غيره، هو من باب الإحسان إلى الناس، الذي هو واجب أو مستحب.

---

(١) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد ٥/١٣٦، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/١٦٣ وقال: «رواه أحمد وإسناده جيد».

وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز، ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم، هو من باب الإحسان إلى الموتى الذي هو واجب أو مستحب، فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة ، فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة، والزكاة حق الخلق ، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئا.

ومن عبادته الإحسان إلى الناس، حيث أمرهم الله سبحانه به، كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين، فاستحوذ الشيطان على أتباعه، فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين، مؤذين ظالمين لمن يسألونه، وكانوا ظالمين لأنفسهم. فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة.

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد.

فإن الله ـ تعالى ـ أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾[النساء: ٣٦] وهذا أمر بمعالي الأخلاق ، وهو ـ سبحانه ـ يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها.

وقد روى عنه ﷺ أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه الحاكم في صحيحه[1]، وقد ثبت عنه في الصحيح ﷺ أنه قال :« اليد العليا خير من اليد السفلى»[2]، وقال:« اليد العليا هي المعطية، واليد السفلى السائلة» [3]،وهذا ثابت عنه في الصحيح.

فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له، من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه، وأن يحب كما يحب الله؟ وأين صلاح العبد في عبودية الله

---

(١) الحاكم ٢/ ٦١٣ بلفظ :« بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وقال:« حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) البخاري في الزكاة (١٤٧٢) وفي الوصايا (٢٧٥٠) ، ومسلم في الزكاة (١٠٣٥/ ٩٦).

(٣) أحمد ٤/ ٢٢٦، رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠٣٣/ ٩٤) كلاهما بلفظ «المنفعة» بدل «المعطية».

والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه؟.

فالرسول ﷺ أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة، ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها.

ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزل الله على رسوله الذي قال فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]، وقد قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ . كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١-٣]، وقد قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ بفعل ما أمر، وترك ما حظر، وتصديقه فيما أخبر، ولا طريق إلى الله إلا ذلك، وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين.

وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي والضلال، وقد نزه اللّه تعالى نبيه عن هذا وهذا، فقال تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ .وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:١-٤]، وقد أمرنا اللّه سبحانه أن نقول في صلاتنا: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

وقد روى الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم، عن النبي ﷺ أنه قال:«اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون» قال الترمذي: حديث صحيح[١] . وقال سفيان بن عيينة:كانوا يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى.

وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال اللّه فيهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤].ومن عبد اللّه بغير علم، بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال اللّه فيهم:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧].

فالأول من الغاوين، والثاني من الضالين.

فإن الغي اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ .وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

---

(١) الترمذي في التفسير (٢٩٥٤) وسكت عنه، وأحمد ٤/ ٣٨٧.

ومن جمع الضلال والغي ففيه شبه من هؤلاء وهؤلاء. نسأل الله أن يهدينا ـ وسائر إخواننا ـ صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فصـــل

إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ «الوسيلة» و«التوسل» فيه إجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه، ويعطى كل ذي حق حقه. فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه. وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك . ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه.

فإن كثيراً من اضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها، حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب.

فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ [المائدة: ٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً**﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه، هي ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات. فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروها أو مباحا.

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول. فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك.

والثاني لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ :«سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» [١]، وقوله: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد، حلت له الشفاعة»[٢].

فهذه الوسيلة للنبي ﷺ خاصة. وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة، وأخبر أنها

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٠ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٢.

لا تكون إلا لعبد من عباد الله، وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول، وأخبر أن من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فلما دعوا للنبي ﷺ استحقوا أن يدعو هو لهم، فإن الشفاعة نوع من الدعاء، كما قال: إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً[1].

وأما التوسل بالنبي ﷺ والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته. والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به، كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح. وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة.

فأما المعنيان الأولان ـ الصحيحان باتفاق العلماء ـ:

فأحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته.

والثاني: دعاؤه وشفاعته كما تقدم.

فهذان جائزان بإجماع المسلمين، ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا[2]، أي: بدعائه وشفاعته، وقوله تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ [المائدة: ٣٥]، أي القربة إليه بطاعته. وطاعة رسوله طاعته، قال تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]. فهذا التوسل الأول هو أصل الدين، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين. وأما التوسل بدعائه وشفاعته ـ كما قال عمر ـ فإنه توسل بدعائه لا بذاته؛ ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له، فإنه مشروع دائما.

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان:

أحدها: التوسل بطاعته، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به.

والثاني: التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته.

والثالث: التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته، والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم

---

(١) سبق تخريجه ص٦٢.

(٢) سبق تخريجه ص٨٠.

تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولاغير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عمن ليس قوله حجة، كما سنذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى.

وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه: إنه لا يجوز، ونهوا عنه، حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق، ولا يقول أحد: أسألك بحق أنبيائك. قال أبو الحسين القدوري[1]، في كتابه الكبير في الفقه المسمي بشرح الكرخي في باب الكراهة: وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة. قال بشر بن الوليد: حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو اللّه إلا به. وأكره أن يقول: «بمعاقد العز من عرشك» أو «بحق خلقك». وهو قول أبي يوسف، قال أبو يوسف: بمعقد العز من عرشه هو اللّه فلا أكره هذا، وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام.

قال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا. وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه -من أن اللّه لا يسأل بمخلوق- له معنيان:

أحدهما: هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى. وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كـ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢] ، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ [النازعات: ١]، ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ [الصافات: ١]، فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه، بخلاف المخلوق، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بغير اللّه فقد أشرك»، وقد صححه الترمذي وغيره[2] ، وفي لفظ: «فقد كفر» وقد صححه الحاكم[3]. وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « من كان حالفاً فليحلف باللّه أو ليصمت »[4] ، وقال :

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان المعروف بأبي الحسين القدوري ، فقيه حنفي وانتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق ، ولد سنة ٣٦٢هـ، وتوفى سنة ٤٢٨هـ.[تاريخ بغداد ٤/ ٣٧٧، وفيات الأعيان ١/ ٧٨].

(٢) سبق تخريجه ص٦٣ .

(٣) الحاكم ١/ ١٨ وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي.

(٤) البخاري في الشهادات (٢٦٧٩) ، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦/ ٣) كلاهما عن عبد اللّه بن مسعود.

« لا تحلفوا بآبائكم ، فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » (١) ، وفي الصحيحين عنه أنه قال : « من حلف باللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله » (٢) . وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش ، والكرسي ، والكعبة ، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد النبي ﷺ، والملائكة، والصالحين ، والملوك ، وسيوف المجاهدين ، وترب الأنبياء والصالحين ، وأيمان البندق ، وسراويل الفتوة ، وغير ذلك لا ينعقد يمينه ، ولا كفارة في الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك. وقيل: هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح ، حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغير الله صادقاً . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، والشرك أعظم من الكذب . إنما نعرف النزاع في الحلف بالأنبياء ، فعن أحمد في الحلف بالنبي ﷺ روايتان :

إحداهما : لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور : مالك وأبي حنيفة والشافعي .

والثانية : ينعقد اليمين به ، واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه ، وابن المنذر وافق هؤلاء . وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي ﷺ خاصة ، وعدَّى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء . وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق - وإن كان نبيا - قول ضعيف في الغاية ، مخالف للأصول والنصوص ، فالإقسام به على الله - والسؤال به بمعنى الإقسام - هو من هذا الجنس .

وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم - وبينهما فرق - فإن النبي ﷺ أمر بإبرار القسم ، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » قال ذلك لما قال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الرُّبيع ؟ قال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر سنها. فقال: « يا أنس ، كتاب الله القصاص »، فرضي القوم وعفوا ، فقال ﷺ: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره »(٣) ، وقال: « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » رواه مسلم وغيره (٤) ، وقال: « ألا أخبركم بأهل

(١) البخاري في الأيمان (٦٦٤٧)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦/ ١) ، كلاهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) البخاري في الأيمان (٦٦٥٠) ، ومسلم في الأيمان (١٦٥٧/ ٥) ، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) البخاري في الصلح (٢٧٠٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٥/ ٢٤)، كلاهما عن أنس رضي الله عنه

(٤) مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢/ ١٣٨) ، وفي الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٤/ ٤٨) وابن حبان في المعجزات (٦٤٤٩)، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على اللّه لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ[1] مستكبر» وهذا في الصحيحين[2].

وكذلك حديث أنس بن النضر والآخر من أفراد مسلم. وقد روى في قوله: «إن من عباد اللّه من لو أقسم على اللّه لأبره» أنه قال: «منهم البراء بن مالك» وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون: يا براء أقسم على ربك. فيقسم على الله فتنهزم الكفار. فلما كانوا على قنطرة بالسوس قالوا: يا براء، أقسم على ربك. فقال: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول شهيد. فأبر اللّه قسمه فانهزم العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ. وهذا هو أخو أنس بن مالك، قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك في دمه، وحمل يوم مسيلمة على ترس ورمى به إلى الحديقة حتى فتح الباب.

والإقسام به على الغير أن يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا، فإن حنثه ولم يبر قسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء، كما لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئاً ولم يفعله، فالكفارة على الحالف الحانث.

وأما قوله: «سألتك باللّه أن تفعل كذا» فهذا سؤال وليس بقسم، وفي الحديث: «من سألكم باللّه فأعطوه»[3] ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله. والخلق كلهم يسألون اللّه، مؤمنهم وكافرهم، وقد يجيب اللّه دعاء الكفار، فإن الكفار يسألون اللّه الرزق فيرزقهم ويسقيهم، وإذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون إلا إياه، فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفورا وأما الذين يقسمون على اللّه فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون. فالسؤال كقول السائل للّه: أسألك بأن لك الحمد، أنت اللّه المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. وأسألك بأنك أنت اللّه الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وأسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك.

فهذا سؤال اللّه تعالى بأسمائه وصفاته، وليس ذلك إقساماً عليه؛ فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم، وعفوه من

---

(١) العتل: الشديد الجافي والفظ الغليظ من الناس . والجواظ : الكثير اللحم المختال في مشيته، انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨٠، ١/ ٣١٦.

(٢) البخاري في الأدب (٦٠٧١) ، ومسلم في الجنة (٤٦/٢٨٥٣) كلاهما عن حارثة بن وهب .

(٣) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)، وأحمد ٢/ ٦٨، ٩٦، ٩٩ كلهم عن عبد اللّه ابن عمر رضي اللّه عنه.

مقتضى اسمه العفو؛ ولهذا لما قالت عائشة للنبى ﷺ : إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول؟ قال: « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى »(1).

وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادى ، وفى الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلاً أن يقول : يا دليل الحيارى ، دلنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين .

وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ؛ ولهذا يقال فى الدعاء: يا رب، يا رب، كما قال آدم : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:23]، وقال نوح: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود:47] وقال إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم:37] وكذلك سائر الأنبياء. وقد كره مالك وابن أبى عمران من أصحاب أبى حنيفة وغيرهما أن يقول الداعى: يا سيدى، يا سيدى، ياسيدى. وقالوا: قل كما قالت الأنبياء: ربِّ، رَبِّ، واسمه « الحى القيوم » يجمع أصل معانى الأسماء والصفات، كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقوله إذا اجتهد فى الدعاء .

فإذا سئل المسؤول بشىء ـ والباء للسبب ـ سئل بسبب يقتضى وجود المسؤول .

فإذا قال : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان، بديع السموات والأرض، كان كونه محموداً مناناً، بديع السموات والأرض يقتضى أن يمن على عبده السائل ، وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه، وحمد العبد له سبب إجابة دعائه؛ ولهذا أمر المصلى أن يقول: « سمع الله لمن حمده » أى استجاب الله دعاء من حمده ، فالسماع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله ﷺ : « أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع »(2) أى لا يستجاب .

ومنه قول الخليل فى آخر دعائه : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم:39] ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:47] وقولـه : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ

---

(1) الترمذى فى الدعوات (3513) وقال : « هذا حديث صحيح » ، وابن ماجه فى الدعاء (3850) ، وأحمد 171/6 ، 182 ، 183 ، 208 .

(2) مسلم فى الذكر (2722/73) ، وأبو داود فى الصلاة (1548) ، والترمذى فى الدعوات (3482) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى الاستعاذة (5459) ، (5467) ، وابن ماجه فى المقدمة (250) ، وأحمد 167/2 ، 198 ، 340 .

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة:٤١] أي: يقبلون الكذب، ويقبلون من قوم آخرين لم يأتوك؛ ولهذا أمر المصلي أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله ـ سبحانه.

وقال النبي ﷺ لمن رآه يصلي ويدعو، ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال: «عَجِل هذا»، ثم دعاه فقال: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على النبي ﷺ، وليدع بعد بما شاء»، أخرجه أبو داود والترمذي وصححه[1].

وقال عبد الله بن مسعود: كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه، ثم دعوت لنفسي فقال النبي ﷺ: «سل تعطه». رواه الترمذي وحسنه[2].

فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك، ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُون﴾ [الأنفال:٢٣]، فذمهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به. وإذا قال السائل لغيره: أسأل بالله، فإنما سأله بإيمانه بالله، وذلك سبب لإعطاء من سأله به، فإنه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق، لا سيما إن كان المطلوب كف الظلم، فإنه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم، وأمره أعظم الأسباب في حض الفاعل، فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسببه من أمر الله تعالى.

وقد جاء في حديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجه، عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه عَلَّم الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه: «وأسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، ولكن خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك»[3].

فإن كان هذا صحيحاً فحق السائلين عليه أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يثيبهم،

---

(١) أبو داود في الصلاة (١٤٨١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، كلاهما عن فضالة بن عبيد.

(٢) الترمذي في الصلاة (٥٩٣) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) ابن ماجه في المساجد (٧٧٨) وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد مسلسل بالضعفاء. لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده»، وأحمد ٣/ ٢١.
والأشر: البَطَر، وقيل: أشد البطر. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٥١.

وهو حق أوجبه على نفسه لهم، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذى جعله سبباً لإجابة الدعاء كما فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الشورى: ٢٦].

وكما يسأل بوعده؛ لأن وعده يقتضى إنجاز ما وعده، ومنه قول المؤمنين: ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

ويشبه هذا مناشدة النبى ﷺ يوم بدر حيث يقول: « اللهم أنجز لى ما وعدتنى »[١] وكذلك ما فى التوراة: أن الله تعالى غضب على بنى إسرائيل ، فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعد به إبراهيم، فإنه سأله بسابق وعده لإبراهيم .

ومن السؤال بالأعمال الصالحة : سؤال الثلاثة الذين أووا إلى غار ، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله؛ لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه ، محبة تقتضى إجابة صاحبه. هذا سأل ببره لوالديه، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا سأل بأمانته وإحسانه[٢] .

وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر: « اللهم أمرتنى فأطعتك ، ودعوتنى فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لى » ، ومنه حديث ابن عمر : أنه كان يقول على الصفا: «اللهم إنك قلت ـ وقولك الحق ـ: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، وإنك لا تخلف الميعاد »[٣]، ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا .

فقد تبين أن قول القائل : « أسألك بكذا » نوعان: فإن الباء قد تكون للقسم ، وقد تكون للسبب، فقد تكون قسماً به على الله ، وقد تكون سؤالاً بسببه .

فأما الأول : فالقسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق ؟

وأما الثانى ـ وهو السؤال بالمعظم ـ: كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع، وقد تقدم عن

---

(١) مسلم فى الجهاد والسير (٥٨/١٧٦٣)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٨١) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » وأحمد ١/ ٣٠، ٣٢. كلهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم فى الزهد (٢٩٦٤/ ١٠) .

(٣) مالك فى الحج ١/ ٣٧٢ (١٢٨) .

أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك. ومن الناس من يجوز ذلك، فنقول : قول السائل لله تعالى : « أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان» يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه، وهذا صحيح.

فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضي أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا، مع أنه سبحانه قال: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة :٢٥٥].

ويقتضي أيضاً أن من اتبعهم اقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه، كان سعيداً ، ومن أطاع أمرهم الذي بلغوه عن الله كان سعيداً، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك، بل جاههم ينفعه أيضاً إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله، أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين، وينفعه أيضاً إذا دعوا له وشفعوا فيه.

فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة، ولا منه سبب يقتضي الإجابة، لم يكن متشفعاً بجاههم، ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سبباً لنفعه، ولو قال الرجل لمطاع كبير: «أسألك بطاعة فلان لك، وبحبك له على طاعتك، وبجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك، لكان قد سأله بأمر أجنبي لا تعلق له به، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس في ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم، أو سبب منهم لشفاعتهم له، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب.

نعم، لو سأل الله بإيمانه بمحمد ﷺ ومحبته له وطاعته له واتباعه، لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء، بل هذا أعظم الأسباب والوسائل ، والنبي ﷺ بين أن شفاعته في الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك، وهي مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما في الصحيح أنه قال: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» [١]، وفي الصحيح أن أبا هريرة قال له : أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال:« من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[٢].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٠ .

(٢) البخاري فى العلم (٩٩) .

فبين ﷺ أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيدًا وإخلاصًا؛ لأن التوحيد جماع الدين، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا شفع محمدا ﷺ حدَّ له ربه حَدا فيدخلهم الجنة، وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان. وذكر ﷺ أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعته يوم القيامة، فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان. وبالدعاء الذي سن لنا أن ندعو له به.

وأما السؤال بحق فلان فهو مبني على أصلين:

أحدهما: ما له من الحق عند الله. والثاني: هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة؟

أما الأول فمن الناس من يقول : للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل، وقاس المخلوق على الخالق، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم. ومن الناس من يقول: لا حق للمخلوق على الخالق بحال ، لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعري وغيرهما، ممن ينتسب إلى السنة.

ومنهم من يقول : بل كتب الله على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه حقًا لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم، كما قال في الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»(1). وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وفي الصحيحين عن معاذ، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. يا معاذ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه ألا يعذبهم»(2). فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع إخباره، وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه، وإن لم يكن ثَمَّ سبب يقتضيه.

فمن قال: ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به- كما روى أن الله تعالى قال

---

(1) مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧/ ٥٥)، وأحمد ٥/ ١٦٠، كلاهما عن أبي ذر رضي الله عنه.

(2) البخاري في التوحيد(٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان (٣٠/ ٤٨)، والترمذي في الإيمان(٢٦٤٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦).

لداود : « وأي حق لآبائك عليّ ؟ » (١) - فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقاً بعبادتهم .

وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق ، كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم ، فيجلبون لهم منفعة ، ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ؟ يمن عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه .

وتخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ، ولهذا بيّن سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه ، وأن الله غنى عن الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾ [الإسراء : ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ [الزمر: ٧] وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالى في قصة موسى - عليه السلام - : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [إبراهيم : ٧ ، ٨] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وقد بين - سبحانه - أنه المانُّ بالعمل فقال تعالى: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ٧ ، ٨] .

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٠٥ وقال : « رواه البزار من رواية أبي سعيد عن علي بن زيد وأبو سعيد لم أعرفه ، وعلي بن زيد ضعيف وقد وثق » .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي ، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا .يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[1].

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة.

منها: أن الرب تعالى غني بنفسه عما سواه، ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه. والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية.

ومنها: أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التّائبين فهو الذي يخلق ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته. وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن الله هو المنعم على عباده بالإيمان، بخلاف القدرية . والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره.

ومنها: أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم، كما قال قتادة: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم. بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلا عليه. وهذا أيضا ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته، ويقولون: إنه لم يأمر العباد إلا بخير ينفعهم، ولم ينههم إلا عن شر يضرهم، بخلاف المجبرة الذين يقولون: إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم.

ومنها: أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده، فلا حول ولا قوة إلا به؛ ولهذا قال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣] وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك.

---

[1] في البر والصلة (٢٥٧٧/ ٥٥)، وأحمد ٥/ ١٦٠ كلاهما عن أبي ذر رضي الله عنه.

ومنها : أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم لم تقم العبادة بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمته أيضاً ؟

ومنها أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته ، فلن يدخل أحد الجنة بعمله ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله لها ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وقوله ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » [١] ، لا يناقض قوله تعالى : ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأحقاف: ١٤،الواقعة: ٢٤] .

فإن المنفي نفي بباء المقابلة والمعاوضة ، كما يقال : بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بباء السبب ، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سببا للجزاء ؛ ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه ، فهو ضال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يدخل أحد الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » [٢] وروى « بمغفرته » [٣] ، ومن هذا أيضاً : الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث [٤].

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق ، فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه ، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته ، وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى إنجاز وعده ، أو يسأله بالأسباب التي علق الله بها المسببات كالأعمال الصالحة ، فهذا مناسب ، وأما غير المستحق لهذا الحق إذا سأله بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأله بجاه ذلك الشخص ، وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه .

وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التي تقتضي ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر ، فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع: لا يسأل بحق الأنبياء ، فإنه لا حق للمخلوق على الخالق: ممنوع فإنه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذي تقدم إيراده ،

---

(١) البخارى في المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٦/ ٧٥) ،وأحمد ٢ / ٣٥٦، ٤٧٣ ، والطبرانى في الكبير ٧ / ٣٠٨ (٧٢١٨) ، وذكره الهيثمى في المجمع ١٠ / ٣٦٠ وقال :«رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح » .

(٢) انظر : تخريج الحديث السابق . (٣) مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٦ / ٧٣) .

(٤) أبو داود في السنة (٤٦٩٩) ، وابن ماجه في المقدمة (٧٧) ، وأحمد ٥ / ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ .

وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

فيقال للمنازع : الكلام في هذا في مقامين :

أحدهما : في حق العباد على الله .

والثاني : في سؤاله بذلك الحق .

أما الأول : فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ، ووعد السائلين بأن يجيبهم، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد، قال الله تعالى: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٢] ، ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٦] ، ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين . وتنازعوا : هل عليه واجب بدون ذلك ؟ على ثلاثة أقوال ، كما تقدم .

قيل : لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك .

وقيل : بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عباده .

وقيل : هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه ، فيجب عليه ما أوجبه على نفسه ، ويحرم عليه ما حرمه على نفسه ، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي ذر ، كما تقدم .

والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين ، لكن تنازعوا في الظلم الذي لا يقع ، فقيل : هو الممتنع وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلماً ؛ لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير ، وإما مخالفة الأمر الذي يجب عليه طاعته ، وكلاهما ممتنع منه .

وقيل : الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١١] . قال المفسرون : هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه ، والهضم أن يهضم من حسناته ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١] .

وأما المقام الثاني : فإنه يقال : ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو حق ، لكن الكلام في السؤال بذلك ، فيقال : إن كان الحق الذي سأل به سبباً لإجابة السؤال حسن السؤال به ، كالحق الذي يجب لعابديه وسائليه .

وأما إذا قال السائل: بحق فلان وفلان، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق ألا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم- كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه- فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبباً لمطلوب هذا السائل، فإن ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك. فليس في إكرام الله لذلك سبب يقتضي إجابة هذا.

وإن قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق، إذا كان قد شفع له ودعا له، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سببه

وإن قال : السبب هو محبتي له وإيماني به وموالاتي له،فهذا سبب شرعي،وهو سؤال الله وتوسل إليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله، وطاعته لله ورسوله، لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله : فمن أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فقد جعله نداً لله ، وهذه المحبة تضره ولا تنفعه ، وأما من كان الله تعالى أحب إليه مما سواه ، وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له ، فحبه لله تعالى هو أنفع الأشياء ، والفرق بين هذين من اعظم الأمور.

فإن قيل : إذا كان التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته على وجهين ـ تارة يتوسل بذلك إلى ثوابه وجنته، وهذا أعظم الوسائل، وتارة يتوسل بذلك في الدعاء كما ذكرتم نظائره – فيحمل قول القائل: أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد : إني أسألك بإيماني به وبمحبته، وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته، ونحو ذلك، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع. قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع، وإذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف – كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره -كان هذا حسنا، وحينئذ فلا يكون في المسألة نزاع . ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى،فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر.

وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا جائز بلا نزاع، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ.

فإن قيل : فقد يقول الرجل لغيره: بحق الرحم، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقا لذي الرحم، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وقال النبي ﷺ : «الرحم شَجْنَةٌ [1] من الرحمن، من وصلها وصله الله ومن قطعها

---

(١) شَجْنَة: أي قرابة مُشْتَبِكة كاشتباك العروق. انظر:النهاية في غريب الحديث٢/٤٤٧.

قطعه الله» [1] وقال : « لما خلق الله الرحم تعلقت بِحَقْوِ الرحمن [2] وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قد رضيت » [3] ، وقال ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » [4] .

وقد روى عن عليٍّ أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه ، أعطاه لحق جعفر على عليٍّ . وحق ذي الرحم باقٍ بعد موته ، كما في الحديث: أن رجلا قال: يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الدعاء لهما والاستغفار لهما ،وإنفاذ وعدهما من بعدهما ،وصلة رحمك التي لا رحم لك إلا من قبلهما » [5] ، وفى الحديث الآخر - حديث ابن عمر - : « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي » [6] . فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

والذي قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء - من أنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق : لا بحق الأنبياء ولا غير ذلك - يتضمن شيئين - كما تقدم -:

أحدهما : الإقسام على الله - سبحانه وتعالى - به ، وهذا منهي عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما نهى أن يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء .

والثاني : السؤال به ، فهذا يجوزه طائفة من الناس ، ونقل فى ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس ، لكن ما روى عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة ، إلا حديث الأعمى الذي علمه أن يقول: « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » [7] ، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه،فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته، وهو طلب من النبى ﷺ الدعاء ، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول:« اللّهم شفعه في » [8] .

---

(1) البخارى في الأدب (٥٩٨٨) ، والترمذى في البر والصلة (١٩٢٤) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٣٨٣ .

(2) أي استمسكت واعتصمت به . أي لما جعل الرحم شجنة من الرحمن استعار لها الاستمساك به . انظر : النهاية في غريب الحديث ١ / ٤١٧ .

(3) أحمد ٢ / ٣٣٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(4) أحمد ١ / ١٩٤ عن عبد الرحمن بن عوف .

(5) أبو داود في الأدب (٥١٤٢) ، وأحمد ٣ / ٤٩٨ عن أبى أسيد رضي الله عنه .

(6) مسلم في البر والصلة (٢٥٥٢ / ١٣) ، وأبو داود في الأدب (٥١٤٣) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٣) وقال : « هذا إسناد صحيح » وأحمد ٢ / ٨٨، ٩١ .

(٧ ، ٨) سبق تخريجهما ص ٨٠ .

ولهذا رد اللّه عليه بصره لما دعا له النبي ﷺ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي ﷺ. ولو توسل غيره من العميان، الذين لم يدع لهم النبي ﷺ بالسؤال به، لم تكن حالهم كحاله.

ودعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار، وقوله: «اللّهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا»[1]: يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته؛ إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس.

وشاع النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين، دون الإقسام بهم؛ لأن بين السؤال والإقسام فرقًا، فإن السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الإجابة، والمقسم أعلى من هذا، فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم، والمقسم لا يقسم إلا على من يرى أنه يبر قسمه، فإبرار القسم خاص ببعض العباد.

وأما إجابة السائلين فعام؛ فإن اللّه يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من داع يدعو اللّه بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه اللّه بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها» قالوا: يا رسول اللّه، إذاً نكثر. قال: «اللّه أكثر»[2]. وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم - وهو الذي قال أبوحنيفة وأصحابه وغيرهم أنه لا يجوز - ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك، فضلا أن يجعل هذا من مسائل السب، فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوَّز التوسل به، بمعنى الإقسام به أو السؤال به، فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه، فضلا عن أن يقول مالك: إن هذا سب للرسول أو تنقص له، بل المعروف عن مالك أنه كره للداعي أن يقول: يا سيدي، سيدي، وقال: قل كما قالت الأنبياء: يا رب، يا رب، يا كريم. وكره أيضا أن يقول: يا حنان يا منان. فإنه ليس بمأثور عنه.

فإذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء، إذ لم يكن مشروعاً عنده، فكيف يجوز عنده أن يسأل اللّه بمخلوق نبياً كان أو غيره، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا اللّه بمخلوق، لا نبي ولا غيره، بل قال عمر: اللّهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) الترمذي في الدعوات (٣٥٧٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وأحمد ٥ / ٣٢٩، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه .

بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. فيسقون[1].

وكذلك ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا إذا أجدبوا إنما يتوسلون بدعاء النبي ﷺ واستسقائه[2]، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان في حياته ﷺ سأل الله تعالى بمخلوق، لا به ولا بغيره، لا في الاستسقاء ولا غيره، وحديث الأعمى سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى، فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر: إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس، فلم نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه، وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل، وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ـ ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب.

والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين، فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجُرَشِي كما توسل عمر بالعباس، وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح، قالوا: وإن كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل، اقتداء بعمر، ولم يقل أحد من أهل العلم: إنه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي.

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين ـ غير مالك ـ كالشافعي وأحمد وغيرهما فقد كذب عليهم، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند إلى حكاية مكذوبة عن مالك، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا، بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، ولكن من الناس من يحرف نقلها، وأصلها ضعيف كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

والقاضي عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة قبره، بل ذكر هناك ما هو المعروف عن مالك وأصحابه، وإنما ذكرها في سياق أن حرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازم، كما كان حال حياته، وكذلك عند ذكره وذكر حديثه، وسنته، وسماع اسمه. وذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني فقال: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه. قال: وحج حجتين، فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه.

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني، حتى

---

(١) سبق تخريجه ص٨٠.

(٢) مسلم في صلاة الاستسقاء (٨٩٧/ ٨ ـ ١٠).

يصعب ذلك على جلسائه. فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون، لقد كنت أرى محمد بن المُنْكَدِر - وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه. ولقد كنت أرى جعفر بن محمد - وكان كثير الدعابة والتبسم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة. ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصلياً ، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن. ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ. ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله ابن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. ولقد رأيت الزهري ـ وكان لَمِنْ أهنأ الناس وأقربهم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

فهذا كله نقله القاضي عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة، ثم ذكر حكاية بإسناد غريب منقطع رواها عن غير واحد إجازة، قالوا: حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهات، قال : حدثنا أبو الحسن على بن فِهْر، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرح، حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل، حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قوماً فقال: ﴿**لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ الآية [الحجرات: ٢]، ومدح قوماً فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ** ﴾ الآية[الحجرات: ٣]، وذم قوماً فقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ الآية[الحجرات: ٤]، وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً. فاستكان لها أبو جعفر، فقال: يا أبا عبد الله، أستقبلُ القبلة وأدعو؟ أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾[النساء: ٦٤][1]. قلت وهذه الحكاية منقطعة؛ فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا، لاسيما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أباجعفر توفي بمكةسنة ثمان وخمسين ومائة،

---

(١) انظر: القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٤١-٤٣.

وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث، كذبه أبو زُرْعَة، وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدي : ما رأيت أحداً أجرأ على الله منه وأحذق بالكذب منه. وقال يعقوب بن شيبة: كثير المناكير . وقال النسائي : ليس بثقة. وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بالمقلوبات. وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن إسماعيل السهمي توفي سنة تسع وخمسين ومائتين. وفي الإسناد أيضاً من لا تعرف حاله.

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه، ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟! هذا إن ثبت عنه، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم، ومروان ابن محمد الطاطري ضعفوا رواية هؤلاء، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث؟

مع أن قوله: «وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة» إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، وهذا حق، كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين تأتي الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم، فيردهم آدم إلى نوح، ثم يردهم نوح إلى إبراهيم ، وإبراهيم إلى موسى، وموسى إلى عيسى، ويردهم عيسى إلى محمد ﷺ ،فإنه كما قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر»[1] ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه:

أحدها: قوله: «أستقبلُ القبلة وأدعُو، أم أستقبلُ رسول الله وأدعُو؟» فقال: «ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم» . فإن المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين، أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له. هذا قول أكثر العلماء كمالك في

---

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٣١٤٨) وقال: « هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وأحمد ٣/ ٢ كلهم عن أبي سعيد رضي الله عنه.

إحدى الروايتين والشافعي وأحمد وغيرهم.

وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضاً.

ثم منهم من قال : يجعل الحجرة على يساره - وقد رواه ابن وهب عن مالك - ويسلم عليه.

ومنهم من قال : بل يستدبر الحجرة ويسلم عليه، وهذا هو المشهور عندهم ، ومع هذا فَكَرِهَ مالك أن يطيل القيام عند القبر لذلك. قال القاضي عياض في المبسوط عن مالك قال: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، ولكن يسلم ويمضي» قال: وقال نافع: كان ابن عمر يسلم على القبر، رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي ﷺ ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي [1]. ثم ينصرف. ورؤي واضعا يده على مقعد النبي من المنبر ثم وضعها على وجهه. قال : وعن ابن أبي قُسَيْط والقَعْنَبِي كان أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد جسوا برمانة المنبر التي تلقاء القبر بميامنهم، ثم استقبلوا القبلة يدعون. قال: وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي أنه كان - يعني ابن عمر - يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر، وعند ابن القاسم والقعنبي : ويدعو لأبي بكر وعمر. قال مالك في رواية ابن وهب: يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وقال في المبسوط : ويسلم على أبي بكر وعمر.

قال أبو الوليد الباجي : وعندي أن يدعو للنبي ﷺ بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر بلفظ السلام لما في حديث ابن عمر من الخلاف. وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور في رواية ابن وهب، قال مالك في رواية ابن وهب: إذا سلم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر. فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه - كما تقدم تفسيره.

وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب في الواضحة وغيره قال : وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضا: ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر، أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر. قيل له : فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة. فقال مالك : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا

(١) مالك في قصر الصلاة في السفر ١/١٦٦ (٦٨).

ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده.

قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها ، أو دخلوا أتوا القبر فسلموا، قال: ولذلك رأى. . . [1].

قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء؛ لأن الغرباء قصدوا لذلك، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم.

قال : وقال رسول الله ﷺ :«اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ،اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2] قال:وقال النبي ﷺ «لا تجعلوا قبري عيداً»[3]. قال: ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلا، وفي (العتبية) يعني عن مالك: يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد النبي ﷺ [4] ، وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي ﷺ حيث العمود المخلق، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف . قال : والتنفل فيه للغرباء أحب إلي من التنفل في البيوت.

فهذا - قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة - يبين أنهم لم يقصدوا القبر إلا للسلام على النبي ﷺ والدعاء له. وقد كره مالك إطالة القيام لذلك، وكره أن يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له، فإنه تحية للنبي ﷺ.

فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فإنما يدعو في مسجده مستقبل القبلة، كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي ﷺ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر، بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي ﷺ ، فكيف بدعائه لنفسه.

وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته، فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون، وكذلك السؤال به، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته؟

فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله:«استقبله واستشفع به» كذب على مالك، مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء؛ إذ كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه، فضلاً عن أن

---

(١) بياض بالأصل.

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص٥٢ .

(٤) أي يقدم صلاة تحية المسجد على السلام على الرسول ﷺ.

يستقبله ويستشفع به يقول له: يا رسول الله، اشفع لي أو ادع لي، أو يشتكي إليه مصائب الدين والدنيا، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له، أو يشتكي إليهم المصائب ، فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين، وإن كانوا يسلمون عليه، إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويُبَلَّغُ سلام البعيد .

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذي رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حَيْوَة بن شُرَيْح المصري: حدثنا أبو صخر، عن يزيد بن قُسَيط، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام»[1] . وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة في السلام عليه عند قبره صلوات الله وسلامه عليه، فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين. ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها، وإنما يرويها من يروي الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما.

وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمري - وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه - مثل قوله: «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»[2] ،فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من زاره في حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه، لا سيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه» أخرجاه في الصحيحين[3].

والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين؟ بل ولا شرع السفر إليه، بل هو منهي عنه.

---

(١) أبو داود في المناسك (٢٠٤١) ، وأحمد ٢/٥٢٧.

(٢) الطبراني في الكبير ١٢/٤٠٦(١٣٤٩٧)، والدارقطني في سننه في ٢/٢٧٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٢٤٦ وذكره الهيثمي في المجمع ٤/٥ وقال:« رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه حفص بن أبي داود القارئ وثقه أحمد وضعفه جماعة من الأئمة».

(٣) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠/٢٢١).

وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب . فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته، فكيف بالسفر المنهي عنه؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات اللّه وسلامه عليه، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين، لم يكن عليه أن يوفي بنذره ، بل ينهى عن ذلك. ولو نذر السفر إلى مسجده أو المسجد الأقصى للصلاة ففيه قولان للشافعي:

أظهرهما عنه: يجب ذلك وهو مذهب مالك وأحمد.

والثاني: لا يجب وهو مذهب أبي حنيفة؛ لأن من أصله أنه لا يجب من النذر إلا ما كان واجبا بالشرع، وإتيان هذين المسجدين ليس واجبا بالشرع فلا يجب بالنذر عنده.

وأما الأكثرون فيقولون: هو طاعة للّه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « من نَذَر أن يطيع اللّه فليطعه ، ومن نذر أن يعصي اللّه فلا يعصه»[1] .

وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل: زرت قبر رسول اللّه ﷺ ، واستعظمه. وقد قيل: إن ذلك ككراهية زيارة القبور، وقيل: لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك.

والصحيح أن لفظ زيارة القبر مجمل يدخل فيها الزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك ، فإن زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين- كما تقدم ذكره-: زيارة شرعية ، وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة ، فهذه الزيارة الشرعية.

والثاني :أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت، أو أن الإقسام بهم على اللّه وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها.

فإذا كان لفظ «الزيارة» مجملاً يحتمل حقاً وباطلاً، عدل عنه إلى لفظ لا لبس فيه كلفظ «السلام» عليه، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روى في زيارة قبره أو زيارته

---

(١) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦)، (٦٧٠٠) عن عائشة رضي اللّه عنها.

بعد موته، فإن هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة، لا يحتج بشيء منها في أحكام الشريعة.

والثابت عنه ﷺ أنه قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[1] هذا هو الثابت في الصحيح، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال: قبري. وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة، لما تنازعوا في موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً في محل النزاع. ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه، بأبي هو وأمي ـ صلوات الله عليه وسلامه.

ثم لما وسع المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك ،وكان نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز أمره أن يشتري الحجر ويزيدها في المسجد ، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت في المسجد ودخلت حجرة عائشة في المسجد من حينئذ، وبنوا الحائط البراني مُسَنَّما محرفاً، فإنه ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أنه قال ﷺ: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»[2] لأن ذلك يشبه السجود لها، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله تعالى. وكما نهى عن اتخاذها مساجد ونهى عن قصد الصلاة عندها، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له. فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها، فقد قصد نفس المحرم الذي سد الله ورسوله ذريعته، وهذا بخلاف السلام المشروع، حسبما تقدم.

وقد روى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام» رواه النسائي وأبو حاتم في صحيحه[3] ، وروي نحوه عن أبي هريرة . فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة.

وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ :« أكثروا علي من الصلاة في كل يوم جمعة، فإن صلاة أمتي تعرض

---

(١) البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٨) ، ومسلم في الحج (١٣٩١/٥٠٢) ، والترمذي في المناقب (٣٩١٥)، وأحمد ٢/٢٣٦، ٣٧٦ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم في الجنائز (٩٧٢/٩٧).

(٣) النسائي في السهو (١٢٨٢) ، وابن حبان في صحيحه (٩١٠).

علي يومئذ، فمن كان أكثرهم علي صلاة كان أقربهم مني منزلة»[1].

وفي مسند الإمام أحمد: حدثنا شُرَيح، حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»[2] ورواه أبو داود. قال القاضي عياض: وروي أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي عند قبري سمعته. ومن صلى علي نائياً أبلغته»[3]. وهذا قد رواه محمد بن مروان السدي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة، وليس هذا من حديث الأعمش.

وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده، عن موسى بن محمد بن حبان، عن أبي بكر الحنفي: حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، سمعت الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: « صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا، ولا تتخذوا بيتي عيداً. صلوا علي وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم يبلغني»[4].

وروى سعيد بن منصور في سننه أن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رأى رجلا يكثر الاختلاف إلى قبر النبي ﷺ قال له: يا هذا، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني» فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء.

وروي هذا المعنى عن علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن علي بن أبي طالب، ذكره أبو عبد اللّه محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مختاره الذي هو أصح من صحيح الحاكم. وذكر القاضي عياض عن الحسن بن علي قال: إذا دخلت فسلم على النبي ﷺ، فإن رسول الله ﷺ قال: « لا تتخذوا بيتي عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيث كنتم، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[5].

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها: « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة

---

(١) أبو داود في الصلاة (١٠٤٧)، (١٥٣١) والنسائي في الجمعة (١٣٧٤)، والبيهقي في الكبرى في الجمعة ٣/٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) سبق تخريجه ص٥٢.

(٣) القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/٧٩، وابن الجوزي في الموضوعات ١/٣٠٣ وقال: «هذا حديث لا يصح، فيه محمد بن مروان ليس بثقة، وقيل: كذاب، وقيل: متروك».

(٤) أبو يعلى في مسنده ١٢/١٣١ (٦٧٦١)، وذكره الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٥٠ وقال:« رواه أبو يعلى وفيه عبداللّه بن نافع وهو ضعيف ».

(٥) القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/٧٩، ٨٠.

أبيك آدم إلى الله يوم القيامة» إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته، وهذا حق كما تواترت به الأحاديث، لكن إذا كان الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته في حياته، فإنما ذاك طلب لدعائه وشفاعته، فنظير هذا - لو كانت الحكاية صحيحة - أن يطلب منه الدعاء والشفاعة في الدنيا عند قبره.

ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا سنه لأمته، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام الذي لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة أدلتها الشرعية، مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته، وتمام رغبته في اتباع السنة وذم البدع وأهلها ؟ وهل يأمر بهذا أو يشرعه إلا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا، لعلم أنه لا يقول مثل هذا.

ثم قال في الحكاية: « استقبله واستشفع به فيشفعك الله» والاستشفاع به معناه في اللغة: أن يطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة، وكما كان أصحابه يستشفعون به. ومنه الحديث الذي في السنن أن أعرابياً قال: يا رسول الله، جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال، فادع الله لنا ،فإنا نستشفع بالله عليك، ونستشفع بك على الله. فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال :«ويحك أتدري ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه»[1]، وذكر تمام الحديث.

فأنكر قوله: « نستشفع بالله عليك» ومعلوم أنه لا ينكر أن يسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله، وإنما أنكر أن يكون الله شافعاً إلى المخلوق؛ ولهذا لم ينكر قوله: «نستشفع بك على الله» فإنه هو الشافع المشفع.

وهم - لو كانت الحكاية صحيحة- إنما يجيئون إليه لأجل طلب شفاعته ﷺ ؛ولهذا قال في تمام الحكاية : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية[النساء: ٦٤]، وهؤلاء إذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته، فإذا أجابهم فإنه يستغفر لهم، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة أن يغفر الله لهم.

وإذا كان الاستشفاع منه طلب شفاعته فإنما يقال في ذلك: «استشفع به فيشفعه الله

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦).

فيك» لا يقال : فيشفعك اللّه فيه. وهذا معروف الكلام ، ولغة النبي ﷺ وسائر العلماء يقال: شفع فلان في فلان فشفع فيه . فالمشفع الذي يشفعه المشفوع إليه هو الشفيع المستشفع به، لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له، فإن هذا ليس هو الذي شفع، فمحمد ﷺ هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذي يستشفع به. ولهذا يقول في دعائه : يا رب شفعني ، فيشفعه اللّه ، فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبي شفاعته، فكيف يقول : واستشفع به فيشفعك الله؟ وأيضا: فإن طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره، ليس مشروعا عند أحد من أئمة المسلمين، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء ، وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين ؛ ذكروا حكاية عن العتبي أنه رأى أعرابياً أتى قبره وقرأ هذه الآية، وأنه رأى في المنام أن الله غفر له. وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين، الذين يفتى الناس بأقوالهم، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلاً شرعيا.

ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعا، لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق إليه من غيرهم، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك، وما أحسن ما قال مالك :«لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» قال: ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك.

فمثل هذا الإمام كيف يشرع دينا لم ينقل عن أحد السلف، ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار - بعد موت الأنبياء والصالحين- منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة ؟

ولكن هذا اللفظ الذي في الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة في معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان أي نتوسل به. ويقولون لمن توسل في دعائه بنبي أو غيره: « قد تشفع به» من غير أن يكون المستشفع به شفع له ولا دعا له، بل وقد يكون غائباً لم يسمع كلامه ولا شفع له، وهذا ليس هو لغة النبي ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة، بل ولا هو لغة العرب ، فإن الاستشفاع طلب الشفاعة. والشافع هو الذي يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسؤول المدعو المشفوع إليه.

وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل ولا طلب له حاجة بل وقد لا يعلم بسؤاله، فليس هذا استشفاعاً لا في اللغة ولا في كلام من يدري ما يقول : نعم هذا سؤال به، ودعاؤه ليس هو استشفاعا به. ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة- كما غيروا الشريعة ـ وسموا هـذا استشفاعاً أي سؤالا بالشافع صاروا يقولون :« استشفع به فيشفعك» أي يجيب

سؤالك به، وهذا مما يبين أن هـذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغـة وليس لفظها من ألفاظ مالك.

نعم، قد يـكون أصلها صحيـحا ،ويكون مالك قـد نهى عن رفع الصوت فـي مسجد الرسول اتباعاً للسنة، كما كان عمر ينـهى عن رفع الصوت في مسجده، ويكون مالك أمر بما أمر الله به من تعزيره وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به.

ومن لـم يعرف لـغة الصـحابـة التي كـانوا يتـخاطبـون بها ويـخاطـبهم بـها النـبي ﷺ،وعادتهم فـي الكلام ، وإلا حرف الكلـم عن مواضعه ، فإن كـثيراً من الناس يـنشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابـة، فيظن أن مراد الله أو رسـوله أو الصحابة بتـلك الألفاظ ما يريـده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك.

وهذا واقع لطـوائف من الناس من أهـل الكلام والفقه والـنحو والعامة وغـيرهم، وآخرون يتعـمدون وضع ألفاظ الأنبـياء وأتباعهم عـلى معان أخر مخـالفة لمعانيـهم ، ثم ينطقون بتلك الألفـاظ مريدين بها ما يعنونه هم، ويقولون: إنا مـوافقون للأنبياء ! وهذا موجود فـي كلام كثير من المـلاحدة المتفلسـفة والإسماعيلـية ومن ضاهاهم مـن ملاحدة المتكلمة والمتصوفة، مثل من وضع «المحدث» و«المخلوق» و«المصنوع» على ما هو معلول وإن كان عنده قـديما أزلياً ، ويسمي ذلـك « الحدوث الذاتي» ثم يقول : نـحن نقول: إن العالـم محدث، وهو مراده . ومـعلوم أن لفظ المحـدث بهذا الاعتـبار ليس لغـة أحد من الأمـم، وإنما المحدث عندهم ما كان بعد أن لم يكن .

وكذلك يضعون لفظ « الملائكة» على ما يثـبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس . ولفظ «الجن» و « الشياطين» على بعض قوى النفس ، ثم يقولون : نحن نثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جـمهور الناس من الملائكة والجن والشياطـين. ومن عرف مراد الأنبياء ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك، مثل أن يعلم مرادهم بالعقل الأول، وأنه مقارن عندهم لرب العالمين أزلا وأبداً ، وأنه مبدع لكل ما سواه، أو بتوسطه حصل كل ما سواه. والعقل الفعال عـندهم عنه يصدر كل ما تحت فلك القمـر، ويعلم بالاضطرار من دين الأنبياء أنه لـيس من الملائكة عندهم من هو رب كل مـا سوى الله ، ولا رب كل ما تحت فلك القمر، ولا من هو قديم أزلي أبدي لم يزل ولا يزال.

ويعلم أن الحديث الذي يروى «أول ما خلق الله الـعقل» حديث باطل عن النبي ﷺ مع أنه لو كان حقا لكان حجة عليهم، فـإن لفظه «أول ما خلق الله العقل» بنصب الأول

على الظـرفية« فقال له : أقـبل ، فأقبل . ثم قـال له: أدبر ، فأدبر. فقـال : وعزتي ما خلقت خلقاً أكـرم عليَّ منك، فبك آخذ، وبك أعطي ، وبك الـثواب، وبك العقاب»[1] وروى «لما خلق اللـه العقل » فالحديث لو كان ثـابتاً كان معناه أنه خاطـب العقل في أول أوقات خلقه، وأنه خلق قبل غيره، وأنه تحصل به هذه الأمور الأربعة لا كل المصنوعات.

و«العقل» في لغـة المسلمين مصدر عقل يعـقل عقلا، يراد به القوة التي بـها يعقل ، وعلوم وأعمال تحصل بذلك ، لا يراد بها قط في لـغة : جوهر قائم بنفسه، فلا يمكن أن يراد هذا المعنى بلفظ العقل . مع أنا قد بينا في مواضع أخر فساد ما ذكروه من جهة العقل الصريح، وأن ما ذكروه من المجـردات والمفارقات ينتهي أمرهم فيه إلى إثـبات النفس التي تفارق البدن بالموت، وإلى إثبات ما تجرده النفس من المعقولات القائمة بها؛ فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق في هذا الباب.

والمقصود هنا: أن كثيراً من كلام اللّه ورسوله يتـكلم به من يسلك مسلكهم، ويريد مرادهم لا مراد الله ورسولـه، كما يوجد في كلام صاحب (الكتب المـضنون بها) وغيره، مثل ما ذكره في «اللوح المحفوظ» حيث جعله النفـس الفلكية، ولفظ «القلم» حيث جعله العقل الأول ، ولـفظ « الملكوت» و «الجبروت» و «المـلك» حيث جعل ذلـك عبارة عن النفـس والعقل ، ولـفظ « الشفـاعة» حيث جعـل ذلك فيضـا يفيض مـن الشفيـع على المستـشفع وإن كان الشـفيع قد لا يدري ، وسـلك في هذه الأمـور ونحوها مسـالك ابن سينا، كما قد بسط في موضع آخر.

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول ﷺ كلفظ القديم، فإنه في لـغة الرسول التي جاء بـها القرآن خلاف الحديث وإن كـان مسبوقا بغيـره، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩] وقال تعالـى عن إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف :٩٥] وقولـه تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنـتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنـتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٥، ٧٦] وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل أو عما لم يسبقه وجود غيره إن لم يكن مسبوقا بـعدم نفسه، ويجعلونه - إذا أريد به هذا - من باب المجاز، ولفظ «المحدث» في لغة القرآن يقابل للفظ «القديم» في القرآن.

وكذلك لفـظ « الكلمة» في الـقرآن والحديث وسائر لـغة العرب، إنما يراد بـه الجملة التامة، كقـوله ﷺ :« كلمتان حبيبـتان إلى الرحمن، خفيـفتان على اللسان، ثقـيلتان في

---

(١) انظر :المقـاصد الحسنة ١١٨، وكشف الخـفا ١/ ٢٣٦، وعلق عليـه العراقي في إحياء عـلوم الدين ١/ ٩٩ بقوله: «أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين».

الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1]، وقوله: « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾الآية [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وأمثال ذلك، ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى.

والنحاة اصطلحوا على أن يسموا (الاسم) وحده، و(الفعل) و(الحرف) كلمة، ثم يقول بعضهم: وقد يراد بالكلمة الكلام، فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو لغة العرب، وكذلك لفظ «ذوي الأرحام» في الكتاب والسنة يراد به الأقارب من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبة وذوو الفروض، وإن شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب، ثم صار ذلك في اصطلاح الفقهاء اسما لهؤلاء دون غيرهم، فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة، ونظائر هذا كثيرة.

ولفظ « التوسل» و« الاستشفاع» ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه، ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم.

والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقوق.

والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالته، كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله. فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية.

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلي على النبي ونسلم عليه في كل مكان، فهذا مما اتفق عليه المسلمون، وكذلك رغبنا وحضنا في الحديث الصحيح على أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه مقامًا محمودًا الذي وعده[3].

فهذه الوسيلة التي شرع لنا أن نسألها الله تعالى ـ كما شرع لنا أن نصلي عليه ونسلم عليه ـ هي حق له، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له ﷺ.

---

(١) البخاري في الدعوات (٦٤٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء(٢٦٩٤/ ٣١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦)، وأحمد ٢/ ٢٣٢، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٨٩)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٩)وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧)، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه ص٦٢.

والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليـه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله.

وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتبـاع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته، وهذا التوسل به فرض على كل أحد.

وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما يسألـه الناس يوم القيامة أن يشفع لهم، وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسـقاء وغيره، مثل توسل الأعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته - فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه، فمن شفع له الرسول ﷺ ودعا له فهو بخلاف من لم يدع له ولم يشفع له.

ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به، فظن هذا مشروعاً مطلقاً لكل أحد في حياته ومماته، وظنوا أن هذا مشروع في حق الأنبياء والملائكة، بل وفـي الصالحين وفيمن يظن فـيهم الصلاح، وإن لم يكن صـالحاً في نفس الأمر.

وليس فـي الأحاديث المرفوعة فـي ذلك حديث في شـيء من دواوين المسلمـين التي يعتمد عليها في الأحاديث - لا في الصحيحـين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحـمد وغيره - وإنمـا يوجد فـي الكتب الـتي عرف أن فـيها كـثيراً من الأحـاديث الموضوعة المكذوبـة التي يختلقها الكـذابون، بخلاف من قد يغلط في الحـديث ولا يتعمد الكذب، فإن هؤلاء توجد الرواية عنهم في السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه، بخلاف من يتعمد الكذب فإن أحمد لم يرو في مسنده عن أحد من هؤلاء.

ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمداني والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي: هل في المسند حديث موضوع ؟ فـأنكر الحافظ أبو العلاء أن يـكون في المسند حديث مـوضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبين أن فيه أحاديث قد علم أنها باطلة، ولا منافاة بين القولين.

فإن الموضوع في اصطـلاح أبي الفرج، هو الذي قام دليل علـى أنه باطل، وإن كان المحدث به لم يتعمـد الكذب بل غلط فيه؛ ولهذا روى في كتابـه في الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا الـنوع، وقد نازعه طائفة من العـلماء في كثير مما ذكره وقالـوا: إنه ليس مما يقوم دلـيل على أنه باطـل، بل بينوا ثبـوت بعض ذلك، لكـن الغالب على مـا ذكره في الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء.

وأما الحافـظ أبو العلاء وأمثـاله فإنما يريدون بـالموضوع المختلـق المصنوع الذي تـعمد صاحبه الكذب، والكذب كان قليلا في السلف.

أما الصحابة فلم يعرف فيهم ـ ولله الحمد ـ من تعمد الكذب على النبي ﷺ ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفِرَق.

ولا كان فيهم من قال: إنه أتاه الخضر، فإن خضر موسى مات كما بيِّن هذا في غير هذا الموضع، والخضر الذي يأتي كثيراً من الناس إنما هو جنيٌّ تصور بصورة إنسي أو إنسي كذاب، ولا يجوز أن يكون ملكا مع قوله: أنا الخضر، فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجني والإنسي. وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنيا مما يطول ذكره في هذا الموضع. وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس .

وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به إلى عرفات ليقف بها، كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به، فيظن أن هذا من باب الكرامات، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع.

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب في التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة، بخلاف الشيعة، فإن الكذب معروف فيهم ، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء في طوائف .

وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس ، بل في الصحابة من قد يغلط أحياناً وفيمن بعدهم.

ولهذا كان فيما صنف في الصحيح أحاديث يعلم أنها غلط، وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يعلم أنه حق .

فالحافظ أبو العلاء يعلم أنها غلط، والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك وبين أنه رواها لتعرف ، بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب؛ ولهذا نزه أحمد مسنده عن أحاديث جماعة يروى عنهم أهل السنن كأبي داود والترمذي، مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده ، وإن كان أبو داود يروى في سننه منها ، فشرط أحمد في مسنده أجود من شرط أبي داود في سننه .

والمقصود أن هذه الأحاديث التي تروى في ذلك من جنس أمثالها من الأحاديث الغريبة المنكرة ،بل الموضوعة التي يرويها من يجمع في الفضائل والمناقب الغَثّ والسَّمين، كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الأوقات، وفضائل العبادات ، وفضائل الأنبياء والصحابة ، وفضائل البقاع، ونحو ذلك ، فإن هذه الأبواب فيها أحاديث صحيحة

وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة، ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب.

وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعي، وروى في فضله حديث لا يعلم أنه كذب - جاز أن يكون الثواب حقا، ولم يقل أحد من الأئمة: إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبا أو مستحبا بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع.

وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرم شيء إلا بدليل شرعي، لكن إذا علم تحريمه، وروى حديث في وعيد الفاعل له، ولم يعلم أنه كذب -جاز أن يرويه، فيجوز أن يروي في الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب، لكن فيما علم أن الله رغب فيه أو رهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله.

وهذا كالإسرائيليات ؛ يجوز أن يروي منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب، فيما علم أن اللّه تعالى أمر به في شرعنا ونهى عنه في شرعنا. فأما أن يثبت شرعاً لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد بن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث في الشريعة .

ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذي ليس بصحيح ولا حسن فقط غلط عليه، ولكن كان في عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين : صحيح، وضعيف. والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به، وإلى ضعيف حسن، كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم إلى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المال، وإلى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك.

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام - صحيح ، وحسن ، وضعيف- هو أبوعيسى الترمذي في جامعه . والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن في رواته متهم وليس بشاذ. فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفاً ويحتج به؛ ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذي يحتج به بحديث عمرو بن شعيب وحديث إبراهيم الهجري ونحوهما . وهذا مبسوط في موضعه.

والأحاديث التي تروى في هذا الباب - وهو السؤال بنفس المخلوقين - هي من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة، ولا يوجد في أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة ،عن أبيه، عن

جده، أن أبا بكر الصديق أتي النبي ﷺ فقال: إني أتعلم القرآن ويتَفَلَّت مني . فقال له رسول اللّه ﷺ : « قل : اللهم إني أسألك بمحمد نبيك ، وبإبراهيم خليلك، وبموسى نجيّك، وعيسى روحك وكلمتك، وبتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، وفرقان محمد، وبكل وحي أوحيته وقضاء قضيته » وذكر تمام الحديث.

وهذا الحديث ذكره رَزِين بن معاوية العبدري في جامعه ونقله ابن الأثير في جامع الأصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف في عمل (اليوم والليلة) كابن السُّني وأبي نعيم، وفي مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها في الشريعة باتفاق العلماء.

وقد رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب فضائل الأعمال، وفي هذا الكتاب أحاديث كثيرة كذب موضوعة، ورواه أبو موسى المديني من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك ابن هارون بن عنترة وقال: هذا حديث حسن مع أنه ليس بالمتصل ، قال أبو موسى: ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق - رضي اللّه عنه - وعبد الملك ليس بذاك القوى وكان بالرِّيِّ ، وأبوه وجده ثقتان.

قلت: عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب. قال يحيى بن معين: هو كذاب. وقال السعدي: دجال كذاب، وقال أبو حاتم بن حبان: يضع الحديث. وقال النسائي: متروك. وقال البخاري : منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل: ضعيف . وقال ابن عدي: له أحاديث لا يتابعه عليها أحد. وقال الدارقطني: هو وأبوه ضعيفان. وقال الحاكم في (كتاب المدخل) : عبد الملك بن هارون بن عنترة الشيباني روى عن أبيه أحاديث موضوعة. وأخرجه أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب(الموضوعات)[1] وقول الحافظ أبي موسى: «هو منقطع» يريد: أنه لو كان رجاله ثقات فإن إسناده منقطع.

وقد روى عبد الملك هذه الأحاديث الأخرى المناسبة لهذا في استفتاح أهل الكتاب به- كما سيأتي ذكره- وخالف فيه عامة ما نقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه : من أنه متروك إما لتعمده الكذب وإما لسوء حفظه ، وتبين أنه لا حجة لا في هذا ولا في ذاك. ومثل ذلك الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وموقوفا عليه: « أنه لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، قال : وكيف عرفت

---

(١) ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٧٤، ١٧٥.

محمداً؟ قال: لأنك لما خلقتني بيدك، ونـفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم الـعرش مكتوبـاً : لا إله إلا الله محمـد رسول الله، فعـلمت أنك لم تـضف إلى اسمك إلا أحـب الخلق إليـك. قال : صدقت يـا آدم، ولولا محمـد ما خلقـتك» وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الـله بن مسلم الفهري عن إسماعيل بن سلمة عـنه. قال الحاكم: وهو أول حـديث ذكرته لعبـد الرحمن في هذا الـكتاب، وقال الحاكم : هو صحيح[1].

ورواه الشيخ أبو بكر الآجري في كتاب الشريعـة موقوفاً على عمر من حديث عبدالله ابن إسماعـيل بن أبي مريم، عن عبد الـرحمن بن زيد بن أسلم مـوقوفا، ورواه الآجرى أيضاً مـن طريق آخر من حـديث عبد الرحمـن بن أبى الزناد، عـن أبيه، موقوفًا عـليه، وقال: حدثنا هارون بن يوسف التاجر، حدثنا أبـو مروان العثماني، حدثني أبو عثمان بن خالد عن عبد الرحمـن بن أبي الزناد، عن أبيه أنه قال: «من الكلمـات التي تاب الله بها على آدم قـال: اللهم إني أسألـك بحق محمـد عليك. قال الـله تعالى: وما يـدريك ما محمـد؟ قال: يارب، رفعت رأسـي فرأيت مكتـوباً على عـرشك: لا إله إلا الله مـحمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك»[2].

قلت: ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه، فإنه نفسه قد قال في (كتاب المدخل إلى معرفة الـصحيح من السقيم): عبـد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عـن أبيه أحاديث موضوعة ،لا تخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه.

قلت: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتـفاقهم يغلط كثيراً، ضعفه أحمد بن حنبل وأبـو زُرْعَة وأبو حاتم والنسائي والدارقـطني وغيرهم ، وقال أبو حـاتم بن حبان : كان يقـلب الأخبار وهـو لا يعلم، حـتى كثر ذلـك من روايته مـن رفع المراسيـل وإسناد الموقوف فاستحق الترك.

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فـهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا : إن الحاكم يصحـح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهـل المعرفة بالحديث ،

---

(١) الحاكم في المستدرك في الـتاريخ ٢/ ٦١٥ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» وتعقبـه الذهبي بقوله « بل موضوع وعبد الرحمن واه».

(٢) أبو بكـر الآجري في الشـريعة ص ٤٢٧ باب قول الـله عز وجل لنـبيه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ تحقيق دار الكتب العلمية - بيروت لبنان- ط الأولى ١٤٠٣هـ،١٩٨٣م.

كما صحح حديث زريب بن برثملي: الذي فيه ذكر وصى المسيح، وهو كذب باتفاق أهل المعرفة، كما بين ذلك البيهقي وابن الجوزي وغيرهما، وكذلك أحاديث كثيرة في مستدركه يصححها وهي عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة، ومنها ما يكون موقوفا يرفعه.

ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم، وإن كان غالب ما يصححه فهو صحيح، لكن هو في المصححين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه، وإن كان الصواب أغلب عليه. وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه، بخلاف أبى حاتم بن حبان البستي، فإن تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدراً ، وكذلك تصحيح الترمذي والدارقطني وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث.

فإن هؤلاء وإن كان في بعض ما ينقلونه نزاع، فهم أتقن في هذا الباب من الحاكم ، ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم، ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخاري ، بل كتاب البخاري أجل ما صنف في هذا الباب . والبخاري من أعرف خلق اللّه بالحديث وعلله مع فقهه فيه،وقد ذكر الترمذي أنه لم ير أحدًا أعلم بالعلل منه؛ ولهذا كان من عادة البخاري إذا روى حديثا اختلف في إسناده أو في بعض ألفاظه، أن يذكر الاختلاف في ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه إنما ذكره مقرونا بالاختلاف فيه .

ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخاري،مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه، بخلاف مسلم بن الحجاج فإنه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها، وكان الصواب فيها مع من نازعه، كما روى في حديث الكسوف أن النبي ﷺ صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات، كما روى أنه صلى بركوعين[1].

والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين، وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات إبراهيم، وقد بين ذلك الشافعي، وهو قول البخاري وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، والأحاديث التي فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات إبراهيم. ومعلوم أنه لم يمت في يومي كسوف، ولا كان له إبراهيمان. ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب، وكذلك روى مسلم «خلق الله التربة يوم السبت» [2]،ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى بن معين والبخاري وغيرهما، فبينوا أن هذا غلط، ليس هذا من كلام النبي ﷺ .

والحجة مع هؤلاء ، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن اللّه تعالى خلق

---

(١) مسلم في الكسوف (٩٠١/١-٧) .

(٢) مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٩/٢٧).

السموات والأرض في ستة أيام، وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة. وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة، وقد روى إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد، وكذلك روي أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي ﷺ أن يتزوج بأم حبيبة، وأن يتخذ معاوية كاتبًا [1]. وغلطه في ذلك طائفة من الحفاظ.

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث، تلقوها بالقبول وأجمعوا عليها وهم يعلمون علماً قطعياً أن النبي ﷺ قالها. وبسط الكلام في هذا له موضع آخر.

وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير إسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخر، كما ذكر القاضي عياض قال: وحكى أبو محمد المكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما: « أن آدم عند معصيته قال: اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي - قال: ويروى: تقبل توبتي - فقال الله له: من أين عرفت محمداً؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبًا: لا إله إلا الله محمد رسول الله- قال: ويروي: محمد عبدي ورسولي- فعلمت أنه أكرم خلقك عليك؛ فتاب عليه وغفر له»[2].

ومثل هذا لا يجوز أن تبنى عليه الشريعة، ولا يحتج به في الدين باتفاق المسلمين؛ فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التي لا تعلم صحتها إلا بنقل ثابت عن النبي ﷺ، وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار (المبتدأ، وقصص المتقدمين) عن أهل الكتاب لم يجز أن يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين، فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين؟ بل إنما ينقلها عمن هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه، واضطرب عليه فيها اضطراباً يعرف به أنه لم يحفظ ذلك.

ولا ينقل ذلك ولا ما يشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم، وإنما هي من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله في (كتب المبتدأ)، وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعاً لهم، وحينئذ فكان الاحتجاج بها مبنياً على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟ والنزاع في ذلك مشهور. لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه

---

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٠١/١٦٨).

(٢) القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ١٧٣، ١٢٧٤.

شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا ﷺ ، أو بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه، فإن هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع المسلمين أحد من المسلمين.

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال :« من سره أن يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم، فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف أو في صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر، وليشربه على الريق، وليصم ثلاثة أيام وليكن إفطاره عليه، ويدعو به في أدبار صلواته : اللهم إني أسألك بأنك مسئول لم يسأل مثلك ولا يسأل، وأسألك بحق محمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وموسى نجيك، وعيسى روحك وكلمتك ووجيهك» وذكر تمام الدعاء.

وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن عدي فيه : منكر الحديث. وقال أبو حاتم بن حبان: دجال يضع الحديث، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل، ويروى نحو هذا - دون الصوم - عن ابن مسعود من طريق موسى بن إبراهيم المروزي، حدثنا وَكِيع، عن عبيدة، عن شقيق،عن ابن مسعود. وموسى بن إبراهيم هذا قال فيه يحيى بن معين : كذاب، وقال الدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلاً يلقن فيتلقن فاستحق الترك. ويروي هذا عن عمر بن عبد العزيز عن مجاهد بن جبر عن ابن مسعود بطريق أضعف من الأول[1].

ورواه أبو الشيخ الأصبهاني من حديث أحمد بن إسحاق الجوهري : حدثنا أبو الأشعث، حدثنا زهير بن العلاء العتبي، حدثنا يوسف بن يزيد، عن الزهري، ورفع الحديث قال: « من سره أن يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن إفطاره في آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات». قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء.

وقد رواه أبو موسى المديني في أماليه وأبو عبد الله المقدسي على عادة أمثالهم في رواية ما يروى في الباب، سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين، أنهم يروون ما روى به الفضائل، ويجعلون العهدة في ذلك على الناقل كما هي عادة المصنفين في فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات.

كما يرويه أبو الشيخ الأصبهاني في فضائل الأعمال وغيره، حيث يجمع أحاديث

---

(١) ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٧٤، ١٧٥ عن ابن مسعود.

كثيرة لكثرة روايته، وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة ، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية.

وكذلك ما يرويه خَيْثَمَة بن سليمان في فضائل الصحابة ، وما يرويه أبو نعيم الأصبهاني في (فضائل الخلفاء) في كتاب مفرد وفي أول (حلية الأولياء) ، وما يرويه أبو الليث السمرقندي وعبد العزيز الكناني، وأبو على بن البناء وأمثالهم من الشيوخ، وما يرويه أبو بكر الخطيب، وأبو الفضل بن ناصر ، وأبو موسى المديني ، وأبو القاسم بن عساكر، والحافظ عبد الغني، وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث. فإنهم كثيراً ما يروون في تصانيفهم ما روى مطلقاً على عادتهم الجارية؛ ليعرف ما روى في ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روى ، وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول: غريب، ومنكر، وضعيف ، وقد لا يتكلم.

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به ، ويبنون عليه دينهم ، مثل مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح ، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلى بن المديني ، والبخاري ، وأبى زُرْعَة وأبي حاتم، وأبي داود، ومحمد بن نصر المروزي، وابن خزيمة، وابن المنذر، وداود بن علي ، ومحمد بن جرير الطبري ، وغير هؤلاء ، فإن هؤلاء الذين يبنون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا في معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها.

وكذلك الذين تكلموا في الحديث والرجال ؛ ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث، كما يفعل أبو أحمد بن عدي، وأبو حاتم البستي، وأبو الحسن الدارقطني، وأبوبكر الإسماعيلي، وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهقي، وأبو إسماعيل الأنصاري ، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن حزم، وأمثال هؤلاء فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر. ولم نذكر من لا يروى بإسناد - مثل كتاب (وسيلة المتعبدين) لعمر الملا الموصلي وكتاب (الفردوس) لشهريار الديلمي، وأمثال ذلك - فإن هؤلاء دون هؤلاء الطبقات، وفيما يذكرونه من الأكاذيب أمر كبير.

والمقصود هنا : أنه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبي ﷺ يعتمد عليه في مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه، بل المروي في ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات إما تعمداً من واضعه وإما غلطاً منه.

وفي الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة.

فمنها حديث الأربعة الذين اجتمعوا عند الكعبة وسألوا ، وهم: عبد اللّه ومصعب ابنا الزبيـر، وعبد اللّه بـن عمر، وعبـد الملك بن مـروان ، وذكره ابن أبي الـدنيا في كـتاب (مجابي الدعاء) ورواه من طريق إسماعيل بن أبان الغنوي، عن سفيان الثوري عن طارق ابن عبد العزيز عن الشعبي أنه قال : «لقد رأيت عـجبًا، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد اللّه بن عمر وعبد الـله بن الزبير ومصعب بن الـزبير وعبد الملك بن مروان، فقـال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني، وليسأل الله حاجته فإنه يعطى مـن سعة. ثم قالوا : قم يـا عبد الله بن الـزبير فإنك أول مولود فـي الإسلام بعد الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : الـلهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة وجـهك وحرمة عرشك وحـرمة نبيك ألا تميـتني من الدنيـا حتى توليـنـي الحجاز، ويسلم على بالخلافة، ثم جاء فجلس.

ثم قام مصـعب فأخذ بالركـن اليماني ثم قـال : اللهم إنك رب كل شـيء ، وإليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق، وتزوجني بسكينة بنت الحسين.

ثم قام عـبد الملك بن مـروان فأخذ بالركـن اليماني ثـم قال : اللهم رب الـسموات السبع، ورب الأرض ذات النبت بعد القفر، أسألـك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحقك على خلقك: وبحق الطائفين حول عرشك» إلى آخره[1].

قلت : وإسماعيـل بن أبان الذي روى هذا عن سفيان الثـوري كذاب، قال أحمد بن حنبل : كتبت عنـه، ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه. وقال يـحيى بن معين : وضع حديثا على السابع من ولد العباس يلبس الخـضرة يعـني المأمـون ، وقال البخاري ومسلم وأبو زرعـة والدارقطنـي : متروك . وقـال الجوزجاني : ظـهر منـه على الكـذب. وقال أبوحاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات. وطارق بن عبد العزيز الذي ذكر أن الثوري روى عـنه لا يعرف من هـو. قال : فإن طارق بن عـبد العزيز المـعروف الذي روي عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة.

وقد خولـف فيها فرواها أبـو نعيم عن الـطبراني: حدثـنا أحمد بن زيد بـن الجريش، حدثنا أبو حاتم السجـستاني ، حدثنا الأصمعي قال: حدثنا عبد الـرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قـال: « اجتمع فـي الحجر مصعـب وعروة وعبد الـلّه أبناء الزبيـر وعبد اللّه بـن عمر

(١) ابن أبي الدنيا في مجابي الدعوة (٨٢).

فقالوا: تمنوا . فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبد اللّه بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة . قال: فنال كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر له»[1]. قلت : وهذا إسناد خير من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم، وليس فيه سؤال بالمخلوقات.

وفي الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناما قيل له فيه : ادع بكذا وكذا، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلاً باتفاق العلماء ، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع الأدعية ، وروى في ذلك أثر عن بعض السلف مثل ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (مجابي الدعاء) ، قال : حدثنا أبو هاشم ، سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ . قال : ما هو ؟ قال : الدُّبَيْلة[2]. قال : فتحول الرجل فقال : اللّه، اللّه، اللّه ربي لا أشرك به شيئا، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ ، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي . قال: فجس بطنه فقال : قد برئت، ما بك علة[3].

قلت : فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروزي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء ، ونهى عنه آخرون. فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع، وما تنازعوا فيه يرد إلى اللّه والرسول.

وليس مجرد كون الدعاء حصل به المقصود ما يدل على أنه سائغ في الشريعة، فإن كثيرا من الناس يدعون من دون اللّه من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضهم، وبعض الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك، ويدعو التماثيل التي في الكنائس، ويحصل ما يحصل من غرضه، وبعض الناس يدعو بأدعية محرمة باتفاق المسلمين، ويحصل ما يحصل من غرضهم. فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته، وإن كان الغرض مباحًا، فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها،

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٧٦.

(٢) الدبيلة : داء في الجوف . انظر: القاموس المحيط ، مادة « دبل».

(٣) ابن أبي الدنيا في مجابي الدعوة (١٢٧).

وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد ، لكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها، نهى الله ورسوله عنها، كما أن كثيراً من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرة ، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع.

فهذا أصل يجب اعتباره، ولا يجوز أن يكون الشيء واجبا أو مستحبا إلا بدليل شرعي يقتضي إيجابه أو استحبابه. والعبادات لا تكون إلا واجبة أو مستحبة، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة . والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمرا مباحا.

وفي الجملة، فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به ، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين.

وحديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي هو من القسم الثاني من التوسل بدعائه، فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره، فقال له: «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك» فقال: بل ادعه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول :«اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد، يا رسول الله، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها، اللهم فشفعه فيّ»[1] فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته، ودعا له النبي ﷺ ، ولهذا قال : « وشفعه فيّ » فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه.

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره.

وهذا الحديث - حديث الأعمى - قد رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره: رواه البيهقي من حديث عثمان بن عمر، عن شعبة، عن أبي جعفر الخطمي، قال: سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف، أن رجلا ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني، فقال له: « إن شئت أخرجت ذلك فهو خير لك، وإن

(١) الترمذي في الدعوات (٣٥٧٨) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة ٦ / ١٦٩ (١٠٤٩٥/٢) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٨٥) ، كلهم عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه.

شئت دعوت» قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه»[1] قال: فقام وقد أبصر ، ومن هذا الطريق رواه الترمذي من حديث عثمان بن عمر.

ومنها: ما رواه النسائي وابن ماجه أيضا، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمي، هكذا وقع في الترمذي ، وسائر العلماء قالوا: هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب، وأيضا فالترمذي ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء، بل رووه إلى قوله: « اللهم شفعه في».

قال الترمذي : حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف، أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: « إن شئت صبرت فهو خير لك» قال: فادعه، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء :« اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه في»[2] ، قال البيهقي : رويناه في (كتاب الدعوات) بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة، قال : ففعل الرجل فبرأ ، قال : وكذلك رواه حماد ابن سلمة عن أبى جعفر الخطمي[3].

قلت : ورواه الإمام أحمد في مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقي، قال أحمد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة، عن أبي جعفر المديني، سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف: أن رجلا ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يعافيني ، قال: « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك، وإن شئت دعوت لك » قال : لا، بل ادع الله لي، فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى الله في حاجتي هذه ، فتقضى لي وتشفعني فيه وتشفعه في » قال: ففعل الرجل فبرئ [4].

(١) البيهقي في دلائل النبوة ٦/١٦٦.

(٢) سبق تخريجه ص٨٠.

(٣) البيهقي في دلائل النبوة ٦/١٦٧.

(٤) أحمد في مسنده ٤/١٣٨.

رواه البيهقي أيضاً من حديث شبيب بن سعيد الحَبَطِيّ، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المديني - وهو الخُطْمِيّ - عن أبى أمامة سهل بن حَنيف، عن عثمان بن حنيف قال: سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير يشتكي إليه ذهاب بصره فقال: يا رسول الله ، ليس لي قائد وقد شق علي ؛ فقال رسول الله ﷺ :« ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيجلى عن بصري ، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي» قال عثمان ابن حنيف : والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضر قط[1].

فرواية شبيب عن روح عن أبي جعفر الخطمي خالفت رواية شعبة وحماد بن سلمة في الإسناد والمتن، فإن في تلك أنه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة، وفي هذه أنه رواه عن أبى أمامة سهل ، وفي تلك الرواية أنه قال : فشفعه فيَّ وشفعني فيه، وفي هذه وشفعني في نفسي. لكن هذا الإسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدُّسْتِوائي عن أبي جعفر.

ورواه البيهقي من هذا الطريق وفيه قصة قد يحتج بها من توسل به بعد موته - إن كانت صحيحة - رواه من حديث إسماعيل بن شبيب بن سعيد الحبطي عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبى أمامة سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان، في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر ، في حاجته، فلقى الرجل عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، ثم اذكر حاجتك، ثم رح حتى أروح معك. قال: فانطلق الرجل فصنع ذلك ، ثم أتي بَعْدُ عثمان ابن عفان، فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطِّنْفِسَة وقال: انظر ما كانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في. فقال عثمان بن حنيف : ما كلمته ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له

---

(١) البيهقي في دلائل النبوة ٦/١٦٧.

النبيﷺ: «أو تصبر؟» فقال له : يا رسول الله، ليس لي قائد وقد شق عليَّ ، فقال: «ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه إلى ربي فيجلى لي عن بصري، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي» قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط[1].

قال البيهقي : ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله، وساقه من رواية يعقوب بن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد . قال : رواه أيضاً هشام الدستوائي عن أبي جعفر عن أبى أمامة بن سهل عن عمه – وهو عثمان بن حنيف[2] – ولم يذكر إسناد هذه الطرق.

قلت : وقد رواه النسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام، عن أبيه، عن أبي جعفر،عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف . ورواه أيضاً من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة[3]، ولم يروه أحد من هؤلاء ـ لا الترمذي ولا النسائي ولا ابن ماجه ـ من تلك الطريق الغريبة التي فيها الزيادة : طريق شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم.

لكن رواه الحاكم في مستدركه من الطريقين، فرواه من حديث عثمان بن عمر : حدثنا شعبة، عن أبى جعفر المدني، سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف، أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني فقال : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك، وإن شئت دعوت» قال : فادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين؛ ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه» قال الحاكم: على شرطهما[4].

ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الحبطي وعون بن عمارة ،عن روح بن القاسم، عن أبى جعفر الخطمي المدني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف، أنه سمع النبي ﷺ وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وقال : يا رسول الله،

(١ ، ٢) البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٦٧، ١٦٨.

(٣) انظر : النسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة ٦/ ١٦٩.

(٤) الحاكم في المستدرك في صلاة التطوع ١/ ٣١٣، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

ليس لي قـائد وقد شق علي ، فـقال : « ائت الميضأة فـتوضأ ثم صل ركعـتين، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجـه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا مـحمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيجلى لي عن بصري، اللهم فشفعه فـيّ وشفعني في نفسي » قال عثمان: فوالله ما تفرقنا ولا طـال بنا الحديث حتى دخل الـرجل وكأن لم يكن به ضر قـط . قال الحاكم : على شرط البخاري[1].

وشبيب هذا صدوق روى له البخاري، ولكنه قد روى له عن روح بن الفرج أحاديث مناكير رواهـا ابن وهب، وقد ظن أنه غلط علـيه. ولكن قد يقال مثـل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائي بزيادة كان ذلك عليه في الحـديث، لا سيما وفي هذه الرواية أنه قـال: « فشفعه في وشفعنـي في نفسي» وأولئك قالـوا :« فشفعه في وشفـعني فيه» ومعنى قـوله: « وشفعني فيـه» أي في دعائه وسؤاله لي فيطابق قوله:« وشفعه في» .

قال أبو أحمد بن عدي فـي كتابه المسمى (بالكامل في أسمـاء الرجال) - ولم يصنف في فنه مثله - :شبيب بن سعيد الحبطي أبـو سعيد البصري التميمي حدث عنه ابن وهب بالمناكير ، وحدث عن يونس عن الزهري بنسخة الزهري أحاديث مستقيمة، وذكر عن على ابن المديني أنه قال : هو بصري ثقة، كان مـن أصحاب يونس، كان يختلف في تجارة إلى مصر وجاء بكتاب صحيح ، قال : وقد كتبـها عنه ابنه أحمد بن شبيب. وروى عن عدي حديثين عن ابن وهب عن شبيب هذا عن روح بن الفرج:

أحدهمـا : عن ابن عقيل، عـن سابق بن ناجيـة، عن ابن سلام قال : مر بـنا رجل فقالوا: إن هذا قد خدم النبي ﷺ .

والثاني: عنه، عن روح بن الفرج، عن عبد الـله بن الحسين، عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد ، قال ابـن عدي: كذا قيل في الحديث عن عبد اللـه بن الحسين، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن فاطمة بنت رسـول الله ﷺ ، قال ابن عدي: ولشبيب بن سعيد نسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري وهي أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير.

وحدثني روح بن الفرج اللذين أمليتهمـا يرويهما ابن وهب عن شبيب ، وكان شبيب ابن سعيـد إذا روي عنه ابنه أحمد بـن شبيب نسخة الزهـري، ليس هو شبيب بـن سعيد

---

(١) الحاكم فـي المستدرك في الدعاء ١/ ٥٢٦،وقال: «هذا حديث صـحيح على شـرط البخاري ولم يـخرجاه» ووافقه الذهبي.

الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه، ولعل شبيبا بمصر في تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم، وأرجو ألا يتعمد شبيب هذا الكذب[1].

قلت: هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابـن عدي عليه ، رواهما عن روح بن القاسم، وكذلك هذا الحديث -حديث الأعمى- رواه عن روح بن القاسم . وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضاً كما رواه عنه ابناه، لكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابناه.

وهذا يصحح ما ذكره ابن عدي، فعلم أنه محفوظ عنه، وابن عدي أحال الغلط عليه لا علـى ابن وهب، وهـذا صحيـح إن كان قد غلـطَ، وإذا كان قد غـلط علـى روح بن القاسم في ذينك الحديثين أمكن أن يكون غـلط عليه في هذا الحديث، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة، فلهذا لم يحيلوا الغلط عليه.

والرجل قـد يكون حافـظا لما يرويـه عن شيخ غـير حافظ لمـا يرويه عن آخـر ، مثل إسماعـيل بن عياش فـيما يرويه عـن الحجازيين، فـإنه يغلط فـيه، بخلاف ما يـرويه عن الشاميين. ومثل سفـيان بن حسين فيما يرويه عن الزهري. ومثل هذا كـثير ، فيحتمل أن يكون هذا يـغلط فيما يـرويه عن روح بن القاسـم - إن كان الأمر كما قالـه ابن عدي - وهذا محل نظر .

وقد روى الـطبراني هـذا الحديث في المـعجم مـن حديث ابن وهـب عن شبيـب بن سعيد، ورواه مـن حديث أصبغ بن الـفرج : حدثنا عبـد الله بن وهب، عن شبـيب بن سعيد المكي، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر الخطمي المدني ،عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيـف، عن عمه عثمان بـن حنيف، أن رجلا كان يخـتلف إلى عثمان بـن عفان في حاجة له، فـلقى عثمان بـن حنيف فشكـا إليه ذلك، فقال لـه عثمان بن حنـيف : ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيـه ركعتين ثم قل : اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا مـحمد ﷺ نبي الرحمة، يا محـمد، إني أتوجه بك إلى ربك عز وجل فـيقضى لي حاجتي. وتذكر حاجـتك ، ورح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصـنع ما قاله له، ثم أتى باب عـثمان بن عفان فـأجلسه معـه على الطِّنفسة، وقـال : حاجتك ، فذكر حـاجته فقضاها له، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا.

ثم إن الرجل خرج من عنـده فلقى عثمان بن حنيف، فقـال له: جزاك الله خيرًا، ما

---

(١) انظر: ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ٤/ ٣٠، ٣١.

كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته في . فقال له عثمان بن حنيف : والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: « أفتصبر؟» فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق عليّ ، فقال له رسول الله ﷺ: « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ،ثم ادع بهذه الدعوات » فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل ،كأنه لم يكن به ضر قط.

قال الطبراني: روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة، قال أبو عبد الله المقدسي: والحديث صحيح[1].

قلت: والطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم تبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة، وذلك إسناد صحيح، يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدي ، فإنه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابناه، بل ذكر فيها أن الأعمي دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل في حديث الأعمى أنه قال :« اللّهم فشفعه في وشفعني فيه -أو قال - في نفسي».

وهذه لم يذكرها ابن وهب في روايته ، فيشبه أن يكون حدث ابن وهب من حفظه - كما قال ابن عدي- فلم يتقن الرواية. وقد روي أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال: حدثنا مسلم بن إبراهيم ،حدثنا حماد بن سلمة، أنا أبوجعفر الخطمي، عن عمارة بن خزيمة، عن عثمان بن حنيف، أن رجلا أعمى أتى النبي ﷺ فقال: إني أصبت في بصري فادع اللّه لي. قال :« اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة . يا محمد، أستشفع بك على ربي في رد بصري ، اللهم فشفعني فى نفسي وشفع نبيى في رد بصري، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك» فرد الله عليه بصره.

قال ابن أبي خَيْثَمَة : وأبو جعفر هذا - الذي حدث عنه حماد بن سلمة - اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذي يروى عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة. قلت : وهذه الطريق فيها « فشفعني في نفسي» مثل طريق روح بن القاسم، وفيها زيادة أخرى وهي قوله: «وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك- أو قال - فعل مثل ذلك».

وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم

(١) الطبراني في الكبير ٩/ ١٧، ١٨ (٨٣١١) ، وفي الصغير ١/ ١٨٣، ١٨٤.

أحفظ من حماد بن سلمة، واختلاف الألفاظ يدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى، وقوله: « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك» قد يكون مدرجاً من كلام عثمان لا من كلام النبي ﷺ فإنه لم يقل :«وإن كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك»، بل قال: «وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك» .

وبالجملة، فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة، وإنما غايتها أن يكون عثمان ابن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع، بل ببعضه، وظن أن هذا مشروع بعد موته ﷺ ، ولفظ الحديث يناقض ذلك، فإن في الحديث أن الأعمى سأل النبي ﷺ أن يدعو له، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول: «اللهم فشفعه في»، وإنما يدعي بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعيا شافعا له، بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس في محياه في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم.

وفيه أيضاً أنه قال: « وشفعني فيه»، وليس المراد أنه يشفع للنبي ﷺ في حاجة للنبي ﷺ - وإن كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه، وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة - ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا سمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة»[1].

وفى صحيح مسلم عن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليّ ، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سَلُوا اللّه لى الوسيلة ، فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل اللّه لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة »[2] .

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة؛ ولهذا كان الجزاء من جنس العمل، فمن صلى عليه صلى عليه الله، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له ﷺ ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة في الشفاعة؛ فلهذا قال : « اللهم فشفعه في وشفعني فيه ».

وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ في مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه؛ ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته، فهو كشفاعته يوم القيامة في الخلق؛ ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول :« فشفعه في وشفعني فيه» بخلاف قوله :« وشفعني في نفسي» فإن هذا اللفظ لم يروه أحد من هذا الطريق الغريب .

وقوله :« وشفعني فيه» رواه عن شعبة رجلان جليلان: عثمان بن عمر، وروح بن عبادة . وشعبة أجل من روى هذا الحديث، ومن طريق عثمان بن عمر عن شعبة رواه

(١) سبق تخريجه ص٦٢.

(٢) مسلم فى الصلاة (٣٨٤/ ١١) .

الثلاثة : الترمذي والنسائي وابن ماجه.

رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة، ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر، وقد رواه أحمد في المسند عن روح بن عبادة عن شعبة، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث. مع أن قوله: «وشفعني في نفسي» إن كان محفوظاً مثل ما ذكرناه، وهو أنه طلب أن يكون شفيعاً لنفسه مع دعاء النبي ﷺ ولو لم يدع له النبي ﷺ كان سائلاً مجرداً كسائر السائلين.

ولا يسمى مثل هذا شفاعة، وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان يطلبان أمراً فيكون أحدهما شفيعاً للآخر ، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره.

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عمن هو أكبر وأحفظ منه وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وأن راويها عرف له - عن روح هذا - أحاديث منكرة.

ومثل هذا يقتضي حصول الريب والشك في كونها ثابتة، فلا حجة فيها؛ إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه.

ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قال : اللهم فشفعه في وشفعني فيه - مع أن النبي ﷺ لم يدع له - كان هذا كلاماً باطلا، مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي ﷺ شيئا ، ولا أن يقول: فشفعه فيّ، ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه، وإنما أمره ببعضه، وليس هناك من النبي ﷺ شفاعة ولا ما يظن أنه شفاعة ، فلو قال بعد موته: «فشفعه في» لكان كلاماً لا معنى له ؛ ولهذا لم يأمره به عثمان.

والدعاء المأثورعن النبي ﷺ لم يأمر به، والذي أمر به ليس مأثوراً عن النبي ﷺ .

ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في جنس العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه - وكان ما يثبت عن النبي ﷺ يخالفه لا يوافقه - لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، ومما تنازعت فيه الأمة، فيجب رده إلى الله والرسول.

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان ابن عمر يدخل الماء في عينيه في الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماءً جديداً، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء، ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول: هو موضع الغل. فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعاً لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا:

سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا.

والوضوء الثابت عنه ﷺ الذي في الصحيحين[1] وغيرهما من غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ، ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين، ولا مسح العنق ، ولا قال النبي ﷺ : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل . بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجاً في بعض الأحاديث ، وإنما قال النبي ﷺ :«إنكم تأتون يوم القيامة غراً مُحَجَّلين من آثار الوضوء»[2] ، وكان ﷺ يتوضأ حتى يشرع في العضد والساق، قال أبو هريرة : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل [3]، وظن من ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة، وهذا لا معنى له، فإن الغرة في الوجه لا في اليد والرجل ، وإنما في اليد والرجل الحِجْلَة، والغرة لا يمكن إطالتها، فإن الوجه يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس ، والحجلة لا يستحب إطالتها، وإطالتها مثلة.

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي ﷺ ،وينزل مواضع منزله ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ، ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحبا، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء، كما لم يستحبه، ولم يفعله أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ ابن جبل وغيرهم، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر. ولو رأوه مستحباً لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به.

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل ، فإذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة، وأن يستلم الحجر الأسود، وأن يصلي خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة، وقصد الصعود على الصفا والمروة، والدعاء والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما.

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده - مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصداً لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه - فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه، أو النزول لم نكن متبعين، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب،

---

(١) البخاري في الوضوء (١٥٩)، ومسلم في الطهارة (٢٢٦/٣).

(٢ ، ٣) البخاري في الوضوء (١٣٦) ، ومسلم في الطهارة (٢٣٦/ ٣٥)، وأحمد ٢/ ٣٣٤.

كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعرور بن سويد، قال: كان عمر بن الخطاب في سفر فصلي الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبي ﷺ ، فقال عمر: إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبِيَعًا، فمن عرضت له الصلاة فليصل ، وإلا فليمض[1].

فلما كان النبي ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله، رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غيره موافقة له في قصده ليس متابعة، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك ، ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب.

وهذا هو الأصل ، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل؛ ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة : هل فعلها استحباباً أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها، وكذلك نزوله بالمُحَصَّب عند الخروج من منى لما اشتبه : هل فعله لأنه كان أسمح لخروجه أو لكونه سنة ؟ تنازعوا في ذلك. ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي ﷺ ، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن حريث بالكوفة، فإن هذا لما لم يكن مما يفعله سائر الصحابة، ولم يكن النبي ﷺ شرعه لأمته، لم يمكن أن يقال: هذا سنة مستحبة، بل غايته أن يقال : هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة، أو مما لا ينكر على فاعله؛ لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد ، لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي ﷺ لأمته، أو يقال في التعريف : إنه لا بأس به أحيانا لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة.

وهكذا يقول أئمة العلم في هذا وأمثاله، تارة يكرهونه، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة، ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين.

فإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ ، إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع، وما سنه خلفاؤه الراشدون فإنما سنوه بأمره فهو من سننه، ولا يكون في الدين واجبا إلا ما أوجبه ، ولا حراماً إلا ما حرمه، ولا مستحبا إلا ما استحبه، ولا مكروها إلا ما كرهه، ولا مباحاً إلا ما أباحه.

وهكذا في الإباحات، كما استباح أبو طلحة أكل البرد وهو صائم، واستباح حذيفة

---

(١) عبد الرزاق في مصنفه ٢/١١٨ (٢٧٣٤). بمعناه وفي المطبوعة :« المعروف» بدل «المعرور» وهوخطأ.

السحور بعد ظهور الضوء المنتشر حتى قيل: هو النهار، إلا أن الشمس لم تطلع . وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة.

وكذلك الكراهة والتحريم . مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت ، وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع، أو التمتع مطلقًا، أو رأى تقدير مسافة القصر بحد حده، وأنه لا يقصر بدون ذلك، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم في السفر.

ومن ذلك قول سلمان : إن الريق نجس ، وقول ابن عمر : إن الكتابية لا يجوز نكاحها ، وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم، وقول على وزيد وابن عمر في المفوِّضة : إنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول على وابن عباس في المتوفى عنها الحامل : إنها تعتد أبعدَ الأجلين، وقول ابن عمر وغيره: إن المحرم إذا مات بطل إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلال.

وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاشتراط في الحج، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل، وقول عمر وابن مسعود : إن المبتوتة لها السكنى والنفقة. وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فإنه يجب فيه الرد إلى الله والرسول ، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله ﷺ .

ومن قال من العلماء :« إن قول الصحابي حجة» فإنما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه كان إقراراً على القول، فقد يقال :« هذا إجماع إقراري» إذا عرف أنهم أقروه ولم ينكره أحد منهم، وهم لا يقرون على باطل .

وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال: « هو حجة». وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يجزم بأحدهما، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله ﷺ، لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم.

وإذا كان كذلك، فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعيا له ولا شافعا فيه، فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع في حياته، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به، فلما مات لم يتوسلوا به.

بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهور، لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر لا يأكل سمناً حتى يخصب الناس، ثم لما استسقى بالعباس قال : «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا» فيسقون[1]. وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ،وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية.

ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس .

فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما، ونعدل عن التوسل بالنبي ﷺ الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته.

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي ﷺ ودعائه لا بذاته، وقال له في الدعاء: «قل: اللهم فشفعه في» .

وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع، بل ببعضه وترك سائره المتضمن للتوسل بشفاعته، كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله ﷺ ، وكان المخالف لعمر محجوجاً بسنة رسول الله ﷺ ، وكان الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حجة عليه لا له، والله أعلم.

وأما القسم الثالث مما يسمى « توسلا» فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئا يحتج به أهل العلم - كما تقدم بسط الكلام على ذلك - وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئا ثابتاً لا في الإقسام أو السؤال به ، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين.

وإن كان فى العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه،فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه، فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله،ويبدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالـم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنكر

---

(١) سبق تخريجه ٨٠ .

عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عـن النبي ﷺ ولا عن الصحابة، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله، لا بالأنبياء ولا بغيرهم، كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك.

وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينـذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي، وأن هذا النذر شرك لا يـوفى به. وكذلك الحلف بالمخـلوقات لا تنعقد به الـيمين ، ولا كفارة فيه، حتى لو حلف بالـنبي ﷺ لم تنعقد يمينه كما تقدم ذكره، ولم يـجب عليه كفارة عند جمهور العلـماء كمالك والشافعي وأبي حـنيفة وأحمد في إحدى الروايتـين، بل نهى عن الحلف بهذه اليمين.

فإذا لم يجز أن يحـلف بها الرجل ولا يقسم بهـا على مخلوق فكيف يقـسم بها على الخالق جل جلاله؟

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عـن النبي ﷺ وخلفائه الراشديـن تدل على ذلك، فإن هذا إنما يفعـله على أنه قربة وطاعة، وأنه مما يستجاب به الدعاء.

وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجبا وإما أن يكون مستحبا، وكل ما كان واجبا أو مستحبًا في العبادات والأدعية فلابد أن يشرعه النبي ﷺ لأمته، فإذا لم يشرع هذا لأمته لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قربة وطـاعة ولا سببا لإجابة الدعاء، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله.

فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال وكانـت بدعته من البدع السيئة وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرئ من أحوال النبي ﷺ وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعاً عندهم.

وأيضا، فقد تـبين أنه سؤال لله تعالى بـسبب لا يناسب إجابة الدعـاء، وأنه كالسؤال بالكـعبة والطور والـكرسي والمساجد وغـير ذلك من المخلـوقات، ومعلوم أن سـؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعًا ،كما أن الإقسام بها ليس مشروعاً بل هو منهى عنه.

فكما أنه لا يـسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فـلا يحلف على اللّه بمخـلوق، ولا يسأله بنفس مخلوق ، وإنما يسأل بالأسباب التي تناسب إجابة الدعاء كما تقدم تفصيله.

لكن قد روى في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم، ولكن ليس في المنقول عن النبي ﷺ شيء ثابت بل كلها موضوعة.

وأما النقل عمن ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت، والحديث الذي رواه

أحمد وابن ماجه وفيه: «بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا» رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من قال إذا خرج إلى الصلاة: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرجه أشراً ولا بطراً، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تدخلني الجنة، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته»[1].

وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم، وقد روى من طريق آخر وهو ضعيف أيضا، ولفظه لا حجة فيه، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم، وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم، وبإيجابه على نفسه في أحد أقوالهم، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك.

وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه في الغار بأعمالهم: فإنه سأله هذا ببره العظيم لوالديه، وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة، وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة؛ لأن هذه الأعمال أمر الله بها، ووعد الجزاء لأصحابها، فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٥، ١٦].

وكان ابن مسعود يقول في السحر: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي.

وأصل هذا الباب أن يقال: الإقسام على الله بشيء من المخلوقات، أو السؤال له

(١) أحمد ٣/ ٢١، وابن ماجه في المساجد (٧٧٨) وقال البوصيري: «هذا إسناد مسلسل بالضعفاء عطية وهو العوفي، وفضيل بن مرزوق، والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء. لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده».

به، إما أن يكون مأموراً به إيجابا أو استحباباً ، أو منهيا عنه نهي تحريم أو كراهة ، أو مباحا لا مأموراً به ولا منهيا عنه.

وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح، فإما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها . فمن قال: إن هذا مأمور به أو مباح في المخلوقات جميعها، لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الإنس والجن، فهذا لا يقوله مسلم.

فإن قال : بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي أقسم بها في كتابه، لزم من هذا أن يسأل بـ ﴿اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:١-٣]، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:١-٧] ويسأل الله تعالى ويقسم عليه ﴿بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٥-١٨] ويسأل بـ ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:١-٤] ويسأل بـ ﴿الطُّورِ . وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:١-٦] ويسأل ويقسم عليه بـ ﴿الصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات:١] ، وسائر ما أقسم الله به في كتابه.

فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ لأنها آياته ومخلوقاته . فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته، فهو سبحانه يقسم بها. لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه.

ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع، بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهي عنه.

ومن سأل الله بها، لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها، ويسأله بالرياح، والسحاب، والكواكب، والشمس والقمر، والليل والنهار، والتين والزيتون، وطورسينين، ويسأله بالبلد الأمين مكة، ويسأله حينئذ بالبيت، والصفا والمروة ، وعرفة، ومزدلفة، ومنى ، وغير ذلك من المخلوقات، ويلزم أن يسأله بالمخلوقات التي عبدت من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله ومما لم يعبد من دونه.

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عليه بها من أعظم البدع المنكرة في دين الإسلام، ومما يظهر قبحه للخاص والعام.

ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالإقسام والعزائم التي تكتب في الحروز والهياكل التي تكتبها الطرقية والمعزمون، بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام علي الله بها فعلى المخلوقات أولى ، فحينئذ تكون العزائم والأقسام التي يقسم بها على الجن مشروعة في دين الإسلام، وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من دين الإسلام، بل ومن دين الأنبياء أجمعين.

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره، كما جوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم.

قيل له: بعض المخلوقات، وإن كان أفضل من بعض، فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها نداً لله تعالى، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه، ولا يقسم بمخلوق ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت»(١) ،وقال: «لا تحلفوا إلا بالله»(٢)،وفي السنن عنه أنه قال: « من حلف بغير الله فقد أشرك»(٣).

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي . وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت معظمة قال تعالى : ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾[الإسراء: ٥٦ ، ٥٧].

قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة، فقال تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون إليّ كما تتقربون إلى .

وقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [النور: ٥٢]، فبين أن الطاعة لله والرسول، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، وبين أن

(١ - ٣) سبق تخريجها ص٦٣.

الخشية والتقوى لله وحده، فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقي مخلوق.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨].

فبين -سبحانه وتعالى- أنه كان ينبغي لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ويقولوا: حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون، فذكر الرضا بما آتاه الله ورسوله؛ لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، ووعده ووعيده.

فالحلال ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: ٧] فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله، والأموال المشتركة له، كمال الفيء والغنيمة والصدقات، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل: «ورسوله» فإن الحسب هو الكافي ، والله وحده كاف عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤] أي هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. هذا هو القول الصواب الذي قاله جمهور السلف والخلف، كما بين في موضع آخر.

والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه، فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه، ثم قال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ فذكر الإيتاء لله ورسوله، لكن وسطه بذكر الفضل، فإن الفضل لله وحده بقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات.

فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات في هذه الأحكام، لم يجعل لأحد من المخلوقين- سواء كان نبياً أو ملكاً - أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقي. وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] . فقد تهدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا في ملكه، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين،

فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات: رغبة ورهبة وعبادة واستعانة، ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق، لكن قال الله تعالى: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة يوم القيامة، إذا أتى الناس آدم، وأولي العزم نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم، فيردهم كل واحد إلى الذي بعده، إلى أن يأتوا المسيح فيقول لهم: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال ﷺ: «فيأتوني فأذهب إلى ربي، فإذا رأيته خررت ساجداً وأحمد ربي بمحامد يفتحها عليَّ لا أحسنها الآن، فقال لي: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع - قال - فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة»[1]، وذكر تمام الخبر.

فبين المسيح أن محمداً هو الشافع المشفع؛ لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبين محمد عبد الله ورسوله- أفضل الخلق وأوجه الشفعاء وأكرمهم على الله تعالى- أنه يأتي فيسجد ويحمد، لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له، فيقال له: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع، وذكر أن ربه يحد له حداً فيدخلهم الجنة.

وهذا كله يبين أن الأمر كله لله، هو الذي يكرم الشفيع بالإذن له في الشفاعة، والشفيع لا يشفع إلا فيمن يأذن الله له، ثم يحد للشفيع حداً فيدخلهم الجنة. فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره. وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو عنده الذي فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته، وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه.

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هي من الأحكام التي اشتركت المخلوقات فيها، فليس لمخلوق أن يقسم به، ولا يتقي ولا يتوكل عليه وإن كان أفضل المخلوقات، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبيين، فضلا عن غيرهم من المشايخ والصالحين.

فسؤال الله تعالى بالمخلوقات: إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ السؤال بذلك كله، وإن لم يكن سائغاً لم يجز أن يسأل بشيء من ذلك، والتفريق في ذلك بين معظم ومعظم، كتفريق من فرق فزعم أنه يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض، وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر. ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به، وبين ما لا يؤمن به، قيل له: فيجب الإيمان بالملائكة والنبيين، ويؤمن بكل ما أخبر به الرسول

(1) البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٣/ ٣٢٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وغيرهم.

مثل منكر ونكير، والحور العين، والولدان وغير ذلك، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الإيمان بها ؟ أم يجوز السؤال بها كذلك؟

فتبين أن السؤال بالأسباب إذا لم يكن المسئول به سبباً لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق، كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق، وكل ذلك غير جائز. فتبين أنه لا يجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء، والله أعلم.

وأما قوله تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة:٨٩] فكانت اليهود تقول للمشركين: سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم، لم يكونوا يقسمون على الله بذاته. ولا يسألون به، أو يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الأمي لنتبعه ونقتل هؤلاء معه. هذا هو النقل الثابت عند أهل التفسير ،وعليه يدل القرآن، فإنه قال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ والاستفتاح: الاستنصار، وهو طلب الفتح والنصر، فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه، فبهذا ينصرون، ليس هو بإقسامهم به وسؤالهم به، إذ لو كان كذلك لكانوا إذا سألوا أو أقسموا به نصروا، ولم يكن الأمر كذلك، بل لما بعث الله محمداً ﷺ نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه.

وما ذكره بعض المفسرين من أنهم كانوا يقسمون به أو يسألون به، فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له.

وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (دلائل النبوة)، وفي كتاب (الاستغاثة الكبير)، و(كتب السير)، و(دلائل النبوة) ،و(التفسير) مشحونة بذلك. قال أبو العالية وغيره: كان اليهود إذا استنصروا بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وروى محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداه - ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرَمَ - كثيراً ما كنا نسمع ذلك منهم - فلما بعث الله محمداً رسولا من عند الله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات التي في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ

عنـد الـلّه مُصَدّقٌ لّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِيـن كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٨٩] (١) .

ولم يذكر ابن أبي حاتم وغيره ممن جمع كلام مفسري السلف إلا هذا، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف، بل ذكـروا الإخبار به، أو سؤال الله أن يبعثه. فروى ابن أبي حاتم، عن أبي رزين، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: يستظهرون، ويقولون: نحـن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك، يكذبون(٢).

وروى عن معمـر عن قتادة في قولـه تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِيـن كَفَرُوا﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾(٣).

وروى بإسناده عن ابن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد قال: أخبرني عكرمة - أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس، أن يهود كـانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مـبعثه، فلما بعـثه الله من العرب كفـروا به وجحدوا ما كانوا يقـولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلمـوا، فقد كنتم تستـفتحون علينا بمـحمدﷺ ونحن أهل شرك، وتخـبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشـكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فـأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِيـــن كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٣).

وروى بإسناده عن الربيع بن أنس، عن أبي العاليـة قال: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هـذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا، حتى نعذب المشـركين ونقتلهـم. فلما بعث الـله محمداً ورأوا أنه مـن غيرهم كفروا بـه حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ

(١) ابن جرير في التفسير ١/ ٣٢٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٧٥، ٧٦.
(٢) ابن جرير في التفسير ١/ ٣٢٦.
(٣) ابن جرير في التفسير ١/ ٣٢٥.

اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِين﴾[1].

وأما الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود فعاذت بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان. فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[2] وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه وقال: أدت الضرورة إلى إخراجه. وهذا مما أنكره عليه العلماء، فإن عبد الملك بن هارون من أضعف الناس، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك، بل كذاب. وقد تقدم ما ذكره يحيى بن معين وغيره من الأئمة في حقه.

قلت: وهذا الحديث من جملتها، وكذلك الحديث الآخر يروونه عن أبي بكر، كما تقدم.

ومما يبين ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولا كبني قينقاع وقريظة والنضير، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج، وهم الذين عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة، ثم لما نقضوا العهد حاربهم، فحارب أولاً بني قينقاع ثم النضير - وفيهم نزلت سورة الحشر - ثم قريظة عام الخندق، فكيف يقال: نزلت في يهود خيبر وغطفان؟ فإن هذا من كذاب جاهل لم يحسن كيف يكذب، ومما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء، وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعي الصادقين على نقله.

ومما ينبغي أن يعلم: أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضى السؤال به، والإقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه في الأحكام؛ لأنه أولا لم يثبت، وليس في الآية ما يدل عليه، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعاً لنا، فإن الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا:

(1) ابن جرير في التفسير ١/٣٢٦.

(2) البيهقي في دلائل النبوة ٢/٧٦، ٧٧، والحاكم في المستدرك ٢/٢٦٣ وقال: «أدت الضرورة إلى إخراجه في التفسير وهو غريب من حديثه» وعقب عليه الذهبي بقوله: «لا ضرورة في ذلك، فعبد الملك متروك هالك».

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف: ٢١] ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. والاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر، ومنه الحديث المأثور أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي يستنصر بهم أي بدعائهم كما قال: «وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم، بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم؟»(١).

وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، بأن يجعل بعث ذلك النبي إليهم لينتصروا به عليهم، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فلو لم ترد الآثار التي تدل على أن هذا معنى الآية لم يجز لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل؛ لأنه لا دلالة فيها عليه، فكيف وقد جاءت الآثار بذلك؟

وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون، فقد بينا أنه شاذ، وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقًا، كما كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج.

وأما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه، والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

فاليهود - من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس- لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح ـ عليه السلام ـ فكذبوه. قال تعالى: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٩٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٤)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٢)، والنسائي في الجهاد (٣١٧٩)، وأحمد ١/ ١٧٣.

آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ [الذِّلَّةُ] (١) وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ (٢) ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

فإذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره، في حياته ﷺ وبعد موته، يقسمون بذاته، بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته، فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم، وقد قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وغيرهما، فنهى الله عن ذلك، وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه، ويتقربون إليه، وأنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله عنهم . وقد قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره مسجداً، وأن يُتخذ عيداً، وقال في مرض موته: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، أخرجاه في الصحيحين(٣). وقال: « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في موطأه (٤)، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصاري عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» متفق عليه(٥).

---

(١) سقطت من المطبوعة.

(٢) في المطبوعة: « الأنبياء بغير حق »، والصواب ما أثبتناه.

(٣) البخارى فى الجنائز (١٣٣٠) ومسلم فى المساجد (٥٢٩/١٩).

(٤) سبق تخريجه ص٥٢.

(٥) البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، والدارمي في الرقاق ٢/ ٣٢٠، وأحمد ١/٢٣، ٢٤.

وقال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد. بل ما شاء الله ثم شاء محمد»(١). وقال له بعض الأعراب: ما شاء الله وشئت، فقال: « أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده»(٢). وقد قال الله تعالى له: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]،وقال تعالى:﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ [يونس:٤٩] ،وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وقال تعالى:﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وهذا تحقيق التوحيد مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله، وأعلاهم منزلة عند الله.

وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقاً كان يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال له النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله »(٣) .

وفي صحيح مسلم في آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس : « إن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»(٤). وفي صحيح مسلم أيضا وغيره أنه قال : « لا تَجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها »(٥).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبى هريرة وله طرق متعددة عن غيرهما أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»(٦). وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ فقال مالك : إن كان أراد القبر فلا يأته، وإن أراد المسجد فليأته. ثم ذكر الحديث : « لا تشد الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد». ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه.

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم تنعقد يمينه، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء والملائكة وغيرهم، ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم، وللأنبياء حق، وللمؤمنين حق، ولبعضهم على بعض حق .

فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به، كما تقدم في حديث معاذ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ، ويتوكلوا عليه ، ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله نداً : لا في

---

(١) ابن ماجه في الكفارات (٢١١٨)، والدارمي في الاستئذان ٢/ ٢٩٥، وأحمد ٥ / ٧٢.
(٢) أحمد ١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧.
(٣) سبق تخريجه ص ٧٨ . (٤) سبق تخريجه ص ٥٢ .
(٥) مسلم في الجنائز (٩٧/٩٧٢ ، ٩٨) .
(٦) البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٧)، وفي الصوم (١٩٩٥)، ومسلم في الحج (٤١٥/٨٢٧).

محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به، كما في الصحيحين أنه قال ﷺ : «من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار»[1] وسئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»[2]. وقيل له: ما شاء الله وشئت. فقال : « أجعلتني لله نداً ! بل ما شاء الله وحده»[3]. وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولهذا لما كان المشركون يخوفون إبراهيم الخليل -صلوات الله وسلامه عليه- قال تعالى : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ : «إنما ذاك الشرك، كما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان : ١٣] »[4] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] فجعل الطاعة لله والرسول ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، فلا يخشى إلا الله ، ولا يتقي إلا الله. وقال تعالى: ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ

---

(١) البخاري في التفسير (٤٤٩٧).

(٢) البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان(٨٦/ ١٤١)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠).

(٣) سبق تخريجه ص٥١.

(٤) البخاري في الأنبياء (٣٣٦٠) ،(٣٤٢٨)، ومسلم في الإيمان (١٢٤/ ١٩٧).

وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩]. فجعل سبحانه الإيتاء لله والرسول في أول الكلام وآخره، كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] مع جعله الفضل لله وحده، والرغبة إلى الله وحده.

وهو تعالى وحده حسبهم لا شريك له في ذلك. وروى البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ، قال: قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣][(١)].وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف: أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، كما بسط ذلك بالأدلة، وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعده ووعيده، فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله.

فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة: ٦٢] ، وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[(٢)]. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

---

(١) البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

(٢) البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣/٦٧).

﴿وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨، ٩].

فالإيمان بالله والرسول ، والتعزير والتوقير للرسول ، وتعزيره نصره ومنعه، والتسبيح بكرة وأصيلا لله وحده، فإن ذلك من العبادة لله، والعبادة هي لله وحده: فلا يصلى إلا لله ولا يصام إلا لله ،ولا يحج إلا إلى بيت الله ، ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة؛ لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله، ولا يدعى إلا الله، ولا يستغاث إلا بالله.

وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان، والنبات ، والمطر ، والسحاب، وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق، كما جعل الرسل واسطة في التبليغ، بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب، وليس في المخلوقات شيء يستقل بإيداع شيء، بل لابد للسبب من أسباب أخر تعاونه، ولابد من دفع المعارض عنه، وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته إلى عباده.

وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]. وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلا له،وإلا فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ﴾ [المنافقون: ٦].

وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل في أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره، فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به، ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل، لا نفرق بين أحد منهم، ومن سب واحداً منهم كان كافرا مرتداً مباح الدم.

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بيّنّا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص : فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله، ولا يقسم على الله بهم، ولا يتوسل بذواتهم، وإنما يتوسل بالإيمان بهم، وبمحبتهم، وطاعتهم، وموالاتهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا، وتحليل ما حللوه ، وتحريم ما حرموه.

والتوسل بذلك على وجهين :

أحدهما :أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال، كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم، ويفرج كربتهم ، وقد تقدم بيان ذلك.

والثاني: التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومثل هذا كقول المؤمنين: **﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾** [آل عمران:١٩٣]، فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾** [المؤمنون:١٠٩] وأمثال ذلك كثير.

وكذلك التوسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته، فإنه يكون على وجهين:

أحدهما: أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحا، ثم الخليل، ثم موسى الكليم، ثم عيسى، ثم يأتون محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فيطلبون منه الشفاعة.

والوجه الثاني: أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته ودعائه، كما في حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره، فإنه طلب منه الدعاء والشفاعة فدعا له الرسول وشفع فيه، وأمره أن يدعو الله فيقول :«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك به، اللهم فشفعه في»(١) فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته، بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول ـ والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه ـ فهذا توسل بما لم يوجد، وإنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه.

ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء، كما تقدم، فإن عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس، فإنهم استشفعوا جميعاً، ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم، فصار التوسل بطاعته ، والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله، ولا يكون بدون ذلك.

فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة، لا ينازع في واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان.

---

(١) سبق تخريجه ص١٨٩ .

ودين الإسلام مبني على أصلين، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وأول ذلك ألا تجعل مع الله إلها آخر، فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله، ولا ترجوه كما ترجو الله، ولا تخشاه كما تخشى الله، ومن سَوَّى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله، وهو من الذين بربهم يعدلون ، وقد جعل مع الله إلها آخر، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض.

فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] ، [الزمر: ٣٨] وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى، قال تعالى: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ**﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[البقرة: ١٦٥]. فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه،لا أنهم قالوا: إن آلهتهم خلقوا كخلقه، كما قال تعالى: ﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**﴾ [الرعد: ١٦].

وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي، أي ما جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه، وإنما كانوا يجعلونهم شفعاء، ووسائط قال تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [يونس: ١٨]، وقال صاحب يس: ﴿ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ [يس: ٢٢-٢٥].

الأصل الثاني: أن نعبده بما شرع على ألسن رسله، لا نعبده إلا بواجب أو مستحب، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك.

والدعاء من جملة العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم - مع أن هذا أمر لم يأمر به اللّه ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب - كان مبتدعاً في الدين، مشركا برب العالمين ، متبعاً غير سبيل المؤمنين. ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين، أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فإن ذم من خالفه وسعى في عقوبته كان ظالماً جاهلا معتدياً.

وإن حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله، وكان حكمه منقوضا بإجماع المسلمين،

وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه إلى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه، وهذا كله مجمع عليه بين المسلمين، ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الأربعة ولا غيرهم.

وقد بسط الكلام على هذه الأمور في مجلدات، من جملتها مصنف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكام، وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز. وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن إيراد شيء من فصوله هاهنا؛ لإفراد الكلام في هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته، وسيأتي إيراد ما اختصر منه، وحررت فصوله في ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة إلى معرفة هذا الأمر المهم، وبالله التوفيق.

وكنت وأنا بالديار المصرية في سنة إحدى عشرة وسبعمائة قد استفتيت عن التوسل بالنبي ﷺ ، فكتبت في ذلك جواباً مبسوطا، وقد أحببت إيراده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة، فإن هذه القواعد - المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو - كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نوراً على نور. والله المستعان.

وصورة السؤال :

المسؤول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين

وصورة الجواب :

الحمد لله رب العالمين، أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة. ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته، ويشفع أيضا لعموم الخلق.

فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره، فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضع عن بسطه، ومن ذلك «المقام المحمود» الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة، منها في الصحيحين أحاديث متعددة، وفي السنن والمساند مما يكثر عدده. وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع بعض الدرجات ، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقا.

وأجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا إذا أجْدَبْنَا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون [1] .

وفي البخاري أيضاً عن ابن عمر أنه قال : ربما ذكرت قول الشاعر ـ وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب ـ :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[2]

والتوسل بالنبي ﷺ الذي ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً في سائر أحاديث الاستسقاء، وهو من جنس الاستشفاع به، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلاً لنا، بأبي هو وأمي ﷺ. وكذلك معاوية بن أبي سفيان ـ لما أجدب الناس بالشام ـ استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فقال: « اللهم إنا نستشفع ـ ونتوسل ـ بخيارنا. يا يزيد، ارفع يديك» فرفع يديه ودعا، ودعا الناس حتى سقوا. ولهذا قال العلماء : يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو أحسن.

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه؛ فإنه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي ﷺ دخل عليه أعرابي فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا. فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا» وما في السماء قَزْعَة؛ فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا أسبوعاً لا يرون فيه الشمس ؛ حتى دخل عليهم الأعرابي ـ أو غيره ـ فقال : يا رسول الله، انقطعت السبل، وتهدم البنيان، فادع الله يكشفها عنا . فرفع يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظِّراب ومنابت الشجر وبطون الأودية» فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب . والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما[3].

---

(١) سبق تخريجه ص٨٠.

(٢) البخاري في الاستسقاء (١٠٠٩) .

(٣) البخاري في الاستسقاء (١٠١٣، ١٠١٤)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٨/٨٩٧) ، والنسائي في الاستسقاء (١٥١٨).

الآكام : الروابي وهي الأماكن المرتفعة، والظراب: الجبال الصغار. انظر: النهاية في غريب الحديث ١٥٦/٣ . ولسان العرب، مادة «أكم».

وفي حديث آخر في سنن أبي داود وغيره أن رجلا قال له: إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. فسبح رسول الله ﷺ حتى رؤى ذلك في وجوه أصحابه وقال: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك»[1].

وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص - في كلام النبي ﷺ وأصحابه - وهو استشفاع بدعائه وشفاعته، ليس هو السؤال بذاته؛ فإنه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق، ولكن لما كان معناه هو الأول، أنكر النبي ﷺ قوله: «نستشفع بالله عليك» ولم ينكر قوله: نستشفع بك على الله؛ لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضى حاجة الطالب والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضى حوائج خلقه، وإن كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى في مثل قوله:

شفيعي إليك الله لا رب غيره   وليس إلى رد الشفيع سبيل

فهذا كلام منكر لم يتكلم به عالم. وكذلك بعض الاتحادية ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبي ﷺ وكلاهما خطأ وضلال، بل هو سبحانه المسؤول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والأرض، ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت؛ لأن ذلك طاعة لله تعالى، فالرسل يبلغون عن الله أمره؛ فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن بايعهم فقد بايع الله. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿**مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠] .وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، قال ﷺ في الحديث الصحيح: «على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه»[2] «. . . مالم يؤمر بمعصية الله، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة»[3] وقال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[4].

وأما الشافع فسائل لا تجب طاعته في الشفاعة وإن كان عظيما،وفي الحديث الصحيح: أن النبى سأل بَرِيرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت،وخيرها النبي ﷺ

---

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦).

(٢) البخاري في الفتن (٧٠٥٦) ، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩/٤١)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٦)، ومالك في الجهاد ٢/ ٤٤٤(٥)،وأحمد ٥/ ٣١٤، ٣١٩ ، كلهم عن عبادة بن الصامت.

(٣) البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩/٣٨)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٦).

(٤) البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠/٣٩) وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٥). بلفظ « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف» واللفظ لمسلم.

فاختارت فـراقه، وكان زوجها يحبهـا فجعل يبكي، فسـألها النبي ﷺ أن تمسكـه فقالت: أتأمرني؟ فقال: « لا ، إنما أنا شافع»[1] . وإنما قالت: « أتأمرنـي؟» وقال: « إنما أنا شافع» لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بـخلاف شفاعته، فإنه لا يجب قبول شفاعته، ولهذا لم يلمها النبي ﷺ على ترك قبول شفاعته ، فشفاعة غيره من الخلق أولى ألا يجب قبولها.

والخالق جل جلاله أمره أعلى وأجل من أن يكون شافعاً إلى مخلوق، بل هو سبحانه أعلى شأناً من أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيـــهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

ودل الحديث المتقدم عـلى أن الرسول ﷺ يستشفع به إلى اللـه عز وجل، أي يطلب منه أن يسأل ربه الشفـاعة في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فيطلب مـنه الخلق الشفاعة في أن يقضى الله بينهم، وفي أن يدخلوا الجنة، ويشفع في أهل الكبائر من أمته، ويشفع في بعض من يستحق النار ألا يدخلها ، ويشفع في بعض من دخلها أن يخرج منها.

ولا نزاع بين جماهير الأمة أنه يجوز أن يشفع لأهـل الطاعة المستحقين للثواب. ولكن كثيراً مـن أهل البدع والخوارج والمعتـزلة أنكروا شفاعته لأهـل الكبائر، فقالـوا: لا يشفع لأهل الكبائر، بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها، ومذهب الصحـابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجـماعة أنه ﷺ يشفـع في أهل الكبائر، وأنــه لا يخلد في النـار من أهل الإيمان أحد؛ بل يخرج مـن النار من في قلبه مثـقال حبة من إيمان أو مثقـال ذرة من إيمان، لكن هذا الاستسقاء والاستشفـاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته، بمعـنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهـم، فكان توسلهم بدعائه، والاستشفاع به طلـب شفاعته ، والشفاعة دعاء.

فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بـعد موته - مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم - فلـيس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيـان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) أبو داود في الطلاق (٢٢٣١).

والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره، بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد ، بل كانوا يصلون عليه في دعائهم ، وقد قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا[1]. فجعلوا هذا بدلاً عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به، فيقولون : نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس.

وروى بعض الجُهال عن النبي ﷺ أنه قال : إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم، وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ أنهما وجيهان عند الله، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩]، وقال تعالى :﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل ، فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب الكوثر والحوض المورود الذي آنيته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً؟.

وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم، وأولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويتقدم هو إليها، وهو صاحب اللواء ، آدم ومن دونه تحت لوائه، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذ وفدوا، ذو الجاه العظيم ﷺ وعلى آله.

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق، فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداًّ﴾ [مريم:٩٣، ٩٤]، وقال تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا

(١) سبق تخريجه ص٨٠ .

الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب، والله تعالى لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من يفعل ذلك، ونهى عن اتخاذ قبره عيداً، وذلك لأن أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح.

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. وثبت ذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[1]، وقد قال الله تعالى عن قومه أنهم قالوا: ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح:٢٣، ٢٤] قال غير واحد من السلف: هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم؛ وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا عن ابن عباس، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الأصنام[2]. فلما علمت الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن النبي ﷺ حَسَمَ مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد ـ وإن كان المصلي يصلي لله عز وجل ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس، وإن كان المصلي إنما يصلي لله تعالى، وكان الذي يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب إلى الشرك من الذي لا يقصد إلا الصلاة لله عز وجل ـ لم يكونوا يفعلون ذلك.

وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته، وموالاته، أو التوسل بدعائه وشفاعته، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا.

فلما لم يفعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ شيئا من ذلك، ولا دعوا بمثل هذه

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤/ ٣٢٧).
(٢) البخاري في التفسير (٤٩٢٠).

الأدعية ـــ وهم أعلم منا وأعلم بما يحب الله ورسوله، وأعلم بما أمر الله به ورسوله من الأدعية، وما هو أقرب إلى الإجابة منا، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ - دل عدولهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكنا.

وقد قال ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثَنًا يُعْبَد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في موطئه ورواه غيره[1]، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»[2] وفي الصحيحين أنه قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً [3]. وفي صحيح مسلم عن جندب أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[4] .وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصاري عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»[5].

وقد روى الترمذي حديثا صحيحاً عن النبي ﷺ أنه علم رجلا أن يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد، يا رسول الله، إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي ، اللهم شفعه في »[6] . وروى النسائي نحو هذا الدعاء.

وفي الترمذي وابن ماجه عن عثمان بن حنيف :أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني فقال : «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خير لك». فقال: فادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا رسول الله، يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهم فشفعه في» قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح[7].

ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه: أن رجلاً أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف لي عن بصري. قال: «فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني

(١، ٢) سبق تخريجهما ص٥٢ . (٣) سبق تخريجه ص١٠٤ .
(٤) مسلم في المساجد (٥٣٢/ ٢٣).
(٥) سبق تخريجه ص٥١ . (٦ ، ٧) سبق تخريجهما ص٨٠ .

أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري، اللهم فشفعه في»[1] قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن عمير بن يزيد الخطمي المديني قال: سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتي النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يعافيني، فقال: «إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك، وإن شئت دعوت لك» قال : لا ، بل ادع الله لي ، فأمره أن يتوضأ ، وأن يصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى، اللهم فشفعني فيه وشفعه في » . قال: ففعل الرجل فبرأ [2].

فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء .

فمن الناس من يقول : هذا يقتضى جواز التوسل به مطلقاً حيا وميتا . وهذا يحتج به من يتوسل بذاته بعد موته وفي مغيبه، ويظن هؤلاء أن توسل الأعمى والصحابة في حياته كان بمعنى الإقسام به على الله، أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته أن يقضي حوائجهم، ويظنون أن التوسل به لا يحتاج إلى أن يدعو هو لهم، ولا إلى أن يطيعوه، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع، الجميع عندهم توسل به، وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه، ويظنون أن الله تعالى يقضى حاجة هذا الذي توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول، كما يقضى حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعا له الرسول ﷺ ؛ إذ كلاهما متوسل به عندهم، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي ﷺ فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى، وأن ما أمر به الأعمى مشروع لهم. وقول هؤلاء باطل شرعاً وقدراً، فلا هم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله.

ومن الناس من يقولون: هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها، والفرق ثابت شرعاً وقدراً بين من دعا له النبي ﷺ وبين من لم يدع له، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر.

وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ ، فلهذا قال في دعائه: «اللهم فشفعه في» . فعلم أنه شفيع فيه، ولفظه: « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك»، فقال: ادع لي ؛ فهو

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .
(٢) أحمد ٤/١٣٨ .

طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأمره النبي ﷺ أن يصلي، ويدعو هو أيضا لنفسه ويقول في دعائه: «اللهم فشفعه في»، فدل ذلك على أن معنى قوله: «أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد» أي بدعائه وشفاعته كما قال عمر: اللهم إنا كنا إذا أجْدَبْنَا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا[1].

فالحديثان معناهما واحد، فهو ﷺ علم رجلا أن يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه.

فلو كان التوسل به حياً وميتاً سواء، والمتوسل به الذي دعا له الرسول، كمن لم يدع له الرسول، لم يعدلوا عن التوسل به ـ وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليه وسيلة ـ إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله.

وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا ـ مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع، وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن ـ دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه.

ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أن التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته وهو من جنس مسألته أن يدعو لهم، وهذا مشروع، فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم.

وأما بعد موته، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء، لا عند قبره ولا عند غير قبره، كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين، يسأل أحدهم الميت حاجته، أو يقسم على الله به ونحو ذلك، وإن كان قد روى في ذلك حكايات عن بعض المتأخرين، بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن، حتى قال رسول الله ﷺ لعمر لما استأذنه في العمرة: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»[2] ـ إن صح الحديث ـ وحتى أمر النبي ﷺ أن يطلب من أويس القرني أنْ يستغفر للطالب، وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول: ثم

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) سبق تخريجه ص١٠٠ .

صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ مرة صلىَّ الله عليه عشراً، ثم سَلُوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»[1] مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق، بل هو تعليم لأمته ما ينتفعون به في دينهم، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علمهم يعظم الله أجره.

فإنا إذا صلينا عليه مرة صلى الله علينا عشرا، وإذا سألنا الله له الوسيلة، حلت علينا شفاعته يوم القيامة، وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شيء ، فإنه ﷺ قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا» [2] وهو الذي دعا أمته إلى كل خير ، وكل خير تعمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون إليه ثواب أعمالهم ولا يحجون عنه ولا يتصدقون ولا يقرؤون القرآن ويهدون له؛ لأن كل ما يعمله المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له ﷺ مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء؛ بخلاف الوالدين، فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره، ولهذا يهدي الثواب لوالديه وغيرهما.

ومعلوم أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧، ٨]. فهو ﷺ لا يرغب إلى غير الله، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[3].

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون، والاسترقاء: أن يطلب من غيره أن يرقيه، والرقية من نوع الدعاء، وكان هو ﷺ يرقي نفسه وغيره، ولا يطلب من أحد أن يرقيه، ورواية من روى في هذا : «لا يُرقون» ضعيفة غلط؛ فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه، فإن من لا يسأل الناس ـ بل لا يسأل إلا الله ـ أفضل ممن يسأل الناس، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم.

ودعاء الغائب للغائب، أعظم إجابة من دعاء الحاضر، لأنه أكمل إخلاصاً وأبعد عن الشرك، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه، إلى دعاء من يدعو الله بسؤاله

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٢ . (٢) سبق تخريجه ص١٤١ .

(٣) مسلم في الإيمان (٢١٨/ ٣٧٢) .

وهو حاضر ؟ وفي الحديث: « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب» وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله»[1].

وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزاً ، كما يطلب منه الإعانة بما يقدر عليه والأفعال التي يقدر عليها. فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه، لا يطلب ذلك لا من الملائكة، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم، ولا يجوز أن يقال لغير الله: اغفر لي ، واسقنا الغيث، وانصرنا على القوم الكافرين، أو اهد قلوبنا، ونحو ذلك ؛ ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغث[2] برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاؤوا إليه فقال: « إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»[3]وهذا في الاستعانة مثل ذلك.

فأما ما يقدر عليه البشر، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩]، وفي دعاء موسى ـ عليه السلام ـ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وإليك المستعان، وبك المستغاث ، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»[4] وقال أبو يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق.

وقال أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[الإسراء:٥٦، ٥٧] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي ، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي، ويتقربون إليَّ كما تتقربون إليَّ، فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء، مع إخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم.

---

(١) سبق تخريجه ص١٠١.

(٢) في المطبوعة :« نستغيث»، والصواب ما أثبتناه ؛ لأنه مجزوم في جواب الطلب.

(٣) سبق تخريجه ص٧٨.

(٤) الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٨٦ وقال:« رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم».

وكذلك الأنبياء والصالحون، وإن كانوا أحياء في قبورهم . وإن قدر أنهم يدعون للأحياء وإن وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك، ولم يفعل ذلك أحد من السلف؛ ولأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون اللّه تعالى، بخلاف الطلب من أحدهم في حياته، فإنه لا يفضي إلى الشرك؛ ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني فلا يؤثر فيه سؤال السائلين، بخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يشرع إجابة السائل، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم.

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران : ٧٩، ٨٠].

فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابًا فهو كافر، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس :٣] ، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٢-٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالشفاعة نوعان:

أحدهما: الشفاعة التي نفاها اللّه تعالى كالتي أثبتها المشركون، ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، وضلالهم؛ وهي شرك.

والثاني: أن يشفع الشفيع بإذن اللّه، وهذه أثبتها اللّه تعالى لعباده الصالحين؛ ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد. قال: «فأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن، فيقال: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»[1] فإذا أذن له في الشفاعة شفع ﷺ لمن أراد اللّه أن يشفع فيه.

قال أهل هذا القول: ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به - بمعنى أن يكون هو داعيًا للمتوسل به - أن يشرع ذلك في مغيبه،وبعد موته؛ مع أنه هو لم يدع للمتوسل به، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين، وذلك لأنه في حياته يدعو هو لمن توسل به، ودعاؤه هو للّه سبحانه أفضل دعاء الخلق، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على اللّه، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول، ولم يشفع له ؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول، وبين من لم يدع له الرسول، وجعل هذا التوسل كهذا التوسل، فهو من أضل الناس.

وأيضًا فإنه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر، بل هو خير بلا شر، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة، فإن أحدًا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يعبد في حياته بحضوره، فإنه ينهى من يعبده ويشرك به ولو كان شركًا أصغر، كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له ،وكما قال: «لا تقولوا: ما شاء اللّه وشاء محمد، ولكن قولوا : ما شاء اللّه ثم شاء محمد »[2] وأمثال ذلك.

وأما بعد موته، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح، والعزير وغيرهما عند قبورهم ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد اللّه ورسوله» أخرجاه في الصحيحين[3]، وقال: «اللّهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»، وقال: « لعن اللّه اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [4]، يحذر ما فعلوا.

وبالجملة ، فمعنا أصلان عظيمان، أحدهما: أن لا نعبد إلا اللّه. والثاني: أن لا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة.

وهذان الأصلان هما تحقيق «شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه» كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك :٢].

---

(١) البخاري في التوحيد (٧٥١٠) ، ومسلم في الإيمان (١٩٣/٣٢٦).

(٢ ـ ٤) سبق تخريجها ص٥١ ، ٥٢.

قال الفُضَيْل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وذلك تحقيق قوله تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] .

وفى الصحيحين عن عائشة ،عن النبي ﷺ أنه قال: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (١) ،وفي لفظ فى الصحيح: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢)، وفي الصحيح وغيره أيضاً يقول الله تعالى : « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَن عَمِلَ عملاً أَشْرَكَ فِيه غَيْرِى فأَنَا مِنْهُ بَرِىءٌ وَهُو كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ » (٣) .

ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبَّل الحجر الأسود وقال : والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما (٤) قبلتك (٥) .والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته ،وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته. فقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم** ﴾ [آل عمران :٣١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور :٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [النساء: ١٣] ، وأمثال ذلك في القرآن كثير .

ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة،وما علمه قال به،وما لم يعلمه أمسك عنه ، ولا

---

(١) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٨ / ١٧) .

(٢) مسلم في الأقضية (١٧١٨ / ١٨) .

(٣) مسلم في الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) ،وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) وفي الزوئد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٤) في المطبوعة : « لما » وهو خطأ ، والتصحيح من البخاري ومسلم .

(٥) البخاري في الحج (١٦١٠) ، ومسلم في الحج (١٢٧٠ / ٢٥٠) .

يقفو ما ليس له به علم، ولا يقول على اللّه ما لم يعلم، فإن اللّه تعالى قد حرَّمَ ذلك كله.

وقد جاء في الأحاديث النبوية ذكر ما سأل اللّه تعالى به، كقوله ﷺ: «اللَّهُم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، ياحي، يا قيوم» رواه أبو داود وغيره[1]، وفي لفظ: «اللَّهُم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللّه لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه[2].

وقد اتفق العلماء على أنه لا تنعقد اليمين بغير اللّه تعالى، وهو الحلف بالمخلوقات، فلو حلف بالكعبة، أو بالملائكة، أو بالأنبياء أو بأحد من الشيوخ، أو بالملوك لم تنعقد يمينه، ولا يشرع له ذلك، بل ينهى عنه، إما نهى تحريم، وإما نهي تنزيه. فإن للعلماء في ذلك قولين. والصحيح أنه نهي تحريم. ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان حالفًا فليحلف باللّه، أو ليصمت»[3]، وفي الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «من حلف بغير اللّه فقد أشرك»[4]، ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين: إنه تنعقد اليمين بأحد من الأنبياء إلا في نبينا ﷺ، فإن عن أحمد روايتين في أنه تنعقد اليمين به، وقد طرد بعض أصحابه ـ كابن عقيل ـ الخلاف في سائر الأنبياء وهذا ضعيف.

وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ولم يقل به أحد من العلماء فيما نعلم، والذي عليه الجمهور كمالك والشافعي وأبي حنيفة أنه لا تنعقد اليمين به كإحدى الروايتين عن أحمد، وهذا هو الصحيح.

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه وصفاته، ولهذا احتج السلف ـ كأحمد وغيره ـ على أن كلام اللّه غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات اللّه التامات»[5]، قالوا: فقد استعاذ بها، ولا يستعاذ بمخلوق.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»[6]، فنهى عن الرقى التي فيها شرك، كالتي فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن: ٦].

(١) أبو داود فى الصلاة (١٤٩٣).

(٢) أبو داود فى الصلاة (١٤٩٥)، النسائى فى السهو (١٣٠١)، ابن ماجة فى الدعاء (٣٨٥٧).

(٣، ٤) سبق تخريجهما ص٦٣.

(٥) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٨/ ٥٤).

(٦) مسلم في السلام(٢٢٠٠/ ٦٤).

ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والإقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره، التي تتضمن الشرك، بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك؛ خشية أن يكون فيه شرك، بخلاف ما كان من الرقي المشروعة، فإنه جائز. فإذًا لا يجوز أن يقسم لا قسمًا مطلقًا، ولا قسمًا على غيره إلا بالله عز وجل، ولا يستعيذ إلا بالله عز وجل.

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسمًا عليه، وإما أن يكون طالبًا بذلك السبب، كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم، وكما يتوسل بدعاء الأنبياء والصالحين.

فإن كان إقسامًا على الله بغيره فهذا لا يجوز.

وإن كان سؤالا بسبب يقتضي المطلوب كالسؤال بالأعمال التي فيها طاعة الله ورسوله، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ومحبته، وموالاته ونحو ذلك فهذا جائز.

وإن كان سؤالا بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء وقالوا: إنه لا يجوز، ورخص فيه بعضهم، والأول أرجح كما تقدم، وهو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب، بخلاف من كان طالبًا بالسبب المقتضى لحصول المطلوب، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين، وبالأعمال الصالحة، فهذا جائز؛ لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذي دعوا به، وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[المائدة: ٣٥] والوسيلة هي الأعمال الصالحة، وقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾ [الإسراء: ٥٧].

وأما إذا لم نتوسل إليه سبحانه بدعائهم ولا بأعمالنا، ولكن توسلنا بنفس ذواتهم، لم يكن نفس ذواتهم سببًا يقتضى إجابة دعائنا، فكنا متوسلين بغير وسيلة، ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبي ﷺ نقلا صحيحًا، ولا مشهوراً عن السلف.

وقد نقل في (منسك المروذي) عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي ﷺ، وهذا قد يخرج على إحدى الروايتين عنه في جواز القسم به، وأكثر العلماء على النهي في الأمرين، ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم ـ كما قال تعالى في حق موسى وعيسى، عليهما السلام، وقد تقدم ذكر ذلك ـ لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه إليهم، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم؛ فإذا توسلنا إلى الله تعالى بإيماننا بنبيه ومحبته وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل. وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة، فالمتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل بالإيمان بالمتوسل به ولا بطاعته فبأي شيء يتوسل؟

والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة، فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك، مثل أن يقال لأبي الرجل أو صديقه أو من يكرم عليه: اشفع لنا عنده، وهذا جائز.

وإما أن يقسم عليه، كما يقول: بحياة ولدك فلان، وبتربة أبيك فلان، وبحرمة شيخك فلان ونحو ذلك، والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق.

وإما أن يسأل بسبب يقتضى المطلوب، كما قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾[النساء: ١]، وسيأتي بيان ذلك.

وقد تبين أن الإقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلاً ، وأما التوسل إليه بشفاعة المأذون لهم في الشفاعة فجائز، والأعمى كان قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له كما طلب الصحابة منه الاستسقاء، وقوله: « أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة» أي بدعائه وشفاعته لي، ولهذا تمام الحديث: «اللهم فشفعه في»[1]. فالذي في الحديث متفق على جوازه، وليس هو مما نحن فيه، وقد قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾.

فعلى قراءة الجمهور بالنصب: إنما يسألون بالله وحده، لا بالرحم، وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله، وتعاهدهم بالله.

وأما على قراءة الخفض، فقد قال طائفة من السلف: هو قولهم :أسألك بالله وبالرحم، وهذا إخبار عن سؤالهم، وقد يقال: إنه ليس بدليل على جوازه، فإن كان دليلا على جوازه، فمعنى قوله: أسألك بالرحم، ليس إقسامًا بالرحم- والقسم هنا لا يسوغ - لكن بسبب الرحم، أي لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقًا، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة، وكسؤالنا بدعاء النبي ﷺ وشفاعته.

ومن هذا الباب: ما روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ أن ابن أخيه عبد الله ابن جعفر كان إذا سأل بحق جعفر أعطاه، وليس هذا من باب الإقسام، فإن الإقسام بغير جعفر أعظم، بل من باب حق الرحم؛ لأن حق الله إنما وجب بسبب جعفر، وجعفر حقه على عليٍّ.

---

(١) سبق تخريجه ص٨٠.

ومن هذا الباب: الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في دعاء الخارج إلى الصلاة: «اللّهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياءً ولا سُمْعَة، ولكن خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(1)، وهذا الحديث في إسناده عطية العوفي وفيه ضعف، فإن كان من كلام النبي ﷺ فهو من هذا الباب لوجهين:

أحدهما: لأن فيه السؤال للّه تعالى بحق السائلين، وبحق الماشين في طاعته، وحق السائلين أن يجيبهم، وحق الماشين أن يثيبهم، وهذا حق أوجبه اللّه تعالى، وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى شيئًا. ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وفي الصحيح في حديث معاذ: «حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على اللّه إذا فعلوا ذلك ألا يعذبهم»(2).

وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»(3).

وإذا كان حق السائلين والعابدين له هو الإجابة والإثابة بذلك فذاك سؤال للّه بأفعاله؛ كالاستعاذة بنحو ذلك في قوله ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(4)، فالاستعاذة بمعافاته التي هي فعله، كالسؤال بإثابته التي هي فعله.

وروى الطبراني في (كتاب الدعاء) عن النبي ﷺ أن اللّه يقول: «يا عبدي إنما هي أربع: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي؛ فالتي لي أن تعبدني لا تشرك بي شيئًا، والتي هي لك أجزيك بها أحوج ما تكون إليه، والتي بيني وبينك منك الدعاء ومني الإجابة، والتي بينك وبين خلقي فأت إلى الناس ما تحب أن يأتوه إليك»(5).

---

(1) ابن ماجه في المساجد (٧٧٨) وأحمد ٣/ ٢١.

(2) سبق تخريجه ص٢٢ . (3) مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧/ ٥٥) .

(4) مسلم في الصلاة (٤٨٦/ ٢٢٢) .

(5) الطبراني في كتاب الدعاء ٢/ ٧٩٢، ٧٩٣ (١٦)، دار البشائر الإسلامية- الطبعة الأولى - تحقيق محمد سعيد بن محمد حسن البخاري .

وتقسيمه في الحديث إلى قوله: واحدة لي، وواحدة لك، هو مثل تقسيمه في حديث الفاتحة، حيث يقول اللّه تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ نصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1] ، والعبد يعود عليه نفع النصفين ، واللّه تعالى يحب النصفين؛ لكن هو سبحانه يحب أن يعبد، وما يعطيه العبد من الإعانة، والهداية هو وسيلة إلى ذلك فإنما يحبه لكونه طريقًا إلى عبادته، والعبد يطلب ما يحتاج إليه أولا، وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة، والهداية إلى الصراط المستقيم، وبذلك يصل إلى العبادة، إلى غير ذلك مما يطول الكلام فيما يتعلق بذلك وليس هذا موضعه، وإن كنا خرجنا عن المراد.

الوجه الثاني: أن الدعاء له سبحانه وتعالى، والعمل له سبب لحصول مقصود العبد، فهو كالتوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين من أمته، وقد تقدم أن الدعاء بالنبي ﷺ والصالح إما أن يكون إقسامًا به، أو سببًا به، فإن كان قوله: « بحق السائلين عليك» إقسامًا فلا يقسم على اللّه إلا به، وإن كان سببًا فهو سبب بما جعله هو سبحانه سببًا، وهو دعاؤه وعبادته. فهذا كله يشبه بعضه بعضًا، وليس في شيء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه، ولا عمل صالح منا.

وإذا قال السائل: أسألك بحق الملائكة، أو بحق الأنبياء، وحق الصالحين، ولا يقول لغيره: أقسمت عليك بحق هؤلاء. فإذا لم يجز له أن يحلف به، ولا يقسم على مخلوق به، فكيف يقسم على الخالق به؟ وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به، فليس في مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده، ولكن لابد من سبب منه، كالإيمان بالملائكة والأنبياء، أو منهم كدعائهم. ولكن كثيرًا من الناس تعودوا ذلك كما تعودوا الحلف بهم، حتى يقول أحدهم: وحقك على اللّه ، وحق هذه الشيبة على اللّه.

وإذا قال القائل: أسألك بحق فلان، أو بجاهه، أي أسألك بإيماني به، ومحبتي له، وهذا من أعظم الوسائل. قيل: من قصد هذا المعنى، فهو معنى صحيح لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء، فمن قال : أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك، أو بإيماني برسولك، ومحبتي له ونحو ذلك، فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾[آل عمران:١٩٣] ، وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران:١٦]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي**

---

(١) سبق تخريجه ص٤٢.

يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وكان ابن مسعود يقول: اللّهم أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سحر فاغفر لي. ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر، فآووا إلى الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، ثم دعوا اللّه سبحانه بأعمالهم الصالحة، ففرج عنهم وهو ما ثبت في الصحيحين(١).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا خالد بن خراش العجلاني وإسماعيل بن إبراهيم، قالا : حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس قال: دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل، فلم نبرح حتى قبض، فبسطنا عليه ثوبه، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه، فالتفت إليها بعضنا وقال: يا هذه احتسبي مصيبتك عند اللّه. قالت: وما ذاك، مات ابني؟ قلنا: نعم. قالت: أحق ما تقولون؟ قلنا: نعم. فمدت يديها إلى اللّه فقالت: اللّهم إنك تعلم أني أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تعقبني عند كل شدة فرجا، فلا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم. قال: فكشفت الثوب عن وجهه، فما برحنا حتى طعمنا معه!

وروى في كتاب الحلية لأبي نعيم أن داود قال: بحق آبائي عليك ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحى اللّه تعالى إليه: يا داود ، وأي حق لآبائك علي؟. وهذا وإن لم يكن من الأدلة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها، ولا يعتمد عليها.

وقد مضت السنة أن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه.

وأما المخلوق الغائب والميت، فلا يطلب منه شيء. يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح، فمعناه في لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته؛ ودعاؤه وشفاعته ﷺ من أعظم الوسائل عند اللّه عز وجل.

وأما في لغة كثير من الناس فمعناه أن يسأل اللّه تعالى ويقسم عليه بذاته، واللّه تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات، بل لا يقسم بها بحال ، فلا يقال : أقسمت عليك يا رب بملائكتك، ولا بكعبتك، ولا بعبادك الصالحين، كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء، بل إنما يقسم باللّه تعالى بأسمائه وصفاته، ولهذا كانت السنة أن يسأل اللّه تعالى بأسمائه وصفاته فيقول: «أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات

---

(١) البخاري في الإجارة (٢٢٧٢) .

والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، وأسألك بأنك أنت اللّه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك»[1]، الحديث كما جاءت به السنة.

وأما أن يسأل اللّه ويقسم عليه بمخلوقاته فهذا لا أصل له في دين الإسلام، وكذلك قوله: «اللّهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم، وجدك الأعلى، وبكلماتك التامات».

مع أن هذا الدعاء الثالث في جواز الدعاء به قولان للعلماء، قال الشيخ أبو الحسن القدوري في كتابه المسمى بشرح الكرخي: قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف قال: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو اللّه إلا به، وأكره أن يقول: « بمعاقد العز من عرشك» أو «بحق خلقك». وهو قول أبي يوسف . قال أبو يوسف: «معقد العز من عرشه» هو اللّه فلا أكره هذا وأكره أن يقول: «بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت والمشعر الحرام»، قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز ؛لأنه لا حق للمخلوق على الخالق، فلا يجوز- يعني وفاقًا- وهذا من أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما يقتضى المنع أن يسأل اللّه بغيره.

فإن قيل: الرب ـ سبحانه وتعالى ـ يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به. فهلا قيل: يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته، وألا يقسم على مخلوق إلا بالخالق تعالى؟ قيل: لا؛ لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته، وإقسامنا نحن بذلك شرك إذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه.

ومن قال لغيره: أسألك بكذا. فإما أن يكون مقسمًا فهذا لا يجوز بغير اللّه تعالى: والكفارة في هذا على المقسم لا على المقسم عليه، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء. وإن لم يكن مقسمًا فهو من باب السؤال، فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما.

فتبين أن السائل للّه بخلقه إما أن يكون حالفًا بمخلوق، وذلك لا يجوز. وإما أن يكون سائلاً به، وقد تقدم تفصيل ذلك. وإذا قال: «باللّه افعل كذا» فلا كفارة فيه على واحد منهما، وإذا قال: «أقسمت عليك باللّه لتفعلن» أو« واللّه لتفعلن» فلم يبر قسمه لزمت الكفارة الحالف.

والذي يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به، وأما إذا أقسم على اللّه تعالى مثل أن يقول: أقسمت عليك يارب لتفعلن كذا، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من

---

(١) أبو داود فى الصلاة (١٤٩٥) والنسائى فى السهو (١٣٠١) .

السلف، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «رب أشعث أغبر ذي طِمرين[1]، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[2]. وفي الصحيح أنه قال - لما قال أنس بن النضر: والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع- فقال النبي ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص» فعفا القوم، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»[3]، وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الأمر، فهو إقسام عليه تعالى به وليس إقسامًا عليه بمخلوق.

وينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه، وأنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وقد تقدم أن ما ذكره بعض العامة من قوله ﷺ: «إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي» حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث، وإنما المشروع الصلاة عليه في كل دعاء.

ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء في الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه، لم يذكروا فيما شرع للمسلمين في هذه الحال التوسل به، كما لم يذكر أحد من العلماء دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره في حال من الأحوال، وإن كان بينهما فرق؛ فإن دعاء غير الله كفر؛ ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين ـ لا الأنبياء ولا غيرهم ـ عن أحد من السلف وأئمة العلم، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين، بخلاف قولهم: أسألك بجاه نبينا أو بحقه، فإن هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله، ولم يكن شهورًا بينهم، ولا فيه سنة عن النبي ﷺ، بل السنة تدل على النهي عنه كما نقل ذلك أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما.

ورأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام قال: لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ إن صح حديث الأعمى فلم يعرف صحته، ثم رأيت عن أبي حنيفة، وأبي يوسف وغيرهما من العلماء، أنهم قالوا: لا يجوز الإقسام على الله بأحد الأنبياء، ورأيت في كلام الإمام أحمد أنه في النبي ﷺ، لكن قد يخرج على إحدى

(١) الطِّمْر: الثوب البالي. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/١٣٨.

(٢) مسلم في البر والصلة (١٣٨/٢٦٢٢)، وفي الجنة (٤٨/٢٨٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في المناقب (٣٨٥٤) عن أنس بن مالك وقال: «حديث صحيح حسن من هذا الوجه».

(٣) البخاري في الصلح (٢٧٠٣)، وأبو داود في الديات (٤٥٩٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٥٦، ٤٧٥٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٤٩)، وأحمد ٣/١٢٨، ١٦٧.

الروايتين عنه في جواز الحلف به. وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل إلا على التوسل بدعائه، ليس من باب الإقسام بالمخلوق على الله تعالى، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم. والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم - وهو من أنفع الأمور لهم - إلى ما ليس كذلك، فإن الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء وقد أمر الله بها.

والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾** [الأحزاب: ٥٦].

وفي الصحيح عنه أنه قال: «من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرًا»[١]، وعن فضالة ابن عبيد- صاحب رسول الله ﷺ - قال: سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا!» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فيبدأ بحمد ربه، ثم يصلي على النبي، ثم يدعو بعده بما شاء» رواه أحمد وأبو داود - وهذا لفظه- والترمذي والنسائي. وقال الترمذي: حديث صحيح[٢].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[٣].

وفي سنن أبي داود والنسائي عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، إن المؤذنين يفضلوننا، فقال رسول الله ﷺ: «قل كما يقولون، فإذا انتهيت سل تعطه»[٤]. وفي المسند عن جابر ابن عبد الله قال: «من قال حين ينادي المنادي: اللّهم رب هذه الدعوة القائمة، والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه، رضاء لا سخط بعده، استجاب الله له دعوته»[٥].

---

(١) مسلم في الصلاة (٤٠٨/ ٧٠)

(٢) أبو داود في الوتر (١٤٨١)، وأحمد ٦/ ١٨. والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧)، والنسائي في السهو (١٢٨٤).

(٣) سبق تخريجه ص٦٢.

(٤) أبو داود في الصلاة (٥٢٤)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة ٦/ ١٦ (٩٨٧٢/ ١).

(٥) أحمد ٣/ ٣٣٧.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة» رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن[(١)].

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلما ترد على داع دعوته: عند حصول النداء، والصف في سبيل الله» رواه أبو داود[(٢)].

وفي المسند والترمذي وغيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «يأيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

قال أبيّ: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قلت: النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قلت: الثلثين؟ قال: «ماشئت، وإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذًا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك» وفي لفظ: «إذا تكفى همك، ويغفر ذنبك»[(٣)].

وقول السائل: أجعل لك من صلاتي؟ يعني من دعائي؛ فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[(٤)]، وقالت امرأة: صل عليَّ يارسول الله وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»[(٥)].

فيكون مقصود السائل: أي يا رسول الله إن لي دعاء أدعو به أستجلب به الخير وأستدفع به الشر، فكم أجعل لك من الدعاء؟ قال: «ما شئت» فلما انتهى إلى قوله: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذًا تكفى همك ويغفر ذنبك». وفي الرواية الأخرى: «إذًا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك»، وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب

(١) أبو داود في الصلاة (٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٢١٢)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة ٦/ ٢٢(٩٨٩٦/ ٢) وأحمد ٣/ ١١٩.

(٢) مالك في الموطأ في الصلاة ١/ ٧٠ (٧)، ولم أعثر عليه في أبي داود.

(٣) أحمد ٥/ ١٣٦.

(٤) البخاري في الدعوات (٦٣٣٢)، (٦٣٥٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٧٨/ ١٧٦)، وأبو داود في الزكاة (١٥٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٥٩)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٩٦)، وأحمد ٤/ ٣٥٣، ٣٥٥، كلهم من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٥) أبو داود في الصلاة (١٥٣٣).

الخيرات ودفع المضرات؛ فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب، واندفاع المرهوب، كما بسط ذلك في مواضعه.

وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية، وأعرضوا عن الأدعية البدعية، فينبغي اتباع ذلك. والمراتب في هذا الباب ثلاث:

إحداها: أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب، سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول: يا سيدي فلان ،أغثني، أو أنا أستجير بك ، أو أستغيث بك، أو انصرني على عدوي ، ونحو ذلك فهذا هو الشرك بالله. والمستغيث بالمخلوقات قد يقضي الشيطان حاجته أو بعضها ، وقد يتمثل له في صورة الذي استغاث به، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به، وإنما هو شيطان دخله وأغواه لما أشرك بالله، كما يتكلم الشيطان في الأصنام وفي المصروع وغير ذلك، ومثل هذا واقع كثيراً في زماننا وغيره، وأعرف من ذلك ما يطول وصفه في قوم استغاثوا بي أو بغيري، وذكروا أنه أتى شخص على صورتي أو صورة غيري وقضى حوائجهم فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة بي أو بغيري !وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم وهذا هو أصل عبادة الأصنام واتخاذ الشركاء مع الله تعالى في الصدر الأول من القرون الماضية كما ثبت ذلك، فهذا أشرك بالله نعوذ بالله من ذلك.

وأعظم من ذلك يقول: اغفر لي وتب عليّ، كما يفعله طائفة من الجهال المشركين.

وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي إليه ويرى الصلاة أفضل من استقبال القبلة، حتى يقول بعضهم: هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام.

وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج ، حتى يقول : إن السفر إليه مرات يعدل حجة، وغلاتهم يقولون: الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة. ونحو ذلك، فهذا شرك بهم، وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه.

الثانية: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين: ادع الله لي، أو ادع لنا ربك، أو اسأل الله لنا، كما تقول النصارى لمريم وغيرها - فهذا أيضًا لا يستريب عالم أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة؛ وإن كان السلام على أهل القبور جائز ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم :«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللّهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم»(١).

(١) مسلم فى الجنائز (٩٧٥/ ١٠٤) .

وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد اللّه عليه روحه حتى يرد عليه السلام»(١).

وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد اللّه علي روحي حتى أرد عليه السلام»(٢) ، لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لا دعاء ولا غيره. وفي موطأ مالك أن ابن عمر كان يقول: السلام عليك يا رسول اللّه، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف.

وعن عبد اللّه بن دينار قال: رأيت عبد اللّه بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ، فيصلي على النبي ﷺ، ويدعو لأبي بكر وعمر. وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ، فإذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون اللّه تعالى، لا يدعون مستقبلي الحجرة، وإن كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة من لا اعتبار بهم، فلم يذهب إلى ذلك إمام متبع في قوله، ولا من له في الأمة لسان صدق عام.

ومذهب الأئمة الأربعة- مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد - وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة. واختلفوا في وقت السلام عليه، فقال الثلاثة- مالك والشافعي وأحمد-: يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه، وقال أبو حنيفة: لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم.

ثم في مذهبه قولان:

قيل :يستدبر الحجرة ، وقيل : يجعلها عن يساره. فهذا نزاعهم في وقت السلام، وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة.

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال: « هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » كذب على مالك ليس لها إسناد معروف، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه. كما ذكره إسماعيل بن إسحاق القاضي وغيره، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأنكر مالك ذلك، وذكر أنه من البدع ، التي لم يفعلها

(١) ابن عبد البر في الاستذكار في الطهارة (١٨٥٨) عن ابن عباس.
(٢) أبو داود في الحج (٢٠٤١).

الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك، فإن الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعادتهم، ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك ، وكانوا أسبق إليه ممن بعدهم والداعي يدعو الله وحده. وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال : « لا تجلسوا علي القبور ولا تصلوا إليها» [1]. فلا يجوز أن يصلي إلى شيء من القبور ، لا قبور الأنبياء ولا غيرهم، لهذا الحديث الصحيح.

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر، بل هذا من البدع المحدثة ، وكذلك قصد شيء من القبور ، لا سيما قبور الأنبياء والصالحين عند الدعاء، فإذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى، فدعاء الميت نفسه أولى ألا يجوز، كما أنه لا يجوز أن يصلي مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الأولى.

فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئاً: لا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يشكي إليه شيء من مصائب الدنيا والدين، ولو جاز أن يشكي إليه ذلك في حياته، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك وهذا يفضي إلى الشرك؛ لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر ونحو ذلك - كما أن موسى يصلي في قبره، وكما صلى الأنبياء خلف النبي ليلة المعراج ببيت المقدس، وتسبيح أهل الجنة والملائكة - فهم يمتعون بذلك ، وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسّره الله لهم ويقدر لهم، ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد.

وحينئذ ، فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئا ، بل ما جعله الله فاعلا له هو يفعله وإن لم يسأله العبد ؛ كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به،وهم إنما يطيعون أمر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٦ ، ٢٧] ، فهم لا يعملون إلا بأمره سبحانه وتعالى.

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته، فإن بيته كانت الصلاة فيه مشروعة. وكان يجوز أن يجعل مسجداً . ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [2].

---

(١) مسلم فى الجنائز (٩٧٢/٩٧) . (٢) البخارى فى الجنائز (١٣٣٠) ومسلم فى المساجد (٥٢٩/١٩) .

يحذر ما فعلوا. ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

وفي صحيح مسلم وغيره عنه ﷺ أنه قال: « إن مـن كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتـخذوا القبور مساجد ، فإني أنـهاكم عن ذلك»[1] . وقد كـان ﷺ في حياته يـصلي خلفه، وذلـك من أفضل الأعمال، ولا يجـوز بعد موته أن يصـلي الرجل خلف قبره، وكذلك في حياته يطلـب منه أن يأمر ، وأن يفتي وأن يقضى ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته. وأمثال ذلك كثير.

وقد كره مالك وغيره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ ؛لأن هذا اللفظ لم يرد. والأحاديث المروية في زيـارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا الـلفظ صار مشتركًا في عرف المتأخرين يراد بـه (الزيارة البدعية) : التي في معنى الشـرك؛ كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به، أو يسأل الله عنده.

والزيارة الشرعية : هي أن يزوره لله تعالى : للدعاء له، والسلام عليه كما يصلي على جنازتـه. فهذا الثاني هـو المشروع، ولكن كثـيراً من الناس لا يـقصد بالزيارة إلا المـعنى الأول، فكره مالك أن يقول : زرت قبره، لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذي يقصده أهل البدع والشرك.

الثالثة: أن يقال : أسألك بـفلان ، أو بجاه فلان عندك ونحو ذلـك، الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه.

وتقدم أيـضا أن هذا ليس بمـشهور عن الصحـابة، بل عدلوا عـنه إلى التوسـل بدعاء العباس وغيره.

وقد تبين ما في لفظ «الـتوسل» من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تـفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه، فإن لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابه ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته.

ولهذا يجوز أن يتوسـل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الـناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي ﷺ أنه قـال: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور» «أو فاستعينـوا بأهل القبور». فهذا الحديث كـذب مفترى على النبي ﷺ بإجـماع العارفين بحـديثه، ولـم يروه أحد مـن العلـماء بـذلك ، ولا يوجـد في شيء مـن كتب الحـديث المعتمدة.

---

(١) مسلم في المساجد (٥٣٢ / ٢٣) .

وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان:٥٨]، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع، وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك ـ عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ـ ولعن أهله تحذيراً من التشبه بهم،فإن ذلك أصل عبادة الأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح :٢٣].

فإن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروهم، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم، كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف. فمن فهم معني قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة :٥] عرف أنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله وحده وأنه يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه، وكذلك الاستغاثة لا تكون إلا بالله ، والتوكل لا يكون إلا عليه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[آل عمران:١٢٦ ، الأنفال:١٠]، فالنصر المطلق ـ وهو خلق ما يغلب به العدو ـ لا يقدر عليه إلا الله، وفي هذا القدر كفاية لمن هداه الله، والله أعلم.

وهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ من هذا الشرك هو كذلك في شرائع غيره من الأنبياء: ففي التوراة أن موسى -عليه السلام- نهى بني إسرائيل عن دعاء الأموات وغير ذلك من الشرك، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله؛ وذلك أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»(١).

وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥١-٥٣]،وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٠-٣٢]وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينا غيره من الأولين والآخرين،كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

---

(١) البخاري في الأنبياء(٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥ / ١٤٥)، كلاهما عن أبي هريرة .

فصــل

وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله ، ومـا نهى الله عنه ورسوله- في حق أشرف الخلق وأكرمهـم على الله عز وجـل ، وسيد ولد آدم وخاتم الـرسل والنبيين، وأفـضل الأولين والآخرين، وأرفع الشـفعاء منزلة وأعظـمـهم جاها عند الله تـبارك وتعالى - تبـين أن من دونه من الأنبياء والصالحين أولى بألا يشرك به، ولا يـتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته.

ولا يجوز لأحد أن يستغـيث بأحد من المشايخ الغائبين ، ولا المـيتين، مثل أن يقول: يا سيدي فلانا أغثني، وانصرني ، وادفع عـني ، أو أنا في حسبك، ونحو ذلك، بل كل هذا من الشـرك الذي حرم الله ورسوله، وتحريمـه مما يعلم بالاضطـرار من دين الإسلام، وهؤلاء المستغيثـون بالغائبين والميتين عند قبـورهم وغير قبورهم - لما كانوا من جـنس عباد الأوثان- صار الشـيطان يضلهـم ويغويهم، كمـا يضل عباد الأوثـان ويغويهم ، فتـتصور الشيـاطين في صورة ذلك المـستغاث به ، وتـخاطبهم بأشـياء على سبـيل المكاشفـة، كما تخاطب الشياطين الكهان، وبعض ذلك صدق ، لكن لابد أن يكون في ذلك ما هو كذب بل الكذب أغلب عليه من الصدق.

وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم ، وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء مـن الغيب حتى فعل ذلك، أو يظن أن الله تـعالى صور ملكاً - على صورته- فعل ذلك، ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله ! وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم، كما كان ذلك فـي أصنام مشركي العرب، وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم، وأعرف مـن ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي ، وبغيري في حال غيبتنا عنهم ، فرأونـي أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ، فتقوي عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين ،وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان.

وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم «العلامس»، يرون أيضا من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضى بعض حوائجهم.

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء ، والصالحين ، والشيوخ ، وأهل بيت النبي ﷺ ، غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور ، أو يحكي لهم بعض هذه الأمور ، فيظن أن ذلك كرامة ، وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام ، أو نفقة أو سلاح ، أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه ، وإنما ذلك كله من الشياطين . وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان .

وقد قال الخليل - عليه السلام - : **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾** [إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦] كما قال نوح ـ عليه السلام . ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس إلا بسبب اقتضى ضلالهم ، ولم يكن أحد من عُبَّاد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض ، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب :

منهم من صورها على صور الأنبياء والصالحين .

ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر .

ومنهم من جعلها لأجل الجن .

ومنهم من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم : إنما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس ، أو القمر . وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين : فهي التي تقصد من الإنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوهم إلى ذلك، كما قال تعالى: **﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (١) جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ (٢) لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾** [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .

وإذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه إنما يدعو الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به ، وأما إن كان ممن لا يحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن .

وقد يطلب الشيطان المتمثل له في صورة الإنسان أن يسجد له، أو أن يفعل به الفاحشة، أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر أو أن يقرب لهم الميتة، وأكثرهم لايعرفون ذلك، بل يظنون أن من يخاطبهم إما ملائكة وإما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس ، وأولئك جن تمثلت بصور

(١) في المطبوعة : « نحشرهم » ، والصواب ما أثبتناه

(٢) في المطبوعة : « نقول » ، والصواب ما أثبتناه .

الإنس، أو رؤيت في غير صور الإنس، وقال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. كان الإنس إذا أنـزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، وكانـت الإنس تستعيذ بالجن، فصار ذلك سبباً لطغيان الجن، وقالت : الإنس تستعيذ بنا!.

وكذلك الـرقى ، والعزائم الأعجـمية، هي تتضـمن أسماء رجال من الجـن يدعون؛ ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور. وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالي : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وكثيـر من هؤلاء يطيـر في الهواء وتـكون الشياطـين قد حملتـه وتذهب به إلـى مكة وغيـرها ، ويكـون مع ذلك زنديـقًا، يجحـد الصلاة وغـيرها مما فـرض الله ورسـوله ، ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله، وإنما يقترن به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى إذا آمن بالله ورسـوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقته تلك الشياطين ،وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الإخبارات والتأثيرات. وأنا أعرف من هؤلاء عددا كثيراً بـالشام ومصر والحجاز واليمن، وأما الجزيـرة والعراق وخراسان والروم ففيها مـن هذا الجنس أكثر مما بالشام وغـيرها ، وبلاد الكفار من المشركـين وأهل الكتاب أعظم.

وإنما ظهرت هـذه الأحوال الشيطانية الـتي أسبابها الكـفر والفسوق والعصيـان بحسب ظهور أسبـابها ، فحيث قـوى الإيمان والتوحيد ونور الـفرقان والإيمان وظهرت آثـار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيـث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية ، والشخص الواحد الـذي يجتمع فيه هذا وهذا، الذي تكون فيه مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق، يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال.

والمشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام مثل: الـبخشية والطونية والبدى ونحو ذلك من علمـاء المشركين وشيوخهم الـذين يكونون للكفـار من الترك والهند والخطـا وغيرهم

تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة، ويبقى الدف الذي يغني لهم به يمشي في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم إذا خرج عن طريقهم ، ولا يرون أحداً يضرب له ، ويطوف الإناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاماً يكفيهم، ويأتيهم بألوان مختلفة . وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أو من غيرها تسرقه وتأتي به . وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركاً أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم، وعند التتار من هذا أنواع كثيرة.

وأما الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان. ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم إذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة، ولا يطوف طواف الإفاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به.

فإن مثل هذا الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ، ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل .

ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فإنهم أجل قدراً من ذلك، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الإسكندرية إلى عرفة، فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج، فقال: هل كتبتموني؟ قالوا: أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لأنكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله.

ودين الإسلام مبني على أصلين: على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ، وهذان هما حقيقة قولنا: « أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» فالإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء وإجلالا وإكراما، والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله، ولا يدعى إلا الله ، ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله.

والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله ـ تعالى ـ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه. فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه

في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وتحليله وتحريمه ؛ وسائر ما بلغه من كلامه.

وأما في إجابة الدعاء ، وكشف البلاء، والهداية والإغناء ، فالله تعالى هو الذي يسمع كلامهم ويرى مكانهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وهو سبحانه قادر على إنزال النعم، وإزالة الضر والسقم، من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده، أو يعينه على قضاء حوائجهم.

والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها ويسرها. فهو مسبب الأسباب وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن:٢٩]، فأهل السموات يسألونه، وأهل الأرض يسألونه ، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا، ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم، بل يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ، ولا يبرمه إلحاح الملحين، بل يحب الإلحاح في الدعاء .

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - إذا سألوا النبي ﷺ عن الأحكام أمر رسول الله ﷺ بإجابتهم كما قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ [البقرة :١٨٩]، ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾[البقرة:٢١٩]، ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾[البقرة :٢١٧] إلى غير ذلك من مسائلهم.

فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة:١٨٦]، فلم يقل سبحانه: « فقل» بل قال تعالى : ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ**﴾ . فهو قريب من عباده ،كما قال النبي ﷺ في الحديث لما كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء، فقال : « أيها الناس، ارْبعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريبا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[1] .

وقال النبي ﷺ :« إذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وجهه فإن الله قبل وجهه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا، ولكن عن يساره أو تحت قدمه»[2] وهذا الحديث في الصحيح من غير وجه.

---

(١) البخاري في الدعوات(٦٣٨٤)، ومسلم في الذكر (٢٧٠٤/ ٤٤)، وأبو داود في الوتر (١٥٢٦)، وأحمد ٤/ ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٠٣ كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الصلاة(٤١٣)، ومسلم في المساجد (٥٥١/ ٥٤) كلاهما من حديث أنس رضي الله عنه.

وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وهو سبحانه غني عن العرش وعن سائر المخلوقات، لا يفتقر إلى شيء من مخلوقاته، بل هو الحامل بقدرته العرشَ وحملة العرش.

وقد جعل تعالى العالم طبقات، ولم يجعل أعلاه مفتقراً إلى أسفله، فالسماء لا تفتقر إلى الهواء، والهواء لا يفتقر إلى الأرض ، فالعلي الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما الذي وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧]، أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل أو غير حمل، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، الذي كل ما سواه مفتقر إليه، وهو مستغن عن كل ما سواه.

وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع، قد بين فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولا وعملا، فالتوحيد القولي مثل سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، والتوحيد العملي: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر [1] وركعتي الطواف[2] وغير ذلك.

وقد كان أيضا يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطواف: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية[البقرة:١٣٦] . وفي الركعة الثانية بقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام ، وفيهما الإيمان القولي والعملي، فقوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦] إلى آخرها، يتضمن الإيمان القولي والإسلام. وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية إلى آخرها يتضمن الإسلام والإيمان العملي، فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإسلام والإيمان، وهما في هاتين الآيتين ، والله

---

(١) مسلم في الحج (١٢١٨/١٤٧)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٥)، وابن ماجه في المناسك(٣٠٧٤) كلهم عن جابر رضي الله عنه.

(٢) مسلم في صلاة المسافرين(٧٢٦/٩٨)، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٦)، والنسائي في الافتتاح (٩٤٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٤٨) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سبحانه وتعالى أعلم.

فهذا آخر السؤال والجواب الذي أحببت إيراده هنا بألفاظه؛ لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة ، والقواعد النافعة في هذا الباب ، مع الاختصار. فإن التوحيد هو سر القرآن، ولب الإيمان، وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد، في مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام :

في قول القائل : أسألك بحق السائلين عليك وما في معناه؟

الجواب :

أما قول القائل: أسألك بحق السائلين عليك : فإنه قد روى في حديث عن النبي ﷺ رواه ابن ماجه[1] ، لكن لا يقوم بإسناده حجة؛ وإن صح هذا عن النبي كان معناه : أن حق السائلين على الله أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يثيبهم ، وهو كتب ذلك على نفسه. كما قال : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. فهذا سؤال الله بما أوجبه على نفسه كقول القائلين: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] . وكدعاء الثلاثة الذين آووا إلى الغار لما سألوه بأعمالهم الصالحة ، التي وعدهم أن يثيبهم عليها.ا هـ.

---

(١) ابن ماجه في المساجد (٧٧٨) .

ولما كان الشيخ في قاعة الترسيم :

دخل إلى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار ، وما هم على الذي كان عليه إبراهيم والمسيح.

فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون، أنتم تقولون بالسيدة نفيسة، ونحن نقول بالسيدة مريم، وقد أجمعنا ـ نحن وأنتم ـ على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك، فقال لهم: وأي من فعل ذلك ففيه شبه منكم،وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه،فإن الدين الذي كان عليه إبراهيم -عليه السلام- ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له،ولا ند له،ولا صاحبة له ولا ولد له،ولا نشرك معه ملكًا،ولا شمسًا ولا قمرًا ولا كوكبًا،ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [مريم: ٩٣].

وأن الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره، مثل إنزال المطر وإنبات النبات ، وتفريج الكربات والهدى من الضلالات ، وغفران الذنوب، فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدر عليه إلا الله .

والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- نؤمن بهم ونعظمهم ونوقرهم،ونتبعهم ونصدقهم في جميع ما جاؤوا به،ونطيعهم. كما قال نوح، وصالح، وهود ، وشعيب : ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**﴾ [نوح: ٣] فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده،والطاعة لهم، فإن طاعتهم من طاعة الله. فلو كفر أحد بنبي من الأنبياء وآمن بالجميع ما ينفعه إيمانه حتى يؤمن بذلك النبي، وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكفر بكتاب كان كافراً حتى يؤمن بذلك الكتاب، وكذلك الملائكة واليوم الآخر، فلما سمعوا ذلك منه قالوا: الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه. ثم انصرفوا من عنده.

سئل ـ رحمه الله ـ عمن يبوس الأرض دائما هل يأثم؟ وعمن يفعل ذلك لسبب أخذ رزق وهو مكره كذلك؟

فأجـاب:

أما تقبيل الأرض، ورفع الرأس ، ونحو ذلك مما فيه السجود ، مما يفعل قدام بعض الشيوخ وبعض الملوك ـ فلا يجوز، بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضا، كما قالوا للنبي ﷺ : الرجل منا يلقي أخاه أينحني له ؟ قال :«لا»[1]. ولما رجع معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ . فقال : «ما هذا يا معاذ؟» قال: يا رسول الله، رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم. فقال :«كذبوا عليهم، لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من أجل حقه عليها. يا معاذ، إنه لا ينبغي السجود إلا لله»[2].

وأما فعل ذلك تديناً وتقرباً فهذا من أعظم المنكرات، ومن اعتقد مثل هذا قربة، وتديناً فهو ضال مفتر، بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة، فإن أصر على ذلك استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

وأما إذا أكره الرجل على ذلك ، بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه أو حبسه، أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذي يستحقه من بيت المال ونحو ذلك من الضرر، فإنه يجوز عند أكثر العلماء، فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه، وهو المشهور عن أحمد وغيره،ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه،ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان،ومن علم الله منه الصدق أعانه الله تعالى، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك.وذهب طائفة إلى أنه لا يبيح إلا الأقوال دون الأفعال، ويروى ذلك عن ابن عباس ونحوه، قالوا: إنما التقية باللسان،وهو الرواية الأخرى عن أحمد .

وأما فعل ذلك لأجل فضول الرياسة والمال فلا ، وإذا أكره على مثل ذلك ونوى بقلبه أن هذا الخضوع لله تعالى كان حسنًا ، مثل أن يكره كلمة الكفر وينوي معنى جائزًا. والله أعلم.

---

(١) الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) وابن ماجة في الأدب (٣٧٠٢) .

(٢) ابن ماجة فى النكاح (١٨٥٣) .

وسئل الإمام العالم العامل الرباني،والبحر النوراني؛أبو العباس: أحمد بن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ عن النهوض والقيام الذي يعتاده الناس، من الإكرام عند قدوم شخص معين معتبر، هل يجوز أم لا؟ وإذا كان يغلب على ظن المتقاعد عن ذلك أن القادم يخجل، أو يتأذى باطناً ، وربما أدى ذلك إلى بغض وعداوة ومقت، وأيضا المصادفات في المحافل وغيرها، وتحريك الرقاب إلى جهة الأرض والانخفاض، هل يجوز ذلك أم يحرم ؟ فإن فعل ذلك الرجل عادة وطبعاً ليس فيه له قصد، هل يحرم عليه أم لا يجوز ذلك في حق الأشراف والعلماء، وفيمن يرى مطمئناً بذلك دائما هل يأثم على ذلك أم لا؟ وإذا قال :سجدت لله هل يصح ذلك أم لا؟

فأجـاب :

الحمد لله رب العالمين . لم تكن عادة السلف على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، أن يعتادوا القيام كلما يرونه ـ عليه السلام ـ كما يفعله كثير من الناس، بل قد قال أنس بن مالك : لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك، ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقياً له، كما روي عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ:« قوموا إلى سيدكم»[1] وكان قد قدم ليحكم في بني قريظة لأنهم نزلوا على حكمه.

والذي ينبغي للناس أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد رسول الله ﷺ، فإنهم خير القرون ، وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، فلا يعدل أحد عن هدي خير الورى ، وهدي خير القرون إلى ما هو دونه. وينبغي للمطاع ألا يقر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له إلا في اللقاء المعتاد.

وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له فحسن.

وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام ولو ترك لاعتقد أن ذلك لترك حقه أو قصد خفضه ولم يعلم العادة الموافقة للسنة فالأصلح أن يقام له ؛ لأن ذلك أصلح لذات البين، وإزالة التباغض والشحناء،وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة، فليس في ترك ذلك إيذاء له، وليس هذا القيام المذكور في قوله ﷺ :«من سره أن يتمثل له الرجال

---

(١) البخاري في المغازي (٤١٢١)، وفي الاستئذان (٦٢٦٢) وأبو داود في الأدب (٥٢١٥)، وأحمد ٣/ ٢٢.

قياماً فليتبوأ مقعده من النار»[1] فإن ذلك أن يقوموا له وهو قاعد، ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء؛ ولهذا فرقوا بين أن يقال: قمت إليه وقمت له، والقائم للقادم ساواه في القيام، بخلاف القائم للقاعد.

وقد ثبت في صحيح مسلم : أن النبي ﷺ لما صلى بهم قاعداً في مرضه صلوا قياماً أمرهم بالقعود، وقال: «لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً» [2] وقد نهاهم عن القيام في الصلاة وهو قاعد، لئلا يتشبه بالأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود.

وجماع ذلك كله الذي يصلح اتباع عادات السلف وأخلاقهم، والاجتهاد عليه بحسب الإمكان. فمن لم يعتقد ذلك ولم يعرف أنه العادة وكان في ترك معاملته بما اعتاد من الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما.

فصل

وأما الانحناء عند التحية : فينهي عنه، كما في الترمذي عن النبي ﷺ :أنهم سألوه عن الرجل يلقى أخاه ينحني له ؟ قال :«لا»[3] ولأن الركوع والسجود لا يجوز فعله إلا لله عز وجل ؛ وإن كان هذا على وجه التحية في غير شريعتنا، كما في قصة يوسف: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وفي شريعتنا لا يصلح السجود إلا لله، بل قد تقدم نهيه عن القيام كما يفعله الأعاجم بعضها لبعض ، فكيف بالركوع والسجود؟ وكذلك ما هو ركوع ناقص يدخل في النهي عنه.

---

(١) أبو داود في الأدب (٥٢٢٩)، والترمذي في الأدب (٢٧٥٥) وقال: « حديث حسن» ، عن معاوية .

(٢) مسلم في الصلاة (٤١٣/ ٨٤) ، وأبو داود في الصلاة (٦٠٦) ، كلاهما عن جابر .

(٣) الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) وقال: « حديث حسن ».

وقال شيخ الإسلام :

فصــل

كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله ؛ فيسمون بعضهم عبد الكعبة، كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف ، وبعضهم عبد شمس، كما كان اسم أبي هريرة، واسم عبد شمس بن عبد مناف، وبعضهم عبد اللات ، وبعضهم عبد العزى، وبعضهم عبد مناة وغير ذلك مما يضيفون فيه التعبيد إلى غير الله، من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله.

ونظير تسمية النصارى عبد المسيح. فغير النبي ﷺ ذلك وعبدهم لله وحده ، فسمى جماعات من أصحابه : عبد الله وعبد الرحمن، كما سمى عبد الرحمن بن عوف ونحو هذا ، وكما سمى أبا معاوية وكان اسمه عبد العزى فسماه عبد الرحمن، وكان اسم مولاه قيوم فسماه عبد القيوم.

ونحو هذا من بعض الوجوه ما يقع في الغالية من الرافضة ومشابهيهم الغالين في المشائخ، فيقال: هذا غلام الشيخ يونس أو للشيخ يونس أو غلام ابن الرفاعي أو الحريري ونحو ذلك مما يقوم فيه للبشر نوع تأله، كما قد يقوم في نفوس النصارى من المسيح، وفي نفوس المشركين من آلهتهم رجاء وخشية ، وقد يتوبون لهم. كما كان المشركون يتوبون لبعض الآلهة، والنصارى للمسيح أو لبعض القديسين.

وشريعة الإسلام الذي هو الدين الخالص لله وحده ، تعبيد الخلق لربهم كما سنه رسول الله ﷺ ، وتغيير الأسماء الشركية، إلى الأسماء الإسلامية، والأسماء الكفرية إلى الأسماء الإيمانية ، وعامة ما سمى به النبي ﷺ عبد الله وعبد الرحمن، كما قال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء: ١١٠] فإن هذين الاسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى .

وكان شيخ الإسلام الهروي قد سمى أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى ، وكذلك أهل بيتنا غلب على أسمائهم التعبيد لله، كعبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الغني، والسلام، والقاهر، واللطيف، والحكيم، والعزيز، والرحيم،والمحسن، والأحد، ، والقادر، والكريم ، والملك ، والحق . وقد ثبت في صحيح مسلم عن نافع بن عمر: أن النبي ﷺ قال: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن،

وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة»[1] وكان من شعار أصحاب رسول الله ﷺ معه في الحروب: يا بني عبد الرحمن ، يا بني عبد الله، يا بني عبيد الله، كما قالوا ذلك يوم بدر، وحنين، والفتح، والطائف، فكان شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله.

***

آخر ما وجد الآن من كتاب توحيد الإلهية

ويليه كتاب توحيد الربوبية

(١) أبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، وأحمد ٣٤٥/٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٠٦/٩.

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة

التوسل والوسيلة

رقم الإيداع : ٥٨٩٠ / ١٩٩٧ م

I.S.B.N:977 - 15 - 0198 - 4

مجموعة الفتاوى

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

مجموعة الفتاوى

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني

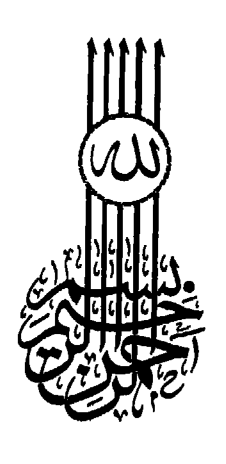
المتوفى سنة ٧٢٨هـ

اعتنى بها وخرج أحاديثها

عامر الجزار

أنور الباز

المجلد الثاني



كتـــاب
توحيد الربوبية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وقال شيخ الإسلام أَحْمَدُ بن تَيْمية ـ قدسَ اللَّه روحه ـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما.

قاعدة أولية(1):

أن أصل العلم الإلهي ، ومبدأه، ودليله الأول، عند الذين آمنوا : هو الإيمان بالله ورسوله، وعند الرسول ﷺ : هو وحي الله إليه، كما قال خاتم الأنبياء : «أمرت أن

---

(1) بهامشه بخط المؤلف : تمام هذا : « ما كتبته- في مسألة القدر - من مبادئ علوم المتكلمين ، والفلاسفة، في إثبات الصانع، وتقرير شريعة الأنبياء، وأتباعهم، وما كتبته في مواضع أخر من أول الواجبات : أنها الإيمان، لا النظر، ولا مطلق العلم به ، وكذلك بُنيتْ عقيدة أهل السنة على ذلك، وذكرت أيضا قاعدة في الشهادتين: عظيمة القدر» . ا. هـ.

وقال المؤلف ـ أيضًا- في حاشية له أخرى على هذه القاعدة -: وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الخليدي في كتابه «شرح اعتقاد أهل السنة» لأبي علي الحسين بن أحمد الطبري، وهذا لعله ممن أدرك أحمد وغيره، قال الخليدي في معرفة الله : وهي أول الفرض الذي لا يسع المسلم جهله، ولا تنفعه الطاعة- وإن أتى بجميع طاعة أهل الدنيا - ما لم تكن معه معرفة وتقوى. فالمسلم إذا نظر في مخلوقات الله تعالى وما خلق من عجائبه، مثل دوران الليل والنهار، والشمس والقمر، وتفكر في نفسه، وفي مبدئه ومنتهاه فتزيد معرفته بذلك. قال الله تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ؟

وقال النبي ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه» ولسنا نقول : إن الله يعرف بالمخلوقات، بل المخلوقات كلها تعرف بالله، لكن معرفته تزيد بالنظر في مخلوقات الله.

وسئل عبد الرحمن بن أبي حاتم عن رجل يقول :عرفت الله بالعقل والإلهام فقال:من قال :عرفت الله بالعقل والإلهام فهو مبتدع، عرفنا كل شيء بالله.

وسئل ذو النون المصري : بماذا عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي! ،وقال عبد الله بن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

إلى آخره. وكان هذا بين يدي النبي ﷺ فلم ينكره عليه، فدل على صحة قول علمائنا : إن الله يعرف بالله، والأشياء كلها تعرف بالله. هذا آخر كلامه.

وهو متعلق بما قد كتبته هنا، وبما كتبته في الجزء الذي بعد هذا في تحرير أصل العلم والإيمان، والفرق بين=

أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[1].

وقال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾[سبأ: ٥٠]، وقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾[الضحى: ٧]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. فأخبر أنه كان قبله من الغافلين، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] . وفي صحيح البخاري في خطبة عمر لما توفى النبي ﷺ ـ كلام معناه ـ : «إن الله هدى نبيكم بهذا القرآن فاستمسكوا به فإنكم...[2] »[3].

وتقرير الحجة في القرآن بالرسل كثير. كقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الآية[4] [طه: ١٣٤]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾الآية [القصص: ٥٩]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] وقوله: ﴿وَسِيقَ

= المنهاج النبوي، والفلسفي ، وما كتبته في شرح قصيدة القدر: من أن أصل المعرفة فطري، وذكر الطريقة الكلامية والفلسفية. وقال شيخ الإسلام الأنصاري في أول اعتقاد أهل السنة، وما وقع عليه إجماع أهل الحق من الأمة: أول ما يجب على العبد معرفة الله؛ لحديث معاذ لما قال له النبي ﷺ : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله -سبحانه- فأخبرهم أن الله افترض عليهم ...» الحديث رواه مسلم هكذا. ورواه البخاري. قال: «فاعلم أن معرفة الله وعبادته والإيمان به إنما يجب ، ويسمع، ويلزم بالبلاغ، ويحصل بالتعريف».

قلت: قد روى عن ابن عباس أنه قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فقال: من طلب دينه بالقياس، لم يزل دهره في التباس، ظاعناً في الاعوجاج ،زائغاً عن المنهاج، أعرفه بما عرف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه اهـ.

(١) البخاري في الإيمان (٢٥) عن ابن عمر، ومسلم في الإيمان (٢١/ ٣٣، ٣٤، ٣٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦) والنسائي في الجهاد (٣٠٩٠) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٢٧) عن أبي هريرة .

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٦٩) ،ولفظه: « أما بعد ، فاختار الله لرسوله ﷺ الذي عنده علي الذي عندكم وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم فخذوا به تهتدوا لما هدى الله به رسوله».

(٤) في المطبوعة :«إلى» ، ولعلها « الآية» كما أثبتناه.

الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾الآية [الزمر: ٧١]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ الآية [الرحمن: ٣٣].

ولهذا كان طائفة من أئمة المصنفين للسنن على الأبواب، إذا جمعوا فيها أصناف العلم: ابتدؤوها بأصل العلم والإيمان. كما ابتدأ البخاري صحيحه ببدء الوحي ونزوله، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول أولا، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي. وكذلك الإمام أبو محمد الدارمي صاحب(المسند) ابتدأ كتابه بدلائل النبوة، وذكر في ذلك طرفاً صالحاً. وهذان الرجلان أفضل بكثير من مسلم، والترمذي ونحوهما، ولهذا كان أحمد بن حنبل يعظم هذين ونحوهما؛ لأنهم فقهاء في الحديث أصولا وفروعا.

ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة، كان ذكره طريق الهداية بالرسالة ـ التي هي القرآن. وما جاءت به الرسل ـ كثيرًا جدًا، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ،وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]، وقوله :﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١]، وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٣، ١٢٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ ﴾[الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾[آل عمران: ١٠١].

فيعلم أن آيات الله والرسول تمنع الكفر ، وهذا كثير.

وكذلك ذكره حصول الهداية، والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن، كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الآية [البقرة: ٢، ٣]. ثم ذم الذين كفروا، والذين نافقوا وقوله: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٥، ٦].

فحكم على النوع كله، والأمة الإنسانية جميعها، بالخسارة، والسفول إلى الغاية ، إلا المؤمنين الصالحين.

وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان، وأهل النار هم أهل الكفر، فيما شاء الله من

الآيات، حتى صار ذلك معلوما علما شائعًا، متواترًا ، اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته.

وربط السعادة مع إصلاح العمل به في مثل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا (1) مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٩].

وأحبط الأعمال الصالحة بزواله، في مثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ(2) كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]، وقوله: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ونحو ذلك كثير.

وذكر حال جميع الأمم المهتدية أنهم كذلك، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية [البقرة: ٦٢].

ولهذا أمر أهل العقل بتدبره، وأهل السمع بسمعه، فدعا فيه إلى التدبر، والتفكير، والتذكر ، والعقل، والفهم، وإلى الاستماع، والإبصار، والإصغاء والتأثر بالوَجَل (3) والبكاء وغير ذلك، وهذا باب واسع.

ولما كان الإقرار بالصانع فطريا - كما قال ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة . . .» الحديث (4) - فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله، والإنابة إليه، وهو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد، وقد بسطت هذا المعنى في غير هذا الموضع.

وكان المقصود بالدعوة: وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم، وحده لا شريك له، والعبادة أصلها عبادة القلب، المستتبع للجوارح، فإن القلب هو الملك، والأعضاء جنوده. وهو المضغة الذي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. وإنما ذلك بعلمه، وحاله كان هذا الأصل الذي هو عبادة الله بمعرفته، ومحبته، هو أصل الدعوة في القرآن. فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال في صدر البقرة ـ بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق ـ

(1) في المطبوعة : «ومن يعمل من الصالحات» والصحيح ما أثبتناه.

(2) في المطبوعة :« والذين كفروا أعمالهم» والصحيح ما أثبتناه.

(3) أي التعب.انظر: المصباح المنير، مادة « وجل ».

(4) البخارى فى الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٦٥٨/ ٢٢ ـ ٢٥) عن أبي هريرة.

فقال بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وذكر آلاءه التي تتضمن نعمته، وقدرته، ثم أتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣].

والمتكلم يستحسن مثل هذا التأليف، ويستعظمه حيث قررت الربوبية، ثم الرسالة، ويظن أن هذا موافق لطريقته الكلامية في نظره في القضايا العقليات، أولا من تقرير الربوبية، ثم تقرير النبوة، ثم تلقي السمعيات من النبوة كما هي الطريقة المشهورة الكلامية للمعتزلة، والكرَّامية، والكُلاَّبية، والأشعرية. ومن سلك هذه الطريق في إثبات الصانع أولا بناء على حدوث العالم ، ثم إثبات صفاته نفيا وإثباتا بالقياس العقلي ـ على ما بينهم فيه من اتفاق واختلاف: إما في المسائل، وإما في الدلائل ـ ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات، من المعاد، والثواب والعقاب، والخلافة والتفضيل، والإيمان بطريق مجمل.

وإنما عمدة الكلام عندهم، ومعظمه: هو تلك القضايا التي يسمونها العقليات، وهي أصول دينهم. وقد بنوها علي مقاييس تستلزم رد كثير مما جاءت به السنة ، فلحقهم الذم من جهة ضعف المقاييس التي بنوا عليها، ومن جهة ردهم لما جاءت به السنة.

وهم قسمان:

قسم بنوا على هذه العقليات القياسية الأصول العلمية، دون العملية؛ كالأشعرية.

وقسم بنوا عليها الأصول العلمية والعملية ، كالمعتزلة ،حتى إن هؤلاء يأخذون القدر المشترك في الأفعال بين الله وبين عباده، فما حسن من الله حسن من العبد، وما قبح من العبد قبح من الله، ولهذا سماهم الناس مشبهة الأفعال.

ولا شك أن هؤلاء هم المتكلمة المذمومون عند السلف ؛ لكثرة بنائهم الدين على القياس الفاسد الكلامي، وردهم لما جاء به الكتاب والسنة.

والآخرون لما شاركوهم في بعض ذلك ،لحقهم من الذم، والعيب، بقدر ما وافقوهم فيه، وهو موافقتهم في كثير من دلائلهم، التي يزعمون أنهم يقررون بها أصول الدين، والإيمان، وفي طائفة من مسائلهم التي يخالفون بها السنن والآثار، وما عليه أهل العقل والدين.

وليس الغرض هنا تفصيل أحوالهم، فإنا قد كتبنا فيه أشياء في غير هذا الموضع. وإنما الغرض هنا أن طريقة القرآن جاءت في أصول الدين ، وفروعه ـ في الدلائل والمسائل ـ بأكمل المناهج.

والمتكلم يظن أنه بطريقته ـ التي انفرد بها- قد وافق طريقة القرآن، تارة في إثبات الربوبية، وتارة في إثبات الوحدانية، وتارة في إثبات النبوة، وتارة في إثبات المعاد، وهو مخطئ في كثير من ذلك، أو أكثره. مثل هذا الموضع.

فإنه قد أخطأ المتكلم في ظنه أن طريقة القرآن توافق طريقته من وجوه

منها : أن إثبات الصانع في القرآن بنفس آياته، التي يستلزم العلم بها العلم به، كاستلزام العلم بالشعاع، العلم بالشمس، من غير احتياج إلى قياس كلي يقال فيه: وكل محدَث فلابد له من محدث، أو كل ممكن فلابد له من مرجح، أو كل حركة فلابد لها من علة غائية،أو فاعلية ، ومن غير احتياج إلى أن يقال: سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث فقط ـ كما تقوله المعتزلة ـ أو الإمكان ـ كما يقوله الجمهور ـ حتى يرتبون عليه أن الثاني حال باقية مفتقر إلى الصانع، على القول الثاني الصحيح دون الأول، فإنى قد بسطت هذا الموضع في غير هذا المكان،وبينت ما هو الحق، من أن نفس الذوات المخلوقة مفتقرة إلى الصانع ، وأن فقرها وحاجتها إليه وصف ذاتي لهذه الموجودات المخلوقة، كما أن الغنى وصف ذاتي للرب الخالق، وأنه لا علة لهذا الافتقار غير نفس الماهية، وعين الإنيةِ، كما أنه لا علة لغناه غير نفس ذاته.

فلك أن تقول : لا علة لفقرها، وغناه؛ إذ ليس لكل أمر علة، فكما لا علة لوجوده، وغناه، لا علة لعدمها إذا لم يشأ كونها، ولا لفقرها إليه إذا شاء كونها، وإن شئت أن تقول: علة هذا الفقر، وهذا الغني : نفس الذات، وعين الحقيقة.

ويدل على ذلك أن الإنسان يعلم فقر نفسه، وحاجتها إلى خالقه، من غير أن يخطر بباله أنها ممكنة، والممكن الذي يقبل الوجود ، والعدم، أو أنها محدثة والمحدث المسبوق بالعدم، بل قد يشك في قدمها، أو يعتقده ، وهو يعلم فقرها، وحاجتها إلى بارئها، فلو لم يكن للفقر إلي الصانع علة إلا الإمكان أو الحدوث ، لما جاز العلم بالفقر إليه، حتى تعلم هذه العلة ؛ إذ لا دليل عندهم على الحاجة إلى المؤثر إلا هذا .

وحينئذ، فالعلم بنفس الذوات المفتقرة، والإنيات المضطرة توجب العلم بحاجتها إلى بارئها، وفقرها إليه، ولهذا سماها اللّه آيات. فهذان مقامان:

أحدهما: أنها مفتقرة إلى المؤثر الموجب أو المحدث لهاتين العلتين.

الثاني: أن كل مفتقر إلى المؤثر: الموجب، أو المحدث، فلابد له منه. وهو كلام صحيح في نفسه، لكن ليس الطريق مفتقرا إليه، وفيه طول وعقبات، تبعد المقصود.

أما المقام الأول: فالعلم بفقرها غير مفتقر إلى دليل على ذلك من إمكان أو حدوث.

وأما الثاني: فإن كونها مفتقرة إليه غير مفتقر إلى أن يستدل عليه بقياس كلي: من أن كل ممكن فلابد له من موجب، وكل محدث فلابد له من محدث؛ لأنها آية له يمتنع أن تكون دونه أو أن تكون غير آية له.

والقلب بفطرته يعلم ذلك، وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث. والنكتة: أن وصف الإمكان، والحدوث، لا يجب أن يعتبره القلب لا في فقر ذواتها، ولا في أنها آية لباريها، وإن كانا وصفين ثابتين. وهما أيضا دليل صحيح، لكن أعيان الممكنات آية لعين خالقها الذي ليس كمثله شيء، بحيث لا يمكن أن يقع شركة فيه.

وأما قولنا كل ممكن فله مرجح، وكل محدث فله محدث، فإنما يدل على محدث، ومرجح، وهو وصف كلي يقبل الشركة، ولهذا القياس العقلي لا يدل على تعيين وإنما يدل على الكلي المطلق فلابد إذًا من التعيين. فالقياس دليل على وصفية مطلقة كلية.

وأيضا، فإذا استدل على الصانع بوصف إمكانها، أو حدوثها، أو هما جميعا، لم يفتقر ذلك إلى قياس كلي، بأن يقال: وكل محدث فلابد له من محدث، أو كل ممكن فلابد له من مرجح، فضلا عن تقرير هاتين المقدمتين، بل علم القلب بافتقار هذا الممكن، وهذا المحدث، كعلمه بافتقار هذا الممكن، وهذا المحدث. فليس العلم بحكم المعينات مستفاداً من العلم الكلي الشامل لها، بل قد يكون العلم بحكم المعين في العقل قبل العلم بالحكم الكلي العام. كما أن العلم بأن العشرة ضعف الخمسة، ليس موقوفاً على العلم بأن كل عدد له نصفية، فهو ضعف نصفيه.

وعلى هذا جاء قوله: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾** [الطور: ٣٥] قال جبير ابن مطعم: لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع. وهو استفهام إنكار، يقول: أوجدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن، ويعلمون أنهم لم يكوِّنوا نفوسهم، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه، لا يحتاج أن يستدل عليه بأن كل كائن محدَث، أو كل ممكن لا يوجد بنفسه، ولا يوجد من غير موجِد، وإن كانت هذه القضية العامة، النوعية، صادقة، لكن العلم بتلك المعينة الخاصة، إن لم يكن سابقاً لها، فليس متأخراً عنها، ولا دونها في الجلاء.

وقد بسطت هذا المعنى في غير هذا الموضع، وذكرت دعوة الأنبياء - عليهم السلام - أنه جاء بالطريق الفطرية كقولهم: **﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [إبراهيم: ١٠] وقول موسى: **﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [مريم: ٦٥، الشعراء: ٢٤] وقوله في القرآن: **﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾**

[البقرة: ٢١، ٢٢] ، بين أن نفس هذه الذوات آية لله، كما أشرنا إليه أولاً من غير حاجة إلى ذينك المقامين، ولما وبخهم بيَّن حاجتهم إلى الخالق بنفوسهم، من غير أن تحتاج إلى مقدمة كلية: هم فيها وسائر أفرادها سواء، بل هم أوضح . وهذا المعنى قررته مبسوطاً في غير هذا.

الوجه الثاني - في مفارقة الطريقة القرآنية الكلامية ـ: أن الله أمر بعبادته التي هي كمال النفوس، وصلاحها، وغايتها، ونهايتها، لم يقتصر على مجرد الإقرار به، كما هو غاية الطريقة الكلامية، فلا وافقوا لا في الوسائل، ولا في المقاصد، فإن الوسيلة القرآنية قد أشرنا إلى أنها فطرية قريبة، موصلة إلى عين المقصود، وتلك قياسية بعيدة، ولا توصل إلا إلى نوع المقصود، لا إلى عينه.

وأما المقاصد ، فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له، فجمع بين قوتي الإنسان العلمية، والعملية: الحسية، والحركية، الإرادية الإدراكية، والاعتمادية: القولية، والعملية، حيث قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فالعبادة لابد فيها من معرفته، والإنابة إليه، والتذلل له، والافتقار إليه، وهذا هو المقصود. والطريقة الكلامية، إنما تفيد مجرد الإقرار، والاعتراف بوجوده.

وهذا إذا حصل من غير عبادة وإنابة كان وبالا على صاحبه، وشقاء له، كما جاء في الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة: عالم لم ينفعه الله بعلمه»[1] كإبليس اللعين، فإنه معترف بربه، مُقِرٌّ بوجوده، لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء، وكل من شقى فباتباعه له. كما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٥].

فلابد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه، مع أنه معترف بالرب، مقر بوجوده، وإنما أبى واستكبر عن الطاعة، والعبادة ، والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل، والغاية؛ ولهذا قيل :العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر، والمراد بالعمل هنا : عمل القلب الذي هو إنابته إلى الله ، وخشيته له، حتى يكون عابدًا له.

فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته، بل هو رأس الدعوة، ومقصودها، وأصلها، والطريقة السماعية العملية الصوتية المنحرفة توافق على المقصود العملي، لكن لا بعلم ، بل بصوت مجرد أو بشعر مهيج، أو بوصف حب مجمل . فكما أن الطريقة الكلامية فيها علم ناقص بلا عمل، فهذه الطريقة فيها عمل ناقص بلا علم، والطريقة النبوية، القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين.

---

(١) قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٩٠: «رواه الطبراني في الصغير، وفيه عثمان البري ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة، ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني ».

ففاتحة دعوة الرسل : الأمر بالعبادة . قال تعالي : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله»[١] وذلك يتضمن الإقرار به، وعبادته وحده، فإن الإله هو المعبود ، ولم يقل :حتى يشهدوا ألا رب إلا الله، فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له، التي لها خلق الخلق، وبها أمروا.

وكذلك قوله لمعاذ: « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»[٢] وقال نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣] ،وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال للرسل جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ. إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[سورة قريش] وقال: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١] وقال : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[الكافرون: ١-٣] وقال في الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وقال : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

---

(١) البخارى في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان(٢٢/ ٣٦) كلاهما عن عبدالله بن عمر.

(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٩٦) ومسلم في الإيمان (١٩ / ٢٩ ـ ٣١) .

وقـال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ:

فصـــل

في تمهيد الأوائل، وتقرير الدلائل

وذلك ببيان وتحرير أصل العلم والإيمان ، كما قد كتبته أولا في بيان أصل العلم الإلهي. والذي أكتبه هنا: بيان الفرق بين المنهاج النبوي، الإيماني، العلمي ، الصلاحي، والمنهاج الصابئ الفلسفي، وما تشعب عنه من المنهاج الكلامي والعبادي ، المخالف لسبيل الأنبياء وسنتهم.

وذلك أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ دعوا الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب واللسان، وعبادته متضمنة لمعرفته، وذكره.

فأصل علمهم وعملهم هو العلم بالله،والعمل لله، وذلك فطري كما قد قررته في غير هذا الموضع، في موضعين أو ثلاثة، وبينت أن أصل العلم الإلهي فطري ضروري، وأنه أشد رسوخاً في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي،كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين؛ لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر، وأما العلم الإلهي، فما يتصور أن تعرض عنه فطرة. وبسط هذا له موضع غير هذا.

وإنما الغرض هنا:أن الله ـ سبحانه ـ لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات،فهو الأصل الجامع،فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه ، والعمل له أصل كل عمل وجامعه. وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته. وإذا حصل لهم ذلك، فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة، وإما أمر مضر.

ثم من العلم به، تتشعب أنواع العلوم، ومن عبادته وقصده، تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك، قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي، والبرهان الوثيق ، فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان، وإما في السلامة عن الجهل والكفر.

وبهذا جاءت النصوص الإلهية، في أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وضرب مثل المؤمن ـ وهو المقر بربه علماً ، وعملا ـ بالحي، والبصير، والسميع، والنور، والظل.

وضرب مثل الكافر بالميت ،والأعمى ، والأصم، والظلمة، والحرور. وقالوا في الوسواس الخناس: هو الذي إذا ذكر اللّه خنس، وإذا غفل عن ذكر اللّه وسوس. فتبين بذلك أن ذكر اللّه أصل لدفع الوسواس الذي هو مبدأ كل كفر وجهل، وفسق وظلم. وقال اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢،الإسراء: ٦٥]،وقال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[النحل: ٩٩]، وقال: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[آل عمران: ١٠١] ونحو ذلك من النصوص.

وفي الدعاء الذي علمه الإمام أحمد لبعض أصحابه: يا دليل الحيارى، دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين، ولهذا كان عامة أهل السنة من أصحابنا وغيرهم على أن اللّه يسمى دليلا ، ومنع ابن عقيل، وكثير من أصحاب الأشعري أن يسمي دليلا؛ لاعتقادهم أن الدليل هو ما يستدل به، وأن اللّه هو الدال ، وهذا الذي قالوه بحسب ما غلب في عرف استعمالهم من الفرق بين الدال ، والدليل . وجوابه من وجهين :

أحدهما : أن الدليل معدول عن الدال، وهو ما يؤكد فيه صفة الدلالة، فكل دليل دال، وليس كل دال دليلاً، وليس هو من أسماء الآلات التي يفعل بها، فإن فعيل ليس من أبنية الآلات كمِفْعَل، ومِفْعَال.

وإنما سمي ما يستدل به من الأقوال والأفعال والأجسام أدلة باعتبار أنها تدل من يستدل بها، كما يخبر عنها بأنها تهدي ، وترشد ، وتعرف ، وتعلم ، وتقول ، وتجيب ، وتحكم ، وتفتى ، و تقص ، وتشهد ، وإن لم يكن لها في ذلك قصد وإرادة ، ولا حس وإدراك كما هو مشهور في الكلام العربي وغيره. فما ذكروه من الفرق والتخصيص لا أصل له في كلام العرب.

الثاني: أنه لو كان الدليل من أسماء الآلات التي يفعل بها، فقد قال اللّه ـ تعالى ـ فيما روى عنه نبيه في عبده المحبوب: « فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يعقل ، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يسعى»(١) والمسلم يقول : استعنت باللّه واعتصمت به .

---

(١) ذكره ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٤٤.

وإذا كان ما سوى اللّه من الموجودات: الأعيان، والصفات ،يستدل بها ،سواء كانت حية أو لم تكن، بل ويستدل بالمعدوم، فلأن يستدل بالحي القيوم أولى وأحرى، على أن الذي في الدعاء المأثور: يا دليل الحياري دلني علي طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين ، يقتضى أن تسميته دليلا باعتبار أنه دال لعباده، لا بمجرد أنه يستدل به، كما قد يستدل بما لا يقصد الدلالة والهداية، من الأعيان، والأقوال ، والأفعال.

ومن أسمائه الهادي، وقد جاء ـ أيضا ـ البرهان؛ ولهذا يذكر عن بعضهم أنه قال: عرفت الأشياء بربي ،ولم أعرف ربي بالأشياء . وقال بعضهم :هو الدليل لي علي كل شيء ، وإن كان كل شيء – لئلا يعذبني – عليه دليلا. وقيل لابن عباس: بماذا عرفت ربك؟ فقال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس، خارجاً عن المنهاج ، ظاعنا في الاعوجاج ، عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه. فأخبر أن معرفة القلب حصلت بتعريف اللّه، وهو نور الإيمان، وأن وصف اللسان حصل بكلام اللّه، وهو نور القرآن.

وقال آخر للشيخ:

قالوا ائتنا ببراهين فقلت لهم أنى يقوم على البرهان برهان؟

وقال الشيخ العارف للمتكلم : اليقين عندنا واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فأجابه بأنه ضروري.

وقال الشيخ إسماعيل الكوراني للشيخ المتكلم: أنتم تقولون: إن اللّه يعرف بالدليل. ونحن نقول : إنه تعرف إلينا فعرفناه. يعني: أنه تعرف بنفسه، وبفضله. مع أن كلام هذين الشيخين فيه إشارة إلى الطريقة العبادية ،وقد تكلمت عليها في غير هذا الموضع.

فإذا كان الحق، الحي، القيوم ، الذي هو رب كل شيء ومليكه ،ومؤصل كل أصل، ومسبب كل سبب وعلة، هو الدليل والبرهان والأول والأصل، الذي يستدل به العبد، ويفزع إليه، ويرد جميع الأواخر إليه في العلم، كان ذلك سبيل الهدى وطريقه، كما أن الأعمال والحركات لما كان اللّه مصدرها، وإليه مرجعها كان المتوكل عليه في عمله، القائل أنه لا حول ولا قوة إلا باللّه مؤيداً منصوراً.

فجماع الأمر: أن اللّه هو الهادي وهو النصير، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]. وكل علم فلابد له من هداية، وكل عمل فلابد له من قوة. فالواجب أن يكون هو أصل كل هداية وعلم، وأصل كل نصرة وقوة، ولا يستهدي العبد إلا إياه، ولا يستنصر إلا إياه.

والعبد لما كان مخلوقاً مربوبا، مفطوراً ، مصنوعا، عاد في علمه وعمله إلى خالقه. وفاطره، وربه، وصانعه ، فصار ذلك ترتيباً مطابقاً للحق، وتأليفاً موافقاً للحقيقة؛ إذ بناء الفرع على الأصل، وتقديم الأصل على الفرع هو الحق، فهذه الطريقة الصحيحة، الموافقة لفطرة اللّه وخلقته ولكتابه وسنته.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة[1] أن رسول اللّه ﷺ كان إذا قام إلي صلاة الليل يقول: « اللّهم رب جبرائيل، وميكائيل ، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[2].

وأما الطريقة الفلسفية الكلامية، فإنهم ابتدؤوا بنفوسهم ، فجعلوها هي الأصل الذي يفرعون عليه، والأساس الذي يبنون عليه، فتكلموا في إدراكهم للعلم: أنه تارة يكون بالحس، وتارة بالعقل ، وتارة بهما.

وجعلوا العلوم الحسية ، والبديهية ونحوها، هي الأصل الذي لا يحصل علم إلا بها. ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور القريبة منهم، من الأمور الطبيعية والحسابية، والأخلاق، فجعلوا هذه الثلاثة هي الأصول التي يبنون عليها سائر العلوم، ولهذا يمثلون ذلك في أصول العلم والكلام، بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الجسم لا يكون في مكانين، وأن الضدين ـ كالسواد والبياض ـ لا يجتمعان.

فهذان الفنان متفق عليهما .

وأما الأخلاق مثل : استحسان العلم، والعدل، والعفة ، والشجاعة، فجمهور[3] الفلاسفة والمتكلمين ، يجعلونها من الأصول، لكنها من الأصول العامة، ومنهم من لا يجعلها من الأصول، بل يجعلها من الفروع، التي تفتقر إلي دليل . وهو قول غالب المتكلمة، المنتصرين للسنة في تأويل القدر، فكان الذي أصلوه واتفقوا عليه من المعارف، أمر قليل الفائدة، نزر الجدوى ، وهو الأمور السفلية.

ثم إذا صعدوا من هذه المقدمات، والدلائل إلى الأمور العلوية فلهم طريقان:

أما المتكلمة المتبعون للنبوات، فغرضهم في الغالب إنما هو إثبات صانع العالم،

---

(١) في المطبوعة: «عامر» والصحيح: «عائشة» كما في كتب السنة .

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠/ ٢٠٠) عن عائشة .

(٣) في المطبوعة : «فجهور» وهوخطأ.

والصفات التي بها تثبت النبوة على طريقهم، ثم إذا أثبتوا النبوة، تلقوا منها السمعيات وهي الكتاب، والسنة، والإجماع ، وفروع ذلك.

وأما المتفلسفة، فهم في الغالب يتوسعون في الأمور الطبيعية ولوازمها، ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها. ثم المتألهون منهم يصعدون إلى واجب الوجود، وإلى العقول والنفوس. ومنهم من يثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لابد فيه من واجب.

وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل ، والمقاصد. أما المقاصد فإن حاصلها - بعد التعب الكثير، والسلامة - خير قليل، فهي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل . ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا.

وأما الوسائل، فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات، ينقطع السالكون فيها كثيرا قبل الوصول، ومقدماتها في ـ الغالب ـ إما مشتبهة يقع النزاع فيها، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء.

ولهذا لا يتفق منهم اثنان رئيسان على جميع مقدمات دليل إلا نادراً، فكل رئيس من رؤساء الفلاسفة والمتكلمين له طريقة في الاستدلال، تخالف طريقة الرئيس الآخر، بحيث يقدح كل من أتباع أحدهما في طريقة الآخر، ويعتقد كل منهما أن الله لا يعرف إلا بطريقته، وإن كان جمهور أهل الملة ، بل عامة السلف يخالفونه فيها.

مثال ذلك : أن غالب المتكلمين يعتقدون أن الله لا يعرف إلا بإثبات حدوث العالم، ثم الاستدلال بذلك على محدثه، ثم لهم في إثبات حدوثه طرق: فأكثرهم يستدلون بحدوث الأعراض، وهي صفات الأجسام. ثم القدرية من المعتزلة وغيرهم يعتقدون أن إثبات الصانع، والنبوة لا يمكن إلا بعد اعتقاد أن العبد هو المحدث لأفعاله، وإلا انتقض الدليل، ونحو ذلك من الأصول التي يخالفهم فيها جمهور المسلمين.

وجمهور هؤلاء المتكلمين المستدلين على حدوث الأجسام بحدوث الحركات، يجعلون هذا هو الدليل على نفي ما دل عليه ظاهر السمعيات، من أن الله يجيء ، وينزل ونحو ذلك.

والمعتزلة وغيرهم يجعلون هذا هو الدليل على أن الله ليس له صفة، لا علم ولا قدرة، ولا عزة، ولا رحمة، ولا غير ذلك؛ لأن ذلك ـ بزعمهم ـ أعراض تدل على حدوث الموصوف.

وأكثر المصنفين في الفلسفة ـ كابن سينا ـ يبتدئ بالمنطق، ثم الطبيعي والرياضي، أو لا يذكره. ثم ينتقل إلى ما عنده من الإلهي . وتجد المصنفين في الكلام يبتدؤون بمقدماته في الكلام : في النظر والعلم، والدليل ـ وهو من جنس المنطق ـ ثم ينتقلون إلى حدوث العالم، وإثبات محدثه.

ومنهم من ينتقل إلى تقسيم المعلومات إلى : الموجود، والمعدوم، وينظر في الوجود وأقسامه، كما قد يفعله الفيلسوف في أول العلم الإلهي.

فأما الأنبياء فأول دعوتهم : شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه.

وقد اعترف الغزالي بأن طريق الصوفية هو الغاية؛ لأنهم يطهرون قلوبهم مما سوى اللّه، ويملؤونه بذكر اللّه، وهذا مبدأ دعوة الرسول، لكن الصوفي الذي ليس معه الأثارة[1] النبوية مفصلة، يستفيد بها إيمانا مجملا، بخلاف صاحب الأثارة النبوية، فإن المعرفة عنده مفصلة. فتدبر طرق العلم والعمل، ليتميز لك طريق أهل السنة والإيمان من طريق أهل البدعة والنفاق، وطريق العلم والعرفان، من طريق الجهل والنكران.

---

(١) الأثارة: من الأثر،وهى بقية الشىء ،والخبر. وتطلق الأثارة على نقل الحديث وروايته. انظر:القاموس المحيط ، مادة «أثر».

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ

فصــــل

قد تكلم طائفة من المتكلمة، والمتفلسفة ، والمتصوفة في قيام الممكنات والمحدثات، بالواجب القديم ، وهذا المعنى حق، فإن الله رب كل شيء ، ومليكه، لكن يستشهدون على ذلك بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] ويقولون: إن معنى الآية: أن كل ممكن هو باعتبار ذاته هالك، أو هو عدم محض، ونفي صرف ، وإنما له الوجود من جهة ربه، فهو هالك باعتبار ذاته، موجود بوجه ربه، أي من جهته هو موجود.

ثم منهم من قد يخرج منها إلى مذهب الجهمية : الاتحادية، والحلولية، فيقول : إن ذلك الوجه هو وجود الكائنات، ووجه الله هو وجوده، فيكون وجوده وجود الكائنات، لا يميز بين الوجود الواجب، والوجود الممكن ـ كما هو قول ابن عربي، وابن سَبْعِين(١) ونحوهما – وهو لازم لمن جعل وجوده وجوداً مطلقاً، لا يتميز بحقيقة تخصه سواء جعله وجوداً مطلقا بشرط الإطلاق ـ كما يزعم ابن سينا ونحوه من المتفلسفة ـ أو جعله وجوداً مطلقا لا بشرط- كما يقوله الاتحادية.

وهم يسلمون من القواعد العقلية ـ مما هو يعلم بضرورة العقل ما يوجب أن يكون الموجود – بشرط الإطلاق – إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان كالحيوان المطلق بشرط الإطلاق، والإنسان المطلق بشرط الإطلاق ونحو ذلك . وأن المطلق لا بشرط ، ليس له حقيقة، غير الوجود العيني، والذهني، ليس في الأعيان الموجودة وجود مطلق، سوى أعيانها، كما ليس في هذا الإنسان، وهذا الإنسان إنسان مطلق وراء هذا الإنسان، فيكون وجود الرب على الأول ذهني وعلى الثاني نفس وجود المخلوقات.

وقول الجهمية من المتقدمين، والمتأخرين، لا يخرج عن هذين القولين ، وهو حقيقة التعطيل، لكن هم يثبتونه أيضا، فيجمعون بين النفي والإثبات، فيبقون في الحيرة؛ ولهذا يجعلون الحيرة منتهى المعرفة ، ويروون عن النبي ﷺ حديثا مكذوبا عليه « أعلَمكم بالله أشدكم حيرة» وأنه قال:« اللّهم زدني فيك تحيراً »ويجمعون بين النقيضين ملتزمين لذلك.

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الإشبيلي ، من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، وقد كفره كثير من الناس ، وأتباعه يعرفون بالسبعينية، توفى سنة ٦٦٩هـ .[شذرات الذهب ٥/١٢٩، الأعلام ٣/ ٢٨٠].

وهذا قول القرامطة الباطنية، والاتحادية ، وهو لازم لقول الفلاسفة والمعتزلة، وإن لم يصرح هؤلاء بالتزامه؛ بخلاف الباطنية، والاتحادية من المتصوفة. فإنهم يصرحون بالتزامه، ويذكرون ذلك عن الحلاج.

والمقصود هنا أن يقال : أما كون وجود الخالق هو وجود المخلوق؛ فهذا كفر صريح باتفاق أهل الإيمان، وهو من أبطل الباطل في بديهة عقل كل إنسان، وإن كان منتحلوه يزعمون أنه غاية التحقيق والعرفان، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

وأما كون المخلوق لا وجود له، إلا من الخالق ـ سبحانه ـ فهذا حق، ثم جميع الكائنات، هو خالقها، وربها، ومليكها، لا يكون شيء إلا بقدرته، ومشيئته وخلقه، هو خالق كل شيء سبحانه وتعالى.

لكن الكلام هنا في تفسير الآية بهذا، فإن المعاني تنقسم إلى حق وباطل.

فالباطل : لا يجوز أن يفسر به كلام الله.

والحق: إن كان هو الذي دل عليه القرآن فسر به، وإلا فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة، كالمناسبة التي بين الرؤيا والتعبير، وإن كانت خارجة عن وجوه دلالة اللفظ ، كما تفعله القرامطة والباطنية؛ إذ دلالة اللفظ على المعنى سمعية. فلابد أن يكون اللفظ مستعملا في ذلك المعنى بحيث قد دل على المعنى به، لا يكتفي في ذلك بمجرد أن يصلح وضع اللفظ لذلك المعنى؛ إذ الألفاظ التي يصلح وضعها للمعاني ولم توضع لها لا يحصي عددها إلا الله. وهذا عند من يعتبر المناسبة بين اللفظ والمعنى كقول طائفة من أهل الكلام والبيان، وأما عند من لا يعتبر المناسبة فكل لفظ يصلح وضعه لكل معنى ، لا سيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى هو مستعمل فيه، فحمله على غير ذلك لمجرد المناسبة كذب على الله.

ثم إن كان مخالفاً لما علم من الشريعة، فهو دأب القرامطة، وإن لم يكن مخالفاً فهو حال كثير من جهال الوعاظ، والمتصوفة الذين يقولون بإشارات لا يدل اللفظ عليها نصا ولا قياسا، وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دل اللفظ عليه، ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوما من جهة القياس والاعتبار فحالهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس، والاعتبار، وهذا حق إذا كان قياسا صحيحا، لا فاسداً، واعتباراً مستقيمًا ، لا منحرفًا.

وإذا كان المقصود هنا الكلام في تفسير الآية فنقول: تفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عمن قاله من السلف، والمفسرين، من أن المعنى: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه. هو أحسن من ذلك التفسير المحدث، بل لا يجوز تفسير الآية بذلك التفسير المحدث، وهذا يبين

بوجوه، بعضها يشير إلى الرجحان، وبعضها يشير إلى البطلان.

الأول : أنه لم يقل: كل شيء هالك إلا من جهته، إلا من وجهه، ولكن قال: إلا وجهه. وهذا يقتضي أن ثم أشياء تهلك إلا وجهه. فإن أريد بوجهه وجوده، اقتضى أن كل ما سوي وجوده هالك، فيقتضى أن تكون المخلوقات هالكة. وليس الأمر كذلك. وهو أيضا على قول الاتحادية، فإنه عندهم ما ثم إلا وجود واحد، فلا يصح أن يقال: كل ما سوي وجوده هالك؛ إذ ما ثم شيء يخبر عنه بأنه سوى وجوده ، إذ أصل مذهبهم نفى السوى ، والغير في نفس الأمر.

وهذا يتم بالوجه الثاني : وهو أنه إذا قيل: المراد بالهالك: الممكن الذي لا وجود له من جهته، فيكون المعنى: كل شيء ليس وجوده من نفسه إلا هو.

قيل: استعمال لفظ الهالك في الشيء الموجود المخلوق لأجل أن وجوده من ربه لا من نفسه، لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازا.

والقرآن قد فرق في اسم الهلاك بين شيء وشيء. فقال تعالى: **﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾** [النساء:١٧٦] وقال تعالى: **﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾** [البقرة:١٩٥] وقال تعالى: **﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾**[الأنعام:٢٦]، وقال تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**[الجاثية:٢٤]، وقال تعالى: **﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾**[الأعراف:٤]، وقال تعالى: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾**[مريم:٧٤]، وقال: **﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**[الإسراء:٥٨]، وقال: **﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾** [النمل:٤٨، ٤٩]، وقال: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾**[الإسراء:١٧] وقالت الملائكة: **﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾** [العنكبوت:٣١] وقال: **﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾** [المرسلات: ١٦، ١٧].

فهذه الآيات تقتضي أن الهلاك استحالة، وفساد في الشيء الموجود، كما سنبينه، لا أنه يعني أنه ليس وجوده من نفسه؛ إذ جميع المخلوقات تشترك في هذا[1].

الوجه الثالث: أن يقال: على هذا التقدير: يكون المعنى: أن كل ما سواه ممكن قابل للعدم، ليس وجوده من نفسه، وهذا المعنى ليس هو الذي يقصدونه، وإنما مقصودهم أن كل ما سواه فوجوده منه، وبين المعنيين فرق واضح، فإن الخبر عن الشيء بأنه ممكن قابل

(١) وبهامشه بخطه : أنهلك ويبقى الصالحون؟

العدم، ليس وجوده من نفسه غير الخبر عنه، بأنه موجود وإن وجوده من الله.

الوجه الرابع: أن يقال: إذا كان المراد أن كل ما سواه ممكن، والضمير عائد إلى واجب الوجود - إلى الله الذي خلق الكائنات - كان هذا من باب إيضاح الواضح، فإنه من المعلوم أن كل ما سوى واجب الوجود فهو ممكن، وأن كل ما هو مخلوق له فهو ممكن.

الوجه الخامس: أن يقال : اسم الوجه في الكتاب والسنة، إنما يذكر في سياق العبادة له والعمل له، والتوجه إليه، فهو مذكور في تقرير ألوهيته، وعبادته وطاعته، لا في تقرير وحدانية كونه خالقاً ورباً، وذلك المعنى هو العلة الغائية، وهذا هو العلة الفاعلية، والعلة الغائية، هي المقصودة التي هي أعلى وأشرف بل هي علة فاعلية للعلة الفاعلية، ولهذا قدمت في مثل قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وفي مثل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وإذا كان كذلك، كان حمل اسم الوجه في هذه الآية على ما يدل عليه في سائر الآيات أولى من حمله على ما يدل عليه لفظ الوجه في شيء من الكتاب والسنة، بل هذا هو الواجب دون ذاك؛ لأن هذا استعمال للفظ فيما لم يرد به الكتاب، و الكتاب قد ورد بغيره حيث ذكر.

الوجه السادس: أن اسم الهلاك يراد به الفساد، وخروجه عما يقصد به ويراد، وهذا مناسب لما لا يكون لله، فإنه فاسد لا ينتفع به في الحقيقة، بل هو خارج عما يجب قصده وإرادته. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦] أخبر أنهم يهلكون أنفسهم بنهيهم عن الرسول ، ونأيهم عنه، ومعلوم أن من نأى عن اتباع الرسول، ونهي غيره عنه - وهو الكافر - فإن هلاكه بكفره هو حصول العذاب المكروه له ، دون النعيم المقصود. وقال تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾[النساء: ١٧٦]. وقال(١):

---

(١) بياض بالأصل.

وقال ـ قدس الله روحه ـ:

فصـــل

ثم يقال: هذا ـ أيضاً ـ يقتضي أن كلا منهما ليس واجباً بنفسه غنيًا قيوماً ، بل مفتقراً إلى غيره في ذاته وصفاته، كما كان مفتقراً إليه في مفعولاته؛ وذلك أنه إذا كان كل منهما مفتقراً إلى الآخر في مفعولاته، عاجزاً عن الانفراد بها؛ إذ الاشتراك مستلزم لذلك، كما تقدم ، فإما أن يكون قابلاً للقدرة على الاستقلال بحيث يمكن ذلك فيه، أو لا يمكن.

والثاني : ممتنع ؛ لأنه لو امتنع أن يكون الشيء مقدورًا ممكنًا لواحد، لامتنع أن يكون مقدوراً ممكنا لاثنين، فإنَّ حال الشيء في كونه مقدوراً ممكنًا، لا يختلف بتعدد القادر عليه وتوحده. فإذا امتنع أن يكون مفعولا مقدوراً لواحد، امتنع أن يكون مفعولا مقدوراً لاثنين. وإذا جاز أن يكون مفعولاً مقدوراً عليه لاثنين وهو ممكن، جاز أن يكون ـ أيضاـ لواحد، وهذا بيِّن إذا كان الامكان والامتناع لمعنى في الممكن – المفعول المقدور عليه – إذ صفات ذاته، لا تختلف في الحال .

وكذلك إذا كان لمعنى في القادر، فإن القدرة القائمة باثنين، لا تمتنع أن تقوم بواحد ، بل إمكان ذلك معلوم ببديهة العقل، بل من المعلوم ببديهة العقل أن الصفات بأسرها من القدرة وغيرها ، كلما كان محلها متحداً مجتمعًا، كان أكمل لها من أن يكون متعدداً متفرقا.

ولهذا كان الاجتماع والاشتراك في الخلق، بأن يوجب لها من القوة والقدرة ما لا يحصل لها إذا تفرقت وانفردت، وإن كانت إحداها باقية، بل الأشخاص والأعضاء وغيرها من الأجسام المتفرقة قد قام بكل منها قدرة ، فإذا قدر اتحادها واجتماعها، كانت تلك القدرة أقوى وأكمل؛ لأنه حصل لها من الاتحاد والاجتماع بحسب الإمكان ما لم يكن حين الافتراق والتعداد.

وهذا يبين أن القدرة القائمة باثنين ـ إذا قدر أن ذينك الاثنين كانا شيئاً واحداً ـ تكون القدرة أكمل ، فكيف لا تكون مساوية للقدرة القائمة بمحلين؟ وإذا كان من المعلوم أن المحلَّين المتباينين اللذين قام بهما قدرتان، إذا قدر أنهما محل واحد، وأن القدرتين قامتا به لم تنقص القدرة بذلك بل تزيد، علم أن المفعول الممكن المقدور عليه لقادرين منفصلين ـ

إذا قدر أنهما بعينهما ـ قادر واحد قد قام به ما قام بهما، لم ينقص بذلك بل يزيد ، فعلم أنه يمكن أن يكون كل منهما قابلا للقدرة على الاستقلال، وأن ذلك ممكن فيه.

فتبين أنه من الممكن في المشتركين على المفعول الواحد أن يكون كل منهما قادراً عليه، بل من الممكن أن يكونا شيئاً واحداً قادراً عليه، فتبين أن كلا منهما يمكن أن يكون أكمل مما هو عليه، وأن يكون بصفة أخرى.

إذا كان يمكن في كل منهما أن تتغير ذاته، وصفاته.

ومعلوم أنه هو لا يمكن أن يكمل نفسه وحده، ويغيرها إذ التقدير: أنه عاجز عن الانفراد بمفعول منفصل عنه، فأن يكون عاجزاً عن تكميل نفسه وتغييرها أولى.

وإذا كان هذا يمكن أن يتغير ويكمل ، وهو لا يمكنه ذلك بنفسه لم يكن واجب الوجود بنفسه، بل يكون فيه إمكان وافتقار إلى غيره، والتقدير: أنه واجب الوجود بنفسه غير واجب الوجود بنفسه فيكون واجبا ممكنا.

وهذا تناقض؛ إذ ما كان واجب الوجود بنفسه تكون نفسه كافية في حقيقة ذاته وصفاته، لا يكون في شيء من ذاته وصفاته مفتقراً إلى غيره؛ إذ ذلك كله داخل في مسمى ذاته، بل ويجب ألا يكون مفتقراً إلى غيره في شيء من أفعاله ومفعولاته.

فإن أفعاله القائمة به داخلة في مسمى نفسه، وافتقاره إلى غيره في بعض المفعولات يوجب افتقاره في فعله، وصفته القائمة به؛ إذ مفعوله صدر عن ذلك، فلو كانت ذاته كاملة غنية لم تفتقر إلى غيره في فعلها، فافتقاره إلى غيره بوجه من الوجوه دليل عدم غناه، وعلى حاجته إلى الغير، وذلك هو الإمكان المناقض لكونه واجب الوجود بنفسه.

ولهذا لما كان وجوب الوجود من خصائص رب العالمين، والغني عن الغير من خصائص رب العالمين كان الاستقلال بالفعل من خصائص رب العالمين، وكان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين، فليس في المخلوقات ما هو مستقل بشيء من المفعولات، وليس فيها ما هو وحده علة قائمة ، وليس فيها ما هو مستغنياً عن الشريك في شيء من المفعولات ، بل لا يكون في العالم شيء موجود عن بعض الأسباب، إلا بمشاركة سبب آخر له.

فيكون ـ وإن سمى علة ـ علة مقتضية سببية، لا علة تامة، ويكون كل منهما شرطا للآخر ، كما أنه ليس في العالم سبب إلا وله مانع يمنعه من الفعل، فكل ما في المخلوق ـ مما يسمى علة أو سببا، أو قادراً ، أو فاعلا، أو مدبراً ـ فله شريك هو له كالشرط، وله

معارض هو له مانع وضد، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] والزوج يراد به النظير المماثل ، والضد المخالف ، وهو الند.

فما من مخلوق إلا له شريك ، وند.

والرب ـ سبحانه ـ وحده هو الذي لا شريك له، ولا ند، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ولهذا لا يستحق غيره أن يسمى خالقا، ولا ربا مطلقاً، ونحو ذلك؛ لأن ذلك يقتضى الاستقلال، والانفراد بالمفعول المصنوع، وليس ذلك إلا لله وحده؛ ولهذا ـ وإن نازع بعض الناس في كون العلة تكون ذات أوصاف، وادعى أن العلة لا تكون إلا ذات وصف واحد ـ فإن أكثر الناس خالفوا في ذلك، وقالوا : يجوز أن تكون ذات أوصاف، بل قيل: لا تكون في المخلوق علة ذات وصف واحد أو ليس في المخلوق ما يكون وحده علة، ولا يكون في المخلوق علة، إلا ما كان مركباً من أمرين فصاعداً.

فليس في المخلوق واحد يصدر عنه شيء، فضلا عن أن يقال: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، بل لا يصدر من المخلوق شيء إلا عن اثنين فصاعدًا، وأما الواحد الذي يفعل وحده فليس إلا الله.

فكما أن الوحدانية واجبة له لازمة له فالمشاركة واجبة للمخلوق لازمة له، والوحدانية مستلزمة للكمال، والكمال مستلزم لها، والاشتراك مستلزم للنقصان، والنقصان مستلزم له.

وكذلك الوحدانية مستلزمة للغنى عن الغير، والقيام بنفسه، ووجوبه بنفسه، وهذه الأمور ـ من الغنى، والوجوب بالنفس والقيام بالنفس ـ مستلزمة للوحدانية، والمشاركة مستلزمة للفقر إلى الغير، والإمكان بالنفس ، وعدم القيام بالنفس .

وكذلك الفقر والإمكان وعدم القيام بالنفس مستلزم للاشتراك ، وهذه وأمثالها من دلائل توحيد الربوبية وأعلامها، وهي من دلائل إمكان المخلوقات المشهودات، وفقرها وأنها من بدئه، فهي من أدلة إثبات الصانع؛ لأن ما فيها من الافتراق والتعداد، والاشتراك يوجب افتقارها وإمكانها، والممكن المفتقر لابد له من واجب غني بنفسه، وإلا لم يوجد.

ولو فرض تسلسل الممكنات المفتقرات فهي بمجموعها ممكنة، والممكن قد علم بالاضطرار أنه يفتقر في وجوده إلى غيره، فكل ما يعلم أنه ممكن فقير، فإنه يعلم أنه فقير أيضا في وجوده إلى غيره، فلابد من غنى بنفسه واجب الوجود بنفسه، وإلا لم يوجد ما هو فقير ممكن بحال.

وهذه المعاني تدل على توحيد الربوبية، وعلى توحيد الإلهية، وهو التوحيد الواجب الكامل، الذي جاء به القرآن ، لوجوه:

قد ذكرنا منها ما ذكرنا في غير هذا الموضع، مثل أن المتحركات لابد لها من حركة إرادية، ولابد للإرادة من مراد لنفسه، وذلك هو الإله، والمخلوق يمتنع أن يكون مراداً لنفسه، كما يمتنع أن يكون فاعلا لنفسه، فإذا امتنع أن يكون فاعلان بأنفسهما امتنع أن يكون مرادان بأنفسهما.

وأيضًا،فالإله الذي هو المراد لنفسه- إن لم يكن ربا- امتنع أن يكون معبوداً لنفسه، ومن لا يكون ربا خالقا لا يكون مدعوا مطلوبا منه، مرادًا لغيره، فلأن لا يكون معبوداً مراداً لنفسه من باب الأولى فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية، ونفى الربوبية يوجب نفي الإلهية؛ إذ الإلهية هي الغاية، وهي مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية.

وكل واحد من وحدانية الربوبية والإلهية - وإن كان معلوما بالفطرة الضرورية البديهية، وبالشرعية النبوية الإلهية - فهو - أيضا - معلوم بالأمثال الضرورية ، التي هي المقاييس العقلية.

لكن المتكلمون إنما انتصبوا لإقامة المقاييس العقلية على توحيد الربوبية، وهذا مما لم ينازع في أصله أحد من بني آدم، وإنما نازعوا في بعض تفاصيله، كنزاع المجوس والثنوية والطبيعية والقدرية ، وأمثالهم من ضلال المتفلسفة، والمعتزلة، ومن يدخل فيهم، وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب، الذي دخل من أقرَّ أنه لا خالق إلا الله، ولا رب غيره من أصناف المشركين، كما قال تعالي: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾** [يوسف:١٠٦]، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع.

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ـ:

فصـــل

قاعدة:

قد كتبت ما يتعلق بها في الكراس الذي قبل هذا.

أصل الإثبات والنفي، والحب والبغض: هو شعور النفس بالوجود والعدم والملاءمة والمنافرة . فإذا شعرت بثبوت ذات شيء، أو صفاته، اعتقدت ثبوته، وصدقت بذلك. ثم إن كانت صفات كمال اعتقدت إجلاله وإكرامه صدَّقت ومدحته، وأثنت عليه.

وإذا شعرت بانتفائه،أو انتفاء صفات الكمال عنه، اعتقدت انتفاء ذلك.

وإن لم تشعر لا بثبوت ، ولا انتفاء، لم تعتقد واحداً منهما، ولم تصدق ولم تكذب، وربما اعتقدت الانتفاء إذا لم تشعر بالثبوت، وإن لم تشعر أيضا بالعدم.

وبين الشعور بالعدم ، وعدم الشعور بالوجود فرقان بين ، وهي منزلة الجهل الذي يؤتى منها أكثر الناس الذين يكذبون بما لم يحيطوا بعلمه، والذي من جهل شيئا عاداه.

ثم إذا اعتقدت الانتفاء كذبت بالثبوت، وذمته، وطعنت فيه، هذا إذا كان ما استشعرت وجوده أو عدمه محموداً ، وأما إن كان مذموما، كان الأمر بالعكس. وكذلك إذا شعرت بما يلائمها أحبته وأرادته، وإن شعرت بما ينافيها أبغضته وكرهته، وإن لم تشعر بواحد منهما ، أو شعرت بما ليس بملائم ولا مناف، فلا محبة ولا بغضة، وربما أبغضت ما لم يكن منافيًا إذ لم يكن ملائما.

وبين الشعور بالمنافي ،وعدم الشعور بالملائم ،فرق بين ،لكن هذا محمود فإن ما لم يلائم الإنسان، فلا فائدة له فيه ولا منفعة، فيكون الميل إليه من باب العبث، والمضرة.

فينبغي الإعراض عنه؛ لأنه لا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه فالميل إليه مضرة، ثم يتبع الحب للشخص،أو العمل الصلاة عليه،والثناء عليه. كما يتبع البغض اللعنة له، والطعن عليه، وما لم يكن محبوبا، ولا مبغضاً، لا يتبعه ثناء ولا دعاء، ولا طعن ولا لعن.

ولما كان ـ في نفس الأمر ـ وجود محبوب مألوه، كان أصل السعادة الإيمان بذلك، وأصل الإيمان قول القلب الذي هو التصديق،وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع،إذ لا ملاءمة لأرواح العباد،أتم من ملاءمة إلهها الذي هو الله الذي لا إله إلا هو.

ولما كان الإيمان جامعاً لهذين المعنيين، وكان تعبير من عبر عنه بمجرد التصديق ناقصا، قاصراً، انقسم الأمة إلى ثلاث فرق:

فالجامعون، حققوا كلا معنييه، من القول التصديقي ، والعمل الإرادي. وفريقان فقدوا أحد المعنيين:

فالكلاميون، غالب نظرهم وقولهم في الثبوت، والانتفاء والوجود والعدم والقضايا التصديقية، فغايتهم مجرد التصديق والعلم والخبر.

والصوفيون، غالب طلبهم وعملهم في المحبة، والبغضة، والإرادة، والكراهة، والحركات العملية، فغايتهم المحبة والانقياد والعمل والإرادة.

وأما أهل العلم والإيمان، فجامعون بين الأمرين ، بين التصديق العلمي، والعمل الحبي. ثم إن تصديقهم عن علم، وعملهم وحبهم عن علم ، فسلموا من آفتي منحرفة المتكلمة والمتصوفة، وحصلوا ما فات كل واحدة منهما من النقص، فإن كلاً من المنحرفين له مفسدتان:

إحداهما : القول بلا علم - إن كان متكلما - والعمل بلا علم - إن كان متصوفا - وهو ما وقع من البدع الكلامية والعملية، المخالفة للكتاب والسنة.

والثاني : فوَّت المتكلم العمل ، وفوَّتَ المتصوف القول والكلام.

وأهل السنة الباطنة والظاهرة كان كلامهم وعملهم باطنا وظاهراً بعلم، وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونا بالآخر. وهؤلاء هم المسلمون حقاً، الباقون على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه اليهود، ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه النصارى ؛ ولهذا غلب على الأولين جانب الحروف وما يدل عليه من العلم والاعتقاد، وعلى الآخرين جانب الأصوات، وما يثيره من الوجد والحركة.

ومن تمام ذلك أن الله أمر نبيه أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة ، والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن.

وهذه الطرق الثلاثة هي النافعة في العلم والعمل، وتشبه ما يذكره أهل المنطق من البرهان والخطابة والجدل. بقي الشعر والسفسطة- التي هي الكذب المموه - فنفى الله ذلك بقوله: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢١-٢٢٤] إلى آخر السورة ، فذكر

الأفاكين، وهم المسفسطون، وذكر الشعراء.

وكذلك أبو بكر الصديق قال لعمر بن الخطاب لما قال له : يا خليفة رسول الله ، تألَّف الناس ، فأخذ بلحيته وقال: يابن الخطاب، أجباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام، علام أتألفهم؟ أعلى حديث مفترى، أم على شعر مفتعل؟ فذكر الحديث المفترى ، والشعر المفتعل ، كما ذكر الله الأفاكين والشعراء، وكان الإفك في القوة الخبرية. والشعر في القوة العملية الطلبية، فتلك ضلال وهذه غواية.

ولهذا يقترن أحدهما بالآخر كثيراً في مثل المليِّين [1]من الرهبان، وفاسدي الفقراء وغيرهم، ثم لما كان الشعر مستفاداً من الشعور ـ فهو يفيد إشعار النفس بما يحركها، وإن لم يكن صدقاً ، بل يورث محبة، أو نفرة أو رغبة أو رهبة، لما فيه من التخييل، وهذا خاصة الشعر - فلذلك وصفهم بأنهم يتبعهم الغاوون.

والغيُّ : اتباع الشهوات؛ لأنه يحرك الناس حركة الشهوة، والنفرة والفرح، والحزن بلا علم ، وهذا هو الغي ، بخلاف الإفك ، فإن فيه إضلالا في العلم بحيث يوجب اعتقاد الشيء، على خلاف ما هو به. وإذا كانت النفس تتحرك تارة عن تصديق وإيمان، وتارة عن شعر. والثاني مذموم إلا ما استثنى منه، قال تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾ [يس:٦٩]، فالذكر خلاف الشعر، فإنه حق وعلم، يذكره القلب، وذاك شعر يحرك النفس فقط.

ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة، الاعتياض بسماع القصائد والأشعار، عن سماع القرآن والذكر؛ فإنه يعطيهم مجرد حركة حب أو غيره، من غير أن يكون ذلك تابعاً لعلم وتصديق؛ ولهذا يؤثره من يؤثره على سماع القرآن، ويعتل بأن القرآن حق نزل من حق، والنفوس تحب الباطل ؛ وذلك لأن القول الصدق والحق يعطي علماً واعتقاداً بجملة القلب، والنفوس المبطلة لا تحب الحق.

ولهذا أثره باطل، يتفشى من النفس، فإنه فرع لا أصل له،ولكن له تأثير في النفس من جهة التحريك،والإزعاج والتأثير،لا من جهة التصديق والعلم والمعرفة؛ ولهذا يسمون القول حاديًا؛ لأنه يحدو النفوس ، أي يبعثها، ويسوقها كما يحدو حادي العيس[2].

وأما الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدل الأحسن ، فإنه يعطي التصديق والعمل ، فهو نافع منفعة عظيمة.

---

(١) المقصود بالمليِّين : أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، كما وضحه ابن تيمية في أكثر من موضع.
(٢) العيس: الإبل: مختار الصحاح ، مادة «عيس».

وإنما قلت: إن هذه الثلاثة تشبه من بعض الوجوه الأقيسة الثلاثة، التي هي: البرهانية، والخطابية، والجدلية، وليست هي، بل أكمل من وجوه كثيرة لوجوه:

أحدها: أن التي في القرآن تجمع نوعي العلم، والعمل، الخبر والطلب على أكمل الوجوه، بخلاف الأقيسة المنطقية.

وذلك أن القياس العقلي المنطقي إنما فائدته مجرد التصديق في القضايا الخبرية، سواء تبع ذلك عمل أو لم يتبعه، فإن كانت مواد القياس يقينية كان برهاناً، سواء كانت مشهورة، أو مسلمة، أو لم تكن، وهو يفيد اليقين، وإن كانت مشهورة، أو مقبولة سمي خطابة، سواء كانت يقينية أو لم تكن، وذلك يفيد الاعتقاد والتصديق الذي هو بين اليقين والظن، ليس أنه يفيد الظن دون اليقين، إذ ليس في كونها مشهورة ما يمنع أن تكون يقينية مفيدة لليقين.

وفرق بين ما لا يجب أن يفيد اليقين، وما يمنع إفادة اليقين. فالمشهورة - من حيث هي مشهورة - تفيد التصديق، والإقناع، والاعتقاد. ثم إن عرف أنها يقينية أفادت اليقين أيضا، وإن عرف أنها غير يقينية لم تفد إلا الظن، وإن لم تشعر النفس بواحد منهما بقي اعتقاداً مجرداً، لا يثبت له اليقين، ولا ينفى عنه.

وأما الحكمة في القرآن، فهي معرفة الحق وقوله والعمل به، كما كتبت تفسيرها في غير هذا الموضع.

والموعظة الحسنة تجمع التصديق بالخبر والطاعة للأمر؛ ولهذا يجيء الوعظ في القرآن مراداً به الأمر والنهي بترغيب وترهيب، كقوله: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾** [النساء: ٦٦]، وقوله: **﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾** [النور: ١٧]، وقوله: **﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً﴾** [البقرة: ٦٦]، أي: يتعظون بها فينتبهون، وينزجرون.

وكذلك الجدل الأحسن، يجمع الجدل للتصديق، وللطاعة.

الوجه الثاني: ويمكن أن يقسم هذا إلى وجه آخر - بأن يقال: الناس ثلاثة أقسام: إما أن يعترف بالحق ويتبعه، فهذا صاحب الحكمة، وإما أن يعترف به، لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتى يعمل، وإما ألا يعترف به، فهذا يجادل بالتي هي أحسن؛ لأن الجدال في مظنة الإغضاب، فإذا كان بالتي هي أحسن: حصلت منفعته بغاية الإمكان، كدفع الصائل [(١)].

الوجه الثالث: أن كلام الله لا يشتمل إلا على حق يقين، لا يشتمل على ما تمتاز به

---

(١) الصائل: هو الذي يسطو على الناس ويتعدى عليهم. انظر: القاموس المحيط، مادة «صال».

الخطابة والجدل عن البرهان، بكون المقدمة مشهورة، أو مسلمة غير يقينية ، بل إذا ضرب الله مثلا مشتملا على مقدمة مشهورة، أو مسلمة، فلابد وأن تكون يقينية. فأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة، أو بمجرد كونها مشهورة، وإن لم تكن صادقة، فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله، الذي كله حق وصدق، وهو أصدق الكلام، وأحسن الحديث.

فصاحب الحكمة يدعى بالمقدمات الصادقة، سواء كانت مشهورة أو مسلمة أو لم تكن؛ لما فيه من إدراك الدِّق [1]، واتباع الحق.

وصاحب الموعظة يدعي من المقدمات الصادقة بالمشهورة؛ لأنه قد لا يفهم الخفية من الحق، ولا ينازع في المشهورة.

وصاحب الجدل يدعى بما يسلمه من المقدمات الصادقة، مشهورة كانت أو لم تكن؛ إذ قد لا ينقاد إلى ما لا يسلمه، سواء كان جلياً أو خفياً، وينقاد لما يسلمه، سواء كان جلياً أو خفياً، فهذا هذا.

وليس الأمر كما يتوهمه الجهال الضلال من الكفار المتفلسفة، وبعض المتكلمة، من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية، وعري عن البرهانية، أو اشتمل على قليل منها بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية، وتكون تارة خطابية، وتارة جدلية مع كونها برهانية.

والأقيسة العقلية - التي اشتمل عليها القرآن - هي الغاية في دعوة الخلق إلى الله، كما قال : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[الإسراء:٨٩]، في أول سبحان وآخرها ، وسورة الكهف ، والمثل هو القياس ؛ ولهذا اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة، التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة، والمتفلسفة، وغيرهم. ونزه الله عما يوجد في كلامهم من الطرق الفاسدة، ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال.

الوجه الرابع : أن هنا نكتة ينبغى التفطن لها، فإنها نافعة، وذلك أن المقدمة المذكورة في القياس الذي هو مثل لها وصف ذاتي، ووصف إضافي :

فالوصف الذاتي لها : أن تكون مطابقة ، فتكون صدقا، أو لا تكون مطابقة فتكون كذبا، وجميع المقدمات المذكورة في أمثال القرآن هي صدق، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أي الشيء الدقيق الحجم. انظر: القاموس المحيط، مادة «دقق».

وأما الوصف الإضافي: فكونها معلومة عند زيد ، أو مظنونة، أو مسلمة أو غير مسلمة، فهذا أمر لا ينضبط. فرب مقدمة هي يقينية عند شخص قد علمها وهي مجهولة ، فضلا عن أن تكون مظنونة عند من لم يعلمها، فكون المقدمة يقينية، أو غير يقينية، أو مشهورة، أو غير مشهورة، أو مسلمة أو غير مسلمة أمور نسبية وإضافية لها، تعرض بحسب شعور الإنسان بها.

ولهذا تنقلب المظنونة، بل المجهولة في حقه يقينية معلومة ، والممنوعة مسلمة، بل والمسلمة ممنوعة. والقرآن كلام الله الذي أنذر به جميع الخلق، لم يخاطب به واحداً بعينه حتى يخاطب بما هو عنده يقيني من المقدمات، أو مشهور ، أو مسلم.

فمقدمات الأمثال فيه اعتبر فيها الصفة الذاتية وهي كونها صدقا، وحقا يجب قبوله، وأما جهة التصديق فتتعدد وتتنوع؛ إذ قد يكون لهذا من طرق التصديق بتلك المقدمة ما ليس لعمرو، مثل أن يكون هذا يعلمها بالإحساس والروية، وهذا يعلمها بالسماع والتواتر كآيات الرسول وقصة أهل الفيل ، وغير ذلك.

فما كان جهة تصديقه عاما للناس ، أمكن ذكره جهة التصديق به، كآيات الربوبية المعلومة بالإحساس دائمًا، وما كان جهة تصديقه متنوعا، أحيل كل قوم على الطريق التي يصدقون بها.

وقد يقال في مثل هذا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن مخاطبة المعين قد يعلم بها ما هو عنده يقيني أو مشهور من اليقين ،أو مسلم منه.

وبهذا يتبين لك أن تقسيم المنطقيين لمقدمات القياس إلى المستيقن والمشهور والمسلم، ليس ذلك وصفا لازما للقضية، بل هو بحسب ما اتفق للمصدق بها، وربما انقلب الأمر عنده، ويظهر لك من هذا أن ما يشهدون عليه أنه ليس بيقيني ، أو ليس مشهوراً ، وليس بمسلم، ليست الشهادة صحيحة؛ إذ سلب ذلك إنما يصح في حق قوم معينين، لا في حق جميع البشر.

وكذلك الشهادة عليه بأنه يقيني، أو مشهور ، أو مسلم، إنما هو في حق من ثبت له هذا الوصف.

وأيضا، القياس حق ثابت لا يتبدل، وما يقوله هؤلاء يتغير ويتبدل ولا يستمر ، اللهم إلا في الأمور التي قضت سنة الله باشتراك الناس فيها، من الحسابيات، والطبيعيات.

وهذان الفنان ليسا مقصود الدعوة النبوية، ولا معرفتهما شرطًا في السعادة، ولا محصلاً لها، وإنما المقصود الفن الإلهي. ومقدمات القياس فيه هي من القسم الأول ، الذي تختلف فيه أحكام المقدمات ، بالنسب، والإضافة . فتدبر هذا فإنه خالص نافع عظيم القدر.

يوضح هذا الفصل أن القرآن ـ وإن كان كلام الله ـ فإن الله أضافه إلى الرسول، المبلغ له من الملك، والبشر، فأضافه إلى الملك في قوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٥-٢١]، فهذا جبرائيل. فإن هذه صفاته، لا صفات محمد ﷺ.

ثُم قال: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير:٢٢]، أضافه إلينا، امتنانا علينا بأنه صاحبنا، كما قال :﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم:١، ٢]. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٣ ، ٢٤] فهو محمد، أي : بمتهم، وعلى القراءة الأخرى : ببخيل.

وزعم بعض المتفلسفة أنه جبرائيل أيضا،وهو العقل الفاعل الفائض،وهو من تحريف الكلم عن مواضعه ، فإن صفات جبرائيل تقدمت ،وإنما هذا وصف محمد، ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥] لما أثبت أنه قول الملك، نفى أن يكون قول الشيطان. كما قال في الشعراء: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى قوله:﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:١٩٣-٢٢٣].

وأضافه إلى الرسول البشري في قوله:﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الحاقة:٣٨-٤٣] فنفى عنه أن يكون قول شاعر، أو كاهن، وهما من البشر. كما ذكر في آخر الشعراء : أن الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم؛كالكهنة، الذين يلقون إليهم السمع ، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون.

فهذان الصنفان اللذان قد يشتبهان بالرسول من البشر، لما نفاهما علم أن الرسول الكريم هو المصطفى من البشر، فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا، ومن الناس، كما أنه في سورة التكوير لما كان الشيطان قد يشبه بالملك ـ فنفى أن يكون قول شيطان رجيم ـ علم أن الرسول المذكور هو المصطفى من الملائكة.

وفي إضافته إلى هذا الرسول تارة ، وإلى هذا تارة، دليل على أنه إضافة بلاغ وأداء، لا إضافة إحداث لشيء منه أو إنشاء ، كما يقوله بعض المبتدعة الأشعرية، من أن حروفه ابتداء جبرائيل ، أو محمد، مضاهاة منهم في نصف قولهم لمن قال: إنه قول البشر، من مشركي العرب ، ممن يزعم أنه أنشأه بفضله، وقوة نفسه، ومن المتفلسفة الذين يزعمون أن المعاني والحروف تأليفه، لكنها فاضت عليه ، كما يفيض العلم على غيره من العلماء.

فالكاهن مستمد من الشياطين ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] وكلاهما في لفظه وزن. هذا سجع وهذا نظم، وكلاهما له معان من وحي الشياطين. كما قال النبي ﷺ: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفثه، ونفخه»[1]. وقال: «همزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر»[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] : ينفي الأمرين ، كما أنه في السورة الأخرى قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢] وكذلك قال في الشعراء : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] مطلقا.

ثم ذكرعلامة من تنزل عليه الشياطين: بأنه أفاك أثيم، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون. فظاهر القرآن ليس فيه أن الشعراء تتنزل عليهم الشياطين، إلا إذا كان أحدهم كذابا أثيما، فالكذاب: في قوله ، وخبره. والأثيم: في فعله وأمره.

وذاك - والله أعلم - لأن الشعر يكون من الشيطان تارة، ويكون من النفس أخرى. كما أنه إذا كان حقاً يكون من روح القدس، كما قال النبي ﷺ لما دعا لحسان بن ثابت -: «اللهم أيده بروح القدس»[3]. وقال: «اهجهم - أو هاجهم - وجبرائيل معك»[4] فلما نفى قسمَ الشيطانِ نفى قسم النفس، ولهذا قال: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] والغى اتباع الشهوات، التي هي هوى النفوس.

ولهذا قال أبو حيان[5] ما كان من نفسك فأحبته نفسك لنفسك، فهو من نفسك فانهها

(١) أبو داود في الصلاة (٧٧٥) عن أبي سعيد الخدري، والترمذي في الصلاة (٢٤٢) وقال: «حديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب» وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٠٧ ، ٨٠٨).

(٢) أحمد ٤/ ٨٠، وأبو داود في الصلاة (٧٦٤) كلاهما عن جبير بن مطعم.

(٣) البخاري في الصلاة (٤٥٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٥ / ١٥١ ، ١٥٢).

(٤) البخارى فى بدء الخلق (٣٢١٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٦/١٥٣) عن البراء بن عازب.

(٥) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، فيلسوف ، متصوف، معتزلي. قال عنه ابن الجوزي: كان زنديقًا. ولد في شيراز، وأقام ببغداد ، وانتقل إلى الرى ، وتوفى عن نيف وثمانين عاما. [الأعلام ٤/ ٣٢٦].

عنه، وما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك، فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه، فهذا والله أعلم سبب ذلك. وأما التقسيم إلى الكاهن، والشاعر، من جهة المعنى، فهو ـ والله أعلم ـ لأن الكلام نوعان: خبر ، وإنشاء.

والكاهن يخبر بالغيوب، مخلطاً فيه الصدق بالكذب، لا يأتون بالحق محضاً ، وإذا ألقى الشيطان في أمنية أحدهم شيئاً في القلب، لم ينسخ منه بل أكثرهم كاذبون. كما قال تعالى، وكما بينه النبي ﷺ في حديث الكهان لما قال: «إنهم يزيدون في الكلمة مائة كذبة»[1] بخلاف الرسول، والنبي ، والمحدَّث [2] ،كما في قراءة ابن عباس وغيره: «فإن الله ينسخ ما يلقى الشيطان».

والقراءة العامة ليس فيها المحدَّث؛ إذ يجوز أن يقر على بعض الخطأ، ويدخل الشيطان في أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ، بخلاف الرسول والنبي، فإنه لابد من نسخ ما يلقي الشيطان، وأن يحكم الله آياته؛ لأنه حق، والمحدَّث مأمور بأن يعرض ما يحدَّثه على ما جاء به الرسول.

ولهذا ألقى الشيطان لعمر وهو محدَّث، في قصة الحديبية، وقصة موت النبي ﷺ، وقصة اختلافه وحكيم بن حزام في سورة الفرقان، فأزاله عنه نور النبوة.

وأما الشاعر فشأنه التحريك للنفوس ، فهو من باب الأمر الخاص المرغب؛فلهذا قيل فيهم: ﴿ **يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٤]،فضررهم في الأعمال لا في الاعتقادات، وأولئك ضررهم في الاعتقادات ويتبعها الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾[الجاثية: ٧].

ومعنى الكهانة والشعر: موجود في كثير من المتفلسفة، والمتصوفة، والمتكلمة، والمتفقهة، والعامة، والمتفقرة، الخارجين عن الشريعة الذين يتكلمون بالغيوب عن كهانة، ويحركون النفوس بالشعر ونحوه وهم من أتباع المتنبئين الكذابين لهم مادة من الشياطين. كما قد رأيناه كثيراً في أنواع من هذه الطوائف وغيرها، لمن نور الله صدره، وقذف في قلبه من نوره.

---

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢١٠) ومسلم في السلام (٢٢٢٨ / ١٢٢ ، ١٢٣) عن عائشة.

(٢) هو الملهم الذي يلقى في نفسه الشيء فَيُخْبر به حدسًا وفراسة وهو مما يختص الله به عز وجل من يشاء من عباده والذين اصطفى؛ مثل عمر بن الخطاب. انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٥٠.

وقال شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ:

فصـــل

ثم إن المنحرفين المشابهين للصابئة: إما مجردة، وإما منحرفة إلى يهودية أو نصرانية، من أهل المنطق والقياس، الطالبين للعلم والكلام، ومن أهل العمل والوجد، الطالبين للمعرفة، والحال، أهل الحروف، وأهل الأصوات سلكوا في أصل العلم الإلهي طريقين: كل منهم سلك طريقا. وقد يسلك بعضهم هذا في وقت، وهذا في وقت ، وربما جمع بعضهم بين الطريقين .

وأكثرهم لا يعلمون أن الله إليه طريق إلا أحد هذين، كما يذكره جماعات: مثل ابن الخطيب، ومن نحا نحوه، بل مثل أبى حامد، لما حصر الطرق في الكلام، والفلسفة، الذي هو النظر ، والقياس، أو في التصوف والعبادة ، الذي هو العمل والوجد ، ولم يذكر غير هؤلاء الأصناف الثلاثة. بل أبو حامد لما ذكر في المنقذ من الضلال، والمفصح بالأحوال، أحواله في طرق العلم، وأحوال العالم، وذكر أن أول ما عرض له ما يعترض طريقهم- وهو السفسطة بشبهها المعروفة- وذكر أنه أعضل به هذا الداء قريباً من شهرين، هو فيهما على مذهب السفسطة، بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال، حتى شفى الله عنه ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها، على أمن وتبين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكبر المعارف قال: فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة. ثم قال: انحصرت طرق الطالبين عندي في أربع فرق:

المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

والباطنية: وهم يدعون أنهم أصحاب التعلم، والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

والفلاسفة : وهم يدعون أنهم أصحاب المنطق والبرهان.

والصوفية : ويدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المكاشفة، والمشاهدة.

فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل

طريق الحق، فإن سد الحق عنهم فلا يبقي في درك الحق مطمع. ثم ذكر أن مقصود الكلام وفائدته: الذب عن السنة بالجدل، لا تحقيق الحقائق، وأن ما عليه الباطنية باطل، وأن الفلسفة بعضها حق، وبعضها كفر، والحق منها لا يفي بالمقصود.

ثم ذكر أنه أقبل بهمته على طريق الصوفية، وعلم أنها لا تحصل إلا بعلم وعمل، فابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد، حتى طلع على كنه مقاصدهم العلمية.

ثم إنه علم يقينا أنهم أصحاب أحوال، لا أصحاب أقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصله، لم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالتعلم والسماع، بل بالذوق والسلوك.

قال : وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية ، والعقلية إيمان يقيني بالله، وبالنبوة وباليوم الآخر.

وهذه الأصول الثلاثة - من الإيمان - كانت قد رسخت في نفسي بالله لا بدليل معين مجرد، بل بأسباب وقرائن وتجارب ، لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى. وذكر أنه تخلى عشر سنين . إلى أن قال : انكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقينا، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا.

فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من مشكاة نور النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريق طهارتها؟ وهي أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله.

قلت: يستفاد من كلامه أن أساس الطريق: هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كما قررته غير مرة . وهذا أول الإسلام، الذي جعله هو النهاية، وبينت الفرق بين طريق الأنبياء ، وطريق الفلاسفة والمتكلمين، لكن هو لم يعرف طريقة أهل السنة والحديث، من العارفين ، فلهذا لم يذكرها، وهي الطريقة المحمدية المحضة ، الشاهدة على جميع الطرق.

والسهروردى الحلبى ، المقتول ، سلك النظر والتأله جميعا، لكن هذا صابئي محض، فيلسوف لا يأخذ من النبوة إلا ما وافق فلسفته، بخلاف ذينك وأمثالهما.

ثم منهم من لا يعرف إلا طريقة النظر والقياس ابتداء ، كجمهور المتكلمين من الجهمية والمعتزلة، والأشعرية ، وبعض الحنبلية.

ومنهم من لا يعرف ابتداء إلا طريقة الرياضة ، والتجرد والتصوف، ككثير من الصوفية والفقراء الذين وقعوا في الاتحاد ، والتأله المطلق، مثل : عبد الله الفارسي، والعفيف التلمساني ونحوهما . ومنهم من قد يجمع كالصدر القونَوي ونحوه.

والغالب عليهم عالم التوهم. فتارة يتوهمون ما له حقيقة، وتارة يتوهمون ما لا حقيقة له، كتوهم إلهية البشر، وتوهم النصارى ، وتوهم المنتظر، وتوهم الغوث المقيم بمكة أنه بواسطته يدبر أمر السماء والأرض ؛ ولهذا يقول التلمساني: ثبت عندنا بطريق الكشف ما يناقض صريح العقل.

ولهذا أصيب صاحب الخلوة بثلاث توهمات:

أحدها : أن يعتقد في نفسه أنه أكمل الناس استعداداً.

والثاني : أن يتوهم في شيخه أنه أكمل من على وجه الأرض.

والثالث: أنه يتوهم أنه يصل إلى مطلوبه بدون سبب، وأكثر اعتماده على القوة الوهمية، فقد تعمل الأوهام أعمالا لكنها باطلة، كالمشيخة الذين لم يسلكوا الطرق الشرعية النبوية، نظراً أو عملاً، بل سلكوا الصابئية.

ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه: أكثر الأحمدية ، واليونسية ، والحريرية ، وكثير من العدوية ، وأصحاب الأوحد الكرماني ، وخلق كثير من المتصوفة والمتفقرة بأرض المشرق؛ ولهذا تغلب عليهم الإباحة ، فلا يؤمنون بواجبات الشريعة ومحرماتها . وهم إذا تألهوا في تأله مطلقٍ، لا يعرفون من هو إلههم بالمعرفة القلبية، وإن حققه عارفوهم الزنادقة ، جعلوه الوجودَ المطلق.

ومنهم من يتأله الصالحين من البشر، وقبورهم ونحو ذلك.

فتارة يضاهئون المشركين، وتارة يضاهئون النصارى ، وتارة يضاهئون الصابئين، وتارة يضاهئون المعطلة الفرعونية، ونحوهم من الدهرية ، وهم من الصابئين، لكن كفار في الأصل. والخالص منهم يعبد الله وحده، لكن أكثر ما يعبده بغير الشريعة القرآنية

المحمدية، فهم منحرفون ، إما عن شهادة أن لا إله إلا الله، وإما عن شهادة أن محمداً رسول الله، وقد كتبته في غير هذا .

وكل واحد من طريقي النظر والتجرد طريق فيه منفعة عظيمة، وفائدة جسيمة، بل كل منهما واجب لابد منه، ولا تتم السعادة إلا به، والقرآن كله يدعو إلى النظر والاعتبار والتفكر، وإلى التزكية والزهد والعبادة.

وقد ذكر القرآن صلاح القوة النظرية العلمية، والقوة الإرادية العملية في غير موضع، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]، فالهدى كمال العلم، ودين الحق كمال العمل، كقوله: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[التين: ٦]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ [فاطر: ١٠]، وفي خطبة النبي ﷺ: «إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدى محمد»[1] ، لكن النظر النافع أن يكون في دليل، فإن النظر في غير دليل لا يفيد العلم بالمدلول عليه، والدليل هو الموصل إلى المطلوب، والمرشد إلى المقصود ، والدليل التام هو الرسالة ، والصنائع.

وكذلك العبادة التامة فعل ما أمر به العبد وما جاءت به الرسل، وقد وقع الخطأ في الطريقين، من حيث : أخذ كل منهما أو مجموعهما ، مجرداً في الابتداء عن الإيمان بالله، وبرسول. . .[2] .

بل اقتصر فيهما على مجرد ما يحصله نظر القلب، وذوقه الموافق لما جاءت به الرسل تارة، والمخالف لما جاءت به أخرى، في مجرد النظر العقلي ، ومجرد العبادات العقلية، أو الصعود عن ذلك إلى النظر الملي، والعبادات الملية، والواجب أنه لابد في كل واحد من النظر والعمل، من أن يوجد فيه العقلي ، والملي ، والشرعي ، فلما قصروا وقع كل من الفريقين، إما في الضلال، وإما في الغواية ، وإما فيهما.

وحاصلهم : إما الجهل البسيط، أو الكفر البسيط، أو الجهل المركب، أو الكفر المركب، مع الجهل والظلم.

وذلك أن طريقة أهل النظر والقياس : مدارها على مقدمة لابد منها في كل قياس

---

(١) البخاري في الأدب (٦٠٩٨) ، ومسلم في الجمعة (٨٦٧/٤٣) ، وابن ماجه في المقدمة (٤٥) عن عبد الله ابن مسعود.

(٢) بياض في الأصل بقدر سطر.

يسلكه الآدميون، وهي مقدمة كلية جامعة، تتناول المطلوب، وتتناول غيره، بمعنى أنها لا تمنع غيره من الدخول ، وإن لم يكن له وجود في الخارج، فهي لا تتناول المطلوب لخاصيته، بل بالقدر المشترك بينه وبين غيره، والمطلوب بها هو الله ـ تعالى ـ فلم يصلوا إليه إلا بجامع ما يشترك فيه هو وغيره، من القضايا الإيجابية، والسلبية.

والمشترك بينه وبين غيره لا يعرف بخصوصه أصلا، فلم يعرفوا الله، بل لما اعتقدوا فيه القدر المشترك صاروا مشركين به، وحكموا على القدر المشترك بأحكام سلبية ، أو إيجابية، فإنها تصح في الجملة ؛ لأن ما انتفى عن المعنى العام المشترك انتفى عن الخاص المميز، وليس ما انتفى عن الخاص المميز انتفى عن العام، فما نفيته عن الحيوان أو عن النبي، انتفى عن الإنسان والرسول. وليس ما نفيته عن الإنسان أو الرسول انتفى عن الحيوان أو النبي.

ولهذا كان قوله : « لا نبي بعدي »[1] ينفي الرسول، وكذلك ما ثبت للمعنى المشترك بصفة العموم ثبت للخاص، وما ثبت له بصفة الإطلاق لم يجب أن يثبت للخاص، فإذا ثبت حكم لكل نبي دخل فيه الرسول . وأما إذا ثبت للنبي مطلقًا لم يجب أن يثبت للرسول ، وقد تتألف من مجموع القضايا السلبية والإيجابية أمور لا تصدق إلا عليه، ولا يصح أن يوصف بها غيره، كما إذا وصف نبي بمجموع صفات، لا توجد في غيره.

لكن هذا القدر يعرف انتفاء غيره أن يكون إياه، وأما عينه فلا يعرف بمجموع تلك القضايا الكلية ، فلا يحصل للعقل من القياس في الرب إلا العلم بالسلب، والعدم ، إذا كان القياس صحيحا.

ولهذا جاءت الأمثال المضروبة في القرآن ـ وهي المقاييس العقلية ـ دالة على النفي في مثل قوله : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الآية [الروم:٢٨]، ومثل قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾الآيات [النحل:٧٦]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الحج:٧٣]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ الآية [الإسراء:٤٢]، وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، وأمثال ذلك من الأمثال ـ وهي القياسات ـ التي مضمونها نفي الملزوم لانتفاء لازمه، أو نحو ذلك.

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٤٥٥) عن أبي هريرة.

ولهذا كان الغالب على أهل القياس، من أهل الفلسفة، و الكلام، في جانب الربوبية إنما هي المعارف السلبية. ثم لم يقتصروا على مقدار ما يعلمه العقل من القياس ، بل تعدوا ذلك ، فنفوا أشياء مشبهة القياس الفاسد، مثل نفي الصفات النبوية، الخبرية، بل ونفى الفلاسفة والمعتزلة للصفات التي يثبتها متكلمو أهل الإثبات، ويسمونها الصفات العقلية؛ لإثباتهم إياها بالقياس العقلي .

ومعلوم أن العقل لا ينفي بالقياس إلا القدر المشترك ، الذي هو مدلول القضية الكلية التي لابد منها في القياس ، مثل أن ينفي الإرادة أو الرحمة أو العلم المشترك بين مسميات هذا الاسم، والقدر المشترك في المخلوقين تلحقه صفات لا تثبت لله تعالى، فينفون المعنى المشترك المطلق، على صفات الحق وصفات الخلق ـ تبعاً لانتفاء ما يختص به الخلق ـ فيعطلون ، كما أن أهل التمثيل يثبتون ما يختص به الخلق ـ تبعاً للقدر المشترك ـ وكلاهما قياس خطأ.

ففي هذه الصفات ، بل وفي الذوات ثلاث اعتبارات:

أحدها: ما تختص به ذات الرب وصفاته.

والثاني : ما يختص به المخلوق وصفاته.

والثالث: المعنى المطلق الجامع .

فاستعمال القياس الجامع في نفي الأول خطأ ، وكذلك استعماله في إثبات الثاني. وأما استعماله في إثبات الثالث، فيحتاج إلى إدراك العقل لثبوت المعنى الجامع الكلي، وهذا أصل القياس والدليل ، فإن لم يعرف العقل بنفسه - أو بواسطة قياس آخر- ثبوت هذا ، وإلا لم يستقم القياس.

وكذلك في معارفهم الثبوتية لا يأتون إلا بمعانٍ مطلقة مجملة. مثل ثبوت الوجود ، ووجوب الوجود، أو كونه رباً أو صانعاً أوَّلاً ، أو مبدأ أو قديما، ونحو ذلك من المعاني الكلية ، التي لا يعلم بها خصوص الرب تعالى، إذ القياس لا يدل على الخصوص. فإنه إذا استدل بأن كل ممكن فلابد له من موجب وبأن كل محدَث فلابد له من محدِث، كان مدلول هذا القياس أمراً عاماً ، وقد بسطت هذا في غير هذا الموضع.

وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد، فإن صفوتهم الذين يشتغلون بذكر بسيط مثل لا إله إلا الله إن لم يغلوا فيقتصروا على مجرد «الله ، الله» ويعتقدون أن ذلك أفضل وأكمل، كما فعله كثير منهم ، وربما اقتصر بعضهم على «هُوْ ، هُوْ» أو على قوله: «لا هو

إلا هو»؛ لأن هذا الذكر المبتدع الذي هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقاً ، ليس فيه بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم.

فقد ينضم إلى ذلك اعتقاد صاحبه أنه لا وجود إلا هو، كما يصرح به بعضهم ويقول: لا هو إلا هو ، أو لا موجود إلا هو، وهذا عند الاتحادية أجود من قول: «لاإله إلا الله»؛ لأنه مصرح بحقيقة مذهبهم الفرعوني القرمطي، حتى يقول بعضهم: «لا إله إلا الله» ذكر العابدين، و«الله، الله» ذكر العارفين، و « هو » ذكر المحققين، ويجعل ذكره «يا من لا هو إلا هو»، وإذا قال: « الله ، الله» إنما يفيد مجرد ثبوته، فقد ينضم إلى ذلك نفي غيره لا نفي إلهية غيره، فيقع صاحبه في وحدة الوجود وربما انتفى شهود القلب للسوي إذا كان في مقام الفناء فهذا قريب، أما اعتقاد أن وجود الكائنات هي هو، فهذا هو الضلال.

ويضمون إلى ذلك نوعا من التصفية، مثل ترك الشهوات البدنية من الطعام والشراب والرياسة والخلوة ، وغير ذلك من أنواع الزهادة المطلقة، والعبادة المطلقة، فيصلون أيضا إلى تأله مطلق، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده ونحو ذلك ، من نحو ما يصل إليه أرباب القياس.

ثم قد تتوارى هذه المعرفة والعلم بملابسة الأمور الطبيعية، من الطعام، والاجتماع بالناس ، فإن سببها إنما هو ذلك التجرد، فإذا زال زال، ولهذا قيل :كل حال أعطاكه الجوع فإنه يذهب بالشبع، كما قد تتوارى معرفة الأولى المطلقة بغفلة القلب عن تلك المقاييس النظرية ، ولا ريب أن القياس يفضي إلى معرفة بحسب مقتضاه، وأن الرياضة والتأله يفضى إلى معرفة بحسب مقتضاه، لكن معرفة مطلقة بسبب قد يثبت وقد يزول ، وكثيراً ما يفضى إلى الاتحاد والحلول والإباحة، وذلك لأنهم يجردون التأله عما لابد منه من صالح البشر، فإذا احتاجوا إليها أعرضوا عن التأله .

فهم إما آلهة عند نفوسهم، وإما زنادقة أو فساق، ولهذا حدثني الشيخ الصالح يوسف من أصحابنا أنه رآني في المنام وأنا أخاطبهم[1].

والمعرفة الحاصلة بذلك هي المعرفة التي تصلح حال العبد وتجب عليه، لكن قد يحصل مع صدق الطلب ـ بواسطة القياس ، أو بواسطة الوجد ـ وصول إلى الرسالة فيتلقى حينئذ من الرسالة ما يصلح حاله، ويعرفه المعرفة التامة والعلم النافع الواجب عليه ـ وهي الطريق الشرعية النبوية التي ذكرناها أولا ـ وقد لا يحصل ذلك فيقع كثير منهم في

(١) سقط من الأصل نحو سطرين.

الاستغناء عن النبوة، اعتقادا أو حالا بالإعراض عما جاءت به ، فيفوته من الإيمان والعلم والمعرفة ـ التي جاء بها الرسول ـ ما يضل بفواته في الدنيا عن الهدى، ويشقى به الشقاء الأكبر، كحال الكافرين بالرسول وإن آمنوا بوجود الرب، من اليهود والنصارى والصابئين، فإن في المسلمين من ينافق في الرسول، كما كفر هؤلاء به ظاهراً، وهذا النفاق كثير جداً، قديما وحديثا.

وقد تنعقد في قلبه مقاييس فاسدة ، ومواجيد فاسدة، يحكم بمقتضاها في الربوبية أحكاماً فاسدة مثل : أحكام المنحرفة إلى صابئية، أو يهودية أو نصرانية، من الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة، الذين انحرفوا إما إلى تعطيل للصفات وتكذيب بها، وإما إلى تمثيل لها وتشبيه، وإما إلى اعتقاد أن الرب هو الوجود المطلق الذي لا يتميز، وأن عين الوجود هو عين الخالق، وأنه ليس وراء السموات والأرض شيء آخر، وإنما هذه الأشياء كلها مراتب للصفات، وأن الربوبية والإلهية مراتب ذهنية شكوكية . وأما في الحقيقة : فليس إلا عين ذاته ، فالمحجوبون يرون المراتب والمكاشف ما ترى إلا عين الحق .

ويحسبون ـ ويحسب كثير بسببهم ـ أن هذا التوحيد هو توحيد الصديقين، الذين عرفوا الله ، وقالوا:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

كما يحسب المتكلم الزائغ أن توحيده – الذي هو نفي الصفات – هو توحيد الأنبياء، والصديقين ، الذين عرفوا الله ؛ ولهذا يقع في هؤلاء الشركُ كثيرا، حتى يسجد بعضهم لبعض ، كما يقع في القسم الآخر تحريم الحلال من العقود ، والعبادات المباحة.

فاقتسم الفريقان: ما ذم الله به المشركين ، من الشرك ، وتحريم الحلال. . . [1] وهكذا يوجد كثيراً في هؤلاء المشبهة للنصارى. وظهر في الآخرين من الآصار ، والأغلال ، وجحود الحق، وقسوة القلوب ما يوجد كثيرا في هؤلاء المشبهة لليهود.

هذا في غير الغالية منهم ، وأما الغالية من الصنفين، فعندهم أن معرفتهم وحالهم فوق معرفة الأنبياء وحالهم. كما يقول التلمساني: القرآن يوصل إلى الجنة، وكلامنا يوصل إلى الله.

وكما يزعم الفارابي : أن الفيلسوف أكمل من النبي، وإنما خاصة النبي جودة التخييل

(١) سقط سطر من الأصل.

للحقائق، إلي أنواع من الزندقة والكفر، يلتحقون فيها بالإسماعيلية، والنصيرية، والقرامطة، والباطنية، ويتبعون فرعون، والنمرود وأمثالهما من الكافرين بالنبوات، أو النبوة والربوبية.

وهذا كثير جداً في هؤلاء وهؤلاء، وسبب ذلك عدم أصل في قلوبهم، وهو الإيمان بالله، والرسول . فإن هذا الأصل إن لم يصحب الناظر ، والمريد، والطالب، في كل مقام، وإلا خسر خسرانا مبينا، وحاجته إليه كحاجة البدن إلى الغذاء، أو الحياة إلى الروح.

فالإنسان بدون الحياة والغذاء لا يتقوم أبداً ، ولا يمكنه أن يَعلم، ولا أن يُعلم.

كذلك الإنسان بدون الإيمان بالله ورسوله لا يمكنه أن ينال معرفة الله، ولا الهداية إليه، وبدون اهتدائه إلى ربه لا يكون إلا شقيا معذباً، وهو حال الكافرين بالله ورسوله، ومع الإيمان بالله ورسوله إذا نظر، واستدل، كان نظره في دليل وبرهان - وهو ثبوت الربوبية ، والنبوة - وإذا تجرد وتصفى، كان معه من الإيمان ما يذوقه بذلك ويجده.

ثم هذا النظر ، وهذا الذوق يجتلب له ما وراء ذلك من أنواع المعالم الربانية، والمواجيد الإلهية. والعلم والوجد متلازمان.

وذلك ، أن الأنبياء والمرسلين عرفوا الله بالوحي المعرفة التي هي معرفة ، وعبدوه العبادة التي هي حق له بحسب ما منحهم الله تعالى.

وهم درجات في ذلك ، لكن عرفوا من خصوص الربوبية ما لا يقوم به مجرد القياس النظري، ولا يناله مجرد الذوق الإرادي ، ثم أخبروا عن ذلك.

ولابد في الوصف والإخبار من أن يذكر المسمى الموصوف بالأسماء والأوصاف المتواطئة التي فيها اشتراك وتمييز عن المخلوقات بما يقطع الشركة؛ لأن القصد بالإخبار، والوصف ، تعريف المخاطبين، والمخاطبون لا يعرفون الخصوصيات ، التي هي خصوص ذات الله، و صفاته.

فلو أخبروا بذلك وحده مجرداً لم يعرفوا شيئا، بل ربما أنكروا ذلك . فإذا خوطبوا بالمعاني المشتركة، وأزيل مفسدة الاشتراك بما يقطع التماثل، كقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ونحو ذلك، كانوا أحد رجلين:

إما رجل مؤمن، آمن بمعاني تلك الصفات على الوجه المطلق الجملي وأثبتها لله على وجه يليق به ، ويختص به ، لا يشركه فيه مخلوق ، فهذا غاية الممكن في حال هؤلاء.

وإما رجل قذف اللّه في قلبه من نوره وهدايته الخاصة ما أشهده شيئا من الخصوصيات، التي هي أعيان تلك الأسماء والصفات، فيعلم ذلك لا بمجرد القياس، ولا بمجرد الوجد بل بشهود علمي مطابق لما أخبرت به الرسل، وتدله على صحة شهوده موافقته لما أنبأت به الرسل ، ويحصل له نصيب من النبوة ، فإن النبوة انقطعت بكمالها، وأما وجود بعض أجزائها فلم ينقطع. ولابد أن يكون في بعض الأمور محجوبا عن أن يشهد ما شهده النبي، فيصدقه فيه ، لشهوده بعض ما أخبر به النبي، ويبقى ما شهده محققا عنده لثبوت ما لم يشهده، وهذه حال الصديقين مع الأنبياء.

وذلك نظير من وصف له ملك مدينة ، بأنواع من الصفات ، فقدم حتى رأى بعض شؤونه التي دلته على صدق المخبر فيما لم يشهد. ولست أجعل مجرد.هذه الشهادة مصدقة، فإن المخبر قد يصدق في بعض، ويخطئ في بعض ،وإنما ذلك بواسطة إخبار المخبر – أي رسول الله – وشهوده منه ما يوجب له امتناع الكذب عليه، كما يذكر في غير هذا الموضع.

فإن قلت : فمن أين له ابتداء صحة الإيمان بالله ورسوله، حتى يصير ذلك أصلا يبنى عليه، وينتقل معه إلى ما بعده؟ فأهل القياس والوجد إنما تعبوا التعب الطويل ـ في تقرير هذا الأصل ـ في نفوسهم ، ولهذا يسمي المتكلمون كل ما يقرر الربوبية والنبوة: العقليات والنظريات، ويسميها أولئك: الذوقيات، والوجديات، ورأوا أن ما لا يتم معرفة الله ورسوله إلا به فمعرفته متقدمة على ذلك، وإلا لزم الدور. فسموا تلك عقليات، والعقليات لا تنال إلا بالقياس العقلي المنطقي.

قلت: جواب هذا من وجوه :

أحدها: المعارضة بالمثل ، فإن سالك سبيل النظر القياسي ، أو الإرادة الذوقية، من أين له ابتداء أن سلوك هذا الطريق يحصل له علما ، ومعرفة ، ليس معه ابتداء إلا مجرد إخبار مخبر بأنه سلك هذا الطريق فوصل ، أو خاطر يقع في قلبه سلوك هذا الطريق، إما مجوزا للوصول أو متحريا أو غير ذلك ، أو سلوكا ابتداء بلا انتهاء، وليس ذلك مختصا بالعلم الإلهي ، بل كل العلوم لابد للسالك فيها ابتداء من مصادرات يأخذها مسلمة إلى أن تتبرهن فيما بعد .

إذا لو كان كل طالب العلم حين يطلبه قد نال ذلك العلم، لم يكن طالبا له ،

والطريق التي يسلكها قد يعلم أنها تفضي به إلى العلم.

لكن الكلام في أول الأوائل ، ودليل الأدلة، وأصل الأصول . فإنه لو كان حين ينظر فيه يعلم أنه دليل مفض لم يمكن ذلك حتى يعلم ارتباطه بالمدلول، فإن الدليل إن لم يستلزم المدلول لم يكن دليلاً.

والعلم بالاستلزام موقوف على العلم بالملزوم واللازم، فلا يعلم أنه دليل على المدلول المعين، حتى يعلم ثبوت المدلول المعين، ويعلم أنه ملزوم له ، وإذا علم ذلك استغنى عن الاستدلال به على ثبوته، وإنما يفيده التذكير به، لا ابتداء العلم به ، وإنما يقع الاشتباه هنا؛ لأنه كثيراً ما يعرف الإنسان ثبوت شيء، ثم يطلب الطريق إلى معرفة صفاته، ومشاهدة ذاته، إما بالحس ، وإما بالقلب، فيسلك طريقا يعلم أنها موصلة إلى ذلك المطلوب؛ لأنه قد علم أن تلك الطريق مستلزم لذلك المطلوب الذي علم ثبوته قبل ذلك.

كمن طلب أن يحج إلى الكعبة، التي قد علم وجودها ، فيسلك الطريق التي يعلم أنها تفضي إلى الكعبة، لإخبار الناس له بذلك، أو يستدل بمن يعلم أنه عارف بتلك الطريق ، فسلوكه للطريق بنفسه بعد علمه أنها طريق ـ المقصود ـ بإخبار الواصلين، أو سلوكه بدليل خريت[1] ـ يهديه في كل منزلة ـ لا يكون إلا بعد العلم بثبوت المطلوب ، وثبوت أن هذا طريق ودليل .

وهكذا حال الطالبين لمعرفة الله، والمريدين له ، والسائرين إليه، قد عرفوا وجوده أولا وهم يطلبون معرفة صفاته، أو مشاهدة قلوبهم له في الدنيا. فيسلكون الطريق الموصلة إلى ذلك بالإيمان والقرآن.

فالإيمان : نظير سلوك الرجل الطريق التي وصفها له السالكون، فإنهم متفقون على ذلك .

والقرآن : تصديق الرسل فيما تخبر به، وهو نظير اتباع الدليل منزلة منزلة، ولابد في طريق الله منهما.

وأما الشيء الذي لم يعلم العقل ثبوته أولا، إذا سلك طريقا يفضى إلى العلم به ـ فلا يسلكها ابتداء إلا بطريق التقليد والمصادرة ـ كسائر مبادئ العلوم ـ فإذا كان لابد في الطريقة القياسية، والعملية، من تقليد في الأول ـ في سلوكه فيما لم يعلم أنه طريق ،

(١) أي: حاذق وماهر. انظر: القاموس المحيط، مادة «خرت».

وأنه مفض إلى المطلوب ـ أو أن المطلوب موجود ، فالطريقة الإيمانية ـ إذا فرض أنها كذلك ـ لم يقدح ذلك فيها، بل تكون هي أحق، لوجوه كثيرة.

ونذكر بعضها إن شاء الله.

بل لا طريق إلا هي أو ما يفضي إليها، أو يقترن بها فهي شرط قطعاً في درك المطلوب، وما سواها ليس بشرط ، بل يحصل المطلوب دونه وقد يضر بحصول المطلوب فلا يحصل ، أو يحصل نقيضه وهو الشقاء الأعظم على التقديرين، فتلك الطريق مفضية قطعاً ولا فساد فيها، وما سواها يعتريه الفساد كثيراً ، وهو لا يوصل وحده ، بل لابد من الطريقة الإيمانية.

الوجه الثاني في الجواب: أن الطريقة القياسية ، والرياضية ، إذا سلكها الرجل وأفضت به إلى المعرفة – إن أفضت – علم حينئذ أنه سلك طريقا صحيحا وأن مطلوبه قد حصل ، وأما قبل ذلك فهو لا يعرف ، فأدنى أحوال الإيمانية – ولا دناءة فيها – أن تكون كذلك . فإنه إذا أخذ الإيمان بالله ورسله مسلما، ونظر في موجبه،وعمل بمقتضاه ، حصل له بأدنى سعي مطلوبه من معرفة الله، وأن الطريق التي سلكها صحيحة، فإن نفس تصديق الرسول فيما أخبر به عن ربه وطاعته ، يقرر عنده علماً يقينياً بصحة ذلك أبلغ بكثير مما ذكر أولا.

الوجه الثالث: أن الإقرار بالله قسمان: فطرى، وإيماني. فالفطري: ـ وهو الاعتراف بوجود الصانع – ثابت في الفطرة . كما قرره الله في كتابه في مواضع وقد بسطت القول فيه في غير هذا الموضع. فلا يحتاج هذا إلى دليل ، بل هو أرسخ المعارف، وأثبت العلوم، وأصل الأصول.

وأما الإقرار بالرسول ، فبأدنى نظر فيما جاء به، أو في حاله ، أو في آياته، أو نحو ذلك من شؤونه يحصل العلم بالنبوة، أقوى بكثير مما يحصل المطالب القياسية ، والوجدية، في الأمور الإلهية. ثم إذا قوي النظر في أحواله حصل من اليقين الضروري الذي لا يمكن دفعه ما يكون أصلا راسخا. وبسط هذا مذكور في غير هذا الموضع؛ إذ المقصود هنا بيان خطأ من سلك طريق القياس، أو الرياضة، دون الإيمان ابتداء . وأما تقرير طريقة الإيمان فشأنه عظيم ، أعظم مما كتبته هنا .

الوجه الرابع : أنا نخاطب المسلمين المتسمين بالإيمان، الذين غرض أحدهم معرفة الله الخاصة، التي يمتاز بها العلماء والعارفون عن العامة، فيسلك بعضهم طريقة أهل القياس المبتدع، والفلاسفة والمتكلمين، وبعضهم طريقة أهل الرياضة والإرادة المبتدعة، من

المتفلسفة والمتصوفة، معرضا عما جاء به الرسول في تفاصيل هذه الأمور، فإن هؤلاء إذا كانوا عالمين بصدق الرسول - المبلغ عن ربه، الهادي إليه، الداعي إليه، الذي أكمل له الدين، وأنزل عليه الكتاب تبياناً لكل شيء - كيف يدعون الاستدلال بما جاء به، والاقتداء به، إلى ما ذكر من الطريقين؟

الوجه الخامس: أن أكثر من سلك الطريقين المنحرفين، لم يعتقد أن هناك طريقا ثالثا- كما يذكره رجال من فضلاء العالم الغالطين في القواعد الكبار - فهم ينتقلون من مادة فلسفية صابئية، إلى مادة إرادية نصرانية، إلى مادة كلامية يهودية.

وأهل فلسفتهم يوما مع ذوي إرادتهم ، ويوما مع ذوى كلامهم، وهم متهوكون في هذه المجارات.

والطريقة الإيمانية النبوية المحمدية ، الدينية السنية الأثرية، لا يهتدون إليها، ولا يعرفونها ولا يظنون أنها طريقة إلى مطلوبهم، ولا تفضى إلى مقصودهم، وذلك لعدم وجود من يسلكها في اعتقادهم، أو كبتوا نفوسهم عنها ظلما، فلضلالهم عنها أو غوايتهم وجهلهم بها، أو ظلمهم أنفسهم، أعرضوا عنها.

فإن قلت : فالقرآن يأمر بالنظر في الآيات.

قلت : النظر لا ريب في صحته في الجملة ، وأنه إذا كان في دليل أفضى إلى العلم بالمدلول، وإذا كان في آيات الله أفضى إلى الإيمان به ، الذي هو رأس العبادة ، كما أن العبادة والإرادة لا ريب في صحتها في الجملة ، وأنها إذا كانت على منهاج الأنبياء أفضت إلى رضوان الله، لكن عليك أن تفرق بين الآيات وبين القياس ، كما قد بيناه في غير هذا الموضع.

فإن الآية هي العلامة . وهي ما تستلزم بنفسها لما هي آية عليه، من غير توسط حد أوسط ، ينتظم به قياس مشتمل على مقدمة كلية، كالشعاع فإنه آية الشمس ، وكذلك النبات للمطر في الأرض القفر، والدخان للنار ، وإن لم ينعقد في النفس قياس ، بل العقل يعلم تلازمهما بنفسه، فيعلم من ثبوت الآية ثبوت لازمها ، والعلم بالتلازم قد يكون فطريا، وقد لا يكون .

الوجه السادس: أن تينك الطريقين ليستا باطلا محضا، بل يفضى كل منهما إلى حق ما ، لكن ليس هو الحق الواجب ، وكثيراً ما يقترن معه الباطل فلا يحصل بكل منهما بمجرده أداء الواجب ولا اجتناب المحرم، و لا تحصلان المقصود الذي فيه سعادة العبد من نجاته ونعيمه، بعد مبعث الرسول.

أما الطريقة النظرية القياسية ، فإنه لابد فيها من الاستدلال بالممكن على الواجب ، أو المحدَث على المحدِث، أو بالحركة على المحرِّك، وذلك يعطي فاعلا عظيما من حيث الجملة.

وكذلك الطريقة الرياضية الذوقية تعطي انقياد القلب وخضوعه إلى الصانع المطلق، وكل منهما لابد فيها من علم اضطراري يضطر القلب إليه؛ إذ القلب لا يحصل له علم إلا من جنس الاضطراري ابتداء بتوسط الضروري ، فإن النظر يبنى على مقدمات تنتهي إلى ما هو من جنس الضروري، إما بتوسط الحس أو مجرداً عن الحس.

فالطريق القياسية تفيد العلم بتوسط مقدمات ضرورية ، مثل أن يقال : الوجود المعلوم إما ممكن، وإما واجب ، والممكن لا يوجد إلا بواجب . فثبت وجود الواجب على التقديرين.

ومثل أن يقال : العالم محدَث أو كثير منه محدث . والثاني ضروري ، والأول يستدل عليه . ثم يقال : وكل محدَث فله محدِث.

أو يقال : لا شك أن ثم وجودًا، وهو إما قديم ، وإما محدَث، والمحدث لابد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين.

كما يقال: لا ريب أن ثم وجودًا، وهو إما واجب وإما ممكن، والممكن لابد له من واجب فثبت وجود الواجب على التقديرين.

وقد يقال أيضا: لا ريب أن ثم وجودا ، وهو إما مصنوع ، أو غير مصنوع، أو مخلوق أو غير مخلوق، أو مفطور أو غير مفطور، والمصنوع أو المخلوق أو المفطور، لابد له من صانع وخالق وفاطر، فثبت وجود ما ليس بمصنوع ولا مفطور ولا مخلوق على التقديرين.

فهذه الوجوه وما يشبهها تدل على وجود واجب قديم ليس بمصنوع، لكن الشأن في تعيينه، فإن عامة الدهرية يقولون: هذا هو العالم أو شيء قائم به . ثم إن افتقار الممكن إلى الواجب ، والمحدث إلى القديم ، والمصنوع إلى الصانع، مقدمة ضرورية ؛ وإن كان طائفة من النظار يستدلون على هذه المقدمة، وعلى أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح، والجمهور على الاكتفاء بالضرورة فيهما.

والطريق العبادية تفيد العلم بتوسط الرياضة وصفاء النفس، فإنه حينئذ يحصل للقلب علم ضروري،كما قال الشيخ إسماعيل الكوراني لعز الدين بن عبد السلام لما جاء إليه يطلب علم المعرفة ـ وقد سلك الطريقة الكلامية ـ فقال: أنتم تقولون: إن الله يعرف

بالدليل، ونحن نقول : عرَّفنا نفسه فعرفناه. وكما قال نجم الدين الكبرى لابن الخطيب، ورفيقه المعتزلي وقد سألاه عن علم اليقين ، فقال: هو واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها. فأجابهما : بأن علم اليقين عندنا هو موجود بالضرورة لا بالنظر ، وهو جواب حسن.

فإن العلم الضروري هو الذي يلزم نفس العبد لزوماً لا يمكنه الانفكاك عنه. فالقائس إن لم يحصل له العلم الضروري ابتداء، وإلا فلابد أن يبني نظره وقياسه على مقدمات ضرورية، ثم حينئذ يحصل له العلم.

ولهذا قال طائفة منهم ـ أبو المعالي الجويني[1] ـ: إن جميع العلوم ضرورية باعتباراتها بعد وجود النظر الصحيح في الدليل تحصل العلم ضرورة، لكن منها ما هو ضروري عند تصور طرفي القضية ، ومنها ما هو ضروري بعد تأمل ونظر، ومنها ما هو ضروري بعد النظر في دليل ذي مقدمتين، أو مقدمات.

فقال الشيخ العارف : نحن نجد العلم وجدا ضرورياً بالطريق التي نسلكها من تزكية النفس، وإصلاح القلب الذي هو حامل العلم وداعيه فكل منهما يفيض الله العلم على قلبه، وينزله على فؤاده، ولكن أحدهما بتحصيل العلم المقارن للعلم المطلوب،الذي هو المقدمات، والآخر بإصلاح طالب العلم الذي يريد أن يكون عالماً ـ وهو القلب ـ بمنزلة من يخطب امرأة ، فتارة تجمَّل لها وتَعَرَّض حتى رأته فرغبت فيه وخطبته، وتارة بأن أرسل إليها من تأنس إليه وتطيعه، فخطبها له فأجابت ، فكان سعي الأول وعمله في إصلاح نفسه وتعرضه لها حتى ترغب، وكان سعي الثاني في تحصيل الرسول المطاع حتى تجيب . وبمنزلة من يصيد صيداً.

لكن مجرد النظر والعمل مجتمعين ومنفردين، لا يحصلان إلا أمراً مجملاً، كما هو الواقع، وذلك صحيح . فإن ثبوت الأمر المجمل حق، فإن ضما إلى ذلك ما يعلم بنور الرسالة من الأمر المفصل حصل الإيمان النافع، وزال ما يخاف من سوء عاقبة ذينك الطريقين.

وهذه حال من تحيز من أهل النظر الكلامي، والعمل العبادي إلى إتباع الرسول والإيمان به ، فقبل منه وأخذ عنه.

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، يلقب بإمام الحرمين. ولد بنيسابور سنة ٤١٩هـ، رحل إلى بغداد ثم مكة، فأفتى ودرَّس ثم عاد إلى نيسابور ، وتوفي بها سنة ٤٧٩هـ. [شذرات الذهب ٣/ ٣٥٨، الأعلام ٤/ ١٦٠].

وإن لم يضم أحدهما إلى ذلك ما جاء به الرسول، فإما أن يضم ضده، أو لا يضم شيئاً، فإن ضم إلى ذلك ضد ما جاء به الرسول وقع في التكذيب، وهو الكفر المركب، وإن لم يضم إليه شيء بقي في الكفر البسيط ، سواء كان في ريب ، أو في إعراض وغفلة.

فإن حال الكافر لا تخلو من أن يتصور الرسالة أولا، فإن لم يتصورها فهو في غفلة عنها، وعدم إيمان بها، كما قال: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٦]، لكن الغفلة المحضة لا تكون إلا لمن لم تبلغه الرسالة، والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة.

فلهذا قرن التكذيب بالغفلة وإن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه:١٢٣، ١٢٤]، وكما قال: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١] ،وكما قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة:١٧٠].

وإن كان مع ذلك لا حظ له، لا مصدق ولا مكذب، ولا محب ولا مبغض، فهو في ريب منه، كما أخبر بذلك عن حال كثير من الكفار، منافق وغيره، كما قال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥]، وكما قال موسى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ٩-١١].

فأخبر ـ سبحانه ـ عن مناظرة الكفار للرسل في الربوبية أولا، فإنهم في شك من الله الذي يدعونهم إليه، وفي النبوة ثانيا بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[إبراهيم:١٠]، وهذا بحث كفار الفلاسفة بعينه، وإن كان مكذباً له فهو التكذيب، والتكذيب أخص من الكفر، فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر. وليس كل كافر مكذباً، بل قد يكون

مرتابا، إن كان ناظراً فيه أو معرضاً عنه بعد أن لم يكن ناظرا فيه، وقد يكون غافلا عنه لم يتصوره بحال، لكن عقوبة هذا موقوفة على تبليغ المرسل إليه.

وكل واحد من الأمرين في أن يضم إلى المعرفة المجملة، إما تكذيب، وإما كفر بلا تكذيب واقع كثيراً في سالكي الطريقين، النظر في القياس المجرد، والعمل بالعبادة المجردة.

مثال ذلك : أن كثيراً من النظار أثبت واجب الوجود، أو صانع العالم، وذهبوا في تعيينه وصفاته مذاهب يضيق هذا الموضع عن تفصيلها ـ معروفة في كتب المقالات، من أهل ملتنا، وغير أهل ملتنا ـ مقالات الإسلاميين المصلين، ومقالات غيرهم . وكثير من العباد المتأخرين أثبت أيضا ذلك إثباتا مجملا، وتوهموا فيه أنواعا من التوهمات الكفرية، الذي يصفها عارفوهم.

فمنهم من توهمه الوجود المطلق، المشترك بين الموجودات، كالإنسان المطلق مع أعيانه وأفراده، فإذا تعين الوجود لم يكن إياه؛ إذ المطلق ليس هو المعين، كما يقوله الصدر القونوي.

ومنهم من توهم أن وجود الممكنات هو عين وجوده الفائض عليها. كما يذكره صاحب الفصوص.

ومنهم يتوهمه جملة الوجود ، وكل معين فهو جزء منه، كالبحر مع أمواجه، وأعضاء الإنسان مع الإنسان. فليس هو ما يختص بكل معين، لكنه مجموع الكائنات، كالعفيف التلمساني، وعبد الله الفارسي البلياني، ويقولون : إن كل موجود فهو مرتبة من مراتب الوجود ، أو مظهر من مظاهره، بمنزلة أمواج البحر معه، وأعضاء الإنسان معه، وأجزاء الهوى مع الهواء، أو بمنزلة هذا الإنسان وهذا الحيوان مع الحيوان المطلق والإنسان المطلق.

ويقول شاعرهم ابن إسرائيل :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه ويفهم هذا السر من هو ذائــق

وقال :

وتلتذ إن مرت على جسدي يـدي لأني في التحقيق لست سواكم

ولهذا ليس عندهم للإنسان غاية وراء نفسه، وإنما غايته أن ينكشف الغطاء عن نفسه، فيري أن نفسه هي الحق ، وكان قبل ذلك محجوبا عنها ، فلما شاهد الحقيقة رأى أنه هو كما قال ابن إسرائيل:

ما بال عيسك لا يقر قرارها إلا في ظلك لا تني منتقلا

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وكما يقول بعضهم :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه

والله يقول : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق: ٨]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾[الانشقاق: ٦]، ويقول: ﴿ثُمَّ رُدُّوا(١) إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ويقول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ونحو ذلك .

وقال التلمساني ـ وكان راسخ القدم في هذه الزندقة التي أسموا بها التوحيد والحقيقة-:

توهمت قدما أن ليلى تبرقعت وأن حجاباً دونها يمنع اللثما

فلاحت، فلا والله ما كان حجبها سوى أن طرفي كان عن حبها أعمى

وله شعر كثير في هذا الفن :

هي الجوهر الصرف القديم وإن بدا لها خبث أتيت به فهو حادث

حلفت لهم ما كان منها غير ذاتها فقالوا اتئد فيها فإنك حانث

وله :

وقل لحبيبك مت وجداً وذب طرباً فيها وقل لزوال العقل لا تزل

واصمت إلى أن تراها فيك ناطقة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

ولهذا يصلون إلى مقام لا يعتقدون فيه إيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات، وإنما يرون الإيجاب والتحريم للمحجوبين عندهم، الذين لم يشهدوا أنه هو حقيقة الكون، فمن العابد ومن المعبود ومن الآمر ومن المأمور؟ كما قال صاحب الفتوحات في أولها:

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف ؟

إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أني يكلف ؟

وعندهم أن التكليف هو في مرتبة من مراتب الأسماء والصفات وهو مرتبة الممتحن.

---

(١) في المطبوعة: «وردوا» ،والصواب ما أثبتناه.

قال بعضهم :

ما الأمر إلا نسق واحـــد ما فيه من مـــدح ولا ذم

وإنما العادة قد خصصـــت والطبع والشارع بالحكـــم

ومنشأ هذين عن الصابئة ـ كما يبين ذلك عند التأمل ـ فإن الصابئة الخارجين عن التوحيد لله وحده لا شريك له ـ كالمشركين ، والمجوس ـ مثل فرعون موسى ، ونمرود إبراهيم ، وغيرهم من البشر، معترفون بالوجود المطلق .

ولهذا كان أفضل علوم الفلاسفة هو علم ما بعد الطبيعة ، أعني بهم الفلاسفة المشائين الذين يتبعون «أرسطو» ، فإنه عندهم المعلم الأول الذي صنف في أنواع التعاليم من أجزاء المنطق، والعلم الطبيعي كالحيوان، والمكان والسماء، والعالم ، والآثار العلوية، وصنف فيما بعد الطبيعة ـ وهو عندهم غاية حكمتهم، ونهاية فلسفتهم ـ وهو العلم الذي يسميه متأخرو الفلاسفة ـ كابن سينا : (العلم الإلهي).

وموضوع هذا العلم عند أصحابه: هو الوجود المطلق ولواحقه، مثل الكلام في الموجود، والمعدوم ، ثم في تقسيم الموجود إلى واجب وممكن، وقديم ، ومحدث، وعلة ومعلول، وجوهو وعَرَض، ونحو ذلك.

ثم الكلام في أنواع هذه الأقسام وأحكامها، مثل : تقسيم العلل إلى الأنواع الأربعة، وهي : الفاعل والغاية، اللذان هما سببان لوجود الشيء، والمادة والصورة، اللذان هما سببان لحقيقة المركب، وتقسيم الأعراض إلى الأجناس المقالية التسعة،وهي : الكيف ، والكم، والوضع، والأين، ومتى ، والإضافة ، والملك، وأن يفعل، وأن ينفعل، أو جعلها خمسة على ما بينهم من الاختلاف.

وفي آخر علم ما بعد الطبيعة حرف اللام ـ كأنه هو العلة الغائية، الذي إليه الحركة، كما أثبت المعلم الأول وجوده بطريق الاستدلال بالحركة ـ الذي تكلم فيه المعلم الأول على واجب الوجود لذاته، بكلام مختصر ذكر فيه قدراً يسيراً من أحكامه ـ وهو الذي كان يقول فيه ابن سينا[١] فهذا ما عند المعلم الأول من معرفة الله.

وأما النبوات والرسل ، فليس لهؤلاء فيها كلام معروف، لا نفيا ولا إثباتا. وأما المتأخرون فهم لما ظهرت الملة الحنيفية ـ الإبراهيمية، التوحيدية ـ تارة بنبوة عيسى ـ لما ظهرت النصارى على مملكة الصابئين بأرض الشام، ومصر، والروم، وغيرها ـ ثم بنبوة

---

(١) سقط قول ابن سينا من الأصل.

خاتم المرسلين، وأظهر الله من نور النبوة شمساً طمست ضوء الكواكب ، وعاش السلف فيها برهة طويلة ثم خفي بعض نور النبوة، فعرب بعض كتب الأعاجم الفلاسفة، من الروم، والفرس والهند ، في أثناء الدولة العباسية.

ثم طلبت كتبهم في دولة المأمون من بلاد الروم، فعربت ، ودرسها الناس، وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر، وكان أكثر ما ظهر من علومهم الرياضية كالحساب والهيئة، أو الطبيعية كالطب، أو المنطقية، فأما الإلهية ،فكلامهم فيها نزر وهو مع نزارته ليس غالبه عندهم يقينا، وعند المسلمين من العلوم الإلهية الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نوراً وهدى، بل متكلموهم الذين ينسبون إلى البدع عندهم من العلم الإلهي بمقاييسهم المستخرجة أضعاف أضعاف ما عند حذاق المتفلسفة.

ثم بعد ذلك لما صار فيهم من يتحذق على طريقتهم في علم ما بعد الطبيعة، كالفارابي، وابن سينا ونحوهم، وصنف ابن سينا كتباً زاد فيها بمقتضى الأصول المشتركة، أشياء لم يذكرها المتقدمون، وسمى ذلك العلم الإلهي، وتكلم في النبوات ، والكرامات، ومقامات العارفين ، بكلام فيه شرف ورفعة ، بالنسبة إلى كلام المتقدمين .

وإن كان عند العلوم الإلهية النبوية فيه من القصور والتقصير والنفاق والجهل ، والضلال والكفر، ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة بالعلم والإيمان، وإنما راج على من سلك طريق المتفلسفة؛ لأنه قرب إليهم معرفة الله، والنبوات ، والمعجزات ، والولاية ، بحسب أصول الصابئة الفلاسفة ـ لا بحسب الحق في نفسه ـ بما أشرق على جهالاتهم من نور الرسالة ، وبرهان النبوة .

كما فعله نسطور النصراني ، الذي كان في زمن المأمون، الذي تنسب إليه النسطورية في التثليث والاتحاد، لكنه بما أضاء عليه من نور المسلمين أزال كثيراً من فساد عقيدة النصراني، وبقى عليه منها بقايا عظيمة. وكذلك يحيى بن عدي النصراني ، لما تفلسف قرب مذهب النصارى في التثليث إلى أصول الفلاسفة في العقل، والعاقل، والمعقول.

ولهذا الفلاسفة المحضة ـ الباقون على محض كلام المشائين ـ يرون أن ابن سينا صانع المليين، لما رأوا من تقريبه ، وجهلوا فيما قالوا ، وكذبوا ، لم يصانع ، ولكن قال ـ بموجب الحق وبموافقة أصولهم العقلية ـ ما قاله من الحق الذي أقر به، كما أن الفلاسفة الإلهيين المشائين وغيرهم متفقون على الإقرار بواجب الوجود، وببقاء الروح بعد الموت، وبأن الأعمال الصالحة تنفع بعد الموت ، ويخالفهم في ذلك فلاسفة كثيرون من الطبيعيين وغيرهم، بل وبين الإلهيين من الفلاسفة خلاف في بعض ذلك حتى الفارابي ، وهو

عندهم المعلم الثاني يقال : إنه اختلف كلامه في ذلك .

فقال تارة ببقاء الأنفس كلها، وتارة ببقاء النفوس العالمة دون الجاهلة. كما قاله في آراء المدينة الفاضلة، وتارة كذب بالأمرين، وزعم الضال الكافر أن النبوة خاصتها جودة تخييل الحقائق الروحانية ، وكلامهم المضطرب في هذا الباب كثير، ليس الغرض هنا ذكره.

وإنما الغرض أن العلم الأعلى عندهم والفلسفة الأولى علم ما بعد الطبيعة وهو الوجود المطلق ولواحقه، حتى أن من له مادة فلسفية من متكلمة المسلمين - كابن الخطيب وغيره - يتكلمون في أصول الفقه، الذي هو علم إسلامي محض، فيبنونه على تلك الأصول الفلسفية.

كقول ابن الخطيب وغيره في أول أصول الفقه موافقة ـ لابن سينا ومن قبله ـ العلوم الجزئية لا تقرر مبادئها فيها ؛ لئلا يلزم الدور، فإن مبدأ العلم أصوله، وهو لا يعرف إلا بعدها. فلو عرفت أصوله بمسائله المتوقفة على أصوله، للزم الدور بل توجد أصوله مسلمة، ويقدر في علم أعلى منه، حتى ينتهي إلى العلم الأعلى الناظر في الوجود ولواحقه، وهذا قالوه في مثل الطب والحساب: إن الطبيب إنما هو طبيب ينظر في بدن الحيوان، وأخلاطه وأعضائه ليحفظه صحته إن كانت موجودة، ويعيدها إليه إن كانت مفقودة ، وبدن الحيوان جزء من المولدات في الأرض ، وكذلك أخلاطه.

فأعم منه النظر في المولدات من الأركان الأربعة، الماء ، والهواء، والنار، والأرض.

وأعم من ذلك : النظر في الجسم المستحيل ، ثم في الجسم المطلق ، فما من علم يتعلق بموضوع ببعض الموجودات العينية ، أو العلمية إلا وأعم منه ما يشترك هو وغيره فيه. فأما إدخال العلم بالله الذي هو أعلى العلوم، وأشرفها في هذا ، وجعله جزءاً من أجزاء العلم الأعلى - عندهم - الناظر في الوجود ولواحقه وكذلك ما يتبع ذلك من العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر- فهذا منشأ الضلال القياسي.

ويتبين ذلك من وجوه:

أحدها :أن الله ـ سبحانه ـ هو الأعلى وهو الأكبر؛ولهـذا كان شعار أكمل الملل هو: الله أكبر في صلواتهم وأذانهم وأعيادهم ، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم:« يا عدي، ما يُفِرُّك(١)! أيفرك أن يقال لا إله إلا الله؟ يا عدي،فهل تعلم من إله إلا الله؟

---

(١) ما يُفِرُّك ، أي :ما يحملك على الفرار ؟ انظر :النهاية في غريب الحديث ٤٢٧/٣ .

يا عدي، ما يفرك؟ أيفرك أن يقال : الله أكبر، فهل تعلم شيئا أكبر من الله»؟(١)
وبهذا: تبين صواب من قال من الفقهاء أنه لا يجوز إبدال هذه الكلمة بقولنا : الله الكبير، مع أن كشف هذا له موضع آخر.

وقال : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، فقال النبي ﷺ :«اجعلوها في سجودكم»(٢)، فالله هو الأعلى ، وهو الأكبر. والعلم مطابق للمعلوم فيجب أن تكون معرفته وعلمه : أكبر العلوم وأعلاها.

الثاني : أن الله ـ سبحانه ـ هو الحق الموجود بنفسه، وسائر ما سواه خلق من خلقه، مربوب مقهور تحت قدرته ، وهو خالق الأشياء مسبب أسبابها، فالعلم به أصل للعلم بما سواه وسبب، كما أن ذاته كذلك، والعلم بالسبب يفيد العلم بالمسبب.

الثالث: معرفة أن الوجود المطلق هو المعرفة بالقدر المشترك بينه وبين ما سواه، وهو علم بالحد الأوسط في قياسه على خليقته، ومعلوم أن ذلك ليس فيه علم بحقيقته، ولا بحقيقة ما سواه، وإنما هو علم بوصف مشترك بينهما، فكيف يكون العلم بوصف مشترك أعلا من العلم بحقيقة كل منهما، وسائر ما يختص به عن غيره من الأنواع ، والأعيان؟

وكذلك معرفة الذات المطلقة، وما هو كل من الأمور المشتركة، هو من هذا الباب .

والرابع : أن الوجود المطلق ، والذات المطلقة ونحو ذلك : إما أن يراد به الإطلاق الخاص، وهو الذي لا يدخل فيه المقيد، كما يقال: الماء المطلق، فهذا لا وجود له في الخارج عن العقل والذهن، كما أن الوجود الكلي العام، والذات الكلية العامة، لا وجود لها في الخارج، وإنما يعرض للحقائق هذا العموم، وهذا الإطلاق من حيث هي معقولة في الأذهان، لا من حيث هي ثابتة في الأعيان.

فكيف يكون أعلى العلوم وأشرفها معلومه هو المثل الذهنية لا الحقائق الوجودية، والمثل إنما هي تابعة لتلك، وإلا لكانت جهلا لا علما، وإما أن يراد به الإطلاق العام، وهو ما لا يمنع شيئا من الدخول فيه وهو المطلق من كل قيد، حتى عن الإطلاق . فالمطلق بهذا الاعتبار له وجود في الخارج على القول الصحيح.

لكن لا يوجد مطلقا لا يوجد إلا معينا،فإما موجود مطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له،وهو المطلق الخاص، فالمطلق العام لما كان يدخل فيه المقيد صح أن يوجد في الخارج،

---

(١) الترمذي في التفسير(٢٩٥٣م) وقال:«حسن غريب» وأحمد ٤/ ٣٧٨.

(٢) أبو داود في الصلاة (٨٦٩)،وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٧) وأحمد ٤/ ١٥٥، وابن حبان (١٨٩٥)، وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٧، ٤٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

فإذا كان الوجود المطلق ولواحقه ليس بموجود في الخارج مطلقًا، ولا يوجد في الخارج إلا معين امتنع أن يكون أعلى العلوم، إنما وجود معلومه في الأذهان لا في الأعيان.

ولو جاز ترجيح العلم بالمثل الذهنية على الحقائق الخارجية، لجاز ترجيح المثل على الحقائق ، ولكان العلم بالرب والملائكة والنبيين أفضل من ذات الرب، والملائكة والنبيين، وهذا لا يقوله عاقل.

الخامس : أن القوم إنما أتوا من جهة أنهم بنوا أمرهم في علومهم جميعاً على القياس، ولابد في القياس من قضية كلية، وَحَدٍّ أوسط يكون أعم من الموصوف المحكوم عليه المبتدأ الموضوع.

وما من حد وقضية إلا وثمَّ ما هو أعم منه، مثل أن يقول: الإنسان، فأعم منه الحيوان، فأعم منه الجسم النامي، فأعم منه الجسم السفلي ، فأعم منه الجسم، فأعم منه الجوهر ، فأعم منه الموجود ، سواء كان جنساً ذاتيا كما يقوله بعضهم، أو وصفاً عرضيا كما يقوله الحذاق.

فلو قيل: أعلى العلوم القياسية العلوم بالموجود ولواحقه، لكون معلومه أعم الموضوعات لكان له مساغ، ولعل هذا مرادهم.

لكن العلم القياسي لا يفيد بنفسه معرفة حقيقة شيء من الأشياء الموجودة، إلا إذا كان له نظير مماثل، فيعرف أحد المثلين بنفسه، والآخر بقياسه على نظيره، وهذا القدر منتف في العلم بالله، لا يوجد مثله ونظيره ، ثم قد عارضهم المتكلمون بما هو أعلى من الوجود وهو المعلوم والمذكور فقالوا : أعلا المعلوم وأعم الأسماء والحدود : المعلوم والمذكور ؛ لأنه يدخل فيه الموجود والمعدوم، بنوعي الوجود : واجبه وممكنه، ونوعي المعدوم ممكنه وممتنعه، فكان يجب أن يقال: العلم الأعلى الناظر في المعلوم ولواحقه، وهذا أعم وأوسع .

وكون الشيء معلوماً أمر يعرض له ، لاصفة ذاتية وكذلك كونه موجوداً ، إذ هو في الحقيقة، كونه بحيث يجده الواجد ، هذا مقتضى الاسم ،وإن عنى به بعضهم كونه حقاً في نفسه ، فهذا ليس هو حقيقته التي هيَ هو ، كما قد قرر هذا في غير هذا الموضع.

وإن من قال من المتفلسفة أو المتكلمة: إن حقيقة الرب هي وجوده أو وجوب وجوده، أو أنهم علموا حقيقته فقد أخطأ في ذلك خطأ قبيحاً ، وأن هذا بمنزلة من قال: حقيقة سائر الكائنات كونها ممكنة، وهؤلاء بعداء عن الله محجوبون عن معرفته ، لم يعرفوا منه إلا صفة كلية من صفاته فظنوا أنهم عرفوا حقيقته.

وبهذا يتبين لك أن من قال: العلم الأعلى هو علم ما بعد الطبيعة، وهو الناظر في الوجود ولواحقه، فإنما حقيقة ذلك أنه أعلى في ذهن الطالب لمعرفة الله بالقياس علي خلقه، لا أنه أعلى في نفسه ، ولا أن معلومه أعلى، ولا أعلى عند من عرف حقائق الموجودات، ولا أعلى عند من عرف الله بالفطرة، فضلا عمن عرفه بالشرعة، فضلا عمن عرفه بالولاية، فضلا عمن عرفه بالوحي والنبوة، فضلا عمن عرفه بالرسالة ، فضلا عمن عرفه بالكلام، فضلا عمن عرفه بالرؤية.

فلما كان منتهى الفلاسفة الصابئية، وأعلى علمهم هو الوجود المطلق، وكان أصل التجهم، وتعطيل صفات الرب إنما هو مأخوذ عن الصابئة ، وكان هؤلاء الاتحادية في الأصل جهمية، وأنه بما فيهم من النصرانية - المشاركة للصابئة صار بينهم وبين الصابئة نسب - صار معبودهم وإلههم هو الوجود المطلق، وزعموا أن ذلك هو الله، مضاهاة لما عليه خلق من قدماء الفلاسفة، من تعطيل الصانع وإثبات الوجود المطلق، حتى يصح قول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وإن كان الفلاسفة المسلمون لا يوافقون على ذلك، بل يقرون بالرب الذي صدر عنه العالم، لكنهم بتعظيمهم للوجود المطلق صاروا متفقين متقاربين، ومن تأمل كلام النصير الطوسي الصابئي الفيلسوف ، وكلام الصدر القونوي النصراني الاتحادي الفيلسوف ، وكلام الإسماعيلية في البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم - الذي يقول فيه : أقرب الناس إلينا الفلاسفة، ليس بيننا وبينهم خلاف إلا في واجب الوجود، فإنهم يقرون به، ونحن ننكره ـ عرف ما بين هؤلاء من المناسبة.

وكذلك المراسلة التي بين الصدر والنصير، في إثبات النصير لواجب الوجود، على طريقة الصابئة الفلاسفة، وجعل الصدر ذلك هو الوجود المطلق ، لا المعين ، وأنه هو الله، علم حقيقة ما قلته، وعلم وجه اتفاقهم على الضلال والكفر، وأن النصير أقرب من حيث اعترافه بالرب الصانع المتميز عن الخلق، لكنه أكفر من جهة بعده عن النبوة، والشرائع، والعبادات. وأن الصدر أقرب من جهة تعظيمه للعبادات ، والنبوات، والتأله، على طريقة النصارى، لكنه أكفر من حيث إن معبوده لا حقيقة له، وإنما يعبد الوجود المطلق الذي لا حقيقة له في الخارج.

ولهذا كان الصدر أكفر قولا ، وأقل كفراً في عمله، والنصير أكفر عملا ، وأقل كفراً في قوله ،وكلاهما كافر في قوله وعمله،ولهذا يظهر للعقلاء من عموم المسلمين من كلام الصدر أنه إفك وزور وغرور، مخالف لما جاء به الرسول، كما يظهر لهم من أفعال

النصير أنه مروق وإعراض عما جاء به الرسول؛ ولهذا: كان النصير أقرب إلى العلماء؛ لأن في كلامه ما هوحق، كما أن الصدر أقرب إلى العباد؛ لأن في فعاله ما هو عبادة.

وقال :

فصـــل

وقد تفرق الناس في هذا المقام ـ الذي هو غاية مطالب العباد ـ فطائفة من الفلاسفة ونحوهم، يظنون أن كمال النفس في مجرد العلم ، ويجعلون العلم – الذي به تكمل ما يعرفونه هم من – علم ما بعد الطبيعة، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس ، حتى تستعد للعلم. فتصير النفس عالما، معتزلاً ، موازيا للعالم الموجود .

وهؤلاء ضالون، بل كافرون من وجوه:

منها : أنهم اعتقدوا الكمال من مجرد العلم، كما اعتقد جهم، والصالحي ، والأشعري ـ في المشهور من قوليه ـ وأكثر أتباعه: أن الإيمان مجرد العلم، لكن المتفلسفة أسوأ حالا من الجهمية، فإن الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله، وأولئك يجعلون كمال النفس في أن تعلم الوجود المطلق، من حيث هو وجود ، والمطلق بشرط الإطلاق، إنما يكون في الأذهان لا في الأعيان، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضا في الخارج(١) إلا معينا.

وإن علموا الوجود الكلي ، المنقسم إلى واجب وممكن ، فليس لمعلوم علمهم وجود في الخارج، وهكذا من تصوف وتأله على طريقتهم، كابن عربي، وابن سبعين ونحوهما.

وأيضا : فإن الجهمية يقرون بالرسل ، وبما جاؤوا به ، فهم في الجملة يقرون بأن الله خلق السموات، والأرض ، وغير ذلك مما جاءت به الرسل ؛ بخلاف المتفلسفة.

وبالجملة ، فكمال النفس ليس في مجرد العلم، بل لابد مع العلم بالله من محبته، وعبادته، والإنابة إليه، فهذا عمل النفس وإرادتها ، ودال علمها ومعرفتها .

الوجه الثاني : أنهم ظنوا أن العلم الذي تكمل به النفس هو علمهم، وكثير منه جهل لا علم.

---

(١) في المطبوعة :« الخاج» ، والصواب ما أثبتناه.

الوجه الثالث: أنهم لم يعرفوا العلم الإلهي ، الذي جاءت به الرسل ، وهو العلم الأعلى ، الذي تكمل به النفس ، مع العمل بموجبه.

الرابع : أنهم يرون أنه إذا حصل لهم ذاك العلم، سقطت عنهم واجبات الشرع، وأبيحت لهم محرماته، وهذه طريقة الباطنية ، من الإسماعيلية وغيرهم، مثل أبى يعقوب السجستاني، صاحب الأقاليد الملكوتية، وأتباعه، وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية، الذين يتأولون قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]: أنك تعمل حتي يحصل لك العلم ، فإذا حصل العلم سقط عنك العمل، وقد قيل للجنيد: إن قوما يقولون: إنهم يَصِلُون من طريق البر، إلى أن تسقط عنهم الفرائض، وتباح لهم المحارم ـ أو نحو هذا الكلام ـ فقال : الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر خير من هذا .

ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم، أعظم من طلبه لما فرض الله عليه، ويقول في دعائه: اللهم أسألك العصمة في الحركات، والسكنات، والخطوات، والإرادات، والكلمات، من الشكوك ، والظنون، والإرادة، والأوهام الساترة للقلوب ، عن مطالعة الغيوب، وأصل المسألة: أن المكنة التي هي الكمال عندهم من المكنة .

وطائفة أخرى : عندهم أن الكمال في القدرة والسلطان، والتصرف في الوجود نفاذ الأمر والنهي، إما بالملك والولاية الظاهرة، وإما بالباطن. وتكون عبادتهم، ومجاهدتهم ـ لذلك ، وكثير من هؤلاء يدخل في الشرك ، والسحر، فيعبد الكواكب، والأصنام، لتعينه الشياطين على مقاصده ، وهؤلاء أضل وأجهل من الذين قبلهم، وغاية من يعبد الله ـلب خوارق العادات، يكون له نصيب من هذا ، ولهذا كان منهم من يرى طائرا ومنهم اشيا ومنهم (١) . وفيهم جهال ضلال.

ـائفة تجعل الكمال في مجموع الأمرين، فيدخلون في أقوال وأعمال من الشرك، ـحر، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه، من الإخبار بالأمور الغائبة، وعلى ما ينفذ تصرفهم في العالم.

والحق المبين : أن كمال الإنسان أن يعبد الله علما ، وعملا، كما أمره ربه، وهؤلاء هم عباد الله، وهم المؤمنون والمسلمون، وهم أولياء الله المتقون، وحزب الله المفلحون، وجند الله الغالبون، وهم أهل العلم النافع، والعمل الصالح، وهم الذين زكوا نفوسهم

---

(١) بالأصل كلمتان لم تتضحا للناسخ.

وكملوها، كملوا القوة النظرية العلمية،والقوة الإرادية العملية، كما قال تعالي: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[ص:٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:١-٤]، وقال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، وقال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: ١٠]، وقال تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

وقال أيضا :

فصـــل

حقيقة مذهب الاتحادية - كصاحب الفصوص ونحوه - الذي يؤول إليه كلامهم ويصرحون به في مواضع - أن الحقائق تتبع العقائد ، وهذا أحد أقوال السوفسطائية، فكل من قال شيئا ، أو اعتقده ، فهو حق في نفس هذا القائل المعتقد؛ ولذا يجعلون الكذب حقا، ويقولون: العارف لا يكذب أحدا، فإن الكذب هو ـ أيضا ـ أمر موجود وهو حق في نفس الكاذب، فإن اعتقده كان حقا في اعتقاده، وكلامه. ولو قال ما لم يعتقده كان حقا في كلامه فقط.

ولهذا يأمر المحقق أن تعتقد كل ما يعتقده الخلائق ، كما قال:

عقد الخلائق في الإله عقائدا   وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ومعلوم أن الاعتقادات المتناقضة لا تكون معتقداتها في الخارج،لكن في نفس المعتقد؛ ولهذا يأمرون بالتصديق بين النقيضين والضدين ويجعلون هذا من أصول طريقهم، وتحقيقهم.ومعلوم أن النقيضين لا يجتمعان في الخارج،لكن يمكن اعتقاد اجتماعهما فيكون ذلك حقا في نفس المعتقد،وهم يدعون أن ذلك يحصل كشفا فكشفهم متناقض، فخاطبت بذلك بعضهم ، فقال:كلاهما حق،كالذي كشف له أن الزهـرة فوق عطارد ، والذي كشف له أنها تحت عطارد، فقـال هي من كشف هذا فوق عطارد،وفي كشف هذا

تحت عطارد، وأمثال ذلك. فجعلوا الحقائق الثابتة تتبع الكشف والاعتقاد، والقول .

ولهذا يقولون: سر حيث شئت، فإن الله ثَمَّ ، وقل ما شئت فيه، فإن الواسع الله.

ومضمون هذا الأصل أن كل إنسان يقول ما شاء ويعتقد ما شاء، من غير تمييز بين حق وباطل، وصادق وكاذب، وأنه لا ينكر في الوجود شيء، وهكذا يقولون. هذا من جهة الخبر والعلم، وأما من جهة الأمر والعمل، فإن محققهم يقول : ما عندنا حرام، ولكن هؤلاء المحجبون قالوا: حرام فقلنا: حرام عليكم، فما عندهم أمر ولا نهي ، كما قال القاضي الذي هو تلميذ صاحب الفصوص فيما أنشدنيه الشاهد ابن عمد المقلب بعرعيه(١) :

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من حمد ولا ذم

وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

وحينئذ فما يبقى للأقوال والأفعال إلا مجرد القدرة ؛ ولهذا هم يمشون مع الكون دائما، فأي شيء وجد وكان ، كان عندهم حقا، فالحلال ما وجدته وحل بيدك، والحرام ما حرمته، والحق ما قلته كائنا ما كان ، والباطل ما لم يقله أحد. وهؤلاء شر من المباحية الملاحدة الذين يجرون مع محض القدر .

فإن أولئك يعطلون الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، وهؤلاء عطلوا أيضا الصانع والرسالة والحقائق كلها، وجعلوا الحقائق بحسب ما يكشف للإنسان، ولم يجعلوا للحقائق في أنفسها حقائق تتحقق به ، يكون ثابتا، وبنقيضه منتفيا، بل هذا عندهم يفيده الإطلاق . ألا تقف مع معتقد، بل تعتقد جميع ما اعتقده الناس، فإن كانت أقوالا متناقضة فإن الوجود يسع هذا كله، ووحدة الوجود تسع هذا كله.

ومعلوم أن الوجود إنما يسع وجود هذه الاعتقادات لا يسع تحقق المعتقدات في أنفسها، وهذا مما لا نزاع فيه بين العقلاء، فإن الاعتقاد الباطل والقول الكاذب هو موجود داخل في الوجود، لكن هذا لا يقتضي أن يكون حقا وصدقا، فإن الحق والصدق إذا أطلق على الأقوال الخبرية لا يراد به مجرد وجودها ، فإن هذا أمر معلوم بالحس، وعلى هذا التقدير فكلها حق وصدق.

ومن المعلوم أن السائل عن حقها وصدقها ، هي عنده منقسمة إلى حق وباطل، وصدق وكذب ، والمراد بكونها حقا وصدقا كونها مطابقة للخبر أو غير مطابقة ، ثم قد

---

(١) هكذا أحرف الأصل.

تكون مطابقة في اعتقاد القائل دون الخارج، وهذا هو الخطأ . وقد يسمى كذبا، وقد لا يطلق عليه ذلك.

فالأول : كقول النبي ﷺ : «كذب أبو السنابل»[1] ،وقوله : «كذب من قالها إن له لأجرين اثنين، إنه لجاهد مجاهد » [2].وقول عبادة: كذب أبوكم. وقول ابن عباس : كذب نوف.

والثاني : كقوله ﷺ :« لم أنس ولم تقصر»[3] فقال له ذو اليدين : بلى قد نسيت. وكأن الفرق ـ والله أعلم ـ أن من أخبر مع تفريطه في الطريق الذي يعلم به صوابه وخطؤه فأخطأ سمي كاذبا ـ بخلاف من لم يفرط ،لأنه[4] تكلم بلا حجة ولا دليل مجازفة فأخطأ، بخلاف من أخبر غير مفرط. وهذا الفرق يصلح أن يفرق به فيمن حلف على شيء يعتقده، كما حلف عليه فتبين بخلافه أنه إن حلف مجازفاً بلا أصل يرجع إليه مثل من حلف أن هذا غراب أو ليس بغراب بلا مستند أصلا فبان خطؤه، فإن هذا يحنث وذلك يحنث ، مثل هذا وإن لم يعلم خطأه وإن أصاب وهي مسألة حلفه أنه في الجنة وهذا كما تقول: المفتى إذا أفتى بغير علم أنه أثم وإن أصاب، وكذلك المصلي إلى القبلة بغير اجتهاد، وكذلك المفسر للقرآن برأيه.

ولهذا تجد هؤلاء في أخبارهم من أكثر الناس كذبا، بل الكذب كالصدق عندهم، فيستعملونه بحسب الحاجة، ولا يبالون إذا أخبروا عن الشيء الواحد بخبرين متناقضين، وتجدهم في أعمالهم بحسب أهوائهم ، فيعملون العملين المتناقضين أيضا، إذا وافق هذا هواهم في وقت ، وهذا هواهم في وقت .

وهم دائما مع المطاع، سواء كان مؤمنا أو كافراً، أو براً أو فاجراً، أو صديقاً أو زنديقاً. والتتار قبل إسلامهم،وإن شركوهم في هذا، فهم أحسن منهم في الخبريات؛ إذ التتار لا يخبرون عن الأمور الإلهية بالخبرين المتناقضين بل أحدهم إما أن يعتقد الشيء علماً أو تقليداً ،أو لا يعتقد شيئا، فأما أن يجمع بين النقيضين فلا،فهؤلاء شر حالا من مثل التتار؛ولهذا ليس لهم عاقبة ،فإنهم ليسوا متقين يميزون بين مأمور،ومحظور،وصدق

---

(١) الشافعي في المسند (١٦٦)، وأحمد ١/٤٤٧، والبيهقي ٧/٤٢٩، والبغوي في شرح السنة (٢٣٨٨) عن عبد الله بن مسعود .وذكره الهيثمي في المجمع ٥/٦ وقال:« رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) البخاري في الديات (٦٨٩١) وفي المغازي (٤١٩٦) ومسلم في الجهاد (١٨٠٢/ ١٢٣)، والنسائي في الجهاد (٣١٥٠)، وأحمد ٤/٤٨ ، كلهم عن سلمة بن الأكوع.

(٣) البخاري في الصلاة (٤٨٢) والأدب (٦٠٥١) عن أبي هريرة.

(٤) بالأصل :«كأنه».

وكذب، والعاقبة إنما هي للمتقين، وإنما قيام أحدهم بقدر ما يكون قادراً.

ومعلوم أن قدرة أحدهم لا تدوم، بل يعمل بها من الأعمال ما يكون سبب الوبال، ولا ريب أن هؤلاء مندرجون في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾** [محمد:١]، وفي قوله: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾** [محمد:٣]، وقوله: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾** [النور:٣٩]، وفي قوله: **﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ(١) اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾** [إبراهيم:١٨]، وفي قوله: **﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة:١٧١]، وفي قوله: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾**[الأعراف:١٧٩].

ولا ريب أن الحق نوعان: حق موجود، وبه يتعلق الخبر الصادق، وحق مقصود، وبه يتعلق الأمر الحكيم، والعمل الصالح، وضد الحق الباطل، ومن الباطل الثاني قول النبي ﷺ: «كل لهو يلهو الرجل به فهو باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق»(٢). والحق الموجود إذا أخبر عنه بخلافه كان كذبا، وهؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل، بين الحق الموجود الذي ينبغي اعتقاده، والباطل المعدوم الذي ينبغي نفيه في الخبر عنهما، ولا بين الحق المقصود الذي ينبغي اعتماده، والباطل الذي ينبغي اجتنابه، بل يقصدون ما هووه وأمكنهم منهما.

وأصدق الحق الموجود ما أخبر الله بوجوده، والخبر الحق المقصود ما أمر الله به. وإن شئت قلت: أصدق خبر عن الحق الموجود خبر الله، وخير أمر بالحق المقصود أمر الله، والإيمان يجمع هذين الأصلين: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيه أمر. وإذا قرن بينهما قيل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** [الكهف:١٠٧]، والعمل خير من القول، كما قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

---

(١) في المطبوعة: «والذين كفروا أعمالهم كسراب» والصحيح ما أثبتناه.

(٢) أبو داود في الجهاد (٢٥١٣) بلفظ: «ليس من اللهو إلا ثلاث...»، وابن ماجة في الجهاد (٢٨١١) والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٧)، كلهم عن عقبة بن عامر.

سئل الشيخ عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة في الفساد، وتعلق كل منهم بسبب . ومنهم من قال : إن يونس القتات يخلِّص أتباعه ومريديه من سوء الحساب، وأليم العقاب.

ومنهم من يزعم أن عليا الحريري كان قد أعطى من الحال ما إنه إذا خلا بالنساء والمردان، يصير فرجه فرج امرأة.

ومنهم من يدعي النبوة، ويدعي أنه لابد له من الظهور في وقت ، فيعلو دينه وشريعته، وإن من شريعته السوداء تحريم النساء، وتحليل الفاحشة اللوطية، وتحريم شيء من الأطعمة وغيرها، كالتين ، واللوز، والليمون. وتبعه طائفة، منهم من كان يصلي فترك الصلاة، ويجتمع به نفر مخصوصون في كثير من الأيام ...إلخ.

فأجاب :

أما قول القائل : إن يونس القتات يخلص أتباعه ومريديه من سوء الحساب، وأليم العذاب يوم القيامة. فيقال جوابا عاماً .

من ادعى أن شيخاً من المشايخ يخلص مريديه يوم القيامة من العذاب، فقد ادعي أن شيخه أفضل من محمد بن عبد الله ﷺ،ومن قال هذا فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال :«يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا عباس عم رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا، سلوني ما شئتم من مالي»[1] ،وثبت عنه في الصحيح أنه قال : «لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة، وعلى رقبته بعير له رُغَاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني ! فأقول : لا أغني عنك من الله شيئاً قد بلغتك»[2] الحديث بتمامه. وذكر مثل ذلك في غير ذلك من الأقوال.

فإذا كان رسول الله ﷺ يقول مثل هذا لأهل بيته، وأصحابه الذين آمنوا به، وعزروه ونصروه، من المهاجرين والأنصار ـ يقول إنه ليس يغني عنهم من الله شيئا ـ فكيف يقال في شيخ غايته أن يكون من التابعين لهم بإحسان؟وقد قال تعالى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ . يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾**

---

(١) البخاري في الوصايا (٢٧٥٣) عن أبي هريرة وفيه تقديم وتأخير.

(٢) البخارى فى الجهاد (٣٠٧٣) ومسلم فى الإمارة (١٨٣١ / ٢٤) .

[الانفطار:١٧-١٩]، وقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨]، وأمثال ذلك من نصوص القرآن والسنة.

وقد علم أنه ليس للأنبياء وغيرهم يوم القيامة إلا الشفاعة. وقد ثبت في الصحيح أن الناس يأتون آدم ليشفع فيقول: نفسي نفسي، وكذلك يقول نوح ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل ـ وهم أفضل الخلق، ويقول لهم عيسى: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً، فيقول : أي محمد ، ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع ، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، وذكر مثل ذلك في المرة الثانية[1].

فهذا خير الخلق وأكرمهم على الله ، إذا رأى ربه لا يشفع حتى يسجد له، ويحمده، ثم يأذن له في الشفاعة، فيحد له حداً يدخلهم الجنة، وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جاء في الحديث الصحيح : أنه تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون[2]، لكن بإذنه في أمور محدودة . ليس الأمر إلى اختيار الشافع . فهذا فيمن علم أنه يشفع، فلو قال قائل: إن محمداً يخلص كل مريديه من النار ،لكان كاذباً ، بل في أمته خلق يدخلون النار ، ثم يشفع فيهم. وأما الشيوخ فليس لهم شفاعة كشفاعته، والرجل الصالح قد يشفعه الله فيمن يشاء، ولا شفاعة إلا في أهل الإيمان.

وأما المنتسبون إلى الشيخ يونس، فكثير منهم كافر بالله ورسوله، لا يقرون بوجوب الصلاة الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بل لهم من الكلام في سب الله ورسوله، والقرآن والإسلام، ما يعرفه من عرفهم.

وأما من كان فيهم من عامتهم ـ لا يعرف أسرارهم وحقائقهم ـ فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين، الذي استفاده من سائر المسلمين لا منهم ، فإن خواصهم مثل الشيخ سلول، وجهلان ، والصهباني وغيرهم، فهؤلاء لم يكونوا يوجبون الصلاة، بل ولا يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة.

وفي أشعارهم ـ كشعر الكوجلي وغيره ـ من سب النبي ﷺ ، وسب القرآن والإسلام، ما لا يرضى به لا اليهود ، ولا النصارى . ثم منهم من يقول: هذا الشعر

---

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠) عن أبي هريرة.

(٢) البخاري في التوحيد (٧٤٣٩) ، ومسلم في الإيمان(١٨٣/ ٣٠٢) عن أبى سعيد.

ليونس. ومنهم من يقول : هو مكذوب على يونس ، لكن من المعلوم المشاهد أنهم ينشدون الكفر ويتواجدون عليه، ويبول أحدهم في الطعام ويقول: يشرح كبدي يونس، أو ماء وَرْدِ يونس، ويستحلون الطعام الذي فيه البول ويرون ذلك بركة.

وأما كفرياتهم مثل قولهم: وأنا حميت الحمى ، وأنا سكنت فيه، وأنا تركت الخلائق في مجاري التيه، موسي على الطور لما خر لي ناجا، وصاحب أقرب أنا جنبوه حتى جاء يوم القيامة، يرى الخلائق أفواجا، إلى نبيه عيسى يقضى لهم حاجا.

ويقولون : تعالوا نخرب الجامع ونجعل منه جمارة، ونكسر خشب المنبر ونعمل منه زنارة، ونحرق ورق ونعمل منه طنبارة، ننتف لحية القاضي ونعمل منه أوتاره. أنا حملت على العرش حتى صج، وأنا صرخت في محمد حتى هج، وأن البحار السبعة من هيبتي ترتج.

وأمور أخر أعظم من هذا وأعظم من أن تذكر، لما فيها من الكفر الذي هو أعظم من قول الذين قالوا: إن لله ولداً.

وأما قول القائل: إن من الشيوخ من كان يتحول فرجه فرج امرأة، فكذب مختلق، بل في طريقه من المنكرات المخالفة لدين الإسلام ما يعرفه من يعرف دين الإسلام، وأصحابه ينقلون عنه كفريات سطروها عنه، كقوله : لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئا، ومعلوم أن قتل نبي واحد من أعظم الكفر، وفي الحديث المرفوع عن النبي ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي»[1].

وإذا قيل : هذا قاله مشاهدة للحقيقة، القدرية الكونية، أن الله خالق أفعال العباد كان العذر أقبح من الذنب، فإنه لو كان القدر حجة، لم يكن على إبليس وفرعون وسائر الكفار ملام، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا المحتج بالقدر لو تعدى عليه أحد لقاتله، وغضب عليه . فإن كان القدر حجة، فهو حجة يفعل به ما يريد ، وإن لم يكن حجة لم يؤذ آدمياً، فكيف يكون حجة لمن يكفر بالله ورسوله؟

وآدم ـ عليه السلام ـ إنما حج موسى، لأن موسى لامه لما أصابه من المصيبة، لم يلمه لحق الله تعالى في الذنب، فإن آدم تاب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، بل قال له: بماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال : تلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى[2].

---

(١) أحمد ٤٠٧/١ عن عبد الله بن مسعود.

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٢ / ١٣ ـ ١٥) عن أبي هريرة.

وكذا يؤمر كل من أصابه مصيبة من جهة أبيه وغيره. أن يسلم لقدر الله، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] . قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وأما الذنوب: فعلى العبد ألا يفعلها، فإن فعلها فعليه أن يتوب منها، فمن تاب وندم أشبه أباه آدم، ومن أصر واحتج أشبه عدوه إبليس، قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[غافر:٥٥]. فالمؤمن مأمور أن يصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب.

فصل

وأما الذي يدعي النبوة، وأنه يبيح الفاحشة اللوطية، ويحرم النكاح، وما ذكر من ذلك: فهذا أمر أظهر من أن يقال عنه، فإنه من الكافرين، وأخبث المرتدين، وقتل هذا ومن اتبعه واجب بإجماع المسلمين، والواحد من هؤلاء إما أن يخاطب بالحجة لعل الله أن يتوب عليه ويهديه، وإما أن يقام عليه الحد فيقتل. فمن كان قادراً على أحد الأمرين لزمه ذلك، ومن عجز عن هذا وهذا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لكنه عليه أن يعرف المعروف، ويحبه، وينكر المنكر، ويبغضه، ويفعل ما يقدر عليه من الأمرين ـ من الأمر والنهي ـ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال ذرة»[1]. والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) مسلم في الإيمان (٧٨/٤٩) عن أبي سعيد الخدري بلفظ « وذلك أضعف الإيمان».

المسؤول من إحسان شيخ الإسلام مفتى الأنام تقي الدين - أثابه الله الجنة - أن يفتينا في رجلين تشاجرا في هذين البيتين المذكورين، وهما قول القائل:

الرب حق والعبد حـــق ياليت شعري من المكلف؟
إن قلت عبد فذاك ميـــت أو قلت رب أنى يكلف؟!

فقال أحد الرجلين : هذا القول كفر، فإن القائل جعل الرب والعبد حقاً واحداً ليس بينهما فرق، وأبطل التكليف . فقال له الرجل الثاني : ما فهمت المعني ، ورميت القائل بما لم يعتقده ويقصده، فإن القائل قال : الرب حق ، والعبد حق، أي الرب حق في ربوبيته، والعبد حق في عبوديته، فلا الرب عبداً، ولا العبد رباً كما زعمت.

ثم قال :

ياليت شعري من المكلف، مع علمه أن التكليف حق .

فحار لمن ينسبه في القيام به، فقال: إن قلت: عبد فذاك ميت، والميت: ليس له من نفسه حركة، بل من غيره يقلبه كما يشاء ، وكذلك العبد - وإن كان حياً - فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ليس له من نفسه فعل بغير الله؛ لأنه سبحانه لو لم يقوِّ العبد على القيام بالتكليف ، لما قدر على ذلك . فالفعل لله حقيقة، وللعبد مجازا ، ودليل ذلك قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، أي لا حول عن المعصية، ولا قوة على الطاعة إلا بالله.

وقد علم أن الرب ليس عليه تكليف؛ لأنه لا مكلف له ، والعبد ليس يقوم بما كلف به إلا بالله، والتكليف حق .

فتعجب القائل عند شهوده لهذه الحال ! وحار في ذلك مع الإقرار به، وأنه على العبد حق ، فما ينبغي لعاقل أن يقع فيمن لا يفهم كلامه، بل التقصير من الفهم القصير، فمع أيهما الحق؟

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه ونور ضريحه - فقال :

الحمد لله ، كلام هذا الثاني كلام باطل ، وخوض فيما لم يحط بعلمه ، ولم يعرف

حقيقته، ولا هو عارف بحقيقة قول ابن عربي وأصله ، الذي تفرع منه هذا الشعر وغيره، ولا هو أخذ بمقتضى هذا اللفظ ومدلوله.

فأما أصل ابن عربي فهو أن الوجود واحد. وأن الوجود الواجب هو عين. . . (1) .

ووجود الحق فاض عليها ، فوجود كل شيء عين وجود الحق عنده، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

ولهذا قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسيف، وإن جار في العرف الناموسي لذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] أي: وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم، بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه، وأقروا له بذلك. فقالوا له : ﴿ اقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[طه: ٧٢]، والدولة لك، فصح قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾. وإن كان عين الحق .

قال : ومن أسمائه الحسنى العلى ؛ على من: وما ثم إلا هو؟ وعن ماذا؛ وما هو إلا هو؟ إلى قوله: ومن عرف ما قررناه في الأعداد، وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه، فالآمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق هو الخالق، كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة.

وقال: ألا ترى أن الحق يظهر بصفات الخلق؟فكل صفات الحق حق له، كما أن صفات المحدثات حق للخالق ونحو ذلك، مما يكثر في كلامه، وهذا الرجل له ترتيب في سلوكه، من جنس ترتيب الملاحدة، القرامطة. فأول ما يظهر اعتقاد معتزلة الكلابية، الذين ينفون الصفات الخبرية ، ويثبتون الصفات السبعة أو الثمانية ، ثم بعد ذلك اعتقاد الفلاسفة ، الذين ينفون الصفات ويثبتون وجوداً واجبا مجرداً ، صدرت عنه الممكنات.

ثم بعد هذا يجعل هذا الوجود هو وجود كل موجود، فليس عنده وجودان: أحدهما واجب، والآخر ممكن. ولا أحدهما خالق، والآخر مخلوق ، بل عين الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن، مع تعدد المراتب ، والمراتب عنده هي الأعيان الثابتة في العدم، على زعم من يقول: إن المعدوم شيء، ولا ريب أن من جعل المعدوم شيئا ثابتا في الخارج عن الذهن فقوله باطل.

لكن أولئك يقولون : إن الخالق جعل لهذه الأعيان وجودًا مخلوقًا ، وابن عربي

(1) بياض بالأصل.

يقول: بل نفس وجوده فاض عليها ، فهي مفتقرة إليه في وجوده، وهو مفتقر إلى ثبوتها، ولهذا قال : فيعبدني وأعبده، ويحمدني وأحمده، ولهذا امتنع التكليف عنده، فإن التكليف يكون من مكلِّف لمكلَّف، أحدهما آمراً والآخر مأموراً ،فامتنع التكليف.

ولهذا مثل ما يوجد من الكلام والسمع بقول النبي ﷺ :« إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به»(١) . فلما كان المحدث هنا هو المحدث،جعل هذا مثلا لوجود الرب ، فعنده كل كلام في الوجود كلامه وهو المتكلم عنده ، وهو المستمع.

ولهذا يقول :

إن قلت عبد فذاك ميت

وفي موضع آخر رأيته بخطه:

إن قلت عبد فذاك نفى

لأن العبد ليس له عنده وجود مخلوق، بل وجوده هو الوجود الواجب القديم عنده، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

فإن كلام الرجل يفسر بعضه بعضا، وهذا الأصل ـ وهو القول بوحدة الوجود ـ قوله وقول ابن سبعين، وصاحبه الششتري، والتلمساني، والصدر القونوي، وسعيد الفرغاني، وعبد الله البلياني، وابن الفارض صاحب نظم السلوك، وغير هؤلاء من أهل الإلحاد، القائلين بالوحدة والحلول والاتحاد.

وأما مدلول هذا الشعر: فإن قوله:

ياليت شعري من المكلف؟

استفهام إنكار للمكلف. ثم قال :

إن قلت عبد فذاك ميت

وفي موضع آخر قال: فذاك نفى . وكلاهما باطل، فإن العبد موجود وثابت ليس بمعدوم منتف، ولكن الله هو الذي جعله موجوداً ثابتا، وهذا هو دين المسلمين، أن كل ما سوى الله مخلوق لله موجود، يجعل الله له وجوداً، فليس لشيء من الأشياء وجود إلا

---

(١) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤)، ومسلم في الإيمان (١٢٧/ ٢٠١، ٢٠٢)، كلاهما عن أبي هريرة.

بإيجاد الله له ، وهو باعتبار نفسه لا يستحق إلا العدم. . . [1] .

موجوداً حياً ناطقاً فاعلا مريداً قادراً ، بل هذا كله. . .[2] لا يمنع ثبوت ذواتها ، وصفاتها ، وأفعالها.

فهو ـ سبحانه ـ هو الذي جعل الحي حياً ، بل هو الذي جعل المسلم مسلما، والمصلى مصليا، كما قال الخليل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة:١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وهذه مسألة خلق أفعال العبيد، وهي مذهب أهل السنة والجماعة ، مع اتفاقهم على أن العبد مأمور منهي ، مثاب معاقب، موعود متوعد، وهو ـ سبحانه ـ الذي جعل الأبيض أبيض، والأسود أسود، والطويل طويلا، والقصير قصيراً، والمتحرك متحركا، والساكن ساكناً ، والرطب رطبا، واليابس يابساً، والذكر ذكراً، والأنثي أنثى ، والحلو حلوا، والمر مراً.

ومع هذا، فالأعيان تتصف بهذه الصفات، والله تعالى خالق الذوات وصفاتها، فأي عجب من اتصاف الذات المخلوقة بصفاتها؟ ومن أين يكون الله خالق ذلك كله بالحق؟ فإذا قال القائل : الرب حق والعبد حق : فإن أراد به أن هذا الحق هو عين هذا، فهذا هو الاتحاد والإلحاد، وهذا هو الذي ينافى التكليف. وإن أراد أن العبد حق مخلوق، خلقه الخالق، فهذا مذهب المسلمين، وذلك لا ينافى أن يكون الخالق مُمكناً للمخلوق، كما أنه خالق له.

وقوله :

إن قلت عبد فذاك ميت. كذب، فإن العبد ليس بميت، بل هو حي أحياه الله تعالى، كما قال تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[البقرة:٢٨]، والله لا يكلف الميت، وإنما يكلف الحي ، وإذا قيل: إنه أراد بقوله: « ميت » أنه باعتبار نفسه لا حياة له. قيل : تفسير مراده بهذا فاسد لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فلأن كلامه لا يقتضى ذلك، وأما المعنى فلأنه إذا فسر ذلك لم يناف التكليف.

فإذا كان ميتاً ـ لولا إحياء الله ـ وقد أحياه الله، فقد صار حيًا بإحياء الله له، وحينئذ فالله إنما كلف حياً لم يكلف ميتاً، وأما أقوال إخوان الملاحدة والمحامين عنهم أنه قال:

ليت شعري من المكلف ؟

(١، ٢) بياض بالأصل.

مع علمه بأن التكليف حق فحار لمن ينسبه في القيام به. فقال :

إن قلت عبد فذاك ميت

والميت ، ليس له من نفسه حركة ، بل من غيره يقلبه كما يشاء.

وكذلك العبد ـ وإن كان حيًا ـ فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ، ليس له من نفسه فعل بغير الله . فيقال لهم: هذا العذر باطل من وجوه:

أحدها : لأنه لا حيرة هنا ، بل المكلف هو العبد بلا امتراء ولا حيرة ، فإن الله يمتنع أن يكون هو المكلف بالصيام، والطواف ، ورمي الجمار ، بل هو الآمر بذلك، والعبد هو المأمور بذلك ، ومن حار: هل المأمور بذلك الله أو العبد ؟ فهو إما يكون فاسد العقل مجنونًا، وإما فاسد الدين ملحداً زنديقا:

وكون الله خالقًا للعبد ولفعله، لا يمنع أن يكون العبد هو المأمور المنهي؛ فإنه لم يقل أحد قط: إن الله هو الذي يركع، ويسجد ، ويطوف ، ويرمي الجمار، ويصوم شهر رمضان، بل جميع الأمة متفقون على أن العبد هو الراكع، الساجد، الصائم، العابد، لا نزاع في ذلك بين أهل السنة والقدرية.

الثاني : أن قوله: إن العبد ـ وإن كان حياً ـ فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ليس بصحيح، فإن الميت ليس له إحساس، ولا إرادة ، لما يقوم به من الحركة ، ولا قدرة على ذلك، ولا يوصف بأنه يحب الفعل ، أو يبغضه ، أو يريده، أو يكرهه، ولا أنه يركع ويسجد، ويصوم ويحج، ويجاهد العدو.

وقول من قال بهذا : لا يحمد الميت على فعل الغاسل ، ولا يذم ولا يثاب ولا يعاقب، وأما العبد فإن الله جعله حياً مريداً، قادراً فاعلا، وهو يصوم ويصلي ، ويحج ويقتل ، ويزني باختياره ومشيئته، والله خالق ذاته وصفاته وأفعاله ، فله مشيئة والله خالق مشيئته ، كما قال تعالى: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩].

وله قدرة ، والله خالق قدرته، وهو مصل صائم، حاج معتمر ، والله خالقه وخالق أفعاله ، فتمثيله بالميت تمثيل باطل.

الثالث: أن يقال : إن كان كالميت مع الغاسل ، فيكون الغاسل هو المكلف، فيكون الله هو المكلف ، فيلزم أن يكون الرب هو المكلف.

الرابع : أن عقلاء بني آدم متفقون على ما فطرهم الله عليه، من أن العبد الحي يؤمر وينهى ، ويحمد ويذم على أفعاله الاختيارية، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه، لم يقبل ذلك منه، فلو ظلم ظالم لغيره ، لم يقبل أحد منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر. وأما الميت فليس في العقلاء من يذمه، ولا يأمره ولا ينهاه، فكيف يقاس هذا بهذا؟

وأما قول القائل: فإن الله لو لم يُقَوِّ العبد على التكليف لما قدر على ذلك: فكلام صحيح، لكن ليس فيه ما ينافي أن يكون مكلفاً ، مأموراً منهياً، مصليا صائما، قاتلا زانيا.

وأما قوله : فالفعل لله حقيقة، وللعبد مجازًا، فهذا كلام باطل ، بل العبد هو المصلي الصائم، الحاج المعتمر المؤمن ، وهو الكافر الفاجر ، القاتل الزاني، السارق حقيقة، والله تعالى لا يوصف بشيء من هذه الصفات، بل هو منزه عن ذلك ، لكنه هو الذي جعل العبد فاعلا لهذه الأفعال، فهذه مخلوقاته ومفعولاته حقيقة، وهي فعل العبد أيضا حقيقة.

ولكن طائفة من أهل الكلام ـ المثبتين للقدر ـ ظنوا أن الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ، فلما اعتقدوا أن أفعال العباد مخلوقة مفعولة لله، قالوا: فهي فعله. فقيل لهم مع ذلك : أهي فعل العبد ؟ فاضطربوا ، فمنهم من قال : هي كسبه لا فعله، ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق. ومنهم من قال: بل هي فعل بين فاعلين. ومنهم من قال : بل الرب فعل ذات الفعل ، والعبد فعل صفاته.

والتحقيق ما عليه أئمة السنة، وجمهور الأمة ، من الفرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق، فأفعال العباد هي كغيرها من المحدثات مخلوقة، مفعولة لله، كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة، مفعولة لله، وليس ذلك نفس خلقه وفعله، بل هي مخلوقة ومفعولة، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به، ليست قائمة بالله، ولا يتصف بها فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته، وإنما يتصف بخلقه وفعله، كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته، والعبد فاعل لهذه الأفعال ، وهو المتصف بها ، وله عليها قدرة، وهو فاعلها باختياره ومشيئته، وذلك كله مخلوق لله، فهي فعل العبد، وهي مفعولة للرب.

لكن هذه الصفات لم يخلقها الله بتوسط قدرة العبد، ومشيئته، بخلاف أفعاله الاختيارية، فإنه خلقها بتوسط خلقه لمشيئة العبد وقدرته، كما خلق غير ذلك من المسببات بواسطة أسباب أخر، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع ، ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة، والله أعلم.

ماذا تقول السادة العلماء ـ أئمة الدين ، وهداة المسلمين: في كتاب

بين أظهر الناس، زعم مصنفه أنه وضعه وأخرجه للناس بإذن النبي ﷺ، في منام زعم أنه رآه، وأكثر كتابه ضد لما أنزله الله، من كتبه المنزلة ، وعكس وضد عن أقوال أنبيائه المرسلة، فمما قال فيه : إن آدم ـ عليه السلام ـ إنما سمي إنسانًا؛ لأنه للحق تعالى بمنزلة إنسان العين من العين[1]، الذي يكون به النظر.

وقال في موضع آخر: إن الحق المنزه هو الخلق المشبه. وقال في قوم نوح ـ عليه السلام ـ: إنهم لو تركوا عبادتهم لودٍّ ، وسُوَاع، ويَغُوث ، ويَعوق، ونَسْر، لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء . ثم قال : فإن للحق في كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله . فالعالم يعلم من عبد ، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وإن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة.

ثم قال في قوم هود ـ عليه السلام ـ بأنهم حصلوا في عين القرب ، فزال العبد ، فزال مسمى جهنم في حقهم، ففازوا بنعيم القرب، من جهة الاستحقاق مما أعطاهم هذا المقام الذوقي اللذيذ، من جهة المنة، فإنما أخذوه بما استحقته حقائقهم من أعمالهم، التي كانوا عليها ، وكانوا على صراط الرب المستقيم.

ثم إنه أنكر فيه حكم الوعيد، في حق كل من حقت عليه كلمة العذاب من سائر العبيد، فهل يكفر من يصدقه في ذلك أم لا ؟ أو يرضى به منه أم لا؟ وهل يأثم سامعه إذا كان عاقلاً بالغاً ولم ينكره بلسانه أو بقلبه أم لا ؟ أفتونا بالوضوح والبيان ، كما أخذ الميثاق للتبيان، فقد أضر الإهمال بالضعفاء والجهال، وبالله المستعان وعليه الاتكال، أن يعجل بالملحدين النكال، لصلاح الحال، وحسم مادة الضلال.

فأجاب :

الحمد لله ، هذه الكلمات المذكورة ، المنكورة كل كلمة منها هي من الكفر، الذي لا نزاع فيه بين أهل الملل، من المسلمين، واليهود والنصارى، فضلا عن كونه كفراً في شريعة الإسلام.

فإن قول القائل: إن آدم للحق ـ تعالى ـ بمنزلة إنسان العين من العين،الذي يكون به

---

(١) إنسان العين : هو المثال الذي يرى في سواد العين. انظر: القاموس المحيط ، مادة« أنس».

النظر يقتضى أن آدم جزء من الحق ـ تعالى وتقدس ـ وبعض منه، وأنه أفضل أجزائه وأبعاضه، وهذا هو حقيقة مذهب هؤلاء القوم، وهو معروف من أقوالهم.

الكلمة الثانية : توافق ذلك، وهو قوله: إن الحق المنزه، هو الخلق المشبه.

ولهذا قال في تمام ذلك : فالأمر الخالق المخلوق ، والأمر المخلوق الخالق ، كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ، ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات:١٠٢]، والولد عين أبيه، فما رأى يذبح سوى نفسه، ففديناه بذبح عظيم ، فظهر بصورة كبش، من ظهر بصورة إنسان وظهر بصورة ، لا بحكم ولد هو عين الوالد، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] ، فما نكح سوى نفسه.

وقال في موضع : وهو الباطن عن كل فهم ، إلا عن فهم من قال : إن العالم صورته وهويته.

وقال : ومن أسمائه الحسنى العلى ، على من ! وما ثم إلا هو ؟ وعن ماذا ! وما هو إلا هو ؟ فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات . فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها، وليست إلا هو . إلى أن قال : فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من ينطق عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ـ وهو المسمى أبو سعيد الخراز ـ وغير ذلك من أسماء المحدثات.

إلى أن قال : فالعلى لنفسه هو الذي يكون له الكمال ، الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية ، والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعًا ، أو مذمومة عرفًا وعقلاً وشرعًا، وليس ذلك إلا لمسمى اللّه خاصة وقال : ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات؟ وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص والذم،ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق ؟! فهي من أولها إلى آخرها صفات له ، كما هي صفات المحدثات حق للحق ، وأمثال هذا الكلام.

فإن صاحب هذا الكتاب المذكور الذي هو (فصوص الحكم) وأمثاله مثل صاحبه القونوي ، والتلمساني، وابن سبعين، والششتري، وابن الفارض وأتباعهم، مذهبهم الذي هم عليه : أن الوجود واحد، ويسمون أهل وحدة الوجود، ويدعون التحقيق والعرفان، وهم يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات، فكل ما يتصف به المخلوقات من حسن ، وقبيح ، ومدح ، وذم، إنما المتصف به عندهم عين الخالق ، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات منفصل عنها أصلا، بل عندهم ما ثم غير أصلا للخالق، ولا سواه.

ومن كلماتهم : ليس إلا الله. فعباد الأصنام لم يعبدوا غيره عندهم؛ لأنه ما عندهم له غير، ولهذا جعلوا قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] بمعنى: قدر ربك ألا تعبدوا إلا إياه، إذ ليس عندهم غير له تتصور عبادته، فكل عابد صنم إنما عَبَدَ الله.

ولهذا جعل صاحب هذا الكتاب عُبَّاد العجل مصيبين، وذكر أن موسى أنكر على هارون إنكاره عليهم عبادة العجل. وقال : كان موسى أعلم بالأمر من هارون؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل؛ لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبدوا إلا إياه، وماحكم الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى أخاه هارون، لما وقع الأمر في إنكاره، وعدم اتباعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء.

ولهذا يجعلون فرعون من كبار العارفين، المحققين ، وأنه كان مصيباً في دعواه الربوبية. كما قال في هذا الكتاب: ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه جار في العرف الناموسي لذلك، قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤] أي: وإن كان الكل أربابًا بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم، بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيهم.

ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله ، لم ينكروه،بل أقروا له بذلك وقالوا له: ﴿اقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢]، فالدولة لك، فصح قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ وأنه كان عين الحق.

ويكفيك معرفة بكفرهم: أن من أخف أقوالهم أن فرعون مات مؤمنا، بريا من الذنوب كما قال : وكان موسى قرة عين لفرعون بالإيمان ، الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهراً مطهراً ، ليس فيه شيء من الخبث؛ لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئا من الآثام، والإسلام يَجُبُّ ما قبله.

وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين، واليهود ، والنصارى : أن فرعون من أكفر الخلق بالله، بل لم يقص الله في القرآن قصة كافر باسمه الخاص أعظم من قصة فرعون، ولا ذكر عن أحد من الكفار من كفره، وطغيانه وعلوه، أعظم مما ذكر عن فرعون.

وأخبر عنه وعن قومه أنهم يدخلون أشد العذاب ، فإن لفظ آل فرعون كلفظ آل إبراهيم، وآل لوط، وآل داود، وآل أبى أوفى ، يدخل فيها المضاف باتفاق الناس، فإذا جاؤوا إلى أعظم عدو لله من الإنس، أو من هو من أعظم أعدائه فجعلوه مصيبا، محقاً فيما كفره به الله، علم أن ما قالوه أعظم من كفر اليهود والنصارى، فكيف بسائر

مقالاتهم؟

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الخالق تعالى بائن من مخلوقاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

والسلف والأئمة كفّروا الجهمية لما قالوا: إنه في كل مكان، وكان مما أنكروه عليهم: أنه كيف يكون في البطون، والحشوش، والأخلية؟ تعالى الله عن ذلك . فكيف بمن يجعله نفس وجود البطون، والحشوش، والأخلية، والنجاسات، والأقذار؟

واتفق سلف الأمة وأئمتها : أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقال من قال من الأئمة: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها.

وأين المشبهة المجسمة من هؤلاء؟ فإن هؤلاء غاية كفرهم أن يجعلوه مثل المخلوقات.

لكن يقولون : هو قديم ، وهي محدثة، وهؤلاء جعلوه عين المخلوقات، وجعلوه نفس الأجسام المصنوعات، ووصفوه بجميع النقائص والآفات، التي يوصف بهما كل كافر، وكل فاجر، وكل شيطان، وكل سبع، وكل حية من الحيات، فتعالى الله عن إفكهم وضلالهم، وسبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً.

والله ـ تعالى ـ ينتقم لنفسه، ولدينه، ولكتابه ولرسوله، ولعباده المؤمنين منهم.

وهؤلاء يقولون : إن النصارى إنما كفروا لتخصيصهم، حيث قالوا : ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ**﴾ [المائدة:١٧] . فكل ما قالته النصارى في المسيح يقولونه في الله، وكفْر النصارى جزء من كفر هؤلاء.

ولما قرؤوا هذا الكتاب المذكور على أفضل متأخريهم، قال له قائل : هذا الكتاب يخالف القرآن. فقال : القرآن كله شرك. وإنما التوحيد في كلامنا هذا : يعني أن القرآن يفرق بين الرب والعبد، وحقيقة التوحيد عندهم أن الرب هو العبد ، فقال له القائل : فأي فرق بين زوجتي وبنتي إذا ؟ قال : لا فرق، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

وهؤلاء إذا قيل في مقالتهم: إنها كفر ، لم يُفْهِم هذا اللفظ حالها، فإن الكفر جنس تحته أنواع متفاوتة، بل كفر كل كافر جزء من كفرهم؛ ولهذا قيل لرئيسهم: أنت نصيري. فقال: نصير جزء مني، وكان عبد الله بن المبارك يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وهؤلاء شر من أولئك الجهمية، فإن

أولئك كان غايتهم القول بأن الله في كل مكان ، وهؤلاء قولهم: إنه وجود كل مكان، ما عندهم موجودان، أحدهما حال والآخر محل.

ولهذا قالوا : إن آدم من الله بمنزلة إنسان العين من العين، وقد علم المسلمون، واليهود ، والنصارى؛ بالاضطرار من دين المرسلين : أن من قال عن أحد من البشر: إنه جزء من الله فإنه كافر في جميع الملل؛ إذ النصارى لم تقل هذا - وإن كان قولها من أعظم الكفر- لم يقل أحد: إن عين المخلوقات هي جزء الخالق، ولا أن الخالق هو المخلوق، ولا الحق المنزه هو الخلق المشبه.

وكذلك قوله : إن المشركين لو تركوا عبادة الأصنام لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا منها، هو من الكفر المعلوم بالاضطرار من جميع الملل، فإن أهل الملل متفقون على أن الرسل جميعهم نهوا عن عبادة الأصنام، وكفروا من يفعل ذلك، وأن المؤمن لا يكون مؤمنا حتى يتبرأ من عبادة الأصنام، وكل معبود سوى الله، كما قال الله تعالى :﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة : ٤].

وقال الخليل : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٥-٧٧]، وقال الخليل لأبيه وقومه ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[الزخرف: ٢٦ ، ٢٧]، وقال الخليل ـ وهو إمام الحنفاء الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب واتفق أهل الملل على تعظيمه لقوله -: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وهذا أكثر وأظهر، عند أهل الملل من اليهود، والنصارى ـ فضلا عن المسلمين ـ من أن يحتاج أن يستشهد عليه بنص خاص، فمن قال : إن عباد الأصنام لو تركوهم لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فهو أكفر من اليهود والنصارى، ومن لم يكفرهم فهو أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يكفرون عباد الأصنام ، فكيف من يجعل تارك عبادة الأصنام جاهلا من الحق بقدر ما ترك منها؟ مع قوله : فإن العالم يعلم من عبد ، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود ، بل

هو أعظم من كفر عباد الأصنام ؛ فإن أولئك اتخذوهم شفعاء، ووسائط ، كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣] ، وقال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر:٤٣].

وكانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض ، وخالق الأصنام، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨]، وقال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف :١٠٦].

قال ابن عباس : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون: الله، ثم يعبدون غيره، وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[الروم:٢٨].

وهؤلاء أعظم كفراً، من جهة أن هؤلاء جعلوا عابد الأصنام عابداً لله لا عابداً لغيره، وأن الأصنام من الله بمنزلة أعضاء الإنسان من الإنسان، وبمنزلة قوى النفس من النفس، وعباد الأصنام اعترفوا بأنها غيره، وأنها مخلوقة، ومن جهة أن عباد الأصنام من العرب كانوا مقرين بأن للسموات والأرض رباً غيرهما خلقهما، وهؤلاء ليس عندهم للسموات، والأرض، وسائر المخلوقات رب مغاير للسموات والأرض، وسائر المخلوقات، بل المخلوق هو الخالق.

ولهذا جعل قوم عاد، وغيرهم من الكفار، على صراط مستقيم، وجعلهم في عين القرب، وجعل أهل النار يتمتعون في النار، كما يتمتع أهل الجنة في الجنة.

. قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن قوم عاد وثمود ، وفرعون وقومه، وسائر
ـ الله قصته من الكفار أعداء الله، وأنهم معذبون في الآخرة ، وأن الله لعنهم
ب عليهم، فمن أثنى عليهم وجعلهم من المقربين ومن أهل النعيم، فهو أكفر من
ود والنصارى، من هذا الوجه.

وهذه الفتوى لا تحتمل بسط كلام هؤلاء، وبيان كفرهم وإلحادهم، فإنهم من جنس القرامطة الباطنية، والإسماعيلية، الذين كانوا أكفر من اليهود والنصارى، وأن قولهم يتضمن الكفر بجميع الكتب والرسل ، كما قال الشيخ إبراهيم الجعبري، لما اجتمع بابن عربي ـ صاحب هذا الكتاب ـ فقال : رأيته شيخاً نجساً، يكذب بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي أرسله الله.

وقال الفقيه أبو محمد بن عبد السلام ـ لما قدم القاهرة وسألوه عنه ـ قال : هو شيخ سوء كذاب مقبوح، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجا ، فقوله: يقول بقدم العالم ، لأن هذا قوله ، وهذا كفر معروف، فكفره الفقيه أبو محمد بذلك، ولم يكن بعد ظهر من قوله : إن العالم هو الله، وإن العالم صورة الله ، وهوية الله، فإن هذا أعظم من كفر القائلين بقدم العالم، الذين يثبتون واجب الوجود، ويقولون: إنه صدر عنه الوجود الممكن.

وقال عنه من عاينه من الشيوخ : إنه كان كذاباً مفتريا، وفي كتبه ـ مثل الفتوحات المكية وأمثالها ـ من الأكاذيب ما لا يخفى على لبيب. هذا وهو أقرب إلى الإسلام من ابن سبعين، ومن القونوي، والتلمساني، وأمثاله من أتباعه، فإذا كان الأقرب بهذا الكفر ـ الذي هو أعظم من كفر اليهود والنصارى ـ فكيف بالذين هم أبعد عن الإسلام ؟ ولم أصف عُشْر ما يذكرونه من الكفر.

ولكن هؤلاء الْتَبَس أمرهم على من لم يعرف حالهم، كما الْتَبَسَ أمر القرامطة الباطنية لما ادعوا أنهم فاطميون، وانتسبوا إلى التشيع ، فصار المتبعون مائلين إليهم، غير عالمين بباطن كفرهم.

ولهذا كان من مال إليهم أحد رجلين: إما زنديقاً منافقاً، وإما جاهلا ضالا.

وهكذا هؤلاء الاتحادية: فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم، ولا تقبل توبة أحد منهم، إذا أخذ قبل التوبة، فإنه من أعظم الزنادقة، الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون أعظم الكفر، وهم الذين يفهمون قولهم، ومخالفتهم لدين المسلمين، ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذب عنهم، أو أثنى عليهم ، أو عظم كتبهم، أو عرف بمساعدتهم ومعاونتهم، أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدري ما هو ، أو: من قال إنه صنف هذا الكتاب ، وأمثال هذه المعاذير، التي لا يقولها إلا جاهل ، أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم، ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء، والملوك والأمراء، وهم يسعون في الأرض فساداً، ويصدون عن سبيل الله.

فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم، ويترك دينهم كقطاع الطريق، وكالتتار الذين يأخذون منهم الأموال ويبقون لهم دينهم، ولا يستهين بهم من لم يعرفهم ، فضلالهم وإضلالهم أعظم من أن يوصف ، وهم أشبه الناس بالقرامطة الباطنية.

ولهذا هم يريدون دولة التتار، ويختارون انتصارهم على المسلمين، إلا من كان عامياً من شيعهم وأتباعهم، فإنه لا يكون عارفاً بحقيقة أمرهم.

ولهذا يقرون اليهود والنصارى على ما هم عليه، ويجعلونهم على حق ، كما يجعلون عباد الأصنام على حق، وكل واحدة من هذه من أعظم الكفر، ومن كان محسنا للظن بهم ـ وادعى أنه لم يعرف حالهم ـ عُرِّف حالهم، فإن لم يباينهم ويظهر لهم الإنكار، وإلا ألحق بهم وجعل منهم.

وأما من قال: لكلامهم تأويل يوافق الشريعة، فإنه من رؤوسهم وأئمتهم، فإنه إن كان ذكيا فإنه يعرف كذب نفسه فيما قاله، وإن كان معتقدا لهذا باطنا وظاهراً فهو أكفر من النصارى، فمن لم يكفر هؤلاء ، وجعل لكلامهم تأويلا كان عن تكفير النصارى بالتثليث، والاتحاد أبعد ، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام :أحمد بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله الأحد الحق المبين. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين،ﷺ تسليما كثيرا، وعلى سائر إخوانه المرسلين.

أما بعد :

فقد وصل كتابك، تلتمس فيه بيان مذهب هؤلاء الاتحادية وبيان بطلانه، وإنك كنت قد سمعت مني بعض البيان لفساد قولهم، وضاق الوقت بك عن استتمام بقية البيان، وأعجلك السفر، حتى رأيت عندكم بعض من ينصر قولهم، ممن ينتسب إلى الطريقة والحقيقة، وصادف مني كتابك موقعاً، ووجدت محلا قابلا.

وقد كتبت بما أرجو أن ينفع الله به المؤمنين، ويدفع به بأس هؤلاء الملاحدة المنافقين ، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته المخلوقات والمنزلات في كتابه المبين، ويبين الفرق بين ما عليه أهل التحقيق واليقين، من أهل العلم والمعرفة المهتدين، وبين ما عليه هؤلاء الزنادقة المتشبهين بالعارفين، كما تشبه بالأنبياء من تشبه من المتنبئين، كما شبهوا بكلام الله ما شبهوه به من الشعر المفتعل وأحاديث المفترين؛ ليتبين أن هؤلاء من جنس الكفار المنافقين المرتدين، أتباع فرعون والقرامطة الباطنيين، وأصحاب مسيلمة والعنسى ونحوهما من المفترين ، وأن أهل العلم والإيمان من الصديقين والشهداء والصالحين، سواء كانوا من المقربين السابقين ، أو من المقتصدين أصحاب اليمين، هم من أتباع إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، ومحمد المبعوث إلى الناس أجمعين.

قد فرق الله في كتابه المبين الذي جعله حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق، بين الحق والباطل ، والهدى والضلال، والمؤمنين والكافرين، وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[الجاثية: ٢١]، وقال : ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[ص: ٢٨]، وقال : ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[القلم: ٣٥، ٣٦].

وقد بين حال من تشبه بالأنبياء وبأهل العلم والإيمان، من أهل الكذب والفجور

الملبوس عليهم اللابسين، وأخبر أن لهم تنزلاً ووحيا ولكن من الشياطين، فقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

وأخبر أن كل من ارتد عن دين الله فلابد أن يأتي الله بَدَلَه بمن يقيم دينه المبين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وذلك أن مذهب هؤلاء الملاحدة فيما يقولونه من الكلام، وينظمونه من الشعر بين حديث مفترى، وشعر مفتعل، وإليهما أشار أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لما قال له عمر بن الخطاب في بعض ما يخاطبه به: يا خليفة رسول الله، تألف الناس. فأخذ بلحيته وقال: يا بن الخطاب، أجباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام؟ علام أتألفهم؟ أعلى حديث مفترى أم شعر مفتعل؟ يقول: إني لست أدعوهم إلى حديث مفترى كقرآن مسيلمة، ولا شعر مفتعل كشعر طليحة الأسدي.

وهذان النوعان، هما اللذان يعارض بهما القرآن أهل الفجور والإفك المبين، قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-٢١٠]، إلى آخر السورة.

فذكر في هذه السورة علامة الكهان الكاذبين، والشعراء الغاوين، ونزهه عن هذين الصنفين، كما في سورة الحاقة. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير: ١٩، ٢٠] إلى آخر السورة. فالرسول هنا جبريل، وفي الآية الأولى محمد ﷺ، ولهذا نزه محمداً هناك عن أن يكون شاعراً أو كاهنا، ونزه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين.

فصــل

اعلم ـ هداك الله وأرشدك ـ أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده، لا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة؛ لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم، لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة ، بل وهم أيضا لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم ، وإنما ينتحلون شيئا ويقولونه أو يتبعونه.

ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق، ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم، مع استشعارهم أنهم مفترقون.

ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم، وسر مذهبهم ، صاروا يعظمون ذلك، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذله النصاري لرؤسائهم، والإسماعيلية لكبرائهم، وكما بذل آل فرعون لفرعون.

وكل من يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين : إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً، أو جامع بين الوصفين ، وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وحال القرامطة مع رؤسائهم .

وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ إلى قوله: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤ـ ٦٨] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ـ١٦٧].

فصــل

حقيقة قول هؤلاء : أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة، ولهذا من سماهم حلولية أو قال: هم قائلون بالحلول رأوه محجوباً عن معرفة قولهم، خارجا عن الدخول إلى باطن أمرهم؛ لأن من قال : إن الله يحل في المخلوقات، فقد قال بأن المحل غير الحال ، وهذا تثنية عندهم وإثبات لوجودين :

أحدهما : وجود الحق الحال .

والثاني : وجود المخلوق المحل، وهم لا يقرون بإثبات وجودين البتة.

ولا ريب أن هذا القول أقل كفراً من قولهم، وهو قول كثير من الجهمية الذين كان السلف يردون قولهم،وهم الذين يزعمون أن الله بذاته في كل مكان. وقد ذكره جماعات من الأئمة والسلف عن الجهمية وكفروهم به، بل جعلهم خلق من الأئمة ـ كابن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره ـ خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة . وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم.

ولا ريب أن إلحاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها.

وأما وجه تسميتهم اتحادية ففيه طريقان: أحدهما: لا يرضونه؛ لأن الاتحاد على وزن الاقتران، والاقتران يقتضى شيئين اتحد أحدهما بالآخر، وهم لا يقرون بوجودين أبداً والطريق الثاني: صحة ذلك بناء على أن الكثرة صارت وحدة كما سأبينه من اضطرابهم.

وهذه الطريقة إما على مذهب ابن عربي، فإنه يجعل الوجود غير الثبوت ويقول: إن وجود الحق قاض على ثبوت الممكنات ، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت. وأما على قول من لا يفرق فيقول: إن الكثرة الخيالية صارت وحدة بعد الكشف، أو الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية.

فصـــل

ولما كان أصلهم الذي بنوا عليه : أن وجود المخلوقات والمصنوعات، حتى وجود الجن والشياطين، والكافرين والفاسقين ، والكلاب والخنازير ، والنجاسات والكفر، والفسوق والعصيان: عين وجود الرب ، لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته، وإن كان مخلوقا له مربوباً مصنوعا له قائماً به.

وهم يشهدون أن في الكائنات تفرقا وكثرة ظاهرة بالحس والعقل ، فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها، فاضطربوا على ثلاث مقالات أنا أبينها لك وإن كانوا هم لا يبين بعضهم مقالة نفسه ومقالة غيره؛ لعدم كمال شهود الحق وتصوره.

المقالة الأولى : مقالة ابن عربي صاحب فصوص الحكم:

وهي مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام؛ لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرًا، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى. والله أعلم بما مات عليه، فإن مقالته مبنية على أصلين:

أحدهما : أن المعدوم شيء ثابت في العدم، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة.

وأول من ابتدع هذه المقالة في الإسلام : أبو عثمان الشحام شيخ أبي على الجبائي، وتبعه عليها طوائف من القدرية المبتدعة من المعتزلة والرافضة ، وهؤلاء يقولون: إن كل معدوم يمكن وجوده فإن حقيقته وماهيته وعينه ثابته في العدم؛ لأنه لولا ثبوتها لما تميز عن المعلوم المخبر عنه من غير المعلوم المخبر عنه، ولما صح قصد ما يراد إيجاده؛ لأن القصد يستدعى التمييز، والتمييز لا يكون إلا في شيء ثابت.

لكن هؤلاء وإن ابتدعوا هذه المقالة التي هي باطلة في نفسها - وقد كفرهم بها طوائف من متكلمة السنة - فهم يعترفون بأن الله خلق وجودها ، ولا يقولون: إن عين وجودها عين وجود الحق .

وأما صاحب الفصوص و أتباعه فيقولون : عين وجودها عين وجود الحق، فهي متميزة بذواتها الثابته في العدم، متحدة بوجود الحق القائم بها. وعامة كلامه ينبني على هذا لمن تدبره وفهمه.

وابن عربي إذا جعل الأعيان ثابتة لزمه وجود كل ممكن، وليس هذا قول المعتزلة، فهذا فرق ثالث.

وهؤلاء القائلون بأن المعدوم شيء ثابت في العدم - سواء قالوا بأن وجودها خلق لله أو هو الله - يقولون: إن الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة، وإن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته، وقد يقولون: الوجود صفة للموجود.

وهذا القول وإن كان فيه شبه بقول القائلين بقدم العالم، أو القائلين بقدم مادة العالم وهيولاه المتميزة عن صورته، فليس هو إياه، وإن كان بينهما قدر مشترك ، فإن هذه الصورة المحدثة من الحيوانات والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء ، بل هي

كائنة بعد أن لم تكن.

كذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السموات، والاستحالات القائمة بالعناصر، من حركات الكواكب ، والشمس والقمر والسحاب والمطر ، و الرعد والبرق وغير ذلك، كل هذا حادث غير قديم، عند كل ذي حس سليم، فإنه يرى ذلك بعينه.

والذين يقولون بأن عين المعدوم ثابتة في القدم أو بأن مادته قديمة، يقولون بأن أعيان جميع هذه الأشياء ثابته في القدم، ويقولون: إن مواد جميع العالم قديمة دون صوره.

واعلم أن المذهب إذا كان باطلا في نفسه، لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصوراً حقيقيا ، فإن هذا لا يكون إلا للحق . فأما القول الباطل فإذا بُيِّن فبيانه يظهر فساده، حتى يقال: كيف اشتبه هذا على أحد ويتعجب من اعتقادهم إياه، ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس؛ ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨]، وأنهم ﴿لا يَفْقَهُونَ﴾، وأنهم ﴿لاَّ يَعْقِلُونَ﴾وأنهم﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٨، ٩]، وأنهم﴿ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥]، وأنهم ﴿ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة: ١٥].

وإنما نشأ ـ والله أعلم ـ الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أن الله ـ سبحانه ـ يعلم ما لم يكن قبل كونه ، أو: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فرأوا أن المعدوم الذي يخلقه يتميز في علمه وإرادته وقدرته، فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة وليس الأمر كذلك.

وإنما هو متميز في علم الله وكتابه، والواحد منا يعلم الموجود، والمعدوم الممكن، والمعدوم المستحيل ، ويعلم ما كان كآدم والأنبياء، ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما يعلم ما أخبر الله به عن أهل النار، ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام:٢٨]، وأنهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣]، وأنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وأنه ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[الإسراء:٤٢]، وأنهم ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة:٤٧]، وأنه﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:٢١] ،ونحو ذلك من الجمل الشرطية التي يعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته.

فهذه الأمور التي نعلمها نحن ونتصورها، إما نافين لها أو مثبتين لها في الخارج أو مترددين، ليس بمجرد تصورنا لها يكون لأعيانها ثبوت في الخارج عن علمنا وأذهاننا، كما

نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق، وإنساناً من ذهب وفرسًا من حجر. فثبوت الشيء في العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه في الخارج، بل العالم يعلم الشيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته في الخارج ثبوت ولا وجود أصلا.

وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه، كما في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»(١).

وفي سنن أبي داود: عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»(٢)، وقال ابن عباس: إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا؟ ثم أنزل تصديق ذلك في كتابه فقال: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾** [الحج: ٧٠].

هذا هو معنى الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ وفي رواية متى كتبت نبيا؟ - قال: «وآدم بين الروح والجسد»(٣)، هكذا لفظ الحديث الصحيح.

وأما ما يرويه هؤلاء الجهال - كابن عربي في الفصوص وغيره من جهال العامة -: «كنت نبيا وآدم بين الماء و الطين»، «كنت نبيا وآدم لا ماء ولا طين». فهذا لا أصل له ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين، ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ، بل هو باطل، فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط، فإن الله خلقه من تراب، وخلط التراب بالماء حتى صار طينًا، وأيبس الطين حتى صار صَلْصَالاً كالفَخَّار، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والطين، ولو قيل: بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال، مع أن هذا الحال لا اختصاص لها، وإنما قال: «بين الروح والجسد»، وقال: «وإن آدم لمنجدل في طينته»(٤)؛ لأن جسد آدم بقى أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه، كما قال تعالي: **﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾** الآية [الإنسان: ١]، وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ﴾** الآيتين [الحجر: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: **﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**

---

(١) مسلم في القدر (١٦/٢٦٥٣).

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٠٠).

(٣) أحمد ٥/٥٩، ٤ / ٦٦.

(٤) أحمد ٤ / ١٢٧، ١٢٨ والحاكم فى المستدرك ٢ / ٤١٨ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ من طِينٍ﴾ الآيتين [السجدة: ٧، ٨] ، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] . والأحاديث في خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة في كتب الحديث والتفسير وغيرهما.

فأخبر ﷺ أنه كان نبيا، أي: كتب نبيا وآدم بين الروح والجسد. وهذا - والله أعلم - لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذى يكون بأيدي ملائكة الخلق، فيقدر لهم ويظهر لهم، ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه ، كما أخرج الشيخان في الصحيحين وفي سائر الكتب الأمهات : حديث الصادق المصدوق ، وهو من الأحاديث المستفيضة، التي تلقاها أهل العلم بالقبول وأجمعوا على تصديقها ، وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول اللهﷺ وهو الصادق المصدوق : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح»، وقال :«فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة»(١).

فلما أخبر الصادق المصدوق أن الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح. وآدم هو أبو البشر كان أيضا من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم فهو أعظم الذرية قدراً وأرفعهم ذكراً.

فأخبر ﷺ أنه كتب نبيا حينئذ، وكتابة نبوته هو معنى كون نبوته، فإنه كون في التقدير الكتابي ، ليس كونا في الوجود العيني؛ إذ نبوته لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى على رأس أربعين سنة من عمره ﷺ كما قال تعالى له: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]. وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية [يوسف: ٣].

ولذلك جاء هذا المعني مفسراً في حديث العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني عبد الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول

---

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر(٢٦٤٣/ ١)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧) وقال: « حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة (٧٦)، وأحمد ١/ ٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠.

أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام»[1] ،هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب.

حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض، رواه البغوي في شرح السنة هكذا [2]، ورواه الليث بن سعد عنه نحوه، ورواه الإمام أحمد في المسند عن ابن مهدي: حدثنا معاوية بن صالح بالإسناد عن العرباض قال: قال رسول الله ﷺ : «إني عبد الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[3] ،وقوله: «لمنجدل في طينته» أي: ملتف ومطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد.

وقد روى أن الله كتب اسمه على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروي في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة، التي تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ.

وقد تقدم لفظ الحديث الذي في المسند عن ميسرة الفجر لما قيل له : متى كنت نبيا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[4]،وقد رواه أبو الحسين بن بِشْرَان من طريق الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في الوفا بفضائل المصطفى ﷺ:حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو، حدثنا أحمد ابن إسحاق بن صالح، ثنا محمد بن صالح، ثنا محمد بن سنان العوفي، ثنا إبراهيم بن طهمان،عن يزيد بن ميسرة ،عن عبد الله بن سفيان ، عن ميسرة قال : قلت: يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ قال: «لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء ، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق، والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى، نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه»[5].

وروى أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة، ومن طريق الشيخ أبي الفرج: حدثنا سليمان بن أحمد ، ثنا أحمد بن رِشْدِين ، ثنا أحمد بن سعيد الفهري ، ثنا عبد الله بن

---

(١) أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨،وابن حبان في التاريخ (٦٣٧٠)،والحاكم ٢/ ٦٠٠ وقال الذهبي: « أبو بكر ضعيف».

(٢) البغوي في شرح السنة (٣٦٢٦).

(٣) أحمد ٤/ ١٢٧.

(٤) سبق تخريجه ص ٩٣ .

(٥) الوفا بأحوال المصطفى ٣٣١.

إسماعيل المدني، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ : «لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال: يارب، بحق محمد إلا غفرت لي، فأوحى إليه وما محمد؟ ومن محمد؟ فقال : يا رب، إنك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك؛ إذ قرنت اسمه مع اسمك. فقال : نعم ، قد غفرت لك وهو آخر الأنبياء من ذريتك ولولاه ما خلقتك »(1) ،فهذا الحديث يؤيد الذي قبله وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ،وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يأتي غار حِراء فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق، وهو بحراء ، فأتاه الملك فقال له : اقرأ . قال : «لست بقارئ». قال : «فأخذني فغَطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال : اقرأ . فقلت : لست بقارئ» قال:«فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال : اقرأ. فقلت :لست بقارئ ، ثم أخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني» ، فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ [العلق: ١ ، ٢] فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره(2) .الحديث بطوله.

فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئا ، وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبياً، ثم أنزل عليه سورة المدثر، وبها صار رسولا لقوله:﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر: ٢]؛ ولهذا ذكر ـ سبحانه ـ في هذه السورة الوجود العيني والوجود العلمي، وهذا أمر بين، يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه إلى سمع، فإن الشيء لا يكون قبل كونه.

وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها، فهذا حق لا ريب فيه، وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وجاءت به الآثار.

وهذا العلم والكتاب هو القدر الذي ينكره غالية القدرية، ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار، كفَّرهم الأئمة كالشافعي وأحمد وغيرهما.

---

(1) لم نقف عليه عند أبي نعيم، وقد ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٤٨٩/٥ وقال:« تفرد به عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم من هذا الوجه عنه، وهو ضعيف، والله أعلم». وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعفه يحيى بن معين والإمام أحمد والنسائي، الميزان ٢/ ٥٦٤، وذكره العقيلي في الضعفاء الكبير ٢/ ٣٣١.

(2) البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠/ ٢٥٢).

وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر، وأجاب النبي ﷺ عن السؤال الوارد عليه ، وهو ترك العمل لأجله، فأجاب ﷺ عن ذلك، ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال : كنا في جنازة في بَقِيع الغَرْقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد» ـ أو قال ـ «ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة». قال: فقال رجل : يا رسول الله،أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ،فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ فقال : «اعملوا فكل مُيَسر ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة »، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [الليل:٥] إلى آخر الآيات(١) . وفي رواية : كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسا وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» قالوا: يا رسول الله، ففيم العمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال:«لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ الآية(٢).

وفي الصحيحين أيضاً عن عمران بن حصين قال : قيل: يا رسول الله، أَعُلِم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال: «نعم» قال: فقيل : ففيم يعمل العاملون ؟ فقال: «كل ميسر لما خلق له» (٣) وفي رواية : أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟ فقال:« لا. بل شيء قضى عليهم ومضي فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾» (٤) [الشمس:٧، ٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم قال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل ؟ قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير». قال : ففيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر»(٥).

---

(١) البخاري في الجنائز (١٣٦٢)، ومسلم في القدر (٦/٢٦٤٧).

(٢) البخاري في التفسير (٤٩٤٩)، ومسلم في القدر (٧/٢٦٤٧).

(٣) البخاري في التوحيد (٧٥٥١)، ومسلم في القدر (٩/٢٦٤٩) .

(٤) مسلم فى القدر (٢٦٥٠ / ١٠) .

(٥) مسلم في القدر (٨/٢٦٤٨).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ـ قال : وعرشه على الماء»(١).

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني ، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب، ما أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات على غير هذا فليس مني»(٢) ،ورواه الترمذي من وجه آخر عن الوليد بن عبادة أنه قال : دعاني ـ يعني أباه ـ عند الموت فقال : يا بني، اتق الله، واعلم أنك إن تتق الله تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله، خيره وشره، وإن مت على غير هذا دخلت النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»(٣).

وفي الترمذي أيضا عن أبي خزامة(٤) عن أبيه، أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله تعالى شيئا؟ قال: «هي من قدر الله»(٥).

لكن إنما ثبتت في التقدير المعدوم الممكن الذي سيكون ، فأما المعدوم الممكن الذي لا يكون فمثل إدخال المؤمنين النار وإقامة القيامة قبل وقتها، وقلب الجبال يواقيت ونحو ذلك، فهذا المعدوم ممكن وهو شيء ثابت في العدم عند من يقول: المعدوم شيء، ومع هذا، فليس بمقدر كونه، والله يعلمه على ما هو عليه، يعلم أنه ممكن وأنه لا يكون.

وكذلك الممتنعات مثل شريك الباري وولده، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويعلم أنه ليس له شريك في الملك ولا ولي من الذل ، ويعلم أنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

---

(١) مسلم في القدر (٢٦٥٣/١٦).

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٠٠).

(٣) الترمذي في القدر (٢١٥٥) وقال: «غريب من هذا الوجه».

(٤) في المطبوعة : « أبي حراثة » ، والصحيح ما أثبتناه من الترمذي وابن ماجه.

(٥) الترمذي في الطب (٢٠٦٥)، وفي القدر (٢١٤٨)، وقال: « هذا حديث حسن صحيح».

وهذه المعدومات الممتنعة ليست شيئا باتفاق العقلاء مع ثبوتها في العلم، فظهر أنه قد ثبت في العلم ما لا يوجد وما يمتنع أن يوجد إذ العلم واسع، فإذا توسع المتوسع وقال: المعدوم شيء في العلم أو موجود في العلم أو ثابت في العلم، فهذا صحيح ، أما أنه في نفسه شيء فهذا باطل ، وبهذا تزول الشبهة الحاصلة في هذه المسألة.

والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف: أن المعدوم ليس في نفسه شيئا، وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم، قال الله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، فأخبر أنه لم يك شيئا ، وقال تعالى : ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[مريم: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خُلِقوا من غير شيء خلقهم أم خَلَقوا هم أنفسهم، ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة أحسست بفؤادي قد انصدع[1]، ولو كان المعدوم شيئا لم يتم الإنكار إذا جاز أن يقال: ما خلقوا إلا من شيء ، لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئا معدوما. وقال تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠] .ولو كان المعدوم شيئا لكان التقدير: لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً ، والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم.

وأما قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١] فهو إخبارعن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ليس إخباراً عن الزلزلة في هذه الحال، ولهذا قال : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] ،ولو أريد به الساعة لكان المراد به أنها شيء عظيم في العلم والتقدير.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] قد استدل به من قال: المعدوم شيء وهو حجة عليه؛ لأنه أخبر أنه يريد الشيء وأنه يكونه، وعندهم أنه ثابت في العدم وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه، والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكون، وهذا من فروع هذه المسألة.

فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة، وأن ماهية كل شيء عين وجوده، وأنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته، بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته ، وليس وجوده وثبوته في

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٤) بلفظ :« كاد قلبي أن يطير».

الخارج زائدا على ذلك.

وأولئك يقولون: الوجود قدر زائد على الماهية ، ويقولون: الماهيات غير مجعولة ، ويقولون: وجود كل شيء زائد على ماهيته، ومن المتفلسفة من يفرق بين الوجود والواجب والممكن فيقول : الوجود الواجب عين الماهية. وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية . وشبهة هؤلاء: ما تقدم من أن الإنسان قد يعلم ماهية الشيء ولا يعلم وجوده، وأن الوجود مشترك بين الموجودات ، وماهية كل شيء مختصة به.

ومن تدبر تبين له حقيقة الأمر، فإنا قد بينا الفرق بين الوجود العلمي والعيني، وهذا الفرق ثابت في الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك، فثبوت هذه الأمور في العلم والكتاب والكلام: ليس هو ثبوتها في الخارج عن ذلك، وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التي هي هي ، فالإنسان إذا تصور ماهية فقد علم وجودها الذهني، ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقي الخارجي . فقول القائل : قد تصورت حقيقة الشيء وعينه، ونفسه وماهيته، وما علمت وجوده، أو حصل وجوده العلمي، وما حصل وجوده العيني الحقيقي، ولم يعلم ماهيته الحقيقية، ولا عينه الحقيقية، ولا نفسه الحقيقية الخارجية، فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته، إلا أن أحد اللفظين قد يعبر به عن الذهني ، والآخر عن الخارجي، فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود.

وأما قولهم : إن الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها ، فالقول فيه كذلك، فإن الوجود المعين الموجود في الخارج لا اشتراك فيه، كما أن الحقيقة المعينة الموجودة في الخارج لا اشتراك فيها وإنما العلم يدرك الموجود المشترك كما يدرك الماهية المشتركة ، فالمشترك ثبوته في الذهن لا في الخارج، وما في الخارج ليس فيه اشتراك البتة، والذهن إن أدرك الماهية المعينة الموجودة في الخارج لم يكن فيها اشتراك، وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة، وليس في الخارج شيء مطلق عام بوصف الإطلاق والعموم، وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق، وذلك لا يوجد في الخارج إلا معينا.

فينبغي للعاقل أن يفرق بين ثبوت الشيء ووجوده في نفسه، وبين ثبوته ووجوده في العلم، فإن ذاك هو الوجود العيني الخارجي الحقيقي، وأما هذا فيقال له: الوجود الذهني والعلمي، وما من شيء إلا له هذان الثبوتان، فالعلم يعبر عنه باللفظ ويكتب اللفظ بالخط، فيصير لكل شيء أربع مراتب: وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان، وجود في البنان، وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي ، ورسمي .

ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ذكر فيها

النوعين فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق: ١، ٢]، فذكر جميع المخلوقات بوجودها العيني عموما ثم خصوصا، فخص الإنسان بالخلق بعد ما عم غيره ، ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ـ ٥]، فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم، وذكر القلم؛ لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ، فإن الخط يطابقه، وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم؛ لأن العبارة تطابق المعنى .

فصار تعليمه بالقلم مستلزما للمراتب الثلاث: اللفظي ، والعلمي، والرسمي، بخلاف ما لو أطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعبا للمراتب.

فذكر في هذه السورة الوجود العيني والعلمي، وأن الله ـ سبحانه ـ هو معطيهما؛ فهو خالق الخلق وخالق الإنسان، وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان.

فأما إثبات وجود الشيء في الخارج قبل وجوده، فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع، وهو مخالف للكتاب والسنة والإجماع.

فصـــــل

فهذا أحد أصلي ابن عربي . وأما الأصل الآخر فقولهم: إن وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه، وهذا انفردوا به عن جميع مثبتة الصانع من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين، وإنما هو حقيقة قول فرعون والقرامطة المنكرين لوجود الصانع، كما سنبينه إن شاء الله.

فمن فهم هذا فهم جميع كلام ابن عربي، نظمه ونثره، وما يدعيه من أن الحق يغتذى بالخلق؛ لأن وجود الأعيان مغتذ بالأعيان الثابتة في العدم، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان، ويزعم أن هذا هو سر القدر؛ لأن الماهيات لا تقبل إلا ما هو ثابت لها في العدم في أنفسها، فهي التي أحسنت وأساءت وحمدت وذمت، والحق لم يعطها شيئاً إلا ما كانت عليه في حال العدم.

فتدبر كلامه كيف انتظم شيئين: إنكار وجود الحق، وإنكار خلقه لمخلوقاته، فهو منكر للرب الذي خلق فلا يقر برب ولا بخلق، ومنكر لرب العالمين، فلا رب ولا عالمون مربوبون، إذ ليس إلا أعيان ثابتة، ووجود قائم بها، فلا الأعيان مربوبة ولا الوجود مربوب، ولا الأعيان مخلوقة ولا الوجود مخلوق.

وهذا يفرق بين المظاهر والظاهر والمجلى والمتجلي؛ لأن المظاهر عنده هي الأعيان الثابته في العدم، وأما الظاهر فهو وجود الخلق.

فصل

وأما صاحبه ـ الصدر الفخر الرومي ـ فإنه لا يقول: إن الوجود زائد على الماهية، فإنه كان أدخل في النظر والكلام من شيخه، لكنه أكفر وأقل علماً وإيماناً، وأقل معرفة بالإسلام وكلام المشايخ، ولما كان مذهبهم كفراً كان كل من حذق فيه كان أكفر. فلما رأى أن التفريق بين وجود الأشياء وأعيانها لا يستقيم، وعنده أن الله هو الوجود، ولابد من فرق بين هذا وهذا، فرق بين المطلق والمعين، فعنده أن الله هو الوجود المطلق الذي لا يتعين ولا يتميز، وأنه إذا تعين وتميز فهو الخلق، سواء تعين في مرتبة الإلهية أو غيرها.

وهذا القول قد صرح فيه بالكفر أكثر من الأول، وهو حقيقة مذهب فرعون والقرامطة، وإن كان الأول أفسد من جهة تفرقته بين وجود الأشياء وثبوتها ، وذلك أنه على القول الأول يمكن أن يجعل للحق وجوداً خارجاً عن أعيان الممكنات، وأنه فاض عليها ، فيكون فيه اعتراف بوجود الرب القائم بنفسه الغنى عن خلقه، وإن كان فيه كفر من جهة أنه جعل المخلوق هو الخالق، والمربوب هو الرب، بل لم يثبت خلقا أصلا ، ومع هذا فما رأيته صرح بوجود الرب متميزاً عن الوجود القائم بأعيان الممكنات.

وأما هذا فقد صرح بأنه ما ثم سوى الوجود المطلق الساري في الموجودات المعينة، والمطلق ليس له وجود مطلق ، فما في الخارج جسم مطلق بشرط الإطلاق ، ولا إنسان مطلق، ولا حيوان مطلق بشرط الإطلاق، بل لا يوجد إلا في شيء معين.

والحقائق لها ثلاث اعتبارات : اعتبار العموم والخصوص والإطلاق.

فإذا قلنا: حيوان عام أو إنسان عام، أو جسم عام، أو وجود عام، فهذا لا يكون إلا في العلم واللسان، وأما الخارج عن ذلك فما ثم شيء موجود في الخارج يعم شيئين؛ ولهذا كان العموم من عوارض صفات الحي. فيقال: علم عام، وإرادة عامة، وغضب عام، وخبر عام، وأمر عام.

ويوصف صاحب الصفة بالعموم أيضا كما في الحديث الذي في سنن أبي داود: أن النبي ﷺ مر بعلى وهو يدعو فقال: « يا على، عُمَّ، فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض»[1] ،وفي الحديث أنه لما نزل قوله :﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

(١) أبو داود في المراسيل: ص ١١٥ عن عمرو بن شعيب. ولم أعثر عليه في سننه.

[الشعراء: ٢١٤] عم وخص، رواه مسلم من حديث موسى بن طلحة عن أبي هريرة [١].

وتوصف الصفة بالعموم كما في حديث التشهد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإذا قلتم ذلك فقد أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض» [٢].

وأما إطلاق من أطلق أن العموم من عوارض الألفاظ فقط، فليس كذلك؛ إذ معاني الألفاظ القائمة بالقلب أحق بالعموم من الألفاظ ، وسائر الصفات، كالإرادة ، والحب، والبغض، والغضب، والرضا يعرض لها من العموم والخصوص ما يعرض للقول ، وإنما المعاني الخارجة عن الذهن هي الموجودة في الخارج ، كقولهم : مطر عام وخصب عام ، هذه التي تنازع الناس: هل وصفها بالعموم حقيقة أو مجازاً ؟ على قولين:

أحدهما: مجاز؛ لأن كل جزء من أجزاء المطر والخصب لا يقع إلا حيث يقع الآخر، فليس هناك عموم، وقيل: بل حقيقة؛ لأن المطر المطلق قد عم.

وأما الخصوص فيعرض لها إذا كانت موجودة في الخارج، فإن كل شيء له ذات وعين تختص به ويمتاز بها عن غيره: أعني الحقيقة العينية الشخصية التي لا اشتراك فيها، مثل : هذا الرجل وهذه الحبة وهذا الدرهم، وما عرض لها في الخارج فإنه يعرض لها في الذهن. فإن تصور الذهنية أوسع من الحقائق الخارجية، فإنها تشمل الموجود والمعدوم والممتنع والمقدرات.

وأما الإطلاق فيعرض لها إذا كانت في الذهن بلا ريب، فإن العقل يتصور إنساناً مطلقاً ووجوداً مطلقاً.

وأما في الخارج فهل يتصور شيء مطلق ؟ هذا فيه قولان ، قيل : المطلق له وجود في الخارج، فإنه جزء من المعين، وقيل: لا وجود له في الخارج ؛ إذ ليس في الخارج إلا معين مقيد، والمطلق الذي يشترك فيه العدد لا يكون جزءاً من المعين الذي لا يشركه فيه.

والتحقيق : أن المطلق بلا شرط أصلا يدخل فيه المقيد المعين، وأما المطلق بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المعين المقيد، وهذا كما يقول الفقهاء: الماء المطلق، فإنه بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المضاف، وأما المطلق لا بشرط فيدخل فيه المضاف.

فإذا قلنا : الماء ينقسم إلى ثلاثة أقسام : طهور، وطاهر، ونجس ، فالثلاثة أقسام الماء. الطهور هو الماء المطلق الذي لا يدخل فيه ما ليس بطهور كالعصارات والمياه النجسة، فالماء

---

(١) مسلم في الإيمان (٢٠٤/٣٤٨).

(٢) البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢/٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٩٩)، كلهم عن عبد الله بن مسعود.

المقسوم هو المطلق لا بشرط ، والماء الذي هو قسيم للمائين هو المطلق بشرط الإطلاق.

لكن هذا الإطلاق والتقييد الذي قاله الفقهاء في اسم الماء إنما هو في الإطلاق والتقييد اللفظي وهو ما دخل في اللفظ المطلق كلفظ ماء، أو في اللفظ المقيد كلفظ ماء نجس ، أو ماء ورد.

وأما ما كان كلامنا فيه أولاً فإنه الإطلاق والتقييد في معاني اللفظ ، ففرق بين النوعين، فإن الناس يغلطون لعدم التفريق بين هذين غلطاً كثيراً جداً، وذلك أن كل اسم فإما أن يكون مسماه معيناً لا يقبل الشركة، كأنا وهذا وزيد، ويقال له: المعين والجزء ، وإما أن يقبل الشركة فهذا الذي يقبل الشركة هو المعنى الكلي المطلق، وله ثلاث اعتبارات كما تقدم .

وأما اللفظ المطلق والمقيد فمثال: تحرير رقبة، ولم تجدوا ماء ، وذلك أن المعنى قد يدخل في مطلق اللفظ، ولا يدخل في اللفظ المطلق، أي يدخل في اللفظ لا بشرط الإطلاق، ولا يدخل في اللفظ بشرط الإطلاق ، كما قلنا في لفظ الماء، فإن الماء يطلق على المنى وغيره كما قال :﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦]، ويقال : ماء الورد، لكن هذا لا يدخل في الماء عند الإطلاق، لكن عند التقييد، فإذا أخذ القدر المشترك بين لفظ الماء المطلق ولفظ الماء المقيد فهو المطلق بلا شرط الإطلاق ، فيقال : الماء ينقسم إلى مطلق ومضاف، ومورد التقسيم ليس له اسم مطلق، لكن بالقرينة يقتضى الشمول والعموم، وهو قولنا: الماء ثلاثة أقسام. فهنا أيضا ثلاثة أشياء : مورد التقسيم وهو الماء العام وهو المطلق بلا شرط ، لكن ليس له لفظ مفرد إلا لفظ مؤلف، والقسم المطلق وهو اللفظ بشرط ، إطلاقه، والثاني اللفظ المقيد وهو اللفظ بشرط تقييده.

وإنما كان كذلك؛ لأن المتكلم باللفظ إما أن يطلقه أو يقيده، ليس له حال ثالثة ، فإذا أطلقه كان له مفهوم، وإذا قيده كان له مفهوم، ثم إذا قيده إما أن يقيده بقيد العموم أو بقيد الخصوص، فقيد العموم كقوله: الماء ثلاثة أقسام، وقيد الخصوص كقوله: ماء الورد.

وإذا عرف الفرق بين تقييد اللفظ وإطلاقه ، وبين تقييد المعنى وإطلاقه، عرف أن المعنى له ثلاثة أحوال : إما أن يكون أيضا مطلقا، أو مقيداً بقيد العموم، أو مقيداً بقيد الخصوص.

والمطلق من المعاني نوعان :مطلق بشرط الإطلاق ، ومطلق لا بشرط.

وكذلك الألفاظ المطلق منها قد يكون مطلقا بشرط الإطلاق ، كقولنا: الماء المطلق والرقبة المطلقة ، وقد يكون مطلقاً لا بشرط الإطلاق، كقولنا: إنسان.

فالمطلق المقيد بالإطلاق لا يدخل فيه المقيد بما ينافي الإطلاق ، فلا يدخل ماء الورد في الماء المطلق، وأما المطلق لا بقيد فيدخل فيه المقيد، كما يدخل الإنسان الناقص في اسم الإنسان.

فقد تبين أن المطلق بشرط الإطلاق من المعاني ليس له وجود في الخارج، فليس في الخارج إنسان مطلق ، بل لابد أن يتعين بهذا أو ذاك ، وليس فيه حيوان مطلق ، وليس فيه مطر مطلق بشرط الإطلاق.

وأما المطلق بشرط الإطلاق من الألفاظ كالماء المطلق فمسماه موجود في الخارج؛ لأن شرط الإطلاق هنا في اللفظ، فلا يمنع أن يكون معناه معينا، وبشرط الإطلاق هناك في المعنى ، والمسمى المطلق بشرط الإطلاق لا يتصور؛ إذ لكل موجود حقيقة يتيميز بها، وما لا حقيقة له يتميز بها ليس بشيء، وإذا كان له حقيقة يتميز بها فتمييزه يمنع أن يكون مطلقاً من كل وجه، فإن المطلق من كل وجه لا تمييز له ، فليس لنا موجود هو مطلق بشرط الإطلاق ولكن العدم المحض قد يقال : هو مطلق بشرط الإطلاق ، إذ ليس هناك حقيقة تتميز ولا ذات تتحقق ، حتى يقال: تلك الحقيقة تمنع غيرها بحدها أن تكون إياها.

وأما المطلق من المعاني لا بشرط: فهذا إذا قيل بوجوده في الخارج فإنما يوجد معينا متميزاً مخصوصا، والمعين المخصوص يدخل في المطلق لا بشرط ولا يدخل في المطلق بشرط الإطلاق، إذ المطلق لا بشرط أعم، ولا يلزم إذا كان المطلق بلا شرط موجوداً في الخارج أن يكون المطلق المشروط بالإطلاق موجوداً في الخارج ؛ لأن هذا أخص منه.

فإذا قلنا : حيوان، أو إنسان، أو جسم ، أو وجود مطلق، فإن عنينا به المطلق بشرط الإطلاق، فلا وجود له في الخارج، وإن عنينا المطلق لا بشرط فلا يوجد إلا معينا مخصوصا، فليس في الخارج شيء إلا معين متميز منفصل عما سواه بحده وحقيقته.

فمن قال : إن وجود الحق هو الوجود المطلق دون المعين، فحقيقة قوله أنه ليس للحق وجود أصلا ولا ثبوت إلا نفس الأشياء المعينة المتميزة، والأشياء المعينة ليست إياه فليس شيئا أصلا.

وتلخيص النكتة: أنه لو عني به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له في الخارج فلا يكون للحق وجود أصلا، وإن عني به المطلق بلا شرط، فإن قيل بعدم وجوده في الخارج فلا كلام، وإن قيل بوجوده فلا يوجد إلا معينا، فلا يكون للحق وجود إلا وجود الأعيان، فيلزم محذوران:

أحدهما: أنه ليس للحق وجود سوى وجود المخلوقات.

والثاني: التناقض، وهو قوله: إنه الوجود المطلق دون المعين.

فتدبر قول هذا ، فإنه يجعل الحق في الكائنات بمنزلة الكلى في جزئياته، وبمنزلة الجنس والنوع والخاصة ، والفصل في سائر أعيانه الموجودة الثابتة في العدم.

وصاحب هذا القول يجعل المظاهر والمراتب في المتعينات، كما جعلها الأول في الأعيان الثابتة في العدم.

فصـــل

وأما التلمساني ونحوه، فلا يفرق بين ماهية ووجود ، ولا بين مطلق ومعين بل عنده ما ثم سوى ولا غير بوجه من الوجوه، وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له، بمنزلة أمواج البحر في البحر، وأجزاء البيت من البيت ، فمن شعرهم:

البحر لا شك عندي في توحده   وإن تعـــدد بالأمـــواج والزبـــد

فلا يغرنك ما شاهدت من صـور   فالواحد الرب ساري العين في العدد

ومنه :

فما البحر إلا الموج لا شيء غيره   وإن فرقتـــــه كـــثرة المتعـــــدد

ولا ريب أن هذا القول هو أحذق في الكفر والزندقة ، فإن التمييز بين الوجود والماهية، وجعل المعدوم شيئا، أو التمييز في الخارج بين المطلق والمعين وجعل المطلق شيئا وراء المعينات في الذهن ، قولان ضعيفان باطلان.

وقد عرف من حدد النظر: أن من جعل في هذه الأمور الموجودة في الخارج شيئين:

أحدهما: وجودها.

والثاني: ذواتها، أو جعل لها حقيقة مطلقة موجودة زائدة على عينها الموجودة فقد غلط غلطا قويا، واشتبه عليه ما يأخذه من العقل من المعاني المجردة المطلقة عن التعيين، ومن الماهيات المجردة عن الوجود الخارجي بما هو موجود في الخارج من ذلك، ولم يدر أن متصورات العقل ومقدراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته، كما يتصور المعدومات، والممتنعات، والمشروطات ويقدر ما لا وجود له البتة مما يمكن أو لا يمكن، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه، ومن الموجودات ذوات متصورة فيه.

لكن هذا القول أشد جهلا وكفراً بالله تعالى ، فإن صاحبه لا يفرق بين المظاهر والظاهر، ولا يجعل الكثرة والتفرقة إلا في ذهن الإنسان لما كان محجوبا عن شهود الحقيقة، فلما انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير ، وأن الرائي عين المرئي ، والشاهد عين المشهود.

فصـــل

واعلم أن هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه، ولكن رأيت في بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إن الوجود واحد، ورد ذلك. وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين.

وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار، وإنما كان الكفر الحلول العام، أو الاتحاد، أو الحلول الخاص، وذلك أن القسمة رباعية؛ لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة، فإما أن يقول بحلوله فيه، أو اتحاده به، وعلى التقديرين، فإما أن يجعل ذلك مختصا ببعض الخلق ، كالمسيح، أو يجعله عاماً لجميع الخلق . فهذه أربعة أقسام:

الأول: هو الحلول الخاص ، وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء، وهؤلاء حققوا كفر النصارى، بسبب مخالطتهم للمسلمين، وكان أولهم في زمن المأمون ،وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعلى بن أبى طالب وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية، أو في بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء.

والثاني : هو الاتحاد الخاص، وهو قول يعقوبية النصارى وهم أخبث قولا، وهم السودان والقبط، يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء، وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام.

والثالث: هو الحلول العام، وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث ، عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية، الذين يقولون : إن الله بذاته في كل مكان ، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، وقوله :﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤]. والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة، وأهل المعرفة ، وعلماء الحديث.

الرابع: الاتحاد العام، وهو قول هؤلاء الملاحدة، الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين: من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه، بعد أن لم يكونا متحدين، وهؤلاء يقولون: ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره. والثاني: من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح، وهؤلاء جعلوا ذلك ساريا في الكلاب، والخنازير ، والأقذار، والأوساخ، وإذا كان الله تعالى قد قال : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾الآيتين[المائدة: ٧٢، ٧٣]. فكيف بمن قال: إن الله هو الكفار، والمنافقون والصبيان، والمجانين والأنجاس ، والأنتان وكل شيء ؟!

وإذا كان الله قد رد قول اليهود والنصاري لما قالوا : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقال لهم : ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ الآية [المائدة: ١٨] فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه؟ ولا يتصور أن يعذب الله إلا نفسه؟ وأن كل ناطق في الكون فهو عين السامع؟ كما في قوله ﷺ: « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها»(١) وأن الناكح عين المنكوح، حتى قال شاعرهم:

وتلتذ إن مرت على جسدي يدي لأني في التحقيق لست سواكم

واعلم أن هولاء لما كان كفرهم ـ في قولهم : إن الله هو مخلوقاته كلها ـ أعظم من كفر النصارى بقولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وكان النصارى ضلال ، أكثرهم لا يعقلون مذهبهم في التوحيد ، إذ هو شيء متخيل لا يعلم ولا يعقل ، حيث يجعلون الرب جوهراً واحداً، ثم يجعلونه ثلاثة جواهر، ويتأولون ذلك بتعدد الخواص والأشخاص التي هي الأقانيم، والخواص عندهم ليست جواهر ، فيتناقضون مع كفرهم.

كذلك هؤلاء الملاحدة الاتحادية ضلال، أكثرهم لا يعقلون قول رؤوسهم ولا يفقهونه، وهم في ذلك كالنصارى، كلما كان الشيخ أحمق وأجهل، كان بالله أعرف، وعندهم أعظم.

ولهم حظ من عبادة الرب الذي كفروا به، كما للنصارى ، هذا ما دام أحدهم في الحجاب ،فإذا ارتفع الحجاب عن قلبه وعرف أنه هو، فهو بالخيار بين أن يسقط عن نفسه الأمر، والنهي ،ويبقى سدى يفعل ما أحب ،وبين أن يقوم بمرتبة الأمر، والنهي، لحفظ

(١) سبق تخريجه ص ٧٥ .

المراتب، وليقتدى به الناس المحجوبون، وهم غالب الخلق، ويزعمون أن الأنبياء كانوا كذلك إذ عدوهم كاملين.

فصــل

مذهب هؤلاء الاتحادية ـ كابن عربي ، وابن سبعين ، والقونوي، والتلمساني ـ مركب من ثلاثة مواد:

سلب الجهمية وتعطيلهم.

ومجملات الصوفية : وهو ما يوجد في كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة، كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح ، فيتبعون المتشابه ، ويتركون المحكم، وأيضا كلمات المغلوبين على عقلهم الذين تكلموا في حال سكر.

ومن الزندقة الفلسفية التي هي أصل التجهم، وكلامهم في الوجود المطلق، والعقول، والنفوس والوحي ، والنبوة والوجوب، والإمكان، وما في ذلك من حق وباطل .

فهذه المادة أغلب على ابن سبعين والقونوي، والثانية أغلب على ابن عربي؛ ولهذا هو أقربهم إلى الإسلام، والكل مشتركون في التجهم ،والتلمساني أعظمهم تحقيقًا لهذه الزندقة والاتحاد التي انفردوا بها، وأكفرهم بالله، وكتبه ، ورسله وشرائعه ، واليوم الآخر.

وبيان ذلك أنه قال : هو فيّ كان متجل بوحدته الذاتية ، عالماً بنفسه وبما يصدر عنه، وأن المعلومات بأسرها كانت منكشفة في حقيقة العلم شاهداً لها.

فيقال له : قد أثبت علمه بما يصدر منه، وبمعلومات يشهدها غير نفسه، ثم ذكرت أنه عرض نفسه على هذه الحقائق الكونية المشهودة المعدومة، فعند ذلك عبر « بأنا» وظهرت حقيقة النبوة، التي ظهر فيها الحق واضحا، وانعكس فيها الوجود المطلق ، وأنه هو المسمى باسم الرحمن، كما أن الأول هو المسمى باسم الله.

وسقت الكلام إلى أن قلت : وهو الآن على ما عليه كان، فهذا الذي علم أنه يصدر عنه وكان مشهوداً له معدوماً في نفسه هو الحق أو غيره؟ فإن كان الحق فقد لزم أن يكون الرب كان معدوماً ، وأن يكون صادراً عن نفسه ، ثم إنه تناقض . وإن كان غيره، فقد جعلت ذلك الغير هو مرآة لانعكاس الوجود المطلق، وهو الرحمن ، فيكون الخلق هو الرحمن.

فأنت حائر بين أن تجعله قد علم معدوماً صدر عنه، فيكون له غير وليس هو الرحمن، وبين أن تجعل هذا الظاهر الواصف هو إياه وهو الرحمن، فلا يكون معدوماً ولا صادراً عنه، وإما أن تصف الشيء بخصائص الحق الخالق تارة وبخصائص العبد المخلوق تارة، فهذا مع تناقضه كفر من أغلظ الكفر، وهو نظير قول النصارى : اللاهوت الناسوت، لكن هذا أكفر من وجوه متعددة.

فصـــل

الوجه الأول : أن هذه الحقائق الكونية ـ التي ذكرت أنها كانت معدومة في نفسها، مشهودة أعيانها في علمه في تجليه المطلق، الذي كان فيه متحداً بنفسه بوحدته الذاتية ـ هل خلقها وبرأها وجعلها موجودة بعد عدمها، أم لم تزل معدومة ؟ فإن كانت لم تزل معدومة، فيجب ألا يكون شيء من الكونيات موجوداً ، وهذا مكابرة للحس، والعقل، والشرع، ولا يقوله عاقل ولم يقله عاقل . وإن كانت صارت موجودة بعد عدمها، امتنع أن تكون هي إياه ؛ لأن الله لم يكن معدوماً فيوجد.

وهذا يبطل الاتحاد ، ووجب حينئذ أن يكون موجوداً ليس هو الله ، بل هو خلقه ومماليكه وعبيده، وهذا يبطل قولك : وهو الآن لا شيء معه على ما عليه كان.

الثاني: أن قولك: تركبت الخلقة الإلهية من كان إلى سر شأنه، أو قولك : ظهر الحق فيه، أو نحو ذلك من الألفاظ التي يطلقها هؤلاء الاتحادية في هذا الموضع . مثل قولهم: ظهر الحق وتجلى ، وهذه مظاهر الحق ومجاليه، وهذا مظهر إلهيٌّ ومجلى إلهيٌّ، ونحو ذلك، أتعني به أن عين ذاته حصلت هناك؟ أو تعني به أنه صار ظاهراً متجلياً لها بحيث تعلمه؟ أو تعني به أنه ظهر لخلقه بها، وتجلى بها، وأنه ما ثم قسم رابع؟

فإن عنيت الأول ـ وهو قول الاتحادية ـ فقد صرحت بأن عين المخلوقات ـ حتى الكلاب ، والخنازير ، والنجاسات، والشياطين والكفار ـ هي ذات الله، أو هي وذات الله متحدتان، أو ذات الله حالة فيها ، وهذا الكفر أعظم من كفر الذين قالوا : ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [المائدة: ١٧ ، ٧٢] و﴿ **إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾ [المائدة: ٧٣]، وإن الله يلد ويولد، وأن له بنين وبنات. وإذا صرحت بهذا عرف المسلمون قولك فألحقوك ببني جنسك، فلا حاجة إلى ألفاظ مجملة يحسبها الظمآن ماء، ويا ليته إذا جاءها لم يجدها شيئا، بل يجدها سما ناقعا!

وإن عنيت أنه صار ظاهراً متجليا لها ، فهذا حقيقة أنه صار معلوماً لها، ولا ريب أن الله يصير معروفاً لعبده، لكن كلامك في هذا باطل من وجهين:

من جهة أنك جعلته معلوماً للمعدومات، التي لا وجود لها ؛ لكونه قد علمها، واعتقدت أنها إذا كانت معلومة يجوز أن تصير عالمة، وهذا عين الباطل : من جهة أنه إذا علم أن الشيء سيكون ، لم يجز أن يكون هذا قبل وجوده عالماً قادراً فاعلا.

ومن جهة أن هذا ليس حكم جميع الكائنات المعلومة ، بل بعضها هو الذي يصح منه العلم.

وأما إن قلت: إن الله يعلم بها ـ لكونها آيات دالة عليه ـ فهذا حق ، وهو دين المسلمين وشهود العارفين ، لكنك لم تقل هذا لوجهين:

أحدهما: أنها لا تصير آيات إلا بعد أن يخلقها ويجعلها موجودة ، لا في حال كونها معدومة معلومة ، وأنت لم تثبت أنه خلقها ولا جعلها موجودة، ولا أنه أعطى شيئا خلقه، بل جعلت نفسه هو المتجلى لها.

الوجه الثاني : أنك قد صرحت بأنه تجلى لها وظهر لها ، لا أنه دل بها خلقه، وجعلها آيات تكون تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، والله قد أخبر في كتابه أنه يجعل في هذه المصنوعات آيات، والآية مثل العلامة والدلالة كما قال : **﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** إلى قوله: **﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة: ١٦٣، ١٦٤] وتارة يسميها نفسها آية، كما قال تعالى : **﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾** [يس:٣٣] وهذا الذي ذكره الله في كتابه هو الحق .

فإذا قيل في نظير ذلك : تجلى بها وظهر بها كما يقال: علم وعرف بها، كان المعنى صحيحا، لكن لفظ التجلي والظهور في مثل هذا الموضع غير مأثور، وفيه إيهام وإجمال، فإن الظهور والتجلي يفهم منه الظهور والتجلي للعين، لا سيما لفظ التجلي، فإن استعماله في التجلي للعين هو الغالب ، وهذا مذهب الاتحادية ، صرح به ابن عربي وقال : فلا تقع العين إلا عليه .

وإذا كان عندهم أن المرئي بالعين هو الله فهذا كفر صريح باتفاق المسلمين، بل قد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : «واعلموا أن أحداً منكم لن يري ربه حتى يموت»[١] ولا سيما إذا قيل : ظهر فيها وتجلى ، فإن اللفظ يصير مشتركا بين أن تكون ذاته فيها، أو

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٦٩) عن عمر بن ثابت الأنصاري.

تكون قد صارت بمنزلة المرآة التي يظهر فيها مثال المرئي ، وكلاهما باطل، فإن ذات الله ليست في المخلوقات، ولا في نفس ذاته ترى المخلوقات كما يري المرئي في المرآة، ولكن ظهورها دلالتها عليه وشهادتها له، وإنها آيات له على نفسه ، وصفاته سبحانه وبحمده ، كما نطق بذلك كتاب الله.

الوجه الثالث: أن مقارنة الألف والنون المعبر عنها بـ «أنا» واللفظة التي هي «حقيقة النبوة» و « الروح الإضافي » هذه الأشياء داخلة في مسمى أسماء الله ، بحيث تكون مما يدخل في مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة، أم ليست داخلة في مسمى أسمائه ؟ فإن كان الأول ، فتكون جميع المخلوقات داخلة في مسمى أسماء الله، وتكون المخلوقات جزءاً من الله وصفة له، وإن كان الثاني ، فهذه الأشياء معدومة ،ليس لها وجود في أنفسها، فكيف يتصور أن تكون موجودة لا موجودة، ثابتة لا ثابتة، منتفية لا منتفية؟ وهذا تقسيم بين ، وهو أحد ما يكشف حقيقة هذا التلبيس .

فإن هذه الأمور التي كانت معلومة له معدومة عند نزول الخلية ظهرت هذه الأمور التي ذكرها ، فهذه الأمور الظاهرة المعلومة بعد هذا النزول قد صارت « أنا» وحقيقة نبوة، وروحاً إضافيا، وفعل ذات ، ومفعول ذات، ومعنى وسائط ، فإن كان جميع ذلك في الله، ففيه كفران عظيمان:

كون جميع المخلوقات جزءًا من الله.

وكونه متغيراً هذه التغيرات ، التي هي من نقص إلى كمال ، ومن كمال إلى نقص، وإن كانت خارجة عن ذاته فهذه الأشياء كانت معدومة ، ولم يخلقها ـ عندهم ـ خارجة عنه، فكيف يكون الحال ؟

الوجه الرابع : أن عقدة حقيقة النبوة وما معها : إما أن يكون شيئا قائما بنفسه، أو صفة له أو لغيره، فإن كان قائما بنفسه فإما أن يكون هو اللّه أو غيره، فإن كان ذلك هو الله فيكون الله هو النقطة الظاهرة ، وهو حقيقة النبوة، وهو الروح الإضافي .

وقد قال بعد هذا : إنه جعل الروح الإضافي في صورة فعل ذاته، وأنه أعطى محمداً عقدة نبوته، فيكون قد جعل نفسه صورة فعله، وأعطى محمداً ذاته، وهذا مع أنه من أبين الكفر وأقبحه فهو متناقض، فمن المعطِي ومن المعطَى ؟ إذا كان أعطى ذاته لغيره، وإن كانت هذه الأشياء أعيانا قائمة بنفسها وهي غير الله ـ فسواء كانت ملائكة أوغيرها، من كل ما سوى الله من الأعيان ، فهو خلق من خلق الله مصنوع مربوب، والله خالق كل شيء، فهو قد جعل ظهور الحق واصِفا، وأنه المسمى باسم الرحمن، فيكون المسمى

باسم الرحمن الواصف لنفسه مخلوقا، وهذا كفر صريح وهو أعظم من إلحاد الذين : ﴿قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ومن إلحاد الذين قيل فيهم : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] ،فإن أولئك كفروا باسمه وصفته مع إقرارهم برب العالمين، وهؤلاء أقروا بالاسم وجعلوا المسمى مخلوقاً من مخلوقاته.

وإما إن كان المراد بهذه الحقيقة وما معها صفة : فإما أن تكون صفة لله أو لغيره، فإن كانت صفة لله لم يجز أن تكون هي المسمى باسم الرحمن، فإن ذلك اسم لنفس الله لا لصفاته، والسجود لله لا لصفاته، والدعاء لله لا لصفاته، وإن كانت صفة لغيره فهذا الإلزام أعظم وأعظم.

وهذا تقسيم لا محيص عنه، فإن هذا الملحد في أسماء الله جعل هذه العقدة التي سماها عقدة حقيقة النبوة وجعلها صورة علم الحق بنفسه، وجعلها مرآة لانعكاس الوجود المطلق، محلا لتميز صفاته القديمة، وأن الحق ظهر فيه بصورته وصفته واصفا يصف نفسه ويحيط به، وهو المسمى باسم الرحمن، ثم ذكر أنه أعطى محمداً هذه العقدة.

ومعلوم أن المسمى باسم الرحمن هو المسمى باسم الله كما قال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فيكون هو سبحانه هذه العقدة التي أعطاها لمحمد، وإن كانت صفة له أو غيره، فتكون هي الرحمن، فهذا الملحد دائر بين أن يكون الرحمن هو خلق من خلق الله أو صفة من صفاته، وبين أن يكون الرحمن قد وهبه الله لمحمد، وكل من القسمين من أسمج[1] الكفر وأبشعه.

الوجه الخامس : أن قوله: لهذه الحقيقة طرفان : طرف إلى الحق المواجه إليها، الذي ظهر فيه الوجود الأعلى واصفا، وطرف إلى ظهور العالم منه، وهو المسمى بالروح الإضافي .

فذكر في هذا الكلام ظهور الوجود وظهور العالم، وقد تقدم أن الحق كان ولم يكن معه شيء وهو متجلى بنفسه بوحدته الذاتية، وأنه لما نزلت الخلية الإلهية ، ظهرت عقدة حقيقة النبوة، فصارت مرآة لانعكاس الوجود ، فظهر الحق فيه بصورة وصفه واصفا.

وقد ذكر في هذا الكلام الحق المواجه إليها والوجود الأعلى الذي ظهر ، في هذا الحق والطرف الذي لها إلى الحق ، فقد ذكر هنا ثلاثة أشياء: الحق ، والوجود ، والطرف ، وقد جعل فيما تقدم : الحق هو الوجود المطلق الذي انعكس، وهو الحق الذي ظهر فيه

---

(١) أي أقبح . انظر القاموس المحيط ، مادة «سمج».

واصفا، فتارة يجعل الحق هو الوجود المطلق ، وتارة يجعل الوجود المطلق قد ظهر في هذا الحق، وهذا تناقض.

ثم يقال له : هذان عندك عبارة عن الرب تعالى، فقد جعلته ظاهرًا وجعلته مظهرًا، فإن عنيت بالظهور الوجود فيكون الرب قد وجد مرة بعد مرة، وهذا كفر شنيع ، فكيف يتصور تكرر وجوده؟ وكيف يتصور أن يكون قد وجد في نفسه بعد أن لم يكن موجودا في نفسه ؟ وإن عنيت به الوضوح والتجلي، فليس هناك مخلوق يظهر له ويتجلى؛ إذ العالم بعد لم يخلق ، وأنت قلت: ظهر الحق فيه واصفا، وسميته الرحمن، ولم تجعل ظهوره معلوما ولا مشهودا، فكيف يتصور أن يكون متجليا لنفسه بعد أن لم يكن متجليا؟ فإن هذا وصف له بأنه لم يكن يعلم نفسه حتى علمها.

وأيضا، فقد قلت : إنه كان متجليا لنفسه بوحدته، فهذا كفر وتناقض.

الوجه السادس: أن هذا التحير والتناقض مثل تحير النصارى، وتناقضهم في الأقانيم.

فإنهم يقولون : الآب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة، وهي إله واحد .

والمتدرع[1] بناسوت المسيح هو الابن، ويقولون : هي الوجود ، والعلم ، والحياة ، والقدرة.

فيقال لهم : إن كانت هذه صفات فليست آلهة، ولا يتصور أن يكون المتدرع بالمسيح إلهاً، إلا أن يكون هو الآب، وإن كانت جواهر وجب ألا تكون إلها واحداً؛ لأن الجواهر الثلاثة لا تكون جوهراً واحداً، وقد يمثلون ذلك بقولنا: زيد العالم القادر الحي، فهو بكونه عالمًا ليس هو بكونه قادرًا.

فإذا قيل لهم: هذا كله لا يمنع أن يكون ذاتاً واحدة لها صفات متعددة، وأنتم لا تقولون ذلك .

وأيضا،فالمتحد بالمسيح إذا كان إلهاً امتنع أن يكون صفة، وإنما يكون هو الموصوف، وأنتم لا تقولون بذاك ، فما هو الحق لا تقولونه، وما تقولونه ليس بحق، وقد قال تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾** [النساء: ١٧١].

فالنصارى حياري متناقضون،إن جعلوا الأقنوم صفة امتنع أن يكون المسيح إلهاً، وإن جعلوه جوهراً امتنع أن يكون الإله واحداً، وهم يريدون أن يجعلوا المسيح الله ويجعلوه

---

(١) التدرع: لبس الشيء والدخول فيه ، يقال: ادَّرَع الرجل وتَدرَّع : إذا لبس درع الحديد. انظر: القاموس المحيط مادة « درع».

ابن الله، ويجعلوا الآب والابن وروح القدس إلهاً واحداً؛ ولهذا وصفهم الله في القرآن بالشرك تارة، وجعلهم قسما غير المشركين تارة؛ لأنهم يقولون الأمرين وإن كانوا متناقضين.

وهكذا حال هؤلاء، فإنهم يريدون أن يقولوا بالاتحاد وأنه ما ثم غير، ويريدون أن يثبتوا وجود العالم، فجعلوا ثبوت العالم في علمه وهو شاهد له ، وجعلوه متجليا لذلك المشهود له، فإذا تجلى فيه كان هو المتجلي لا غيره، وكانت تلك الأعيان المشهودة هي العالم.

وهذا الرجل، وابن عربي، يشتركان في هذا، ولكن يفترقان من وجه آخر.

فإن ابن عربي يقول: وجود الحق ظهر في الأعيان الثابته في نفسها، فإن شئت قلت: هو الحق ، وإن شئت قلت: هو الخلق، وإن شئت قلت: هو الحق والخلق، وإن شئت قلت: لا حق من كل وجه، ولا خلق من كل وجه، وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك.

وأما هذا فإنه يقول : تجلى الأعيان المشهودة له، فقد قالا في جميع الخلق ما يشبه قول ملكية النصارى في المسيح، حيث قالوا بأن اللاهوت، والناسوت صارا جوهراً واحداً له أقنومان.

وأما التلمساني فإنه لا يثبت تعدداً بحال، فهو مثل يعاقبة النصارى، وهم أكفرهم، والنصارى قالوا بذلك في شخص واحد، وقالوا : إن اللاهوت يتدرع بالناسوت بعد أن لم يكن متدرعا به.

وهؤلاء قالوا: إنه في جميع العالم ، وإنه لم يزل ، فقالوا بعموم ذلك ولزومه، والنصارى قالوا بخصوصه وحدوثه، حتى قال قائلهم: النصارى إنما كفروا لأنهم خصصوا.

وهذا المعنى قد ذكره ابن عربي في غير موضع من الفصوص، وذكر أن إنكار الأنبياء على عباد الأصنام إنما كان لأجل التخصيص ، وإلا فالعارف المكمل من عبده في كل مظهر، وهو العابد والمعبود، وأن عباد الأصنام لو تركوا عبادتهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا منها، وأن موسى إنما أنكر على هارون لكون هارون نهاهم عن عبادة العجل، لضيق هارون، وعلم موسى بأنهم ما عبدوا إلا الله ، وأن هارون إنما لم يسلط على العجل ليعبدوا الله في كل صورة، وإن أعظم مظهر عبد فيه هو الهوى، فما عبد أعظم من الهوى، لكن ابن عربي يثبت أعياناً ثابتة في العدم.

وهذا ابن حمويه إنما أثبتها مشهودة في العلم فقط، وهذا القول هو الصحيح، لكن لا يتم معه ما طلبه من الاتحاد، ولهذا كان هو أبعدهم عن تحقيق الاتحاد وأقرب إلى الإسلام، وإن كان أكثرهم تناقضاً وهذياناً، فكثرة الهذيان خير من كثرة الكفر.

ومقتضى كلامه هذا : أنه جعل وجوده مشروطاً بوجود العالم، وإن كان له وجود ما غير العالم ، كما أن نور العين مشروط بوجود الأجفان وإن كان قائما بالحدقة ، فعلى هذا يكون الله مفتقراً إلى العالم محتاجاً إليه كاحتياج نور العين إلى الجفنين، وقد قال الله تعالي: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إلى آخر الآية [آل عمران: ١٨١].

فإذا كان هذا قوله فيمن وصفه بأنه فقير إلى أموالهم ليعطيها الفقراء، فكيف قوله فيمن جعل ذاته مفتقرة إلى مخلوقاته ، بحيث لولا مخلوقاته لانتشرت ذاته، وتفرقت وعدمت، كما ينتشر نور العين ويتفرق ، ويعدم إذا عدم الجفن؟

وقد قال في كتابه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا﴾ الآية [فاطر: ٤١]. فمن يمسك السموات والأرض ؟ وقال في كتابه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [الروم: ٢٥] . وقال: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وقال : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] لا يؤوده: لا يثقله ولا يكرثه.

وقد جاء في الحديث، حديث أبي داود: «ما السموات والأرض وما بينهما في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في الفلاة»(١) . وقد قال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد ثبت في الصحاح من حديث أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود: « إن اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ والأرضَ بيَدِه»(٢) فمن يكون في قبضته السموات والأرض، وكرسيه قد وسع السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ،وبأمره تقوم السماء والأرض، وهو الذي يمسكهما أن تزولا ، أيكون محتاجاً إليهما مفتقراً إليهما ، إذا زالا تفرق وانتشر؟

وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول : إن السموات تقله أو تظله، لما في ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته، فمن قال : إنه في استوائه على العرش محتاج إلى العرش

---

(١) ابن جرير ٣/ ٨ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٤٩ عن أبي ذر.

(٢) البخاري في التفسير (٤٨١١)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٦/ ١٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٣٨) وقال: « حسن صحيح» ، وأحمد ١/ ٤٢٩، كلهم عن ابن مسعود ، بلفظ آخر.

كاحتياج المحمول إلى حامله فإنه كافر؛ لأن الله غني عن العالمين حي قيوم، هو الغني المطلق وما سواه فقير إليه، مع أن أصل الاستواء على العرش ثابت بالكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة ، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ، فكيف بمن يقول: إنه مفتقر إلي السموات والأرض، وأنه إذا ارتفعت السموات والأرض، تفرق ، وانتشر، وعدم فأين حاجته في الحمل إلى العرش، من حاجة ذاته إلى ما هو دون العرش ؟

ثم يقال لهؤلاء : إن كنتم تقولون بقدم السموات والأرض ودوامها، فهذا كفر. وهو قول بقدم العالم، وإنكار انفطار السموات والأرض وانشقاقهما، وإن كنتم تقولون بحدوثهما فكيف كان قبل خلقهما؟ هل كان منتشراً ، متفرقاً معدوماً، ثم لما خلقهما صار موجوداً مجتمعاً؟ هل يقول هذا عاقل ؟

فأنتم دائرون بين نوعين من الكفر،مع غاية الجهل والضلال، فاختاروا أيهما شئتم . إن صور العالم لا تزال تفنى ويحدث في العالم بدلها مثل الحيوان والنبات والمعادن، ومثل ما يحدثه الله في الجو من السحاب والرعد والبرق والمطر وغير ذلك ، فكلما عدم شيء من ذلك ، ينتقص من نور الحق، ويتفرق ويعدم ، بقدر ما عدم من ذلك ، وكلما زاد شيء من ذلك، زاد نوره واجتمع ووجد.

وأما إن عنى أن نور الله باق بعد زوال السموات والأرض، لكن لا يظهر فيه شيء، فما الشيء الذي يظهر بعد عدم هذه الأشياء؟ وأي تأثير للسموات والأرض في حفظ نور الله ؟

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[1]،وقال عبد الله بن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه[2].

---

(١) مسلم في الإيمان (١٧٩/ ٢٩٣) ، وابن ماجه في المقدمة (١٩٥، ١٩٦)، وأحمد ٤/ ٤٠١، ٤٠٥.

وقوله: «سبُحات وجهه» أي: جلاله وعظمته. وقيل : أضواء وجهه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٣٢.

(٢) الطبراني (٨٨٨٦) وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٩٠: «فيه أبو عبد السلام،قال أبو حاتم :مجهول . وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله - على الشك - لم أر من ذكره».

فقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من السموات والأرض ، وغيرهما، فمن يكون سبحات وجهه تحرق السموات والأرض، وإنما حجابه هو الذي يمنع هذا الإحراق ، أيكون نوره إنما يحفظ بالسموات والأرض ؟

الوجه السابع: قوله: فالعلويات جفنها الفوقاني، والسفليات جفنها التحتاني، والتفرقة البشرية في السفليات أهداب الجفن الفوقاني ، والنفس الكلية سوادها، والروح الأعظم بياضها. يقال له: فإذا كان العالم هو هذه العين،فالعين الأخرى أي شيء هي ؟ وبقية الأعضاء أين هي ؟ هذا لازم قولك: إن عنيت بالعين المتعين، وإن عنيت الذات والنفس ـ وهو ما تعين فيه ـ فقد جعلت نفس السموات والأرض والحيوان والملائكة أبعاضًا من الله، وأجزاء منه، وهذا قول هؤلاء الزنادقة ، الفرعونية الاتحادية، الذين أتبعهم الله في الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين.

فيقال له : فعلى هذا لم يخلق الله شيئا، ولا هو رب العالمين؛ لأنه إما أن يخلق نفسه أو غيره، فخلقه لنفسه محال، وهذا معلوم بالبديهه أن الشيء لا يخلق نفسه؛ ولهذا قال تعالى: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾** [الطور: ٣٥]، يقول: أخلقوا من غير خالق، أم هم خلقوا أنفسهم؟

ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ، أحسست بفؤادي قد انصدع[1]. فقد علموا أن الخالق لا يكون هو المخلوق بالبديهة، وخلقه لغيره ممتنع على أصلهم؛ لأن هذه الأشياء هي أجزاء منه ليست غيرا له.

الوجه الثامن: أنه جعل البشر أهداب جفن حقيقة الله ، وهم دائما يزيدون وينقصون، ويموتون ويحيون، وفيهم الكافر والمؤمن، والفاجر والبر،فتكون أهداب جفن حقيقة الله لا تزال مفرقة، كاشرة فاسدة، ويكون المشركون ،واليهود،والنصاري أجفان حقيقته،وقد لعن من جعلهم أبناءه على سبيل الاصطفاء ،فكيف بمن جعلهم من نفسه؟

الوجه التاسع: أنه متناقض من حيث جعل الروح بياضها، والنفس الكلية سوادها، والسموات الجفن الأعلى، والأرضون الجفن الأسفل.

ومعلوم أن جفني عين الإنسان محيطان بالسواد والبياض ، والروح والنفس عنده هي فوق السموات والأرض ، ليست بين السماء والأرض، كما أن سواد العين وبياضها بين الجفنين، فهذا التمثيل مع أنه من أقبح الكفر، ففيه من الجهالة والتناقض ما تراه.

---

(١) سبق تخريجه ص ٩٩ .

الوجه العاشر: أن النفس الكلية اسم تلقاه عن الصابئة الفلاسفة.

وأما الروح: فإن مقصوده بها هو الذي يسمونه العقل ، وهو أول الصادرات، وسماه هو روحًا، وهذا بناه على مذهب الصابئة ، وليس هذا من دين الحنفاء ، وقد بينا فساد ذلك في غير هذا الموضع.

لكن الصابئة الفلاسفة خير من هؤلاء، فإنهم يقرون بواجب الوجود الذي صدرت عنه العقول ، والنفوس والأفلاك، والأرض لا يجعلونها إياه وهؤلاء يجعلونها إياه.

فقولهم إنما ينطبق على المعطلة، مثل فرعون ـ وحزبه ـ الذي قال: **﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء:٢٣]، وقال : **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾** [القصص:٣٨]، وقال: **﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾** الآية [غافر:٣٦، ٣٧].

فإن فرعون يقر بوجود هذا العالم، ويقول : ما فوقه رب ، ولا له خالق غيره.

فهؤلاء إذا قالوا: إنه عين السموات والأرض، فقد جحدوا ما جحده فرعون، وأقروا بما أقر به فرعون، إلا أن فرعون لم يسمه إلها ولم يقل: هو الله.

وهؤلاء قالوا: هذا هو الله، فهم مقرون بالصانع، لكن جعلوه هو الصنعة فهم في الحقيقة معطلون، وفي اعتقادهم مقرون.

وفرعون بالعكس : كان منكراً للصانع في الظاهر، وكان في الباطن مقراً به، فهو أكفر منهم، وهم أضل منه وأجهل ، ولهذا يعظمونه جداً.

الوجه الحادي عشر : قول القائل : بل هذا هو الحق الصريح المتبع، لا ما يرى المنحرف عن مناهج الإسلام ودينه، المتحير في بيداء ضلالته وجهله.

فيقال : من الذي قال هذا الحق من الأولين والآخرين؟ وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، الذي هو كلام الله، ووحيه ، وتنزيله ، ليس فيه شيء من هذا ، ولا في حديث واحد عن النبي ﷺ ، ولا عن أحد من أئمة الإسلام ومشايخه، إلا عن هؤلاء المفترين على الله الذين هم في مشائخ الدين نظير جنكسخان في أمر الحرب، فديانتهم تشبه دولته، ولعل إقراره بالصانع خير من إقرارهم ، لكن بعضهم قد يوجب الإسلام فيكون خيراً من التتار من هذا الوجه.

وأما محققوهم وجمهورهم، فيجوز عندهم التهود والتنصر، والإسلام والإشراك، لا يحرمون شيئا من ذلك ، بل المحقق عندهم لا يحرم عليه شيء، ولا يجب عليه شيء.

ومعلوم أن التتار الكفار خير من هؤلاء ، فإن هؤلاء مرتدون عن الإسلام من أقبح أهل الردة ، والمرتد شر من الكافر الأصلي من وجوه كثيرة، وإذا كان أبو بكر الصديق قاتل المرتدين بمنعهم الزكاة، فقتال هؤلاء أولى .

وأما ما حكاه عن الذي سماه الشيخ المحقق، العالم الرباني ، الغوث السابع (في الشمعة) من أنه قال: اعلم أن العالم بمجموعه حدقة عين الله،التي لا تنام، إلخ. فالكلام عليه من وجوه:

أحدها : أن تسمية قائل مثل هذا المقال : محققاً ، وعالماً ، وربانياً، عين الضلالة والغواية، بل هذا كلام لا تقوله لا اليهود، ولا النصارى ، ولا عباد الأوثان.

فإن كان الذي قاله مسلوب العقل ، كان حكمه حكم غيره في أن الله رفع عنه القلم، وإن كان عاقلا فجرأة على الله الذي يقول : **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾** إلى آخر الآيات [مريم:٨٨ ـ٩٠]، وقال : **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾** إلى قوله: **﴿الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء:٢٦ـ ٢٩]، وقال: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾** إلى قوله: **﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** [المائدة:١٧ ، ١٨].

فإذا كان هذا قوله فمن يقول : إنهم أبناؤه وأحباؤه، فكيف قوله فيمن يقول: إنهم أهداب جفنه ؟ ! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

الوجه الثاني: أن هذا الشيخ الضال ـ الذي قال هذا الكفر والضلال ـ قد نقض آخر كلامه بأوله، فإن لفظ العين : مشترك بين نفس الشيء ، وبين العضو المبصر، وبين مسميات أخر، وإذا قال بعين الشيء، فهو من العين التي بمعنى النفس ، أي تميز بنفسه عن غيره، فإذا قال : إن العالم بمجموعه حدقة عين الله ـ التي لا تنام ـ فالعين هنا بمعنى البصر.

ثم قال في آخر كلامه : ونعني بعين الله ما يتعين الله فيه، فهذا من العين بمعنى النفس، وهذه العين ليس لها حدقة ولا أجفان، وإنما هذا بمنزلة من قال : نبعت العين وفاضت، وشربنا منها واغتسلنا، ووزنتها في الميزان، فوجدتها عشرة مثاقيل ، وذهبها خالص.

وسبب هذا : أنه كان كثيرا ما كان يتصرف في حروف بلا معان.

الوجه الثالث: أنه تناقض من وجه آخر، فإنه إذا كان العالم هو حدقة العين، فينبغي أن يكون قد بقي من الله بقية الأعضاء غير العين، فإذا قال في آخر كلامه: والله هو نور العين، كان الله جزءاً من العين، أو صفة له، فقد جعل ـ في أول كلامه ـ العالم جزءاً من الله، وفي آخر كلامه جعل الله جزءًا من العالم، وكل من القولين كفر، بل هذا أعظم من كفر الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٥، ١٦]، فإذا كان الله كفر من جعل له من عباده جزءًا، فكيف من جعل عباده تارة جزءاً منه، وتارة جعله هو جزءاً منهم؟!

فلعن الله أرباب هذه المقالات، وانتصر لنفسه، ولكتابه، ولرسوله، ولعباده المؤمنين منهم.

الوجه الرابع: أنه تناقض من جهة أخرى، فإنه إذا قال: العين ما يتعين الله فيه، والعالم كله حدقة عينه التي لا تنام، فقد جعله متعيناً في جميع العالم، فإذا قال بعدها: وهو نور العين، بقيت سائر أجزاء العين، من الأجفان، والأهداب والسواد، والبياض، لم يتعين فيها، فقد جعله متعيناً فيها، غير متعين فيها.

الوجه الخامس: أن نور العين مفتقر إلى العين، محتاج إليها لقيامه بها، فإذا كان الله في العالم كالنور في العين، وجب أن يكون محتاجاً إلى العالم.

واعلم أن هذا القول يشبه قول الحلولية، الذين يقولون: هو في العالم كالماء في الصوفة، وكالحياة في الجسم ونحو ذلك، ويقولون: هو بذاته في كل مكان، وهذا قول قدماء الجهمية، الذين كفرهم أئمة الإسلام، وحكي عن الجهم أنه كان يقول: هو مثل هذا الهواء، أو قال: هو هذا الهواء.

وقوله أولا: هو حدقة عين الله، يشبه قول الاتحادية، فإن الاتحادية يقولون: هو مثل الشمعة التي تتصور في صور مختلفة وهي واحدة، فهو عندهم الوجود، واختلاف أحواله كاختلاف أحوال الشمعة.

ولهذا كان صاحب هذه المقالات، متخبطا لا يستقر عند المسلمين الموحدين المخلصين، ولا هو عند هؤلاء الملاحدة الاتحادية من محققيهم العارفين.

فإن هؤلاء كلهم من جنس النصيرية، والإسماعيلية، مقالات هؤلاء في الرب من جنس مقالات أولئك، وأولئك فيهم المتمسك بالشريعة، وفيهم المتخلى عنها، وهؤلاء كذلك، لكن أولئك أحذق في الزندقة، وهم يعلمون أنهم معطلون مثل فرعون، وهؤلاء

جهال يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

الوجه السادس : قوله : إن العلويات والسفليات لو ارتفعت، لانبسط نور الله تعالى: بحيث لا يظهر فيه شيء أصلا، وهذا كلام مجمل، ولا ريب أن قائل هذه المقالة من المذبذبين، بين الكافرين والمؤمنين، لا هو من المؤمنين، ولا من الاتحادية المحضة، لكنه قد لبس الحق بالباطل، وذلك أن الاتحادية يقولون: إن عين السموات والأرض لو زالت لعدم الله، وهذا اللفظ يصرح به بعضهم، وأما غالبهم فيشيرون إليه إشارة ، وعوامهم لا يفهمون هذا من مذهب الباقين، فإن هؤلاء من جنس القرامطة ، والباطنية ، وأولئك إنما يصلون إلى البلاغ الأكبر، الذي هو آخر مراتب خواصهم.

ولهذا حدثني بعض أكابر هؤلاء الاتحادية عن صاحب هذه المقالة، أنه كان يقول: ليس بين التوحيد والإلحاد إلا فرق لطيف. فقلت له : هذا من أبطل الباطل، بل ليس بين مذهبين من الفرق أعظم مما بين التوحيد والإلحاد، وهذا قاله بناء على هذا الخلط واللبس الذي خلطه، مثل قوله: إن العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله، بحيث لا يظهر فيه شيء.

فيقال له : إذا ارتفعت العلويات والسفليات: فما تعني بانبساطه ؟ أتعني تفرقه وعدمه كما يتفرق نور العين عند عدم الأجفان؟ أم تعني أنه ينبسط شيء موجود ؟ وما الذي ينبسط حينئذ؟ أهو نفس الله، أم صفة من صفاته؟ وعلى أي شيء ينبسط؟ وما الذي يظهر فيه أو لا يظهر؟

فإن عنيت الأول وهو مقتضى أول كلامك، لأنك قلت: وإنما قلنا: إن العلويات والسفليات أجفان عين الله لأنهما يحافظان على ظهور النور، فلو قطعت أجفان عين الإنسان، لتفرق نور عينه وانتشر، بحيث لا يرى شيئا أصلا، فكذلك العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله ، بحيث لا يظهر فيه شيء أصلا.

وقد قلت : إن الله هو نور العين ، والروح الأعظم بياضها، والنفس الكلية سوادها.

ومعلوم أن نور العين على ما ذكرته بشرط وجوده هو الأجفان، فإذا ارتفع الشرط ارتفع المشروط، فيكون العالم عندك شرطا في وجود الله، فإذا ارتفع العالم ارتفعت حقيقة الله لانتفاء شرطه، وإن أثبت له ذاتا غير العالم فهذا أحد قولي الاتحادية.

فإنهم تارة يجعلون وجود الحق هو عين وجود المخلوقات ليس غيرها، وعلى هذا فلا يتصور وجوده مع عدم المخلوقات، وهذا تعطيل محض للضانع وهو قول القونوي والتلمساني، وهو قول صاحب الفصوص في كثير من كلامه، وتارة يجعلون له وجوداً

قائما بنفسه، ثم يجعلون نفس ذلك الوجود هو أيضا وجود المخلوقات، بمعنى أنه فاض عليها، وهذا أقل كفراً من الأول، وإن كان كلاهما من أغلظ الكفر وأقبحه.

وفي كلام صاحب الفصوص وغيره ـ في بعض المواضع ـ ما يوافق هذا القول ، وكذلك كلام هذا ، فإنه قد يشير إلى هذا المعنى.

ثم مع ذلك : هل يجعلون وجوده مشروطا بوجود العالم ، فيكون محتاجا إلى العالم، أو لا يجعلون ؟ قد يقولون هذا ، وقد يقولون هذا.

السابع: أنهم يمدحون الضلال والحيرة، والظلم والخطأ، والعذاب الذي عذب الله به الأمم، ويقلبون كلام الله وكلام رسوله قلبا يعلم فساده بضرورات العقول مثل قول صاحب الفصوص: لو أن نوحا ما جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه فدعاهم جهاراً ، ثم دعاهم إسراراً . إلى أن قال : وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته، لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته. فعلم العلماء بالله ما أشار إليه نوح في حق قومه ، من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان، والأمر قرآن لا فرقان. ومن أقيم في القرآن لا يصغى إلى الفرقان، وإن كان فيه .

فيمدحون ويحمدون ما ذمه الله ولعنه، ونهى عنه، ويأتون من الإفك والفرية على الله والإلحاد في أسماء الله وآياته، بما : ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**﴾ [مريم: ٩٠]، كقول صاحب الفصوص في فص نوح.

﴿**مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا**﴾ [نوح:٢٥]، فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهو الحيرة.

﴿**فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ [نوح:٢٥] في عين الماء في المحمدتين، ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ [التكوير:٦] سجرت التنور: إذا أوقدته، ﴿**فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا**﴾ [نوح:٢٥]: فكان الله عين أنصارهم، فهلكوا فيه إلى الأبد، فلو أخرجتهم إلى السيف سيف الطبيعة، لنزلوا عن هذه الدرجة الرفيعة، وإن كان الكل لله،وبالله ، بل هو الله .

﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [نوح:٢٦] الذين استغشوا ثيابهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، طلباً للستر لأنه دعاهم ليغفر لهم، والغفر الستر، ﴿**دَيَّارًا**﴾ أحداً حتى تعم المنفعة كما عمت الدعوة، ﴿ **إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ**﴾ أي: تدعهم وتتركهم ﴿**يُضِلُّوا عِبَادَكَ**﴾ أي: يحيروهم ويخرجوهم من العبودية ، إلى ما فيهم من أسرار الربوبية ، فينظروا أنفسهم أربابا، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً ، فهم العبيد الأرباب ﴿**وَلَا يَلِدُوا**﴾

أي ما ينتجون ولا يظهرون ﴿إِلاَّ فَاجِراً﴾ [نوح:٢٧] أي مظهراً ما ستر ﴿كَفَّاراً﴾ أي: ساترا ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما ستر ، ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر، ولا يعرف قصد الفاجر في فجوره، ولا الكافر في كفره، والشخص واحد، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: استرني، واستر مراحلي ، فيجهل مقامي وقدري كما جهل قدرك في قولك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي :من كنت نتيجة عنهما وهما العقل والطبيعة ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ أي: قلبي ﴿مُؤْمِناً﴾ مصدقا بما يكون فيه من الأخبار الإلهية وهو ما حدثت به أنفسها، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العقول ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من النفوس ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ من الظلمات أهل الغيب المكتنفين داخل الحجب الظلمانية ﴿ إِلاَّ تَبَاراً﴾ [نوح:٢٨] أي: هلاكا، فلا يعرفون نفوسهم، لشهودهم وجه الحق دونهم.

وهذا كله من أقبح تبديل كلام الله وتحريفه، ولقد ذم الله أهل الكتاب في القرآن على ما هو دون هذا ، فإنه ذمهم على أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه، وأنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

وهؤلاء قد حرفوا كلام الله عن مواضعه أقبح تحريف ، وكتبوا كتب النفاق والإلحاد بأيديهم ، وزعموا أنها من عند الله .

تارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الملك الذي يوحى به إلى النبي ، فيكونون فوق النبي بدرجة.

وتارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الله، فيكون أحدهم في علمه بنفسه بمنزلة علم الله به؛ لأن الأخذ من معدن واحد.

وتارة يزعم أحدهم أن النبي ﷺ أعطاه في منامه هذا النفاق العظيم ، والإلحاد البليغ، وأمره أن يخرج به إلى أمته وأنه أبرزه، كما حده له رسول الله ﷺ ، من غير زيادة ولا نقصان، وكان جماعة من الفضلاء ـ حتى بعض من خاطبني فيه وانتصر له ـ يرى أنه كان يستحل الكذب، ويختارون أن يقال : كان يتعمد الكذب، وأن ذلك هو أهون من الكفر، ثم صرحوا بأن مقالته كفر، وكان ممن يشهد عليه بتعمد الكذب ، غير واحد من عقلاء الناس ، وفضلائهم ، من المشايخ والعلماء .

ومعلوم أن هذا من أبلغ الكذب على الله ورسوله، وأنه من أحق الناس بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[الأنعام: ٩٣]، وكثير من

المتنبئين الكذابين ـ كالمختار بن أبى عبيد وأمثاله ـ لم يبلغ كذبهم وافتراؤهم إلى هذا الحد.

بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد، وهؤلاء كلهم كان يعظم النبي ﷺ ويقر له بالرسالة، لكن كان يدعى أنه رسول آخر، ولا ينكر وجود الرب، ولا ينكر القرآن في الظاهر، وهؤلاء جحدوا الرب، وأشركوا به كل شيء، وافتروا هذه الكتب التي قد يزعمون أنها أعظم من القرآن، ويفضلون نفوسهم على النبي ﷺ من بعض الوجوه، كما قد صرح به صاحب الفصوص عن خاتم الأولياء.

وحدثني الثقة عن الفاجر التلمساني أنه كان يقول: القرآن كله شرك ليس فيه توحيد، و إنما التوحيد في كلامنا.

وأما الضلال والحيرة، فما مدح الله ذلك قط، ولا قال النبي ﷺ :زدني فيك تحيراً ولم يرو هذا الحديث أحد من أهل العلم بالحديث، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا في شيء من كتب من يعلم الحديث، بل ولا من يعرف الله ورسوله، وكذلك احتجاجه بقوله: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

وإنما هذا حال المنافقين المرتدين، فإن الضلال والحيرة مما ذمه الله في القرآن، قال الله تعالى في القرآن: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ الآية [الأنعام: ٧١].

وهكذا يريد هؤلاء الضالون، المتحيرون، أن يفعلوا بالمؤمنين، يريدون أن يدعوا من دون الله ما لا يضرهم، ولا ينفعهم، وهي المخلوقات والأوثان، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ويريدون أن يردوا المؤمنين على أعقابهم، يردونهم عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، ويصيروا حائرين ضالين كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى، ائتنا، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] أي: يحارون، وقال تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. فأمر بأن نسأله هداية الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين.

وهؤلاء يذمون الصراط المستقيم، ويمدحون طريق أهل الضلال والحيرة مخالفة لكتب الله ورسله، ولما فطر الله عليه عباده من العقول والألباب.

فصـــل

في ذكر بعض ألفاظ ابن عربي التي تبين ما ذكرنا من مذهبه، فإن أكثر الناس قد لا يفهمونه.

قال في فص يوسف ـ بعد أن جعل العالم بالنسبة إلى الله كظل الشخص ، وتناقض في التشبيه ـ : فكل ما تدركه فهو وجود الحق في أعيان الممكنات، فمن حيث هوية الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات ، فكما لا يزول عنه باختلاف الصور اسم الظل، كذلك لا يزول عنه باختلاف الصور اسم العالم أو اسم سوى الحق، فمن حيث أحدية كونه ظلا هو الحق ؛ لأنه الواحد الأحد، ومن حيث كثرة الصور هو العالم، فتفطن وتحقق ما أوضحناه لك.

وإذا كان الأمر على ما ذكرته لك: فالعالم متوهم ما له وجود حقيقي، وهذا معنى الخيال، أي خيل لك أنه أمر زائد قائم بنفسه، خارج عن الوجود الحق ، وليس كذلك في نفس الأمر، ألا تراه في الحس متصلا بالشخص الذي امتد عنه، يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتصال؛ لأنه يستحيل على الشيء الانفكاك عن ذاته، فاعرف عينك ومن أنت وما هويتك ؟ وما نسبتك إلى الحق، وبما أنت حق ، وبما أنت عالم، وسوى ، وغير؟ وما شاكل هذه الألفاظ.

وقال في أول الفصوص ـ بعد (فص حكمة إلهية في كلمة آدمية) و(فص حكمة نفسية ، في كلمة شيثية) ـ: وقد قسم العطاء بأمر الله ، وإنما يكون عن سؤال وعن غير سؤال ، وذكر القسم الذي لا يسأل ، لأن شيثا هو هبة الله إلى أن قال :

ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به في جميع أحواله : هو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به، وهو ما كان عليه في حال ثبوته ، فيعلم علم الله به من أين حصل ، وما ثم صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف، فهم الواقفون على سر القدر، وهم على قسمين:

منهم من يعلم ذلك مجملا، ومنهم من يعلم ذلك مفصلا.

والذي يعلمه مفصلا أعلى وأتم من الذي يعلمه مجملا، فإنه يعلم ما تعين في علم الله فيه، إما بإعلام الله إياه بما أعطاه عينه من العلم به، وإما بأن يكشف له عن عينه الثابتة، وعن انتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناهى ، وهو أعلى، فإنه يكون في علمه

بنفسه بمنزلة علم الله به ؛ لأن الأخذ من معدن واحد ، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له، هي من جملة أحوال عينه، يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك ـ أي علي أحوال عينه ـ فإنه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله علي أحوال عينه الثابتة ـ التي تقع صورة الوجود عليها ـ أن يطلع في هذه الحال على اطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة في حال عدمها ؛ لأنها نسب ذاتية لا صورة لها.

فبهذا القدر نقول: إن العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة في إفادتها العلم، ومن هنا يقول الله : ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ وهي كلمة محققة المعنى ، ما هي كما يتوهم من ليس له هذا المشرب، وغاية المنزه أن يجعل ذلك الحدوث في العلم للتعلق ، وهو أعلى وجه يكون للمتكلم يعقله في هذه المسألة، لولا أنه أثبت العلم زائداً على الذات فجعل التعلق له لا للذات، وبهذا انفصل عن المحقق من أهل الله صاحب الكشف والشهود.

ثم نرجع إلى الأعطيات فنقول : إن الأعطيات إما ذاتية أو أسمائية، فأما المنح والهبات، والعطايا الذاتية ، فلا تكون أبداً إلا عن تجلٍ إلهي ، والتجلي من الذات لا يكون أبداً إلا لصورة استعداد العبد المتجلى له، وغير ذلك لا يكون ، فإذن المتجلي له ما رأى سوى صورته في مرآة الحق، وما رأى الحق، ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه، كالمرآة في الشاهد، إذا رأيت الصور فيها لا تراها مع علمك أنك ما رأيت الصور أو صورتك إلا فيها.

فأبرز الله ذلك مثالا نصبه لتجليه الذاتي ، ليعلم المتجلي له أنه ما رآه، وما ثم مثال أقرب ولا أشبه بالرؤية والتجلي من هذا ، واجهد في نفسك عندما تري الصورة في المرآة أن تري جرم المرآة، لا تراه أبداً البتة، حتى إن بعض من أدرك مثل هذا في صورة المرئي، ذهب إلى أن الصورة المرئية بين بصر الرائي ، وبين المرآة، هذا أعظم ما قدر عليه من العلم، والأمر كما قلناه وذهبنا إليه.

وقد بينا هذا في الفتوحات المكية ، وإذا ذقت هذا ، ذقت الغاية التي ليس فوقها غاية في حق المخلوق، فلا تطمع ولا تتعب نفسك في أن ترقى أعلى من هذا الدرج ، فما هو ثم أصلا وما بعده إلا العدم المحض، فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامها، وليست سوى عينه ، فاختلط الأمر وانبهم ، فمنا من جهل في علمه فقال : والعجز عن درك الإدراك إدراك، ومنا من علم فلم يقل مثل هذا القول ، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم السكوت ما أعطاه العجز، وهذا هو أعلى عالم بالله.

وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل ، وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل

إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة ـ أعنى نبوة التشريع ورسالته ـ ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبدا.

فالمرسلون من حيث كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح في مقامه، ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلى.

وقد ظهر في ظاهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه في فضل عمر ، في أسارى بدر بالحكم فيهم، وفي تأبير النخل ، فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل شيء، وفي كل مرتبة، وإنما نظر الرجال إلى التقدم في مرتبة العلم بالله، هنالك مطلبهم، وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها، فتحقق ما ذكرناه.

ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن وقد كمل سوى موضع لبنة فكان النبي ﷺ تلك اللبنة، غير أنه ﷺ لا يراها ـ إلا كما قال ـ لبنة واحدة[(١)].

وأما خاتم الأولياء، فلابد له من هذه الرؤية ، فيرى ما مثل به رسول الله ﷺ، فيرى في الحائط موضع لبنتين ، اللبن من ذهب وفضة، فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما، لبنة ذهب ولبنة فضة، فلابد من أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين ،فيكمل الحائط.

والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين : أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر ، وهو موضع اللبنة الفضة وهو ظاهره، وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو آخذ عن الله تعالى في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ؛ لأنه رأى الأمر على ما هو عليه، فلابد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه آخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول.

فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع، فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي،ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين،وإن تأخر وجود طينته،فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله ﷺ : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»[(٢)]،وغيره من الأنبياء ما كان

---

(١) البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦/ ٢٠-٢٣)، والترمذي في الأمثال (٢٨٦٢) وأحمد ٣٩٨/٢، ٤١٢ كلهم عن أبي هريرة ، إلا الترمذي فعن جابر.

(٢) انظر تعليق ابن تيمية على هذا الحديث ص ٩٣ . وانظر كذلك : الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة (٣٥٢) .

نبيا إلا حين بعث .

وكذلك خاتم الأولياء، كان ولياً وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان وليا إلا بعد تحصيله شرائط الولاية، من الأخلاق الإلهية، والاتصاف بها من أجل كون الله يسمى بالولي الحميد.

فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية ، مثل نسبة الأنبياء والرسل معه، فإنه الولي الرسول النبي.

وخاتم الأولياء الولي الوارث، الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب، وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد ﷺ ، مقدم الجماعة، وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة، فعين بشفاعته حالا خاصا ما عمم ، وفي هذه الحال الخاص تقدم على الأسماء الإلهية، فإن الرحمن ما شفع عند المنتقم في أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين ، ففاز محمد بالسيادة في هذا المقام الخاص.

فمن فهم المراتب والمقامات لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام .ا هـ.

فهذا الفص قد ذكر فيه حقيقة مذهبه التي يبني عليها سائر كلامه، فتدبر ما فيه من الكفر الذي ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا** ﴾ [مريم: ٩٠]، وما فيه من جحد خلق الله وأمره، وجحود ربوبيته وألوهيته وشتمه وسبه، وما فيه من الإزراء برسله، وصديقيه والتقدم عليهم بالدعاوى الكاذبة ، التي ليس عليها حجة ، بل هي معلومة الفساد بأدني عقل وإيمان وأيسر ما يسمع من كتاب وقرآن، وجعل الكفار والمنافقين والفراعنة هم أهل الله وخاصته أهل الكشوف وذلك باطل من وجوه:

أحدها : أنه أثبت له عينًا ثابتة: قبل وجوده ولسائر الموجودات وإن ذلك ثابت له ولسائر أحواله وكل ما كان موجوداً من الأعيان والصفات والجواهر والأعراض فعينه ثابتة قبل وجوده. وهذا ضلال قد سبق إليه كما تقدم.

الثاني : أنه جعل علم الله بالعبد إنما حصل له من علمه بتلك العين الثابتة في العدم التي هي حقيقة العبد ، لا من نفسه المقدسة، وأن علمه بالأعيان الثابتة في العدم وأحوالها تمنعه أن يفعل غير ذلك ، وأن هذا هو سر القدر.

فتضمن هذا وصف الله تعالى بالفقر إلى الأعيان وغناها عنه،ونفى ما استحقه بنفسه، من كمال علمه وقدرته ، ولزوم التجهيل والتعجيز،وبعض ما في هذا الكلام المضاهاة لما ذكره الله عمن قال فيه : ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾ الآية

[آل عمران: ١٨١]، فإنه جعل حقائق الأعيان الثابتة في العدم غنية عن الله في حقائقها وأعيانها، وجعل الرب مفتقرا إليها في علمه بها، فما استفاد علمه بها إلا منها، كما يستفيد العبد العلم بالمحسوسات من إدراكه لها، مع غنى تلك المدركات عن المدرك.

والمسلمون يعلمون أن الله عالم بالأشياء، قبل كونها بعلمه القديم الأزلي، الذي هو من لوازم نفسه المقدسة ، لم يستفد علمه بها منها: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. فقد دلت هذه الآية، على وجود علمه بالأشياء، من وجوه انتظمت البراهين المذكورة لأهل النظر والاستدلال القياسي العقلي من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم:

أحدها: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، وذلك يتضمن تقديرها في العلم قبل تكونها في الخارج.

الثاني: أن ذلك مستلزم للإرادة، والمشيئة والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام.

الثالث: أنها صادرة عنه، وهو سببها التام، والعلم بأصل الأمر وسببه، يوجب العلم بالفرع المسبب، فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

الرابع: أنه في نفسه لطيف يدرك الدقيق ؛ خبير يدرك الخفي، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام، فهو في علمه بالأشياء مستغن بنفسه عنها، كما هو غني بنفسه في جميع صفاته، ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها، وسمع كلام عباده ونحو ذلك ؛ فإنما يدرك ما أبدع وما خلق، وما هو مفتقر إليه، ومحتاج من جميع وجوهه، لم يحتج في علمه وإدراكه إلى غيره البتة؛ فلا يجوز القول بأن علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة ، الغنية في ثبوتها عنه.

وأما جحود قدرته، فلأنه جعل الرب لا يقدر إلا على تجليه في تلك الأعيان، الثابتة في العدم، الغنية عنه، فقدرته محدودة بها ، مقصورة عليها، مع غناها عنه وثبوت حقائقها بدونه، وهذا عنده هو السر الذي أعجز الله أن يقدر على غير ما خلق ، فلا يقدر عنده على أن يزيد في العالم ذرة، ولا ينقص منه ذرة، ولا يزيد في المطر قطرة، ولا ينقص منه قطرة ، ولا يزيد في طول الإنسان ولا ينقص منه، ولا يغير شيئا من صفاته، ولا حركاته، ولا سكناته، ولا ينقل حجراً عن مقره ، ولا يحول ماء عن ممره، ولا يهدي ضالا ولا يضل مهتديا، ولا يحرك ساكنا ولا يسكن متحركا، ففي الجملة لا يقدر إلا على ما وجد ؛ لأن ما وجد فعينه ثابتة في العدم، ولا يقدر على أكثر من ظهوره في تلك الأعيان.

وهذا التجهيل والتعجيز الذي ذكره، وزعم أنه هو سر القدر ـ وإن كان قد تضمن بعض ما قاله غيره من الضلال ـ ففيه من الكفر ما لا يرضاه غيره من الضالين.

فإن القائلين بأن المعدوم شيء يقولون ذلك في كل ممكن كان أو لم يكن ، ولا يجعلون علمه بالأشياء مستفاداً من الأشياء قبل أن يكون وجودها ، ولا أن خلقه وقدرته مقصورة على ما علمه منها، فإنه يعلم أنواعا من الممكنات لم يخلقها فمعلومه من الممكنات أوسع مما خلقه، ولا يجعلون المانع من أن يخلق غير ما خلق هو كون الأعيان الثابتة في العدم لا تقبل سوى هذا الوجود ، بل يمكن عندهم وجودها على صفة أخرى، هي أيضا من الممكن الثابت في العدم.

فلا يفضى قولهم لا إلى تجهيل ، ولا إلى تعجيز من هذا الوجه ، وإنما قد يقولون: المانع من ذلك أن هذا هو أكمل الوجوه وأصلحها، فعلمه بأنه لا أكمل من هذا يمنعه أن يريد ما ليس أكمل بحكمته، فيجعلون المانع أمراً يعود إلى نفسه المقدسة، حتى لا يجعلونه ممنوعا من غيره.

فأين من لا يجعل له مانعاً من غيره ، ولا راد لقضائه ، ممن يجعله ممنوعا مصدوداً؟ وأين من يجعله عالما بنفسه، ممن يجعله مستفيداً للعلم من غيره؟ وممن هو غني عنه ؟ هذا مع أن أكثر الناس أنكروا على من قال : ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم.

الثالث: أنه زعم أن من الصنف الذي جعله أعلى أهل الله من يكون في علمه بمنزلة علم الله ؛ لأن الأخذ من معدن واحد إذا كشف له عن أحوال الأعيان الثابتة في العدم، فيعلمها من حيث علمها الله ، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له ، هي من جملة أحوال عينه، يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك، فجعل علمه وعلم الله من معدن واحد.

الرابع: أنه جعل الله عالما بها بعد أن لم يكن عالما، واتبع المتشابه الذي هو قوله: ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾[محمد : ٣١] ، وزعم أنها كلمة محققة المعنى ، بناء على أصله الفاسد أن وجود العبد هو عين وجود الرب ، فكل مخلوق علم ما لم يكن علمه، فهو الله علم ما لم يكن علمه.

وهذا الكفر ما سبقه إليه كافر، فإن غاية المكذب بقدر الله أن يقول : إن الله علم ما لم يكن عالما، أما أنه يجعل كل ما تجدد لمخلوق من العلم فإنما تجدد لله، وأن الله لم يكن عالما بما علمه كل مخلوق، حتى علمه ذلك المخلوق، فهذا لم يفتره غيره.

الخامس: أنه زعم أن التجلي الذاتي ، بصورة استعداد المتجلى والمتجلى له، ما رأى سوى صورته في مرآة الحق، وأنه لا يمكن أن يري الحق مع علمه بأنه ما رأى صورته إلا فيه ، وضرب المثل بالمرآة ، فجعل الحق هو المرآة، والصورة في المرآة هي صورته.

وهذا تحقيق ما ذكرته من مذهبه : أن وجود الأعيان عنده وجود الحق ، والأعيان كانت ثابتة في العدم، فظهر فيها وجود الحق ، فالمتجلى له ، وهو العبد لا يرى الوجود مجرداً عن الذوات، ما يرى إلا الذوات التي ظهر فيها الوجود، فلا سبيل له إلى رؤية الوجود أبداً. وهذا عنده هو الغاية التي ليس فوقها غاية في حق المخلوق، وما بعده إلا العدم المحض، فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه، وظهور أحكامها.

وذلك لأن العبد لا يري نفسه ـ التي هي عينه ـ إلا في وجود الحق. ، الذي هو وجوده، والعبد مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامه؛ لأن أسماء الحق عنده هي النسب والإضافات ، التي بين الأعيان وبين وجود الحق ، وأحكام الأسماء هي الأعيان الثابتة في العدم، وظهور هذه الأحكام بتجلي الحق في الأعيان.

والأعيان التي هي حقيقة العيان هي مرآة الحق ، التي بها يرى أسماءه، وظهور أحكامها ، فإنه إذا ظهر في الأعيان، حصلت النسبة التي بين الوجود والأعيان ـ وهي الأسماء ـ وظهرت أحكامها ـ وهي الأعيان ـ ووجود هذه الأعيان هو الحق ، فلهذا قال: وليست سوى عينه، فاختلط الأمر وانبهم.

فتدبر هذا من كلامه وما يناسبه، لتعلم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه وأن ذات الحق عنده هي نفس وجود المخلوقات، وأسماءه هي النسب التي بين الوجود والأعيان، وأحكامها هي الأعيان، لتعلم كيف اشتمل كلامه على الجحود للّه ولأسمائه، ولصفاته وخلقه وأمره، وعلى الإلحاد في أسماء اللّه وآياته؟ فإن هذا الذي ذكره غاية الإلحاد في أسماء اللّه وآياته، الآيات المخلوقة والآيات المتلوة، فإنه لم يثبت له اسمًا ولا آية؛ إذ ليس إلا وجوداً واحداً، وذاك ليس هو اسماً ولا آية، والأعيان الثابتة ليست هي أسماءه ولا آياته، ولما أثبت شيئين فرق بينهما بالوجود والثبوت ـ وليس بينهما فرق ـ اختلط الأمر عليه وانبهم.

وهذا حقيقة قوله، وسر مذهبه ، الذي يدعى أنه به أعلم العالم بالله، وأنه تقدم بذلك على الصديق ، الذي نجهل فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك، وتقدم به على المرسلين ، الذين ما علموا ذلك إلا من مشكاته، وفيه من أنواع الكفر والضلال ما يطول عدها:

منها : الكفر بذات الله؛ إذ ليس عنده إلا وجود المخلوق.

ومنها: الكفر بأسماء الله؛ فإنها ليست عنده إلا أمور عدمية ، فإذا قلنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣] فليس الرب عنده إلا نسبة إلى الثبوت.

السادس: أنه قال : فاختلط الأمر وانبهم، أو هو على أصله الفاسد مختلط منبهم، وعلى أصل الهدى والإيمان متميز متبين، قد بين الله بكتابه الحق من الباطل والهدى من الضلال.

قال : فمنا من جهل في علمه فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك، وهذا الكلام مشهور عندهم نسبته إلى أبى بكر الصديق ، فجعله جاهلا، وإن كان هذا اللفظ لم يحفظ عن أبي بكر، ولا هو مأثور عنه في شيء من النقول المعتمدة، وإنما ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر نحواً من ذلك، عن بعض التابعين غير مسمى ،وإنما يرسل عنه إرسالاً من جهة من يكثر الخطأ في مراسيلهم.

كما يحكون عن عمر أنه قال : كان النبي ﷺ ، وأبو بكر إذا تخاطبا كنت كالزنجي بينهما. وهذا أيضا كذب باتفاق أهل المعرفة. وإنما الذي في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله » فبكي أبو بكر، فقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا، أو كما قال .

فجعل الناس يقولون : عجبا لهذا الشيخ ، يبكي أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة! فكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا به[1]، فكان أبو بكر هو أعلمهم بمراد رسول الله ﷺ ، ومقاصده في كلامه، وإن كانوا كلهم مشتركين في فهمه.

وهذا كما في الصحيح أنه قيل لعلى رضي الله عنه : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئا؟ وفي لفظ : هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس ؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة : وفيها العقل ، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[2].

---

(١) البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٠٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢/٢٣٨٢) ، والترمذي في المناقب (٣٦٦٠) والدارمي ١/ ٣٦، وأحمد ٣/ ١٨.

(٢) البخاري في الجهاد (٣٠٤٧)، ومسلم في الإيمان (٧٨/ ١٣١)، والترمذي في الديات (١٤١٢) والنسائي في القسامة (٣٤٧٤٤)، والدارمي ٢/ ١٩٠، وأحمد ١/ ٧٩.

وبهذا الحديث ونحوه من الأحاديث الصحيحة، استدل العلماء على أن كل ما يذكر عن علي وأهل البيت، من أنهم اختصوا بعلم خصهم به النبي ﷺ دون غيرهم كذب عليهم، مثل ما يذكر منه الجَفْر، والبطاقة، والجدول، وغير ذلك وما يأثره القرامطة الباطنية عنهم، فإنه قد كذب على جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ ما لم يكذب على غيره، وكذلك كذب على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وغيره من أئمة أهل البيت ـ رضي الله عنهم ـ كما قد بين هذا وبسط في غير هذا الموضع.

وهكذا يكذب قوم من النساك ومدعي الحقائق على أبى بكر وغيره، وأن النبي ﷺ كان يخاطبه بحقائق لا يفهمها عمر مع حضوره ، ثم قد يدعون أنهم عرفوها، وتكون حقيقتها زندقة وإلحاداً.

وكثيراً من هؤلاء الزنادقة والجهال: قد يحتج على ذلك بحديث أبى هريرة، حفظت عن رسول الله ﷺ جرابين: أما أحدهما فبثثته فيكم ، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا الحلقوم. وهذا الحديث صحيح [1] ، لكن الجراب الآخر لم يكن فيه شيء من علم الدين، ومعرفة الله وتوحيده، الذي يختص به أولياءه.

ولم يكن أبو هريرة من أكابر الصحابة، الذين يخصون بمثل ذلك ـ لو كان هذا مما يخص به ـ بل كان في ذلك الجراب أحاديث الفتن، التي تكون بين المسلمين، فإن النبي ﷺ أخبرهم بما سيكون من الفتن التي تكون بين المسلمين، ومن الملاحم التي تكون بينهم وبين الكفار .

ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك ، قال ابن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم ، وتهدمون البيت وغير ذلك، لقلتم : كذب أبو هريرة ، فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها؛ لأن ذلك مما لا يحتمله رؤوس الناس وعوامهم.

وكذلك قد يحتجون بحديث حذيفة بن اليمان، وأنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، وحديث حذيفة معروف، لكن السر الذي لا يعلمه غيره: هو معرفته بأعيان المنافقين الذين كانوا في غزوة تبوك، ويقال: إنهم كانوا هموا بالفتك بالنبي ﷺ، فأوحى الله إلى النبي ﷺ أمرهم ، فأخبر حذيفة بأعيانهم، ولهذا كان عمر لا يصلي إلا على من صلى عليه حذيفة؛ لأن الصلاة على المنافقين منهى عنها.

---

(١) البخاري في العلم (١٢٠) بلفظ « وعاءين » .

وقد ثبت في الصحيح عن حذيفة ،أنه لما ذكر الفتن ، وأنه أعلم الناس بها ،بين أن النبي ﷺ لم يخصه بحديثها،ولكن حدث الناس كلهم قال :« وكان أعلمنا أحفظنا»[1].

ومما يبين هذا : أن في السنن أن النبي ﷺ كان عام الفتح قد أهدر دم جماعة : منهم عبد الله بن أبي سرح، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ليبايعه، فتوقف عنه النبي ﷺ ساعة، ثم بايعه وقال : « أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلى ، وقد أمسكت عن هذا فيضرب عنقه؟». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، هلا أومأت إلى ؟ فقال: « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين »[2] . فهذا ونحوه مما يبين أن النبي ﷺ يستوى ظاهره وباطنه، لا يظهر للناس خلاف ما يبطنه، كما تدعيه الزنادقة من المتفلسفة والقرامطة وضلال المتنسكة ونحوهم.

السابع : أنه قال : « ومنا من علم فلم يقل مثل هذا، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم والسكوت ما أعطاه العجز ، هذا هو أعلى عالم بالله، وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأولياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم،حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه، إلا من مشكاة خاتم الأولياء.

فإن الرسالة والنبوة ـ أعنى نبوة التشريع ورسالته ـ ينقطعان ،والولاية لا تنقطع أبدًا، فالمرسلون من كونهم أولياء: لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه،ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلى ـ إلى قوله ـ :ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن.

ففي هذا الكلام من أنواع الإلحاد والكفر، وتنقيص الأنبياء والرسل ما لا تقوله لا اليهود ولا النصارى، وما أشبه في هذا الكلام بما ذكر في قول القائل: فخر عليهم السقف من تحتهم ، أن هذا لا عقل ولا قرآن.

وكذلك ما ذكره هنا ـ من أن الأنبياء والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذي بعدهم ـ هو مخالف للعقل،فإن المتقدم لا يستفيد من المتأخر،ومخالف للشرع،فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأنبياء والرسل أفضل من الأولياء، الذين ليسوا أنبياء ولا رسلا .

وقد يزعم أن هذا العلم ـ الذي هو عنده ـ أعلى العلم ـ وهو القول بوحدة الوجود ـ

---

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩٢ / ٢٥) بنحوه .

(٢) ابو داود في الحدود (٤٣٥٩) ، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٦٧).

وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وحقيقة تعطيل الصانع وجحده، وهو القول الذي يظهره فرعون ، فلم يكفه زعمه أن هذا حق ، حتى زعم أنه أعلى العلم، ولم يكفه ذلك حتى زعم أن الرسل إنما يرونه من مشكاة خاتم الأولياء.

فجعل خاتم الأولياء أعلم بالله من جميع الأنبياء والرسل ، وجعلهم يرون العلم بالله من مشكاته.

ثم أخذ يبين ذلك فقال : فإن الرسالة والنبوة ـ أعنى نبوة التشريع ورسالته ـ ينقطعان والولاية لا تنقطع أبدا . فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف بالأولياء الذين ليسوا أنبياء ولا رسلا؟ وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبي ﷺ نبيا ورسولا، فإن هذا كفر ظاهر، فزعموا أنه إنما تنقطع نبوة التشريع ورسالته ، يعني: وأما نبوة التحقيق ورسالة التحقيق ـ وهي الولاية عندهم ـ فلم تنقطع، وهذه الولاية عندهم هي أفضل من النبوة والرسالة ؛ولهذا قال ابن عربي في بعض كلامه:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وقال في الفصوص في (كلمة عزيرية): فإذا سمعت أحداً من أهل الله تعالى يقول أو ينقل إليك عنه ، أنه قال : الولاية أعلى من النبوة، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه.

أو يقول : إن الولي فوق النبي والرسول ، فإنه يعني بذلك في شخص واحد وهو أن الرسول ـ عليه السلام ـ من حيث هو ولي، أتم منه من حيث هو نبي ورسول ، لا أن الولي التابع له أعلى منه، فإن التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه، إذ لو أدركه لم يكن تابعًا له.

وإذا حوققوا على ذلك قالوا : إن ولاية النبي فوق نبوته، وإن نبوته فوق رسالته؛ لأنه يأخذ بولايته عن الله، ثم يجعلون مثل ولايته ثابتة لهم، ويجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولايته، وأن ولاية الرسول تابعة لولاية خاتم الأولياء الذي ادعوه.

وفي هذا الكلام أنواع قد بيناها في غير هذا الموضع:

منها: أن دعوى المدعي وجود خاتم الأولياء على ما ادعوه باطل لا أصل له .

ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هولاء ، إلا أبو عبد الله محمد بن على الترمذي الحكيم، في كتاب (ختم الولاية) وقد ذكر في هذا الكتاب ما هو خطأ وغلط ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع.

وهو ـ رحمه الله تعالى ـ وإن كان فيه فضل ومعرفة، و له من الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة ، ففي كلامه من الخطأ ما يجب رده، ومن أشنعها ما ذكره في كتاب (ختم الولاية)، مثل دعواه فيه أنه يكون في المتأخرين مَنْ درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر ، وعمر، وغيرهما .

ثم إنه تناقض في موضع آخر، لما حكى عن بعض الناس أن الولي يكون منفرداً عن الناس ، فأبطل ذلك واحتج بأبي بكر وعمر وقال : يلزم هذا أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر ، وأبطل ذلك .

ومنها : أنه ذكر في كتابه ما يشعر أن ترك الأعمال الظاهرة ـ ولو أنها التطوعات المشروعة ـ أفضل في حق الكامل ذي الأعمال القلبية، وهذا أيضا خطأ عند أئمة الطريق، فإن أكمل الخلق رسول الله ﷺ ، وخير الهدي هدى محمد ﷺ ، وما زال محافظا على ما يمكنه من الأوراد والتطوعات البدنية إلى مماته .

ومنها: ما ادعاه من خاتم الأولياء ، الذي يكون في آخر الزمان، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء ، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء. وهذا ضلال واضح، فإن أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأمثالهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة .

وخير القرون قرنه ﷺ ، كما في الحديث الصحيح :«خير القرون قرني الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(١)] ،وفي الترمذي وغيره أنه قال في أبي بكر وعمر: «هذان سيدا كهول أهل الجنة، من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين». قال الترمذي حديث حسن[(٢)] . وفي صحيح البخاري عن على ـ رضي الله عنه ـ أنه قال له ابنه: يا أبت، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال :يا بني، أبو بكر. قال : ثم من؟ قال: ثم عمر [(٣)]وروى بضع وثمانون نفسا .عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وهذا باب واسع ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾ [النساء:٦٩]، وهذه الأربعة هي مراتب العباد: أفضلهم الأنبياء، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون.

---

(١) البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢) ، كلهم عن عبد الله بن مسعود إلا الترمذي فعن عمران بن حصين.

(٢) الترمذي في المناقب (٣٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٩٥)،وأحمد ١/ ٨٠ عن علي.

(٣) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧١).

وقد نهى النبي ﷺ أن يفضل أحد منا نفسه على يونس بن متى - مع قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]، وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] - تنبيها على أن غيره أولى ألا يفضل أحد نفسه عليه، ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس بن مَتَّى»[١] . وفي صحيح البخاري أيضا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى»[٢] ، وفي لفظ: «أن يقول: أنا خير من يونس بن مَتَى»[٣] ، وفي البخاري أيضا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى، فقد كذب»[٤]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال - يعني رسول الله - : «لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى»[٥] ، وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ - وفي لفظ : فيما يرويه عن ربه -: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »[٦]، وهذا فيه نهي عام.

وأما ما يرويه بعض الناس أنه قال : « لا تفضلوني على يونس بن متى»[٧] ، ويفسره باستواء حال صاحب المعراج ، وحال صاحب الحوت، فنقل باطل وتفسير باطل، وقد قال النبي ﷺ: «اثبت أُحُد فما عليك إلا نبي، أو صديق أو شهيد»[٨]، وأبو بكر أفضل الصديقين.

ولفظ خاتم الأولياء لا يوجد في كلام أحد من سلف الأمة، ولا أئمتها ولا له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله، وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقي، فإن الله يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية [يونس:٦٢]، فكل من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا.

وهم على درجتين: السابقون المقربون، وأصحاب اليمين المقتصدون، كما قسمهم الله - تعالى - في سورة فاطر، وسورة الواقعة، والإنسان، والمطففين.

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٢).

(٢) البخاري في التفسير (٤٨٠٤).

(٣) البخاري في التفسير (٤٦٠٣).

(٤) البخاري في التفسير (٤٦٠٤).

(٥) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٦/١٦٦) .

(٦) البخاري في التوحيد (٧٥٣٩) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٧/١٦٧) .

(٧) ذكره القاضي عياض في الشفاء ١/٢٢٦، وفند هذا الحديث وأمثاله ورد عليها.

(٨) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٦) ، وأبو داود في السنة (٤٦٥١)، عن أنس بن مالك ، وأحمد ٥/ ٣٣١ عن سهل بن سعد الساعدي.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه»(١).

فالمتقربون إلى الله بالفرائض هم الأبرار المقتصدون أصحاب اليمين، والمتقربون إليه بالنوافل التي يحبها بعد الفرائض ـ هم السابقون المقربون، وإنما تكون النوافل بعد الفرائض. وقد قال أبو بكر الصديق في وصيته لعمر بن الخطاب: اعلم أن لله عليك حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة.

والاتحادية يزعمون أن قرب النوافل يوجب أن يكون عين الحق عين أعضائه، وأن قرب الفرائض يوجب أن يكون الحق عين وجوده كله، وهذا فاسد من وجوه كثيرة، بل كفر صريح، كما بيناه في غير هذا الموضع.

وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقي في الدنيا، فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء، ولا أكملهم، بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم، الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم، فإنه كلما كان الولي أعظم اختصاصا بالرسول، وأخذا عنه وموافقة له كان أفضل، إذ الولي لا يكون وليا لله إلا بمتابعة الرسول باطنا وظاهرًا، فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله.

والأولياء، وإن كان فيهم محدَّثون كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»(٢)، فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر، وأبو بكر أفضل منه، إذ هو الصديق، فالمحدث ـ وإن كان يلهم ويحدث من جهة الله ـ تعالى ـ فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة، فإنه ليس بمعصوم، كما قال أبو الحسن الشاذلي: قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام.

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٠٢).

(٢) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٩)، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣/٢٣٩٨) عن عائشة، رضي الله عنها.

ولهذا كان عمر بن الخطاب وقافاً عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تخالف ما يقع له، كما بين له يوم الحديبية[1]، ويوم موت النبي ﷺ [2]، ويوم قتال مانعي الزكاة وغير ذلك، وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة، فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه، وربما قال القول فترد عليه امرأة من المسلمين قوله، وتبين له الحق فيرجع إليها، ويدع قوله كما قدر الصداق [3]، وربما يرى رأيا فيذكر له حديث عن النبي ﷺ فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة، وكان يقول القول ، فيقال له: أصبت، فيقول: والله ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأه؟

فإذا كان هذا إمام المحدثين، فكل ذي قلب يحدثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر، فليس فيهم معصوم، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، وإن كان طائفة تدعي أن الولي محفوظ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة، والحكيم الترمذي قد أشار إلى هذا، فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع.

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وإن كانوا متفاضلين في الهدى والنور والإصابة، ولهذا كان الصديق أفضل من المحدث؛ لأن الصديق يأخذ من مشكاة النبوة، فلا يأخذ إلا شيئا معصوما محفوظا.

وأما المحدث فيقع له صواب وخطأ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه، وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة، لابد لهم أن يزنوا جميع أمورهم بآثار الرسول ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق، وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ، ويغفر لهم خطأهم.

ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداء واتباعا للآثار النبوية ، فهم أعظم إيمانا وتقوى ، وأما آخر الأولياء فلا يحصل له مثل ما حصل لهم.

والحديث الذي يروى: «مثل أمتي كمثل الغيث لا يدري أوله خير أم آخره؟»[4] ،قد تكلم في إسناده، وبتقدير صحته إنما معناه: يكون في آخر الأمة من يقارب أولها، حتى يشتبه على بعض الناس أيهما خير ، كما يشتبه على بعض الناس طرفا الثوب، مع القطع بأن الأول خير من الآخر؛ ولهذا قال : «لا يدري» ومعلوم أن هذا السلب ليس عاما لها،

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٦٣٤، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/١٠٦، وابن إسحاق في السيرة ٣/٢٦٣.

(٢) البخاري في الجنائز (١٢٤١، ١٢٤٢)، و النسائي في الجنائز (١٨٤١)، و ابن إسحاق في السيرة ٤/٣٠٧.

(٣) ابن ماجه في الجنائز (١٨٨٧).

(٤) الترمذي في الأمثال (٢٨٦٩) وقال : «حسن غريب من هذا الوجه».

فإنه لابد أن يكون معلومًا أيهما أفضل .

ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له، وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف ، وقد ادعاها غير واحد، ولم يدعها إلا من في كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى، كما ادعاها صاحب الفصوص، وتابعه صاحب الكلام في الحروف، وشيخ من أتباعهم كان بدمشق، وآخر كان يزعم أنه المهدي ، الذي يزوج بنته بعيسى ابن مريم، وأنه خاتم الأولياء ، ويدعى هؤلاء وأمثالهم من الأمور ما لا يصلح إلا لله وحده، كما قد يدعي المدعي منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى في المسيح.

ثم صاحب الفصوص وأمثاله، بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك؛ فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة، وهذا باطل وكذب، فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه، وإذا كان محدثا قد ألقى إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة.

وتكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه :

من وراء حجاب ، كما كلم موسى .

وبإرسال رسول ، كما أرسل الملائكة إلى الأنبياء.

وبالإيحاء ، وهذا فيه للولي نصيب، وأما المرتبتان الأوليان فإنهما للأنبياء خاصة، فالأولياء الذين قامت عليهم الحجة بالرسل لا يأخذون علم الدين إلا بتوسط رسل الله إليهم، ولو لم يكن إلا عرضه على ما جاء به الرسول ولن يصلوا في أخذهم عن الله إلى مرتبة نبي أو رسول ، فكيف يكونون آخذين عن الله بلا واسطة ، ويكون هذا الأخذ أعلى، وهم لا يصلون إلى مقام تكليم موسى ، ولا إلى مقام نزول الملائكة عليهم، كما نزلت على الأنبياء؟ وهذا دين المسلمين، واليهود، والنصارى.

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية، فبنوا على أصلهم الفاسد : أن الله هو الوجود المطلق، الثابت لكل موجود ، وصار ما يقع في قلوبهم من الخواطر ـ وإن كانت من وساوس الشيطان ـ يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن الله بلا واسطة، وأنهم يكلمون كما كلم موسى ابن عمران، وفيهم من يزعمون أن حالهم أفضل من حال موسى بن عمران؛ لأن موسى سمع الخطاب من الشجرة ، وهم ـ على زعمهم ـ يسمعون الخطاب من حي ناطق ، كما يذكر عن صاحب الفصوص أنه قال :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وأعانهم على ذلك ما اعتقدوه من مذاهب الجهمية وأتباعهم الذين يزعمون أن تكليم الله لموسى إنما كان من جنس الإلهام، وأن العبد قد يرى الله في الدنيا إذا زال عن عينه المانع؛ إذ لا حجاب عندهم للرؤية منفصل عن العبد، وإنما الحجاب متصل به ، فإذا ارتفع شاهد الحق.

وهم لا يشاهدون إلا ما يتمثلونه، من الوجود المطلق ، الذي لا حقيقة له إلا في أذهانهم، أو من الوجود المخلوق . فيكون الرب المشهود عندهم ـ الذي يخاطبهم في زعمهم ـ لا وجود له إلا في أذهانهم، أو لا وجود له إلا وجود المخلوقات، وهذا هو التعطيل للرب تعالى ، ولكتبه، ولرسله، والبدع دهليز الكفر والنفاق ، كما أن التشيع دهليز الرفض، والرفض دهليز القرمطة والتعطيل ، فالكلام الذي فيه تجهم هو دهليز التجهم، والتجهم دهليز الزندقة والتعطيل.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال :« واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[١] ،ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله يرى في الآخرة ، وأنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه.

وفي رؤية النبي ﷺ ربه كلام معروف لعائشة وابن عباس. فعائشة أنكرت الرؤية، وابن عباس ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين [٢]، وكذلك ذكر أحمد عن أبي ذر وغيره: أنه أثبت رؤيته بفؤاده[٣] .وهذا المنصوص عن ابن عباس وأبي ذر وغيرهما هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السنة، ولم يثبت عن أحد منهم إثبات الرؤية بالعين في الدنيا ، كما لم يثبت عن أحد منهم إنكار الرؤية في الآخرة.

ولكن كلا القولين تقول به طوائف من الجهمية، فالنفي يقول به متكلمة الجهمية، والإثبات يقول به بعض متصوفة الجهمية ، كالاتحادية، وطائفة من غيرهم، وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفي والإثبات، كما يقول ابن سبعين : عين ما ترى ذات لا تري، وذات لا ترى عين ما ترى، ونحو ذلك ؛ لأن مذهبهم مستلزم الجمع بين النقيضين، فهم يقولون في عموم الكائنات ما قالته النصارى في المسيح ، ولهذا تنوعوا في ذلك تنوع النصارى في المسيح.

ومن الأنواع التي في دعواهم أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، من بعض

---

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣١) عن عبد الله بن عمر.
(٢) مسلم في الإيمان (١٧٦/ ٢٨٥).
(٣) أحمد ٢٥٨/١، ٢٩٠.

الوجوه، فإن هذا لم يقله أبو عبد الله الحكيم الترمذي ، ولا غيره من المشايخ المعروفين، بل الرجل أجل قدراً، وأعظم إيمانا، من أن يفترى هذا الكفر الصريح، ولكن أخطأ شبراً، ففرعوا على خطئه ما صار كفراً .

وأعظم من ذلك: زعمهم أن الأولياء والرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء، وآخذون من مشكاته، فهذا باطل بالعقل والدين، فإن المتقدم لا يأخذ من المتأخر، والرسل لا يأخذون من غيرهم.

وأعظم من ذلك : أنه جعلهم تابعين له في العلم بالله، الذي هو أشرف علومهم، وأظهر من ذلك: أنه جعل العلم بالله هو مذهب أهل وحدة الوجود، القائلين بأن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق .

فليتدبر المؤمن هذا الكفر القبيح، درجة بعد درجة، واستشهاده على تفضيل غير النبي عليه بقصة عمر، وتأبير النخل[1] ، فهل يقول مسلم: إن عمر كان أفضل من النبي ﷺ برأيه في الأسرى؟ أو أن الفلاحين الذين يحسنون صناعة التأبير أفضل من الأنبياء في ذلك؟ ثم ما قنع بذلك حتى قال: فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل علم وكل مرتبة، وإنما نظر الرجال إلى التقدم في مرتبة العلم بالله، هنالك مطلبهم.

فقد زعم أنه أعلم بالله من خاتم الأنبياء، وأن تقدمه عليه بالعلم بالله، وتقدم خاتم الأنبياء عليه بالتشريع فقط، وهذا من أعظم الكفر الذي يقع فيه غالية المتفلسفة، وغالية المتصوفة، وغالية المتكلمة، الذين يزعمون أنهم في الأمور العلمية أكمل من الرسل ، كالعلم بالله ونحو ذلك، وأن الرسل إنما تقدموا عليهم بالتشريع العام، الذي جعل لصلاح الناس في دنياهم.

وقد يقولون : إن الشرائع قوانين عدلية، وضعت لمصلحة الدنيا ، فأما المعارف والحقائق والدرجات العالية في الدنيا والآخرة، فيفضلون فيها أنفسهم، وطرقهم على الأنبياء ، وطرق الأنبياء.

وقد علم بالاضطرار من دين المسلمين : أن هذا من أعظم الكفر والضلال ، وكان ذلك من سبب جحد حقائق ما أخبرت به الرسل ، من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر، وزعمهم أن ما يقوله هؤلاء في هذا الباب هو الحق .

وصاروا في أخبار الرسل ،تارة يكذبونها ،وتارة يحرفونها ،وتارة يفوضونها ، وتارة

---

(١) ابن ماجه في الرهون (٣٤٧١)، وأحمد ٦/٣٣ عن عائشة.

يزعمون أن الرسل كذبوا لمصلحة العموم.

ثم عامة الذين يقولون هذه المقالات، يفضلون الأنبياء والرسل على أنفسهم ، إلا الغالية منهم ـ كما تقدم ـ فهؤلاء من شر الناس قولا واعتقاداً.

وقد كان عندنا شيخ من أجهل الناس ، كان يعظمه طائفة من الأعاجم، ويقال: إنه خاتم الأولياء، يزعم أنه يفسر العلم بوجهين ، وأن النبي ﷺ إنما فسره بوجه واحد، وأنه هو أكمل من النبي ﷺ ، وهذا تلقاه من صاحب الفصوص، وأمثال هذا في هذه الأوقات كثيرون، وسبب ضلال المتفلسفة ، وأهل التصوف ، والكلام، الموافقة لضلالهم، وليس هذا موضع الإطناب في بيان ضلال هذا ، وإنما الغرض التنبيه على أن صاحب الفصوص وأمثاله قالوا قول هؤلاء.

فأما كفر من يفضل نفسه على النبي ﷺ ـ كما ذكر صاحب الفصوص ـ فظاهر،ولكن من هؤلاء من لا يرى ذلك،ولكن يرى أن له طريقاً إلى الله غير اتباع الرسول،ويسوغ لنفسه اتباع تلك الطريق وإن خالف شرع الرسول، ويحتجون بقصة موسى والخضر.

ولا حجة فيها لوجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتباع موسى ، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح : «أن موسى لما سلم على الخضر قال : وأنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم، قال : إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه»[1].

ولهذا قال نبينا ﷺ : «فضلنا على الناس بخمس: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأي رجل أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي،وأعطيت الشفاعة،وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامه»[2] ،وقال: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهوراً،وأحلت لي الغنائم،ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس

---

(١) البخاري في العلم (١٢٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠/ ١٧٠) ، والترمذي في التفسير (٣١٤٩) عن ابن عباس.

(٢) مسلم في المساجد (٥٢٢/ ٤) ، وأحمد ٥/ ٣٨٣ عن حذيفة بن اليمان؛ وهو بلفظ: « فضلنا على الناس بثلاث».

عامة»(1)، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ:٢٨]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية [الأعراف:١٥٨].

فمحمد ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين: إنسهم وجنهم،عربهم وعجمهم، ملوكهم وزهادهم، الأولياء منهم وغير الأولياء، فليس لأحد الخروج عن متابعته باطنا وظاهراً ، ولا عن متابعة ما جاء به من الكتاب والسنة، في دقيق ولا جليل، لا في العلوم ولا الأعمال، وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى ، وأما موسى فلم يكن مبعوثاً إلى الخضر.

الثاني: أن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة، بل الأمور التي فعلها تباح في الشريعة، إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر، ولهذا لما بين أسبابها لموسى وافقه على ذلك، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال.

وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع ، فإن خرق السفينة مضمونه: أن المال المعصوم يجوز للإنسان أن يحفظه لصاحبه بإتلاف بعضه، فإن ذلك خير من ذهابه بالكلية، كما جاز للراعي ـ على عهد النبي ﷺ ـ أن يذبح الشاة، التي خاف عليها الموت، وقصة الغلام مضمونها: جواز قتل الصبي الصائل ؛ ولهذا قال ابن عباس لنجدة: وأما الغلمان فإن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم. وأما إقامة الجدار ففيها فعل المعروف بلا أجرة مع الحاجة ، إذا كان لذرية قوم صالحين.

الوجه الثامن: أنه قال : ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط إلى آخر كلامه وهو متضمن أن العلم نوعان:

أحدهما: علم الشريعة، وهو يأخذ عن الله كما يأخذ النبي، فإنه قال : والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر، وهو موضع اللبنة الفضية، وهو ظاهره، وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة، متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلابد أن يراه هكذا.

وهذا الذي زعمه ـ من أن الولي يأخذ عن الله في السر ما يتبع فيه الرسل كأئمة العلماء مع أتباعهم ـ فيه من الإلحاد ما لا يخفى على من يؤمن بالله ورسله، فإن هذا يدعي أنه أوتي مثل ما أوتى رسل الله ، ويقول: إنه أوحي إلى ولم يوح إليه شيء، ويجعل الرسل بمنزلة معلمي الطب والحساب والنحو وغير ذلك، إذا عرف المتعلم الدليل الذي قال به معلمه، فينبغي موافقته له لمشاركته له في العلم لا لأنه رسول وواسطة من

---

(1) البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١/٣)، وأحمد ٣/ ٣٠٤.

الله إليه في تبليغ الأمر والنهي.

وهذا الكفر يشبه كفر مسيلمة الكذاب ونحوه ممن يدعي أنه مشارك للرسول في الرسالة وكان يقول مؤذنه: أشهد أن محمدا ومسيلمة رسولا الله.

والنوع الثاني: علم الحقيقة، وهو فيه فوق الرسول ، كما قال : هو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول، فقد ادعى أن هذا العلم الذي هو موضع اللبنة الذهبية ـ وهو علم الباطن والحقيقة ـ هو فيه فوق الرسول ؛ لأنه يأخذه من حيث يأخذ الملك العلم الذي يوحى به إلى الرسول، والرسول يأخذه من الملك، وهو يأخذه من فوق الملك، من حيث يأخذه الملك، وهذا فوق دعوى مسيلمة الكذاب، فإن مسيلمة لم يدع أنه أعلى من الرسول، في علم من العلوم الإلهية، وهذا ادعى أنه فوقه في العلم بالله.

ثم قال : فإن فهمت ما أشرت به، فقد حصل لك العلم النافع . ومعلوم أن هذا الكفر فوق كفر اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى لا ترضى أن تجعل أحداً من المؤمنين فوق موسى وعيسى، وهذا يزعم أنه هو وأمثاله ممن يدعى أنه خاتم الأولياء أنه فوق جميع الرسل، وأعلم بالله من جميع الرسل، وعقلاء الفلاسفة لا يرضون بهذا، وإنما يقول مثل هذا غلاتهم، وأهل الحمق منهم ، الذين هم من أبعد الناس عن العقل والدين.

التاسع: قوله : فكل نبي من لدن آدم – إلى آخر الفصل – تضمن أن جميع الأنبياء والرسل لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم النبيين، ليوطن لنفسه بذلك أن جميع الأنبياء لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم الأولياء، وكلاهما ضلال ، فإن الرسل ليس منهم أحد يأخذ من آخر، إلا من كان مأموراً باتباع شريعته، كأنبياء بني إسرائيل ، والرسل الذين بعثوا فيهم الذين أمروا باتباع التوراة، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الآية [المائدة: ٤٤].

وأما إبراهيم ، فلم يأخذ عن موسى وعيسى. ونوح لم يأخذ عن إبراهيم. ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى لم يأخذوا عن محمد ، وإن بشروا به وآمنوا به ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية[آل عمران: ٨١]. قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه[1].

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٣٧.

العاشر : قوله : فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»(١). بخلاف غيره من الأنبياء، وكذلك خاتم الأولياء، كان ولياً وآدم بين الماء والطين : كذب واضح، مخالف لإجماع أئمة الدين، وإن كان هذا يقوله طائفة من أهل الضلال والإلحاد.

فإن الله علم الأشياء، وقدرها قبل أن يكونها، ولا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، ولم تكن حقيقتهﷺ موجودة قبل أن يخلق ، إلا كما كانت حقيقة غيره ، بمعنى أن الله علمها وقدرها.

لكن كان ظهور خبره واسمه مشهوراً أعظم من غيره، فإنه كان مكتوباً في التوراة والإنجيل وقبل ذلك، كما روى الإمام أحمد في مسنده، عن العرْباض بن سارية، عن النبي ﷺ قال : « إني لعبد الله، مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمي ، رأت حين ولدتني كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»(٢).

وحديث ميسرة الفجر: قلت يا رسول الله ، متى كنت نبياً؟ـ وفي لفظ متي كتبت نبياً ؟ـ قال : « وآدم بين الروح والجسد»(٣) وهذا لفظ الحديث.

وأما قوله : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » فلا أصل له، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ، وهو باطل ، فإنه لم يكن بين الماء والطين، إذ الطين؛ ماء وتراب، ولكن لما خلق الله جسد آدم قبل نفخ الروح فيه ، كتب نبوة محمد ﷺ وقدرها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : حدثنا رسول اللهﷺ ، وهو الصادق المصدوق : «إن خلق أحدكم يجعل في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيقال : اكتب رزقه، وعمله، وأجله ، وشقياً أو سعيداً، ثم ينفخ فيه الروح»(٤) ،وروى أنه كتب اسمه على ساق العرش ، ومصاريع الجنة . فأين الكتاب والتقدير من وجود الحقيقة؟

وما يروى في هذا الباب من الأحاديث ، هو من هذا الجنس، مثل كونه كان نوراً يسبح حول العرش ، أو كوكباً يطلع في السماء ونحو ذلك، كما ذكره ابن حمويه ـ صاحب ابن عربي ـ وذكر بعضه عمر الملا في وسيلة المتعبدين، وابن سبعين وأمثالهم، ممن يروي الموضوعات المكذوبات، باتفاق أهل المعرفة بالحديث.

فإن هذا المعنى رووا فيه أحاديث كلها كذب،حتى إنه اجتمع بي قديما شيخ معظم

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٨ .
(٢) أحمد ٤/١٢٧.
(٣) سبق تخريجه ص ٩٣ .
(٤) سبق تخريجه ص ٩٤ .

من أصحاب ابن حمويه، يسميه أصحابه سلطان الأقطاب، وتفاوضنا في كتاب الفصوص ، وكان معظما له ولصاحبه، حتى أبديت له بعض ما فيه ، فهاله ذلك، وأخذ يذكر مثل هذه الأحاديث ، فبينت له أن هذا كله كذب.

الحادي عشر: قوله : وخاتم الأولياء كان وليا وآدم بين الماء والطين ـ إلى قوله ـ: فخاتم الرسل من حيث ولايته، نسبته مع الختم للولاية، كنسبة الأولياء والرسل معه ـ إلى آخر الكلام ـ ذكر فيه ما تقدم من كون رسول الله ﷺ مع هذا الختم المدعى كسائر الأنبياء والرسل معه يأخذ من مشكاته العلم بالله، الذي هو أعلى العلم، وهو وحدة الوجود، إنه مقدم الجماعة ، وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة. فعين حالا خاصا ما عمم ـ إلى قوله ـ: ففاز محمد بالسيادة في هذا المقام الخاص.

فكذب على رسول الله ﷺ في قوله : أنه قال : أنا سيد ولد آدم في الشفاعة خاصة، وألحد وافترى من حيث زعم أنه سيد في الشفاعة فقط، لا في بقية المراتب، بخلاف الختم المفترى، فإنه سيد في العلم بالله، وغير ذلك من المقامات.

ولقد كنت أقول : لو كان المخاطب لنا من يفضل إبراهيم ، أو موسى ، أو عيسى على محمد ﷺ ، لكانت مصيبة عظيمة لا يحتملها المسلمون، فكيف بمن يفضل رجلا من أمة محمد على محمد، وعلى جميع الأنبياء والرسل في أفضل العلوم؟! ويدعي أنهم يأخذون ذلك من مشكاته؟ وهذا العلم هو غاية الإلحاد والزندقة.

وهذا المفضل من أضل بني آدم، وأبعدهم عن الصراط المستقيم، وإن كان له كلام كثير، ومصنفات متعددة، وله معرفة بأشياء كثيرة ، وله استحواذ على قلوب طوائف من أصناف المتفلسفة ، والمتصوفة ، والمتكلمة، والمتفقهة، والعامة، فإن هذا الكلام من أعظم الكلام ضلالا، عند أهل العلم والإيمان. والله أعلم.

وقد تبين أن في هذا الكلام من الكفر ، والتنقيص بالرسل، والاستخفاف بهم، والغض منهم ، بل والكفر بهم، وبما جاؤوا به، ما لا يخفى على مؤمن، وقد حدثني أحد أعيان الفضلاء: أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري ـ رحمة الله عليه ـ يقول : رأيت ابن عربي ـ وهو شيخ نجس ـ يكذب بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي أرسله الله. ولقد صدق فيما قال ، ولكن هذا بعض الأنواع التي ذكرها من الكفر.

وكذلك قول أبي محمد بن عبد السلام: هو شيخ سوء ، مقبوح كذاب ، يقول بقدم العالم ، ولا يحرم فرجا ، هو حق عنه ، لكنه بعض أنواع ما ذكره من الكفر ، فإن قوله لم يكن قد تبين له حاله وتحقق ، وإلا فليس عنده رب وعالم، كما تقوله الفلاسفة

الإلهيون، الذين يقولون بواجب الوجود، وبالعالم الممكن، بل عنده وجود العالم هو وجود الله ، وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية، الذين ينكرون وجود الصانع مطلقا، ولا يقرون بوجود واجب غير العالم .

كما ذكر الله عن فرعون وذويه، وقوله مطابق لقول فرعون ، لكن فرعون لم يكن مقراً بالله، وهؤلاء يقرون بالله،ولكن يفسرونه بالوجود، الذي أقر به فرعون، فهم أجهل من فرعون وأضل ، وفرعون أكفر منهم؛ إذ في كفره من العناد والاستكبار ما ليس في كفرهم ، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال له موسى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وجماع أمر صاحب الفصوص وذويه: هدم أصول الإيمان الثلاثة ، فإن أصول الإيمان: الإيمان بالله، والإيمان برسله ، والإيمان باليوم الآخر.

فأما الإيمان بالله : فزعموا أن وجوده وجود العالم، ليس للعالم صانع غير العالم.

وأما الرسول: فزعموا أنهم أعلم بالله منه، ومن جميع الرسل ، ومنهم من يأخذ العلم بالله ـ الذي هو التعطيل ووحدة الوجود ـ من مشكاته، وأنهم يساوونه في أخذ العلم بالشريعة عن الله.

وأما الإيمان باليوم الآخر :فقد قال :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وبالوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهـــم على لذة فيها نعيم يباين

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال : إن النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها، وحينئذ فلا خوف ولا محذور ولا عذاب؛ لأنه أمر مستعذب. ثم إنه في الأمر والنهي عنده الآمر ، والناهي ، والمأمور، والمنهى واحد ، ولهذا كان أول ما قاله في الفتوحات المكية التي هي أكبر كتبه:

الرب حق ، والعبد حق يا ليت شعري من المكلف ؟

إن قلت عبد فـذاك رب أو قلـت رب أنى يكلـف ؟

وفي موضع آخر: «فذاك ميت» رأيته بخطه.

وهذا مبني على أصله، فإن عنده ما ثم عبد ولا وجود إلا وجود الرب، فمن المكلف؟ وعلى أصله هو المكلِّف والمكلَّف كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا.

وكما قال ابن الفارض في قصيدته ـ التي نظمها على مذهبهم،وسماها نظم السلوك :

إليَّ رسولا كنت مني مرسلا وذاتي بآياتي على استدلت

ومضمونها : هو القول بوحدة الوجود ، وهو مذهب ابن عربي ، وابن سبعين ، وأمثالهم ، كما قال :

لها صلاتي ، بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصل ، عابد ساجد إلى حقيقة الجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سواي ، فلم تكن صلاتي لغيري ، في أداء كل ركعة

إلى قوله :

وما زالت إياها، وإياي لم تزل ولا فرق ، بل ذاتي لذاتي أحبت

ومثل هذا كثير، والله أعلم.

وحدثني صاحبنا الفقيه الصوفي ، أبو الحسن على بن قرباص : أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلاني، فوجده يصنف كتابا . فقال : ما هذا ؟ فقال : هذا في الرد على ابن سبعين، وابن الفارض، وأبي الحسن الجزلي، والعفيف التلمساني.

وحدثني عن جمال الدين بن واصل ، وشمس الدين الأصبهاني : أنهما كانا ينكران كلام ابن عربي ويبطلانه، ويردان عليه، وأن الأصبهاني رأي معه كتاباً من كتبه فقال له : إن اقتنيت شيئا من كتبه فلا تجيء إلى ، أو ما هذا معناه . وإن ابن واصل لما ذكر كلامه في التفاحة، التي انقلبت عن حوراء فتكلم معها أو جامعها فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، يكذب. ولقد بر في يمينه.

وحدثني صاحبنا العالم الفاضل أبو بكر بن سالار: عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ـ شيخ وقته ـ عن الإمام أبي محمد بن عبد السلام، أنهم سألوه عن ابن عربي، لما دخل مصر، فقال : شيخ سوء كذاب مقبوح، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجا. وكان تقي الدين يقول : هو صاحب خيال واسع. حدثني بذلك غير واحد من الفقهاء المصريين ممن سمع كلام ابن دقيق العيد.

وحدثني ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره أنه قال : كان يستحل الكذب، هذا أحسن أحواله.

وحدثني الشيخ العالم العارف ، كمال الدين المراغي ، شيخ زمانه، أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء في التوحيد قال : قرأت على العفيف التلمساني من كلامهم شيئا، فرأيته مخالفاً للكتاب والسنة، فلما ذكرت ذلك له قال: القرآن ليس فيه توحيد ،بل القرآن كله شرك، ومن اتبع القرآن لم يصل إلي التوحيد ، قال: فقلت له : ما الفرق عندكم بين الزوجة ، والأجنبية، والأخت، الكل واحد؟ قال: لا فرق بين ذلك عندنا ، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراما، فقلنا: هو حرام عليهم عندهم، وأما عندنا فما ثم حرام.

وحدثني كمال الدين المراغي، أنه لما تحدث مع التلمساني في هذا المذهب قال ـ وكنت أقرأ عليه في ذلك ـ :فإنهم كانوا قد عظموه عندنا، ونحن مشتاقون إلي معرفة (فصوص الحكم) فلما صار يشرحه لي أقول: هذا خلاف القرآن والأحاديث ، فقال : ارم هذا كله خلف الباب ، واحضر بقلب صاف، حتى تتلقى هذا التوحيد ـ أو كما قال ـ ثم خاف أن أشيع ذلك عنه ، فجاء إليّ باكيا وقال : استُر عني ما سمعتَه مني .

وحدثني ـ أيضا ـ كمال الدين، أنه اجتمع بالشيخ أبى العباس الشاذلي،تلميذ الشيخ أبى الحسن ، فقال عن التلمساني: هؤلاء كفار، هؤلاء يعتقدون أن الصنعة هي الصانع.

قال : وكنت قد عزمت على أن أدخل الخلوة على يده، فقلت: أنا لا آخذ عنه هذا، وإنما أتعلم منه أدب الخلوة، فقال لي : مثلك مثل من يريد أن يتقرب إلى السلطان، على يد صاحب الأتون والزبال، فإذا كان الزبال هو الذي يقربه إلى السلطان، كيف يكون حاله عند السلطان؟

وحدثنا ـ أيضا ـ قال : قال لي قاضى القضاة تقي الدين بن دقيق العيد: إنما استولت التتار على بلاد المشرق، لظهور الفلسفة فيهم، وضعف الشريعة ، فقلت له : ففي بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد، وهو شر من مذهب الفلاسفة؟ فقال : قول هؤلاء لا يقوله عاقل ، بل كل عاقل يعلم فساد قول هؤلاء ـ يعني أن فساده ظاهر ـ فلا يذكر هذا فيما يشتبه على العقلاء، بخلاف مقالة الفلاسفة ، فإن فيها شيئا من المعقول ، وإن كانت فاسدة.

وحدثني تاج الدين الأنباري، الفقيه المصري الفاضل ، أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول : رأيت ابن عربي شيخا مخضوب اللحية، وهو شيخ نجس، يكفر بكل كتاب أنزله الله ، وكل نبي أرسله الله.

وحدثني الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال : كنت وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربي، والخسر وشاهي:أن كليهما زنديق ـ أوكلامًا هذا معناه. وحدثني

عن الشيخ إبراهيم الجعبري : أنه حضر ابن الفارض عند الموت وهو ينشد :

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي

أمنية ظفرت نفسي بها زمـــنا واليوم أحسبها أضغاث أحـلام

وحدثني الفقيه الفاضل تاج الدين الأنباري ، أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول : رأيت في منامي ابن عربي ، وابن الفارض ، وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران، ويقولان: كيف الطريق ؟ أين الطريق؟

وحدثني شهاب الدين المزي ، عن شرف الدين بن الشيخ نجم الدين بن الحكيم عن أبيه أنه قال : قدمت دمشق فصادفت موت ابن عربي ، فرأيت جنازته كأنما ذر عليها الرماد، فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء ـ أو قال ـ: فعلمت أن هذه أو نحو هذا. وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكوراني أنه كان يقول : ابن عربي شيطان. وعنه أنه كان يقول عن الحريري: إنه شيطان.

وحدثني شهاب الدين عن القاضي شرف الدين الباريلي ، أن أباه كان ينهاه عن كلام ابن عربي ، وابن الفارض ، وابن سبعين.

فصـــل

في بعض ما يظهر به كفرهم ، وفساد قولهم . وذلك من وجوه :

أحدها: أن حقيقة قولهم: أن الله لم يخلق شيئا، ولا ابتدعه،ولا برأه ولا صوره؛ لأنه إذا لم يكن وجود إلا وجوده، فمن الممتنع أن يكون خالقاً لوجود نفسه، أو بارئا لذاته، فإن العلم بذلك من أبين العلوم ، وأبدهها للعقول ، أن الشيء لا يخلق نفسه.

ولهذا قال سبحانه : ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥]. فإنهم يعلمون أنهم لم يكونوا مخلوقين من غير خالق ، ويعلمون أن الشيء لا يخلق نفسه فتعين أن لهم خالقا.

وعند هؤلاء الكفار، الملاحدة الفرعونية : أنه ما ثم شيء يكون الرب قد خلقه أو برأه، أو أبدعه إلا نفسه المقدسة، ونفسه المقدسة لا تكون إلا مخلوقة، مربوبة مصنوعة، مبروءة، لامتناع ذلك في بدائه العقول ، وذلك من أظهر الكفر عند جميع أهل الملل والآراء.

وأما على رأي صاحب الفصوص : فما ثم إلا وجوده، والذوات الثابتة في العدم الغنية عنه، ووجوده لا يكون مخلوقا، والذوات غنية عنه، فلم يخلق الله شيئا.

الثاني: أن عندهم أن الله ليس رب العالمين، ولا مالك الملك، إذ ليس إلا وجوده، وهو لا يكون رب نفسه، ولا يكون الملك المملوك هو الملك المالك، وقد صرحوا بهذا الكفر مع تناقضه، وقالوا : إنه هو ملك الملك، بناء على أن وجوده مفتقر إلى ذوات الأشياء، وذوات الأشياء مفتقرة إلى وجوده ، فالأشياء مالكة لوجوده، فهو ملك الملك.

الثالث: أن عندهم أن الله لم يرزق أحدًا شيئا، ولا أعطى أحداً شيئا، ولا رحم أحدًا، ولا أحسن إلى أحد، ولا هدى أحدًا، ولا أنعم على أحد نعمة، ولا علم أحدًا علما، ولا علم أحدًا البيان، وعندهم في الجملة: لم يصل منه إلى أحد لا خير ولا شر، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا إضلال أصلا. وأن هذه الأشياء جميعها عين نفسه، ومحض وجوده ، فليس هناك غير يصل إليه، ولا أحد سواه ينتفع بها، ولا عبد يكون مرزوقا، أو منصوراً ، أو مهديا.

ثم على رأى صاحب الفصوص : أن هذه الذوات ثابتة في العدم، والذوات هي أحسنت وأساءت، ونفعت وضرت، وهذا عنده سر القدر.

وعلى رأي الباقين ما ثم ذات ثابتة غيره أصلا، بل هو ذام نفسه بنفسه، ولاعن نفسه بنفسه، وقاتل نفسه بنفسه، وهو المرزوق المضروب المشتوم، وهو الناكح والمنكوح، والآكل والمأكول ، وقد صرحوا بذلك تصريحا بيناً.

الرابع: أن عندهم أن الله هو الذي يركع ويسجد ، ويخضع ويعبد، ويصوم ويجوع، ويقوم وينام، وتصيبه الأمراض والأسقام، وتبتليه الأعداء ويصيبه البلاء، وتشتد به اللأواء، وقد صرحوا بذلك، وصرحوا بأن كل كرب يصيب النفوس فإنه هو الذي يصيبه الكرب، وأنه إذا نفس الكرب، فإنما يتنفس عنه؛ ولهذا كره بعض هؤلاء ـ الذين هم من أكفر خلق الله وأعظمهم نفاقا وإلحاداً وعتواً على الله وعناداً ـ أن يصبر الإنسان على البلاء؛ لأن عندهم أنه هو المصاب المبتلى.

وقد صرحوا بأنه موصوف بكل نقص وعيب، فإنه ما ثم من يتصف بالنقائص والعيوب غيره، فكل عيب ونقص، وكفر وفسوق في العالم ، فإنه هو المتصف به ، لا متصف به غيره، كلهم متفقون على هذا في الوجود .

ثم صاحب الفصوص يقول : إن ذلك ثابت في العدم، وغيره يقول : ما ثم سوى وجود الحق ، الذي هو متصف بهذه المعايب والمثالب.

الخامس: أن عندهم أن الذين عبدوا اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، والذين عبدوا ودًا ، وسواعًا ، ويغوث، ويعوق، ونسرًا، والذين عبدوا الشعرى، والنجم، والشمس، والقمر. والذين عبدوا المسيح، وعزيراً ، والملائكة ، وسائر من عبد الأوثان والأصنام: من قوم نوح، وعاد ، وثمود، وقوم فرعون، وبني إسرائيل ، وسائر المشركين من العرب، ما عبدوا إلا الله، ولا يتصور أن يعبدوا غير الله، وقد صرحوا بذلك في مواضع كثيرة، مثل قول صاحب الفصوص في فص الكلمة النوحية: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢٢]، لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو؛ لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ فهذا عين المكر ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف :١٠٨] ففيه أن الأمر له كله، فأجابوه مكراً كما دعاهم ـ إلى أن قال : فقالوا في مكرهم: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣] .

فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجها خاصا، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله في المحمديين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] أي: حكم، فالعالم يعلم من عبد، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية.

فما عبد غير الله في كل معبود ، فالأدني من تخيل فيه الألوهية ، فلولا هذا التخيل ما عبد الحجر ولا غيره؛ ولهذا قال تعالى :﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:٣٣] فلو سموهم لسموهم حجراً وشجراً وكوكباً. ولو قيل لهم : من عبدتم ؟ لقالوا : إلها واحداً، ما كانوا يقولون : الله ولا الإله، إلا على ما تخيل، بل قال: هذا مجلى إلهي ينبغي تعظيمه فلا يقتصر، فالأدنى صاحب التخيل يقول : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣] ، والأعلى العالم يقول: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾،حيث ظهر ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ﴾ [الحج:٣٤، ٣٥] خبت نار طبيعتهم فقالوا : «إلها» ولم يقولوا : «طبيعة».

وقال ـ أيضا ـ في فص الهارونية: ثم قال هارون لموسى : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [طه:٩٤]، فتجعلني سبباً في تفريقهم، فإن عبادة العجل فرقت بينهم، فكان فيهم من عبده اتباعا للسامري، وتقليدا له، ومنهم من توقف عن عبادته، حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه في ذلك، فخشى هارون أن ينسب ذلك التفريق بينهم إليه، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبد إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه

هارون، لما وقع الأمر في إنكاره ، وعدم اتساعه، فإن العارف من يري الحق في كل شيء،بل يراه عين كل شيء، فكان موسى يربي هارون تربية علم ،وإن كان أصغر منه في السن.

ولذلك لما قال له هارون ما قال، رجع إلى السامري فقال له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:٩٥] يعني :فيما صنعت من عدولك إلى صورة العجل، على الاختصاص، وساق الكلام إلى أن قال : فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل،كما سلط موسى عليه ، حكمة من الله ظاهرة في الوجود، ليعبد في كل صورة وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك. فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية.

ولهذا ما بقي نوع من الأنواع إلا وعبد ، إما عبادة تأله،وإما عبادة تسخير،ولابد من ذلك لمن عقل ، وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد ، والظهور بالدرجة في قلبه.

ولذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات،ولم يقل: رفيع الدرجة ، فكثر الدرجات في عين واحدة ، فإنه قضى ألا يعبد إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة، أعطت كل درجة مجلي إلهياً عبد فيها، وأعظم مجلى عبد فيه،وأعلاه الهوى كما قال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] ،فهو أعظم معبود ، فإنه لا يعبد شيء إلا به،ولا يعبد هو إلا بذاته. وفيه أقول:

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

ألا ترى علم الله بالأشياء ما أكمله ! كيف تمم في حق من عبد هواه، واتخذه إلهاً، فقال: ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية : ٢٣] والضلالة الحيرة، وذلك أنه لما رأى هذا العابد ما عبد إلا هواه، بانقياده لطاعته فيما يأمره به،من عبادة من عبده من الأشخاص ، حتى إن عبادة الله كانت عن هوى أيضا، فإنه لو لم يقع له في ذلك الجناب المقدس هوى، وهو الإرادة بمحبة ما عبد الله، ولا آثره على غيره.

وكذلك كل من عبد صورة ما من صور العالم، واتخذها إلها ما اتخذها إلا بالهوى، فالعابد لا يزال تحت سلطان هواه، ثم رأى المعبودات تتنوع في العابدين، فكل عابد أمراً ما يكفر من يعبد سواه،والذي عنده أدنى تنبه يحار لاتحاد الهوى،بل لأحدية الهوى كما ذكر،فإنه عين واحدة في كل عابد و﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي حيره الله على علم،بأن كل عابد ما عبد إلا هواه، ولا استعبده إلا هواه ،سواء صادف الأمر المشروع أو لم يصادف.

والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه.

ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص شجر، أو حجر، أو حيوان، أو إنسان، أو كوكب، أو ملك، هذا اسم الشخصية فيه، والألوهية مرتبة تخيل العابد له، أنها مرتبة معبوده، وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد، المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص بحجر.

ولهذا قال بعض من لم يعرف مقاله جهالة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣] مع تسميتهم إياهم آلهة، كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] فما أنكروه بل تعجبوا من ذلك، فإنهم وقفوا مع كثرة الصورة، ونسبة الألوهية لها، فجاء الرسول ودعاهم إلي إله واحد يعرف، ولا يشهد بشهادتهم أنهم أثبتوه عندهم، واعتقدوه في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ لعلمهم بأن تلك الصور حجارة.

ولذلك قامت الحجة عليهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:٣٣] فما يسمونهم إلا بما يعلمون أن تلك الأسماء لهم حقيقة كحجر، وخشب، وكوكب، وأمثالها.

وأما العارفون بالأمر على ما هو عليه، فيظهرون بصورة الإنكار لما عبد من الصور؛ لأن مرتبتهم في العلم تعطيهم أن يكونوا بحكم الوقت، لحكم الرسول الذي آمنوا به عليهم، الذي به سموا مؤمنين، فهم عباد الوقت، مع علمهم بأنهم ما عبدوا من تلك الصور أعيانها، وإنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلي، الذي عرفوه منهم، وجهله المنكر الذي لا علم له بما يتجلى، وستره العارف المكمل من نبي أو رسول، أو وارث عنهم.

فأمرهم بالانتزاح عن تلك الصور، لما انتزح عنها رسول الوقت اتباعًا للرسول، طمعاً في محبة الله إياهم بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] فدعا إلى إله يصمد إليه، ويعلم من حيث الجملة، ولا يشهد، ولا تدركه الأبصار، بل هو يدرك الأبصار للطفه وسريانه في أعيان الأشياء، فلا تدركه الأبصار، كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها، وصورها الظاهرة، فهو اللطيف الخبير، والخبرة ذوق، والذوق تجلى والتجلى في الصور، فلابد منها ولابد منه، فلابد أن يعبده من رآه بهواه إن فهمت هذا. اهـ.

فتدبر حقيقة ما عليه هؤلاء، فإنهم أجمعوا على كل شرك في العالم، وعدلوا بالله

كل مخلوق ، وجوزوا أن يعبد كل شيء، ومع كونهم يعبدون كل شيء فيقولون : ما عبدنا إلا الله.

فاجتمع في قولهم أمران : كل شرك، وكل جحود وتعطيل ، مع ظنهم أنهم ما عبدوا إلا الله، ومعلوم أن هذا خلاف دين المرسلين كلهم، وخلاف دين أهل الكتاب كلهم، والملل كلها، بل وخلاف دين المشركين أيضا، وخلاف ما فطر الله عليه عباده مما يعقلونه بقلوبهم ويجدونه في نفوسهم وهو في غاية الفساد، والتناقض ، والسفسطة ، والجحود لرب العالمين.

وذلك أنه علم بالاضطرار: أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله، ويجعلون عابده عابداً لغير الله، مشركا بالله عادلا به، جاعلا له نداً ، فإنهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا هو دين الله، الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو الإسلام العام، الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره، ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة، كما قال : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** [النساء:٤٨ ، ١١٦].

وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار، والسعداء والأشقياء ، كما قال النبي ﷺ : «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: وجبت له الجنة»(١) ، وقال :«من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة»(٢) ،وقال: « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت ، إلا وجد روحه لها روحًا، وهي رأس الدين» (٣) ،وكما قال :« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(٤).

وفضائل هذه الكلمة وحقائقها، وموقعها من الدين : فوق ما يصفه الواصفون ، ويعرفه العارفون، وهي حقيقة الأمر كله، كما قال تعالي :**﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** [الأنبياء:٢٥]، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه يوحى إلى كل رسول بنفي الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده.

---

(١) أبو داود في الجنائز (٣١١٦)، وأحمد ٥/٢٤٧، عن معاذ بن جبل.

(٢) مسلم في الإيمان (٢٦/٤٣)، وأحمد ١/ ٦٥ ، ٦٩، عن عثمان.

(٣) أحمد ١ / ٢٨ ، وأبو يعلى فى مسنده (٦٤١) .

(٤) البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٢١/ ٣٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦) والنسائي في الجهاد (٣٠٩٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٢٧) ، وأحمد ٢/ ٣٤٥، ٤٢٣ عن أبي هريرة .

وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون : أن كل شيء يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها، وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، وزعم هؤلاء الملاحدة أن كل شيء فإنه إله معبود، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة، وقال تعالى :﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. فأمر الله ـ سبحانه ـ بعبادته واجتناب الطاغوت.

وعند هؤلاء : أن الطواغيت جميعها فيها الله، أو هي الله، و من عبدها فما عبد إلا الله ، وقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ الآيتين [البقرة:٢١، ٢٢]. فأمر ـ سبحانه ـ بعبادة الرب الخالق لهذه الآيات، وعند هؤلاء الملاحدة الملاعين: هو عين هذه الآيات، ونهى ـ سبحانه ـ أن يجعل الناس له أنداداً، وعندهم هذا لا يتصور، فإن الأنداد هي عينه ، فكيف يكون نداً لنفسه؟ والذين عبدوا الأنداد فما عبدوا سواه.

ثم إن هؤلاء الملاحدة احتجوا بتسمية المشركين، لما عبدوه إلهاً، كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] ،واعتقدوا أنهم لما سموهم آلهة كانت تسمية المشركين دليلا على أن الإلهية ثابتة لهم.

وهذه الحجة قد ردها الله على المشركين في غير موضع، كقوله ـ سبحانه ـ عن هود في مخاطبته للمشركين من قومه : ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ الآية [الأعراف:٧١]، هذا رد لقولهم: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، فأخبر رسول الله ﷺ ، أن تسميتهم إياها آلهة ومعبودين تسمية ابتدعوها هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان، والحكم ليس إلا لله وحده.

وقد أمر هو ـ سبحانه ـ ألا يعبد إلا إياه، فكيف يحتج بقول مشركين لا حجة لهم؟ وقد أبطل الله قولهم وأمر الخلق ألا يعبدوا إلا إياه دون هذه الأوثان، التي سماها المشركون آلهة، وعند الملاحدة عابدو الأوثان ما عبدوا إلا الله.

ثم إن المشركين أنكروا على الرسول ، حيث جاءهم ليعبدوا الله وحده، ويذروا ما كان يعبد آباؤهم، فإذا كانوا هم ما زالوا يعبدون الله وحده، كما تزعمه الملاحدة، فلم يدعو إلى ترك ما يعبده آباؤهم، بل جاءهم ـ ليعبد كل شيء كان يعبده آباؤهم ـ هو وغيره من الأنبياء.

وكذلك قال ـ سبحانه ـ في سورة يوسف عنه : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ

خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ـ٢٣].

وهذه الثلاثة المذكورة في هذه السورة هي الأوثان العظام الكبار، التي كان المشركون ينتابونها [١] من أمصارهم، فاللات: كانت حذو قديد بالساحل لأهل المدينة، والعزى: كانت قريبة من عرفات لأهل مكة، ومناة: كانت بالطائف لثقيف، وهذه الثلاث هي أمصار أرض الحجاز.

أخبر ـ سبحانه ـ أن الأسماء التي سماها المشركون أسماء ابتدعوها لا حقيقة لها، فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها، لأنه ليس في المسمى من الألوهية، ولا العزة، ولا التقدير شيء، ولم ينزل الله سلطانا بهذه الأسماء، إن يتبع المشركون إلا ظنا لا يغني من الحق شيئا، في أنها آلهة تنفع وتضر، ويتبعوا أهواء أنفسهم.

وعند الملاحدة أنهم إذا عبدوا أهواءهم فقد عبدوا الله، وقد قال ـ سبحانه ـ عن إمام الأئمة، وخليل الرحمن، وخير البرية ـ بعد محمد ﷺ ـ أنه قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ـ ٤٥] فنهاه وأنكر عليه أن يعبد الأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنه شيئا.

وعلى زعم هؤلاء الملحدون ـ فما عبدوا غير الله في كل معبود ـ فيكون الله هو الذي لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنه شيئا، وهو الذي نهاه عن عبادته، وهو الذي أمره بعبادته. وهكذا قال أحذق طواغيتهم الفاجر التلمساني في قصيدة له:

يا عاذلي أنت تنهاني، وتأمرني ... والوجد أصدق نهاء وأمار

فإن أطعك وأعص الوجد عدت عمي ... عن العيان إلى أوهام أخبار

وعين ما أنت تدعوني إليه إذا ... حققته تره المنهي يا جاري!

وقد قال أيضا إبراهيم لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وعندهم أن الشيطان مجلى إلهي، ينبغي تعظيمه، ومن عبده فما عَبَدَ غير

(١) أي: يقصدونها. انظر: القاموس، مادة «نوب».

الله، وليس الشيطان غير الرحمن حتى نعصيه، وقد قال سبحانه: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** إلى قوله: **﴿تَعْقِلُونَ﴾** [يس: ٦٠-٦٢]، فنهاهم عن عبادة الشيطان، وأمرهم بعبادة الله سبحانه وحده، وعندهم عبادة الشيطان هي عبادته أيضا، فينبغي أن يعبد الشيطان وجميع الموجودات فإنها عينه.

وقال - تعالى - أيضا - عن إمام الخلائق خليل الرحمن أنه لما **﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾**إلى قوله: **﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: ٧٦-٨٢]، وقال أيضا: **﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾** إلى قوله: **﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾**[الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾** الآية[الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾** إلى قوله: **﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ٧٥- ٩٨]، وقال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(١)﴾** إلى قوله: **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ٥٣- ٦٨].

فهذا الخليل الذي جعله الله إمام الأئمة، الذين يهتدون بأمره، من الأنبياء والمرسلين بعده، وسائر المؤمنين قال: **﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾**[الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وعند الملاحدة: الذي أشركوه ، هو عين الحق ليس غيره، فكيف يتبرأ من الله الذي وجه وجهه إليه؟ وأحد الأمرين لازم على أصلهم، إما أن يعبده في كل شيء من المظاهر بدون تقييد ولا اختصاص - وهو حال المكمل عندهم - فلا يتبرأ من شيء، وإما أن يعبده في بعض المظاهر ، كفعل الناقصين عندهم.

وأما التبرئ من بعض الموجودات فقد قال : إن قوم نوح لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا من تلك الأوثان ، والرسل قد تبرأت من الأوثان، فقد تركت الرسل من الحق شيئا كثيراً، وتبرؤوا من الله الذي دعوا الخلق إليه، والمشركون - على زعمهم - أحسن حالا من المرسلين؛ لأن المشركين عبدوه في بعض المظاهر، ولم يتبرؤوا من سائرها، والرسل تبرؤوا منه في عامة المظاهر.

---

(١) في المطبوعة: « تعبدون؟ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » ، والصحيح ما أثبتناه.

ثم قول إبراهيم: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[الأنعام:٧٩] باطل على أصلهم ، فإنه لم يفطرها، إذ هي ليست غيره، فما أجدرهم بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآية [النساء:٥١]. ثم قول الخليل: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ الآية [الأنعام:٨١] . وهذه حجة الله التي آتاها إبراهيم على قومه بقوله : كيف أخاف ما عبدتموه من دون الله؟ وهي المخلوقات المعبودة من دونه، وعندهم ليست معبودة من دونه ، ومن لم يخفها فلم يخف الله، فالرسل لم يخافوا الله.

وقول الخليل : ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ [عَلَيْكُمْ] (١)سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام:٨١] لم يصح عندهم ، فإنهم لم يشركوا بالله شيئا؛ إذ ليس ثم غيره حتى يشركوه به، بل المعبود الذي عبدوه هو الله ، وأكثر ما فعلوه أنهم عبدوه في بعض المظاهر، وليس في هذا أنهم جعلوا غيره شريكا له في العبادة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وورد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ : « ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(٢) [لقمان:١٣]. فقد أخبر الله ورسوله أن الشرك ظلم عظيم، وأن الأمن هو لمن آمن بالله، ولم يخلط إيمانه بشرك، وعلى زعم هؤلاء الملاحدة، فإيمان الذين خلطوا إيمانهم بشرك هو الإيمان الكامل التام، وهو إيمان المحقق العارف عندهم؛ لأن من آمن بالله في جميع مظاهره وعبده في كل موجود، هو أكمل ممن لم يؤمن به حيث لم يظهر، ولم يعبده إلا من حيث لا يشهد ولا يعرف، وعندهم لا يتصور أن يوجد إلا في المخلوق، فمن لم يعبده في شيء من المخلوقات أصلا، فما عبده في الحقيقة أصلا، وإذا أطلقوا أنه عبده فهو لفظ لا معنى له، أي إذا فسروه بالتخصيص فيكون بالتخصيص بمعنى أنه خصص بعض المظاهر بالعبادة ، وهذا عندهم نقص لا من جهة ما أشركه وعبده، وإنما هو من جهة ما تركه ، فليس عندهم في الشرك ظلم ولا نقص إلا من جهة قِلَّته ، وإلا فإذا كان الشرك عاما كان أكمل وأفضل .

وكذلك ـ أيضا ـ قول الخليل لقومه: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] تبرأ عندهم من الحق الذي ظهر فيهم وفي آلهتهم ، وكذلك كفره به

(١) ساقطة من المطبوعة.

(٢) البخاري في الإيمان (٣٢)، وفى الأنبياء (٣٣٦٠)، ومسلم في الإيمان (١٢٤/١٩٧)، وأحمد ٣٧٨/١، ٣٢٤ عن عبد الله بن مسعود.

ومعاداته لهم كفر بالحق عندهم ومعاداة له.

ثم قوله : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة:٤] كلام لا معنى له عندهم، فإنهم كانوا مؤمنين بالله وحده؛ إذ لا يتصور عندهم غيره، وإنما غايتهم أنهم عبدوه في بعض المظاهر، وتركوا بعضها من غير كفر به فيها.

وكذلك سائر ما قصه عن إبراهيم من معاداته لما عبده أولئك هو عندهم معاداة لله؛ لأنه ما عبد غير الله كما زعم الملحدون، محتجين بقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، قالوا: وما قضى الله شيئا إلا وقع .

وهذا هو الإلحاد في آيات الله ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والكذب على الله ، فإن « قضى» هنا ليست بمعني القدر والتكوين بإجماع المسلمين، بل وبإجماع العقلاء، حتى يقال : ما قدر الله شيئا إلا وقع ، وإنما هي بمعنى أمر، وما أمر الله به فقد يكون وقد لا يكون ، فتدبر هذا التحريف.

وكذلك قوله ما حكم الله بشيء إلا وقع كلام مجمل ، فإن الحكم يكون بمعنى الأمر الديني، وهو الأحكام الشرعية، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ الآية [المائدة:١]. وقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا ﴾[المائدة: ٥٠]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ويكون الحكم حكما بالحق والتكوين والفعل كقوله: ﴿ لَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾[الأنبياء:١١٢].

ولهذا كان بعض السلف يقرؤون «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» ذكره ثعلب عن ابن عباس، وذكروا أنها كذلك في بعض المصاحف؛ ولهذا قال في سياق الكلام: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [الإسراء:٢٣] وساق أمره، ووصاياه، إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٩].

فختم الكلام بمثل ما فتحه به ، من أمره بالتوحيد ، ونهيه عن الشرك، ليس هو إخبارا أنه ما عبد أحد إلا الله، وأن الله قدر ذلك وكونه، وكيف وقد قال : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[الإسراء:٢٢]، وعندهم ليس في الوجود شيء يجعل إلها آخر، فأي شيء عبد فهو نفس الإله ليس آخر غيره.

ومثل معاداة إبراهيم والمؤمنين لله ـ على زعمهم ـ حيث عادى العابدين والمعبودين، وما عبد غير الله ، وما عبد الله غير الله ، فهو عين كل عابد وعين كل معبود ، فكذلك قوله تعالي :﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة:١]. وعلى زعمهم ما لله عدو أصلا، وأنه ما ثم غير ، ولا سوى ، بحيث يتصور أن يكون عدو نفسه أو عدو الذوات التي لا يظهر إلا بها.

السادس : أن عندهم أن دعوة العباد إلى الله مكر بهم، كما صرح به ، حيث قال: إن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ، فإنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية .

وقال ـ أيضا ـ صاحب الفصوص : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج:٣٤] الذين خبت نار طبيعتهم فقالوا: إلها ولم يقولوا: طبيعة، ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي: حيروهم في تعداد الواحد بالوجوه والنسب، ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ [نوح:٢٤] لأنفسهم، المصطفين الذين أورثوا الكتاب، فهم أول الثلاثة، فقدمه على المقتصد والسابق، ﴿ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح:٢٤] أى : إلا حيرة. وفي المحمدي: زدني فيك تحيراً.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] له فالمحير له الدور، والحركة الدورية حول القطب، فلا يبرح منه، وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المقصود، طالب ما هو فيه ، صاحب خيال إليه غايته، فله« من » و«إلى» وما بينهما ، وصاحب الحركة الدورية لا بدء له، فيلزمه «من» ولا غاية فتحكم عليه «إلى» فله الوجود الأتم، وهو المؤتى جوامع الكلم .ا هـ.

وقال بعض شعرائهم:

ما بال عيسك لا يقر قـــرارها   وإلامَ ضلك لا يني متنقلا؟

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن   إلا إليك إذا بلغت المنـــزلا

فعندهم الإنسان هو غاية نفسه، وهو معبود نفسه، وليس وراءه شيء يعبده أو يقصده، أو يدعوه، أو يستجيب له ؛ ولهذا كان قولهم حقيقة قول فرعون.

وكنت أقول لمن أخاطبه: إن قولهم هو حقيقة قول فرعون ، حتى حدثني بعض من خاطبته في ذلك من الثقات العارفين : أن بعض كبرائهم لما دعا هذا المحدث إلى مذهبهم ، وكشف له حقيقة سرهم ، قال : فقلت له: هذا قول فرعون ؟ قال : نعم، ونحن على قول فرعون، فقلت له : الحمد لله الذي اعترفوا بهذا، فإنه مع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة.

وقد جعل صاحب الطريق المستطيل صاحب خيال ، ومدح الحركة المستديرة الحائرة، والقرآن يأمر بالصراط المستقيم، ويمدحه ويثنى على أهله لا على المستدير، ففي أم الكتاب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة :٥]، وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ الآيتين [النساء:٦٦، ٦٧].

وقال تعالى في موسى وهارون : ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات:١١٧، ١١٨]، وقال تعالى :﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٦]، وقال عن إبليس: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧]، وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وهؤلاء الملحدون من أكابر متبعيه ، فإنه قعد لهم على صراط الله المستقيم، فصدهم عنه حتى كفروا بربهم، وآمنوا أن نفوسهم هي معبودهم وإلههم.

وقال تعالى في حق خاتم الرسل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ﴾ الآية [الشورى:٥٢، ٥٣].

وأيضا فإن الله يقول : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾[يونس: ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية [المائدة:٤٨، ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦]، وهؤلاء عندهم ما ثم إلا أنت، وأنت إلى الآن مردود إلى الله وما زلت مردودا إليه، وليس هو شيء غيرك، حتى ترد إليه أو ترجع إليه، أو تكدح إليه أو تلاقيه، ولهذا حدثونا أن ابن الفارض لما احتضر أنشد بيتين:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي !

أمنية ظفرت نفسي بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام !

وذلك أنه كان يتوهم أنه هو الله ، وأنه ما ثم مرد إليه ومرجع إليه غير ما كان هو عليه، فلما جاءته ملائكة الله تنزع روحه من جسمه، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب، تبين له أن ما كان عليه أضغاث أحلام من الشيطان.

وكذلك حدثني بعض أصحابنا ، عن بعض من أعرفه وله اتصال بهؤلاء،عن الفاجر التلمساني : أنه وقت الموت تغير واضطرب ، قال : دخلت عليه وقت الموت فوجدته

يتأوه، فقلت له : مم تتأوه؟ فقال : من خوف الفوت، فقلت: سبحان الله، ومثلك يخاف الفوت، وأنت تدخل الفقير إلى الخلوة فتوصله إلى الله في ثلاثة أيام؟ ! فقال ما معناه : زال ذلك كله وما وجدت لذلك حقيقة!

السابع[1]: أن عندهم من يدعي الإلهية من البشر ، كفرعون والدجال المنتظر، أو ادعيت فيه وهو من أولياء الله نبيا كالمسيح، أو غير نبي كعلى ، أو ليس من أولياء الله كالحاكم بمصر وغيرهم، فإنه عند هؤلاء الملاحدة المنافقين يصحح هذه الدعوى.

وقد صرح صاحب الفصوص بتصحيح هذه الدعوى ، كدعوى فرعون، وهم كثيراً ما يعظمون فرعون، فإنه لم يتقدم لهم رأس في الكفر مثله ، ولا يأتي متأخر لهم مثل الدجال الأعور الكذاب، وإذا نافقوا المؤمنين وأظهروا الإيمان قالوا : إنه مات مؤمنا، وإنه لا يدخل النار، وقالوا : ليس في القرآن ما يدل على دخوله النار.

وأما في حقيقة أمرهم فما زال عندهم عارفاً بالله، بل هو الله ، وليس عندهم نار فيها ألم أصلا، كما سنذكره إن شاء الله عنهم ، ولكن يتفطن بهذا لكون البدع مظان النفاق، كما أن السنن شعائر الإيمان .

قال صاحب الفصوص في فص الحكمة ـ التي في « الكلمة الموسوية» لما تكلم على قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] ـ قال : وهنا سر كبير ، فإنه أجاب بالفعل لمن سأل عن الحد الذاتي فجعل الحد الذاتي عين إضافته إلى ما ظهر به من صور العالم، أو ما ظهر فيه من صور العالم، فكأنه قال له في جواب قوله: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال: الذي يظهر فيه صور العالمين ، من علو وهو السماء، وسفل وهو الأرض﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] ،أو يظهر هو بها.

فلما قال فرعون لأصحابه : إنه لمجنون ـ كما قلنا في معنى كونه مجنوناً أي لمستور عنه ـ علم ما سألته عنه إذ لا يتصور أن يعلمه أصلا، زاد موسى في البيان ليعلم فرعون رتبته في العلم الإلهي،لعلمه بأن فرعون يعلم ذلك فقال:﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء:٢٨]، فجاء بما يظهر ويستر، وهو الظاهر والباطن﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء:٢٨] وهو قوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٠١] ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨] أي إن كنتم أصحاب تقييد فإن العقل للتقييد.

والجواب الأول جواب الموقنين ،وهم أهل الكشف والوجود، فقال له:﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: أهل كشف ووجود فقد أعلمتكم بما تيقنتموه في كشفكم ووجودكم .

---

(١) في المطبوعة : الثامن.

فإن لم تكونوا من هذا الصنف فقد أجبتكم بالجواب الثاني إن كنتم أهل عقل وتقييد، وحصرتم الحق فيما تعطيه أدلة عقولكم، فظهر موسى بالوجهين ليعلم فرعون فضله وصدقه، وعلم موسى أن فرعون علم ذلك ، أو يعلم ذلك لكونه سأل عن الماهية ، فعلم أن سؤاله ليس على اصطلاح القدماء في السؤال ؛ فلذلك أجاب، فلو علم منه غير ذلك لخطأه في السؤال.

فلما جعل موسى المسؤول عنه عين العالم ،خاطبه فرعون بهذا اللسان، والقوم لا يشعرون فقال له: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾[الشعراء: ٢٩]، والسين في السجن من حروف الزوائد، أي: لأسترنك ، فإنك أجبت بما أيدتني به أن أقول مثل هذا القول ، فإن قلت لي بلسان الإشارة ، فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إياي، والعين واحدة ، فكيف فرقت؟ فيقول فرعون: إنما فرقت المراتب العين، ما تفرقت العين، ولا انقسمت في ذاتها ، ومرتبتي الآن التحكم فيك يا موسى بالفعل ، وأنا أنت بالعين، وأنا غيرك بالرتبة.

وساق الكلام إلى أن قال : ولما كان فرعون في منصب الحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسيف، وأنه جار في العرف الناموسي؛ لذلك قال :﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]: أي وإن كان الكل أربابا بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم، بما أعطيته في الظاهر من التحكم فيكم.

ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لهم ، لم ينكروه، وأقروا له بذلك، وقالوا له : ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] فالدولة لك، فصح قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ وإن كان عين الحق ، فالصورة لفرعون ، فقطع الأيدي والأرجل وصلب بعين حق، في صورة باطل ؛ لنيل مراتب لا تنال إلا بذلك الفعل؛ فإن الأسباب لا سبيل إلى تعطيلها ؛ لأن الأعيان الثابتة اقتضتها ، فلا تظهر في الوجود إلا بصورة ما هي عليه في الثبوت ؛إذ لا تبديل لكلمات الله ، وليست كلمة الله سوى أعيان الموجودات.

فصل

ومن أعظم الأصول التي يعتمدها هؤلاء الاتحادية ، الملاحدة، المدعون للتحقيق والعرفان: ما يأثرونه عن النبي ﷺ قال : «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان». وهذه الزيادة وهو قوله: «وهو الآن على ما عليه كان» كذب مفترى على رسول الله ﷺ ، اتفق أهل العلم بالحديث على أنه موضوع مختلق ، وليس هو في شيء من

دواوين الحديث، لا كبارها ولا صغارها، ولا رواه أحد من أهل العلم بإسناد، لا صحيح ولا ضعيف ، ولا بإسناد مجهول، وإنما تكلم بهذه الكلمة بعض متأخري متكلمة الجهمية، فتلقاها منهم هؤلاء ، الذين وصلوا إلى آخر التجهم ـ وهو التعطيل والإلحاد.

ولكن أولئك قد يقولون : كان الله ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، فقال هؤلاء : كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، وقد اعترف بأن هذا ليس من كلام النبي ﷺ ، أعلم هؤلاء بالإسلام ابن عربي فقال في كتاب : (ما لابد للمريد منه) وكذلك جاء في السنة «كان الله ولا شيء معه» قال : وزاد العلماء :«وهو الآن على ما عليه كان»، فلم يرجع إليه من خلقه العالم وصف لم يكن عليه، ولا عالم موجود، فاعتقد فيه من التنزيه مع وجود العالم ما تعتقده فيه ولا عالم ولا شيء سواه. وهذا الذي قاله هو قول كثير من متكلمي أهل القبلة.

ولو ثبت على هذا لكان قوله من جنس قول غيره، لكنه متناقض ، ولهذا كان مقدم الاتحادية الفاجر التلمساني يرد عليه في مواضع يقرب فيها إلى المسلمين ، كما يرد عليه المسلمون المواضع التي خرج فيها إلى الاتحاد.

وإنما الحديث المأثور عن النبي ﷺ ما أخرجه البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»(١).

وهذه الزيادة الإلحادية، وهو قولهم : وهو الآن على ما عليه كان، قصد بها المتكلمة المتجهمة نفى الصفات، التي وصف بها نفسه، من استوائه على العرش ، ونزوله إلى السماء الدنيا ، وغير ذلك فقالوا : كان في الأزل ليس مستويا على العرش ، وهو الآن على ما عليه كان ، فلا يكون على العرش لما يقتضى ذلك من التحول والتغير.

ويجيبهم أهل السنة والإثبات بجوابين معروفين:

أحدهما: أن المتجدد نسبة وإضافة بينه وبين العرش بمنزلة المعية، ويسميها ابن عقيل الأحوال، وتجدد النسب والإضافات متفق عليه بين جميع أهل الأرض ، من المسلمين وغيرهم؛ إذ لا يقتضى ذلك تغيراً ، ولا استحالة .

والثاني: أن ذلك وإن اقتضى تحولاً من حال إلى حال، ومن شأن إلى شأن، فهو مثل مجيئه، وإتيانه، ونزوله، وتكليمه لموسى، وإتيانه يوم القيامه في صورة ، ونحو ذلك مما

---

(١) البخاري في بدء الخلق (٣١٩١).

دلت عليه النصوص ، وقال به أكثر أهل السنة والحديث، وكثير من أهل الكلام، وهو لازم لسائر الفرق.

وقد ذكرنا نزاع الناس في ذلك، في قاعدة الفرق بين الصفات، والمخلوقات ، والصفات الفعلية.

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية فقالوا : وهو الآن على ما عليه كان ، ليس معه غيره، كما كان في الأزل ولا شيء معه، قالوا : إذ الكائنات ليست غيره ولا سواه، فليس إلا هو، فليس معه شيء آخر، لا أزلا ولا أبداً ، بل هو عين الموجودات، ونفس الكائنات، وجعلوا المخلوقات المصنوعات هي نفس الخالق البارئ المصور.

وهم دائما يهذون بهذه الكلمة: « وهو الآن على ما عليه كان» وهي أجل عندهم من: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص]،ومن آية الكرسي؛لما فيها من الدلالة على الاتحاد الذي هو إلحادهم،وهم يعتقدون أنها ثابتة عن النبي ﷺ،وأنها من كلامه، ومن أسرار معرفته، وقد بينا أنها كذب مختلق على النبي ﷺ لم يقلها ، ولم يروها أحد من أهل العلم، ولا هي في شيء من دواوين الحديث ، بل اتفق العارفون بالحديث على أنها موضوعة ، ولا تنقل هذه الزيادة عن إمام مشهور في الأمة بالإمامة، وإنما مخرجها ممن يعرف بنوع من التجهم، وتعطيل بعض الصفات، ولفظ الحديث المعروف عند علماء الحديث، الذي أخرجه أصحاب الصحيح :« كان الله ولا شيء معه، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء »(1).وهذا إنما ينفى وجود المخلوقات من السموات والأرض، وما فيهما من الملائكة، والإنس والجن، لا ينفي وجود العرش.

ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف إلى أن العرش متقدم على القلم واللوح، مستدلين بهذا الحديث، وحملوا قوله: «أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. فقال: وما أكتب ؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»(2) ،على هذا الخلق المذكور في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧].

وهذا نظير حديث أبى رزين العقيلي، المشهور في كتب المسانيد والسنن، أنه سأل النبي ﷺ فقال:يا رسول الله،أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟فقال:«كان في عماء، ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء»(3)،فالخلق المذكور في هذا الحديث

---

(1) سبق تخريجه ص ١٦٧ .

(2) الترمذي في التفسير(٣٣١٩) ،وقال : «حسن غريب»، وأحمد ٥/٣١٧ عن عبادة بن الصامت.

(3) الترمذي في التفسير (٣١٠٩) وقال:«حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة (١٨٢)، وأحمد ٤/١١، ١٢ .

لم يدخل فيه العماء، وذكر بعضهم أن هذا هو السحاب المذكور في قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ،وفي ذلك آثار معروفة.

والدليل على أن هذا الكلام ـ وهو قولهم : وهو الآن على ما عليه كان ـ كلام باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع والاعتبار وجوه:

أحدهما: أن الله قد أخبر بأنه مع عباده في غير موضع من الكتاب، عموما وخصوصا، مثل قوله :﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلى قوله :﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة:٧] ،وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل :١٢٨] ،وقال :﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣، ٢٤٩]، في موضعين. وقوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦]، ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾[المائدة: ١٢]، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وكان النبي ﷺ إذا سافر يقول: « اللهم، أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا»[1]. فلو كان الخلق عموماً وخصوصا ليسوا غيره، ولا هم معه، بل ما معه شيء آخر، امتنع أن يكون هو مع نفسه وذاته، فإن المعية توجب شيئين : كون أحدهما مع الآخر، فلما أخبر الله أنه مع هؤلاء علم بطلان قولهم:«هو الآن على ما عليه كان » لا شيء معه، بل هو عين المخلوقات، وأيضا فإن المعية لا تكون إلا من الطرفين، فإن معناها المقارنة والمصاحبة. فإذا كان أحد الشيئين مع الآخر، امتنع ألا يكون الآخر معه، فمن الممتنع أن يكون الله مع خلقه، ولا يكون لهم وجود معه، ولا حقيقة أصلا ، بل هم هو.

الوجه الثاني: أن الله قال في كتابه: ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء: ٣٩] ،وقال تعالى: ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

فنهاه أن يجعل أو يدعو معه إلها آخر، ولم ينهه أن يثبت معه مخلوقاً، أو يقول :

---

(١) مسلم في الحج (١٣٤٢ / ٤٢٥) أبو داود في الجهاد (٢٥٩٨) ،والترمذي في الدعوات (٣٤٣٨) وقال :«حسن غريب» ، والموطأ ٢/٩٧٧(٣٤)، وأحمد ٢/٤٠١، كلهم عن أبي هريرة .

إن معه عبداً مملوكا أو مربوبا فقيرا، أو معه شيئا موجودا خلقه، كما قال : ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [القصص:٨٨] ولم يقل: لا موجود إلا هو، أو لا هو إلا هو، أو لا شيء معه إلا هو، بمعنى أنه نفس الموجودات وعينها.

وهذا كما قال : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[البقرة:١٦٣] فأثبت وحدانيته في الألوهية، ولم يقل: إن الموجودات واحد ، فهذا التوحيد، الذي في كتاب الله، هو توحيد الألوهية ، وهو ألا تجعل معه ولا تدعو معه إلها غيره، فأين هذا من أن يجعل نفس الوجود هو إياه؟

وأيضاً ، فنهيه أن يجعل معه أو يدعو معه إلها آخر دليل على أن ذلك ممكن، كما فعله المشركون الذين دعوا مع الله آلهة أخرى، فلو كانت تلك الآلهة هي إياه ـ ولا شيء معه أصلا ـ امتنع أن يدعي معه آلهة أخرى.

فهذه النصوص تدل على أن معه أشياء ليست بآلهة، ولا يجوز أن تجعل آلهة، ولا تدعى آلهة، وأيضا: فعند الملحدين يجوز أن يعبد كل شيء، ويدعى كل شيء ، إذ لا يتصور أن يعبد غيره، فإنه هو الأشياء.

فيجوز للإنسان حينئذ أن يدعو كل شيء من الآلهة المعبودة من دون الله ، وهو عند الملاحدة ما دعا معه إلها آخر! فجعل نفس ما حرمه الله وجعله شركا جعله توحيدا، والشرك عنده لا يتصور بحال.

الوجه الثالث: أن الله لما كان ولا شيء معه، لم يكن معه سماء، ولا أرض، ولا شمس ولا قمر، ولا جن ولا إنس ، ولا دواب ولا شجر، ولا جنة ولا نار ، ولا جبال ولا بحار، فإن كان الآن على ما عليه كان ، فيجب ألا يكون معه شيء من هذه الأعيان، وهذا مكابرة للعيان، وكفر بالقرآن والإيمان.

الوجه الرابع : أن الله كان ولا شيء معه ، ثم كتب في الذكر كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح ، فإن كان لا شيء معه فيما بعد ، فما الفرق بين حال الكتابة وقبلها، وهو عين الكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة.

فصـــل

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية ـ الذين ألحدوا في أسماء الله وآياته ـ أن فرعون كان مؤمنا ، وأنه لا يدخل النار، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه، بل فيه ما ينفيه، كقوله : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، قالوا : فإنما أدخل آله دونه. وقوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨]، قالوا: إنما أوردهم ولم يدخلها، قالوا: ولأنه قد آمن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه.

وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام ، لم يسبق ابن عربي إليه ـ فيما أعلم ـ أحد من أهل القبلة، بل ولا من اليهود ، ولا من النصارى ، بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون.

فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يستدل عليه بدليل ، فإنه لم يكفر أحد بالله، ويدعى لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون.

ولهذا ثنى الله قصته في القرآن في مواضع، فإن القصص إنما هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان ، وليس في الكفار أعظم من كفره، والقرآن قد دل على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع :

أحدها: قوله تعالى في القصص : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾إلى قوله :﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٢ـ ٤٢].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه أرسله إلى فرعون وقومه ، وأخبر أنهم كانوا قوماً فاسقين، وأخبر أنهم : قالوا :﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾[القصص:٣٦]، وأخبر أن فرعون قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨]، وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إله موسى، وأنه يظنه كاذبا، وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده ، وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله ، وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين،وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأنه أتبعهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين.

فهذا نص في أن فرعون من الفاسقين المكذبين لموسى، الظالمين الداعين إلى النار، الملعونين في الدنيا بعد غرقهم ، المقبوحين في الدار الآخرة.

وهذا نص في أن فرعون بعد غرقه ملعون ، وهو في الآخرة مقبوح غير منصور، وهذا إخبار عن غاية العذاب، وهو موافق للموضع الثاني في سورة المؤمن وهو قوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر :٤٥، ٤٦]، وهذا إخبار عن فرعون وقومه، أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ، وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ.

وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال لما سمعوا آل فرعون، فظنوا أن فرعون خارج منهم ، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، بل فرعون داخل في آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم بالقرآن واللغة ، يتبين ذلك بوجوه:

أحدها: أن لفظ آل فلان في الكتاب والسنة يدخل فيها ذلك الشخص ، مثل قوله في الملائكة الذين ضافوا إبراهيم: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ ثم قال : ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ﴾ يعني لوطا : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر:٥٨ ـ ٦٢]، وكذلك قوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤] ثم قال بعد ذلك : ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر:٤١، ٤٢].

ومعلوم أن لوطا داخل في آل لوط في هذه المواضع، وكذلك فرعون داخل في آل فرعون المكذبين المأخوذين ، ومنه قول النبي ﷺ :« قولوا :اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم » ،وكذلك قوله :«كما باركت على آل إبراهيم»[1] .فإبراهيم داخل في ذلك، وكذلك قوله للحسن : « إن الصدقة لا تحل لآل محمد»[2] .

وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان القوم إذا أتوا رسول الله ﷺ

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٥٧)، ومسلم في الصلاة (٦٦/٤٠٦) ، وأبو داود في الصلاة (٩٧٦)، والترمذي في الصلاة (٤٨٣) وقال :«حديث حسن صحيح»، والنسائي في السهو (١٢٨٧)، وابن ماجه في الصلاة (٩٠٤) ، كلهم عن كعب بن عجرة .

(٢) مسلم في الزكاة (١٦٧/١٠٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٩)، والموطأ ٢/ ١٠٠٠(١٣) ، وأحمد ٣٤٨/٤، وكلهم عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل إلا أحمد فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه.

بصدقة يصلي عليهم، فأتى أبي بصدقة فقال: «اللهم، صل على آل أبي أوفى»[1]، وأبو أوفى هو صاحب الصدقة.

ونظير هذا الاسم أهل البيت، فإن الرجل يدخل في أهل بيته، كقول الملائكة: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[هود:٧٣]، وقول النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وذلك لأن آل الرجل من يؤول إليه، ونفسه ممن يؤول إليه، وأهل بيته هم من يأهله، وهو ممن يأهل أهل بيته.

فقد تبين أن الآية، التي ظنوا أنها حجة لهم، هي حجة عليهم، في تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون في البرزخ، وفي يوم القيامة، ويبين ذلك: أن الخطاب في القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر:٢٣، ٤٨].

فأخبر عقب قوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عن محاجتهم في النار، وقول الضعفاء للذين استكبروا، وقول المستكبرين للضعفاء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين، وهو الذي استخف قومه فأطاعوه، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون، فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه.

الموضع الثاني ـ وهو حجة عليهم لا لهم ـ: قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ إلى قوله: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[هود:٩٧ـ ٩٩]، فأخبر أنه يقدم قومه ولم يقل: يسوقهم، وأنه أوردهم النار. ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخرين النار، كان هو أول من يردها، وإلا لم يكن قادما، بل كان سائقا، يوضح ذلك أنه قال: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

---

(١) البخاري في الزكاة (١٤٩٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٧٨/١٧٦)، وأبو داود في الزكاة (١٥٩٠)، وابن ماجة في الزكاة (١٧٩٦).

(٢) الحاكم في المستدرك ٥٩٨/٣ وسكت عنه، وتعقبه الذهبي فقال: «سنده ضعيف». وفي مجمع الزوائد ١٣٣/٦ وقال: «رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات».

[هود:٩٩]، فعلم أنه وهم يردون النار، وأنهم جميعا ملعونون في الدنيا والآخرة.

وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة، فإن المرء مع من أحب ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال:٧٣] ،وأيضا: فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ [يونس:٩٨]، يقول: هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس؟

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[غافر:٨٢ ـ ٨٥]، فأخبر عن الأمم المكذبين للرسل ، أنهم آمنوا عند رؤية البأس ،،وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ، وأن هذه سنة الله الخالية في عباده.

وهذا مطابق لما ذكره الله في قوله لفرعون: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]، فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار أي: الآن تؤمن وقد عصيت قبل ؟ فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولا فمن قال : إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن، وخالف سنة الله التي قد خلت في عباده.

يبين ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولا، لدفع عنه العذاب كما دفع عن قوم يونس، فإنهم لما قبل إيمانهم متعوا إلى حين، فإن الإغراق هو عذاب على كفره، فإذا لم يكن كافراً لم يستحق عذابا.

وقوله بعد هذا: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[يونس:٩٢] يوجب أن يعتبر من خلفه، ولو كان إنما مات مؤمنا لم يكن المؤمن مما يعتبر بإهلاكه وإغراقه، وأيضا فإن النبي ﷺ لما أخبره ابن مسعود بقتل أبي جهل قال: « هذا فرعون هذه الأمة»[(١)] ، فضرب النبي ﷺ المثل في رأس الكفار المكذبين له برأس الكفار المكذبين لموسى.

فهذا يبين أنه هو الغاية في الكفر، فكيف يكون قد مات مؤمنا؟ ومعلوم أن من مات مؤمنا: لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله، وفي مسند أحمد وإسحاق وصحيح أبي حاتم، عن عوف بن مالك، عن عبد الله بن عمرو، عن النبيﷺ في تارك الصلاة: «يأتي مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف»[(٢)].

---

(١) أحمد ١/٤٤٤ ، و قال الهيثمي في المجمع ٦/٨٢:« رواه كله أحمد ،والبزار باختصار وهو من رواية أبي عبيدة عن أبيه ولم يسمع منه، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) أحمد ٢/١٦٩، وقال الهيثمي في المجمع ١/٢٩٧: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال أحمد ثقات» ، وصححه الشيخ شاكر (٦٥٧٦).

سئل الشيخ الإمام الرباني شيخ الإسلام ـ بحر العلوم إمام الأئمة ناصرالسنة، علامة الورى ، وارث الأنبياء ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية عن كلمات وجدت بخط من يوثق به،ذكرها عنه جماعة من الناس، فيهم من انتسب إلى الدين.

فمن ذلك: قال بعض السلف: إن الله لطف ذاته فسماها حقا، وكثفها فسماها خلقا.

وقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل : إن الله ظهر في الأشياء حقيقة، واحتجب بها مجازاً، فمن كان من أهل الحق والجمع ، شهدها مظاهر ومجالى، ومن كان من أهل المجاز والفرق، شهدها ستوراً وحجبا. قال: وقال في قصيدة له :

لقد حق لي رفض الوجود وأهله　　وقد علقت كفاي جمعا بموجدي

ثم بعد مدة غير البيت بقوله :

لقد حق لي عشق الوجود وأهله

فسألته عن ذلك فقال : مقام البداية أن يرى الأكوان حجبا فيرفضها، ثم يراها مظاهر ومجالى فيحق له العشق لها، كما قال بعضهم:

أقبل أرضاً سار فيها جمالها　　فكيف بدار دار فيها جَمالها

قال : وقال ابن عربي عقيب إنشاد بيتي أبي نواس:

رق الزجاج وراقت الخمر　　وتشاكلا فتشابه الأمـــر

فكأنما خمر ولا قـــدح　　وكأنما قدح ولا خمـــر

لبس صورة العالم ، فظاهره خلقه، وباطنه حقه.

وقال بعض السلف : عين ما ترى ذات لا ترى، وذات لا ترى عين ما ترى ، الله فقط والكثرة وهم.

قال الشيخ قطب الدين بن سبعين: رب مالك، وعبد هالك، وأنتم ذلك. الله فقط والكثرة وهم.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربي :

يا صورة أُنس سرها معنائي ما خلقك للأمر ترى لولائي

شئناك فـأنشأناك خلقا بشرا لتشهدنا في أكمل الأشيـاء

وفيه : طلب بعض أولاد المشايخ من والده الحج ، فقال له الشيخ : يا بني، طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين.

قال : وقيل عن رابعة العدوية : إنها حجت فقالت : هذا الصنم المعبود في الأرض ، والله ما ولجه الله ولا خلا منه.

وفيه للحلاج :

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوتـــه الثاقب

ثم بدا مستترا ظاهــــرا في صورة الآكل والشارب

قال: وله :

عقد الخلائق في الإله عقائــدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وله أيضا :

بيني وبينـــك إنيٌّ تزاحمـــني فارفع بحقـــك إنِّي من البـين

قال : وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي[1] الحلبي المقتول : وبهذه الإنيةِ التي طلب الحلاج رفعها تصرفت الأغيار في دمه، ولذلك قال السلف: الحلاج نصف رجل وذلك أنه لم ترفع له الإنيةُ بالمعنى فرفعت له صورة.

وفيه لمحيى الدين ابن عربي :

والله ما هي إلا حيرة ظهرت وبي حلفت وإن المقسم الله

وقال فيه : المنقول عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه قال : « إن الله ـ تبارك وتعالى ـ اشتاق بأن يرى ذاته المقدسة، فخلق من نوره آدم ـ عليه السلام ـ وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها ، وإني أنا ذلك النور، وآدم المرآة. قال ابن الفارض في قصيدته السلوك :

وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى بغير مراد فـــي المرآة الصقيلـــــــة

---

(١) هو: يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح شهاب الدين السهروردي. ولد في سهرورد ببلاد العراق ، كان علمه أكثر من عقله، فأفتى العلماء بإباحة دمه، فسجنه الملك الظاهر غازي . خنقه في سجنه بقلعة حلب، وكان فيلسوفًا معروفًا، من كتبه:« التلويحات» ، «هياكل النور»، «ومقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم» ، مات سنة ٥٨٧هـ ـ ١١٩١م.[الأعلام للزركلي٨/ ١٤٠].

أغـيرك فيــها لاح أم أنــت ناظــر إليك بها عند انعكاس الأشعـــة؟

قال : وقال ابن إسرائيل، الأمر أمران : أمر بواسطة ، وأمر بغير واسطة، فالأمر الذي بالوسائط رده من شاء الله وقبله من شاء الله، والأمر الذي بغير واسطة لا يمكن رده،وهو قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

فقال له فقير: إن الله قال لآدم بلا واسطة: لا تقرب الشجرة ـ فقرب وأكل . فقال : صدقت، وذلك أن آدم إنسان كامل ، ولذلك قال شيخنا على الحريري: آدم صفي الله تعالى، كان توحيده ظاهراً وباطناً ، فكان قوله لآدم: «لا تقرب الشجرة» ظاهراً ، وكان أمره «كل» باطنا، فأكل فكذلك قوله تعالى. وإبليس كان توحيده ظاهراً، فأمر بالسجود لآدم، فرآه غيراً فلم يسجد، فغير الله عليه وقال : ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٨].

وقال شخص لسيدي :يا سيدي حسن ، إذا كان الله يقول لنبيه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، إيش نكون نحن؟ فقال سيدي له : ليس الأمر كما تقول أو تظن، فقوله له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ عين الإثبات للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح: ١٠] .

وفيه لأوحد الدين الكرماني :

ما غبت عن القلب ولا عن عيني ما بينكم وبينـــنا مـــــن بــــين

وقال غيره :

لا تحسب بالصلاة والصوم تنال قربا ودنوا مـــن جمال وجــــلال
فارق ظلم الطبع وكن متحـداً بالله وإلا كـُــــلُّ دعـــواك محـال

وغيره للحلاج :

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
يشاهد حقاً حين يشهده الهـوى بأن صلاة العارفين من الكفـــــــر

وللشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

الكون يناديـك ألا تسمعـــــــني من ألف أشتاتـــي ومـــــن فرقني
انظر لتراني منظــــــراً معــــتبراً ما فيَّ سوى وجـــود من أوجدني

وله أيضاً:

ذرات وجود الكون للحق شهود   أن ليس لموجود سوى الحق وجود

والكون وإن تكثرت عدتــــه   منه وإلى علاه يبـــدو ويعـــود

وله أيضا:

برئت إليك من قولي وفعلـــي   ومن ذاتي براءة مستقيـــــــل

وما أنا في طراز الكون شــــيء   لأنـــي مثل ظل مستحيــــل

وللعفيف التلمساني :

أحن إليه وهو قلبي وهــل يـــرى   سواى أخو وجد يحن لقلبه ؟

ويحجب طرفي عنه إذ هو ناظري   ومـا بُعده إلا لإفـراط قربـــه

وقال بعض السلف : التوحيد لا لسان له ، والألسنة كلها لسانه .

ومن ذلك أيضا : التوحيد لا يعرفه إلا الواحد ، ولا تصح العبارة عن الواحد ، وذلك أنه لا يعبر عنه إلا بغيره ومن أثبت غيرا فلا توحيد له .

قال : وسمعت الشيخ محمد بن بشر النواوي يقول : ورد سيدنا الشيخ على الحريري إلى جامع نوى، قال الشيخ محمد : فجئت إليه ، فقبلت الأرض بين يديه، وجلست ، فقال : يا بني، وقفت مع المحبة مدة فوجدتها غير المقصود، لأن المحبة لا تكون إلا من غير لغير، وغير ما ثم، ثم وقفت مع التوحيد مدة فوجدته كذلك، لأن التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبوداً.

وفيه : سمعت من الشيخ نجم الدين بن إسرائيل مما أسر إلى أنه سمع من شيخنا ، الشيخ على الحريري، في العام الذي توفى فيه، قال :يا نجم، رأيت لهاتي الفوقانية فوق السموات، وحنكي تحت الأرضين، ونطق لساني بلفظة لو سمعت مني ما وصل إلى الأرض من دمي قطرة.

فلما كان بعد ذلك بمدة، قال شخص في حضرة سيدي الشيخ حسن بن على الحريري: يا سيدي حسن، ما خلق الله أقل عقلا ممن ادعى أنه إله مثل فرعون ونمروذ وأمثالهما، فقال : إن هذه المقالة لا يقولها إلا أجهل خلق الله أو أعرف خلق الله، فقلت له: صدقت ، وذلك أنه قد سمعت جدك يقول : رأيت كذا وكذا، فذكر ما ذكره الشيخ نجم الدين عن الشيخ.

وفيه قال بعض السلف : من كان عين الحجاب على نفسه فلا حجاب ولا محجوب.

فالمطلوب من السادة العلماء :

أن يبينوا هذه الأقوال ، وهل هي حق أو باطل ؟ وما يعرف به معناها ؟ وما يبين أنها حق أو باطل ؟ وهل الواجب إنكارها، أو إقرارها ، أو التسليم لمن قالها؟ وهل لها وجه سائغ؟ وما الحكم فيمن اعتقد معناها ، إما مع المعرفة بحقيقتها؟ وإما مع التسليم المجمل لمن قالها؟

والمتكلمون بها ، هل أرادوا معنى صحيحا يوافق العقل والنقل ؟ وهل يمكن تأويل ما يشكل منها وحمله على ذلك المعنى ؟ وهل الواجب بيان معناها ، وكشف مغزاها، إذا كان هناك ناس يؤمنون بها، ولا يعرفون حقيقتها؟ أم ينبغي السكوت عن ذلك وترك الناس يعظمونها، ويؤمنون بها. مع عدم العلم بمعناها؟ بينوا ذلك مأجورين.

فأجاب ـ رضي الله عنه ـ :

الحمد لله رب العالمين ،هذه الأقوال المذكورة تشتمل على أصلين باطلين، مخالفين لدين المسلمين واليهود والنصارى، مع مخالفتهما للمنقول والمعقول.

أحدهما: الحلول والاتحاد، وما يقارب ذلك، كالقول بوحدة الوجود ، كالذين يقولون: إن الوجود واحد ، فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممكن للمخلوق ، كما يقول ذلك أهل الوحدة، كابن عربي ، وصاحبه القونوي، وابن سبعين، وابن الفارض صاحب القصيدة التائية ـ نظم السلوك ـ وعامر البصري السيواسي، الذي له قصيدة تناظر قصيدة ابن الفارض. والتلمساني الذي شرح (مواقف النفري) وله شرح الأسماء الحسنى، على طريقة هؤلاء، وسعيد الفرغاني، الذي شرح قصيدة ابن الفارض، والششتري صاحب الأزجال، الذي هو تلميذ ابن سبعين ، وعبد الله البلياني، وابن أبى المنصور المتصوف المصري، صاحب (فك الأزرار عن أعناق الأسرار) وأمثالهم.

ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت ـ كما يقوله ابن عربي ـ ويزعم أن الأعيان ثابتة في العدم ، غنية عن الله في أنفسها، ووجود الحق هو وجودها، والخالق مفتقر إلى الأعيان، في ظهور وجوده بها، وهي مفتقرة إليه في حصول وجودها، الذي هو نفس وجوده. وقوله مركب من قول من قال: المعدوم شيء، وقول من يقول : وجود الخالق هو وجود المخلوق، ويقول: فالوجود المخلوق هو الوجود الخالق ، والوجود الخالق هو الوجود المخلوق، كما هو مبسوط في موضع آخر.

ومنهم من يفرق بين الإطلاق والتعيين ، كما يقول القونوي ونحوه ، فيقولون : إن الواجب هو الوجود المطلق لا بشرط، وهذا لا يوجد مطلقاً إلا في الأذهان لا في الأعيان، فما هو كلي في الأذهان لا يكون في الأعيان إلا معينا، وإن قيل : إن المطلق جزء من المعين لزم أن يكون وجود الخالق جزءًا من وجود المخلوق، والجزء لا يبدع الجميع ويخلقه، فلا يكون الخالق موجوداً.

ومنهم من قال : إن الباري هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، كما يقول ابن سينا وأتباعه، فقوله أشد فساداً، فإن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان ؛ فقول هؤلاء بموافقة من هؤلاء ـ الذين يلزمهم التعطيل ـ شر من قول الذين يشبهون أهل الحلول والاتحاد.

وآخرون يجعلون الوجود الواجب، والوجود الممكن بمنزلة المادة والصورة ، التي تقولها المتفلسفة ، أو قريب من ذلك ، كما يقوله ابن سبعين وأمثاله.

وهؤلاء أقوالهم فيها تناقض وفساد، وهي لا تخرج عن وحدة الوجود، والحلول أو الاتحاد ، وهم يقولون بالحلول المطلق ، والوحدة المطلقة، والاتحاد المطلق، بخلاف من يقول بالمعين، كالنصارى والغالية من الشيعة الذين يقولون بإلهية على ، أو الحاكم، أو الحلاج، أو يونس القنبني، أو غير هؤلاء ممن ادعيت فيه الإلهية.

فإن هؤلاء قد يقولون بالحلول المقيد الخاص، وأولئك يقولون بالإطلاق والتعميم.

ولهذا يقولون: إن النصارى إنما كان خطؤهم في التخصيص، وكذلك يقولون في المشركين عباد الأصنام، إنما كان خطؤهم لأنهم اقتصروا على بعض المظاهر دون بعض ، وهم يجوزون الشرك وعبادة الأصنام مطلقا، على وجه الإطلاق والعموم.

ولا ريب أن في قول هؤلاء من الكفر والضلال، ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى .

وهذا المذهب شائع في كثير من المتأخرين ، وكان طوائف من الجهمية يقولون به ، وكلام ابن عربي ، في فصوص الحكم وغيره، وكلام ابن سبعين وصاحبه الششتري، وقصيدة ابن الفارض نظم السلوك وقصيدة عامر البصري، وكلام العفيف التلمساني، وعبد الله البلياني ، والصدر القونوي وكثير من شعر ابن إسرائيل ، وما ينقل من ذلك عن شيخه الحريري، وكذلك نحو منه يوجد في كلام كثير من الناس غير هؤلاء هو مبني على هذا المذهب ـ مذهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

وكثير من أهل السلوك، الذين لا يعتقدون هذا المذهب، يسمعون شعر ابن الفارض وغيره، فلا يعرفون أن مقصوده هذا المذهب ، فإن هذا الباب وقع فيه من الاشتباه والضلال، ما حير كثيراً من الرجال .

وأصل ضلال هؤلاء : أنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته، وعلوه عليها، وعلموا أنه موجود، فظنوا أن وجوده لا يخرج عن وجودها، بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أنه الشمس نفسها.

ولما ظهرت الجهمية - المنكرة لمباينة الله وعلوه على خلقه - افترق الناس في هذا الباب على أربعة أقوال :

فالسلف والأئمة يقولون : إن الله فوق سمواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة ، وكما علم المباينة والعلو بالمعقول الصريح، الموافق للمنقول الصحيح، وكما فطر الله على ذلك خلقه، من إقرارهم به، وقصدهم إياه سبحانه وتعالى .

والقول الثاني : قول معطلة الجهمية ونفاتهم، وهم الذين يقولون : لا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا مباين له، ولا محايث له ، فينفون الوصفين المتقابلين، اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما ، كما يقول ذلك أكثر المعتزلة، ومن وافقهم من غيرهم.

والقول الثالث: قول حلولية الجهمية، الذين يقولون : إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية - أتباع حسين النجار - وغيرهم من الجهمية ، وهؤلاء القائلون بالحلول والاتحاد من جنس هؤلاء ، فإن الحلول أغلب على عباد الجهمية، وصوفيتهم وعامتهم، والنفي والتعطيل أغلب على نظارهم ومتكلميهم كما قيل :متكملة الجهمية لا يعبدون شيئا، ومتصوفة الجهمية يعبدون كل شيء.

وذلك لأن العبادة تتضمن الطلب والقصد ، والإرادة والمحبة، وهذا لا يتعلق بمعدوم، فإن القلب يطلب موجوداً، فإذا لم يطلب ما فوق العالم طلب ما هو فيه .

وأما الكلام والعلم والنظر فيتعلق بموجود ومعدوم، فإذا كان أهل الكلام والنظر يصفون الرب بصفات السلب والنفي - التي لا يوصف بها إلا المعدوم - لم يكن مجرد العلم والكلام ينافى عدم المعبود المذكور ، بخلاف القصد والإرادة والعبادة، فإنه ينافي عدم المعبود.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء - عند نظره وبحثه - يميل إلى النفي ، وعند عبادته

وتصوفه يميل إلى الحلول ، وإذا قيل له: هذا ينافي ذلك، قال : هذا مقتضى عقلي ونظري ، وذاك مقتضى ذوقي ومعرفتي ، ومعلوم أن الذوق والوجد إن لم يكن موافقا للعقل والنظر، وإلا لزم فسادهما أو فساد أحدهما.

والقول الرابع : قول من يقول: إن الله بذاته فوق العالم، وهو بذاته في كل مكان، وهذا قول طوائف من أهل الكلام والتصوف، كأبي معاذ وأمثاله، وقد ذكر الأشعري في المقالات هذا عن طوائف، ويوجد في كلام السالمية ـ كأبي طالب المكي وأتباعه، كأبي الحكم بن برجان وأمثاله ـ ما يشير إلى نحو من هذا، كما يوجد في كلامهم ما يناقض هذا

وفي الجملة، فالقول بالحلول أو ما يناسبه وقع فيه كثير من متأخري الصوفية ؛ ولهذا كان أئمة القوم يحذرون منه كما في قول الجنيد ـ لما سئل عن التوحيد ـ فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث .

وقد أنكر ذلك عليه ابن عربي ـ صاحب الفصوص ـ وادعى أن الجنيد وأمثاله ماتوا وما عرفوا التوحيد ، لما أثبتوا الفرق بين الرب والعبد، بناء على دعواه أن التوحيد ليس فيه فرق بين الرب والعبد، وزعم أنه لا يميز بين القديم والمحدث إلا من ليس بقديم و لا محدث وهذا جهل فإن المعرفة بأن هذا ليس ذاك، والتمييز بين هذا وذاك لا يفتقر إلى أن يكون العارف المميز بين الشيئين ليس هو أحد الشيئين، بل الإنسان يعلم أنه ليس هو ذلك الإنسان الآخر، مع أنه أحدهما، فكيف لا يعلم أنه غير ربه، وإن كان هو أحدهما؟

الأصل الثاني: الاحتجاج بالقدر على المعاصي ، وعلى ترك المأمور وفعل المحظور، فإن القدر يجب الإيمان به، ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده.

والناس ـ الذين ضلوا في القدر ـ على ثلاثة أصناف :

قوم آمنوا بالأمر والنهي، والوعد والوعيد ، وكذبوا بالقدر ، وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه الله، كالمعتزلة ونحوهم.

وقوم آمنوا بالقضاء والقدر، ووافقوا أهل السنة والجماعة ، على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء، وربه ومليكه، لكن عارضوا هذا بالأمر والنهي، وسموا هذا حقيقة ، وجعلوا ذلك معارضا للشريعة.

وفيهم من يقول : إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب، وإن العارف يستوى عنده هذا وهذا .

وهم في ذلك متناقضون ، مخالفون للشرع والعقل ، والذوق والوجد ، فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم،وبين من ظلمهم،ولا يسوون بين العالم والجاهل ، والقادر والعاجز،ولا بين الطيب والخبيث،ولا بين العادل والظالم، بل يفرقون بينهما، ويفرقون أيضا بموجب أهوائهم وأغراضهم، لا بموجب الأمر والنهي،ولا يقفون لا مع القدر، ولا مع الأمر،بل كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب يوافق هواك تمذهبت به.

ولا يوجد أحد يحتج بالقدر في ترك الواجب وفعل المحرم إلا وهو متناقض ، لا يجعله حجة في مخالفة هواه، بل يعادي من آذاه وإن كان محقا، ويحب من وافقه على غرضه وإن كان عدوا لله ، فيكون حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجده لا بحسب أمر الله ونهيه، ومحبته وبغضه، وولايته وعداوته.

إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد،فإن هذا مستلزم للفساد ، الذي لا صلاح معه، والشر الذي لا خير فيه؛ إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد، ولا اقتص من ظالم باغ،ولا أخذ لمظلوم حقه من ظالمه، ولفعل كل أحد ما يشتهيه، من غير معارض يعارضه فيه، وهذا فيه من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد.

فمن المعلوم بالضرورة أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد،وإلى ما يضرهم،والله قد بعث رسول الله ﷺ يأمر المؤمنين بالمعروف،وينهاهم عن المنكر،ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ، فمن لم يتبع شرع الله ودينه تبع ضده من الأهواء والبدع ، وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل؛ ليدحض به الحق، لا من باب الاعتماد عليه، ولزمه أن يجعل كل من جرت عليه المقادير، من أهل المعاذير.

وإن قال : أنا أعذر بالقدر من شهده، وعلم أن الله خالق فعله ومحركه ، لا من غاب عن هذا الشهود، أو كان من أهل الجحود. قيل له : فيقال لك: وشهود هذا، وجحود هذا من القدر؟ فالقدر متناول لشهود هذا، وجحود هذا ؟ فإن كان هذا موجبا للفرق مع شمول القدر لهما، فقد جعلت بعض الناس محمودا، وبعضهم مذموما مع شمول القدر لهما ؟ وهذا رجوع إلى الفرق واعتصام بالأمر والنهي ، وحينئذ فقد نقضت أصلك، وتناقضت فيه، وهذا لازم لكل من دخل معك فيه.

ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه، فهو قول باطل وبدعة مضلة.

فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذراً في ترك الواجبات ، وفعل المحظورات ، بل الإيمان بالقدر حسنة من الحسنات،وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات،فلو أشرك مشرك

بالله، وكذب رسوله ناظراً إلى أن ذلك مقدر عليه، لم يكن ذلك غافراً لتكذيبه، ولا مانعا من تعذيبه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، سواء كان المشرك مقراً بالقدر وناظراً إليه، أو مكذباً به أو غافلا عنه، فقد قال إبليس: ﴿ بِمَا (١) أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٣٩]، فأصر واحتج بالقدر، فكان ذلك زيادة في كفره، وسببا لمزيد عذابه.

وأما آدم عليه السلام فإنه قال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف:٢٣]، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧]. فمن استغفر وتاب كان آدميا سعيدا، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيا شقيا، وقد قال تعالى لإبليس: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥].

وهذا الموضع ضل فيه كثير من الخائضين في الحقائق، فإنهم يسلكون أنواعا من الحقائق التي يجدونها ويذوقونها، ويحتجون بالقدر فيما خالفوا فيه الأمر، فيضاهئون المشركين الذين كانوا يبتدعون دينا لم يشرعه الله، ويحتجون بالقدر على مخالفة أمر الله.

والصنف الثالث: من الضالين في القدر: من خاصم الرب في جمعه بين القضاء والقدر، والأمر والنهي ـ كما يذكرون ذلك على لسان إبليس ـ وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه.

وأما أهل الإيمان: فيؤمنون بالقضاء والقدر، والأمر والنهي، ويفعلون المأمور، ويتركون المحظور، ويصبرون على المقدور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف:٩٠]، فالتقوى تتناول فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور.

وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة في الأرض أو في أنفسهم علموا أن ذلك في كتاب، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فسلموا الأمر لله وصبروا على ما ابتلاهم به.

وأما إذا جاء أمر الله فإنهم يسارعون في الخيرات، ويسابقون إلى الطاعات، ويدعون ربهم رغبا ورهبا، ويجتنبون محارمه ويحفظون حدوده، ويستغفرون الله ويتوبون إليه من تقصيرهم فيما أمر وتعديهم لحدوده؛ علما منهم بأن التوبة فرض على العباد دائما، واقتداء

---

(١) في المطبوعة: «فبما»، والصواب ما أثبتناه.

بنبيهم ، حيث يقول في الحديث الصحيح: «أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»[1] ،وفي رواية: « أكثر من سبعين مرة»[2]،وآخر سورة نزلت عليه: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ [سورة النصر].

وإذا عرف هذان الأصلان، فعليهما ينبني جواب ما في هذا السؤال من الكلمات، ويعرف ما دخل في هذه الأمور من الضلالات.

فقول القائل : إن الله لطف ذاته فسماها حقا ، وكثفها فسماها خلقا، هو من أقوال أهل الوحدة والحلول والاتحاد، وهو باطل ؛ فإن اللطيف إن كان هو الكثيف فالحق هو الخلق ولا تلطيف ولا تكثيف ، وإن كان اللطيف غير الكثيف فقد ثبت الفرق بين الحق والخلق، وهذا هو الحق، وحينئذ فالحق لا يكون خلقا، فلا يتصور أن ذات الحق تكون خلقا بوجه من الوجوه، كما أن ذات المخلوق لا تكون ذات الخالق بوجه من الوجوه.

وكذلك قول الآخر: «ظهر فيها حقيقة، واحتجب عنها مجازًا» فإنه إن كان الظاهر غير المظاهر، فقد ثبت الفرق بين الرب والعبد ، وإن لم يكن أحدهما غير الآخر، فلا يتصور ظهور ولا احتجاب.

ثم قوله : « فمن كان من أهل الحق شهدها مظاهر ومجالي ، ومن كان من أهل الفرق شهدها ستوراً وحجبا» كلام ينقض بعضه بعضا، فإنه إن كان الوجود واحداً لم يكن أحد الشاهدين غير الآخر، ولم يكن الشاهد غير المشهود. ولهذا قال بعض شيوخ هؤلاء: من قال: إن في الكون سوى الله فقد كذب. فقال له آخر: فمن الذي كذب ؟ فأفحمه. وهذا لأنه إذا لم يكن موجود سوى الواجب بنفسه، كان هو الذي يكذب ويظلم، ويأكل ويشرب، وهذا يصرح به أئمة هؤلاء ، كما يقول صاحب الفصوص وغيره: إنه موصوف بجميع صفات الذم، وأنه هو الذي يمرض ويضرب وتصيبه الآفات، ويوصف بالمعايب والنقائص ، كما أنه هو الذي يوصف بنعوت المدح والذم.

قال : فالعلى بنفسه هو الذي يكون له جميع الصفات الثبوتية والسلبية، سواء كانت محمودة عقلا وشرعاً وعرفا، أو مذمومة عقلا وشرعاً وعرفاً ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة.

---

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢/ ٤٢) ولم يذكر : «فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله».

(٢) البخاري في الدعوات (٦٣٠٧).

وقال : ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات و قد أخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات الذم؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق وكلها حق له ، كما أن صفات المخلوق حق للخالق.

وقول القائل :

لقد حق لي عشق الوجود وأهله

يقتضي أنه يعشق إبليس وفرعون وهامان وكل كافر، ويعشق الكلاب والخنازير، والبول والعذرة، وكل خبيث، مع أنه باطل عقلا وشرعاً، فهو كاذب في ذلك متناقض فيه، فإنه لو آذاه مؤذ وآلمه ألما شديداً لأبغضه وعاداه، بل اعتدى في أذاه، فعشق الرجل لكل موجود محال عقلا، محرم شرعا.

وما ذكر عن بعضهم من قوله:« عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى» هو من كلام ابن سبعين، وهو من أكابر أهل الشرك والإلحاد، والسحر والاتحاد، وكان من أفاضلهم وأذكيائهم وأخبرهم بالفلسفة وتصوف المتفلسفة.

وقول ابن عربي: ظاهره خلقه، وباطنه حقه هو قول أهل الحلول ، وهو متناقض في ذلك ، فإنه يقول بالوحدة، فلا يكون هناك موجودان، أحدهما باطن والآخر ظاهر، والتفريق بين الوجود والعين تفريق لا حقيقة له، بل هو من أقوال أهل الكذب والمين(١).

وقول ابن سبعين: «رب مالك ، وعبد هالك، وأنتم ذلك، الله فقط، والكثرة وهم» هو موافق لأصله الفاسد في أن وجود المخلوق وجود الخالق، ولهذا قال : وأنتم ذلك. فإنه جعل العبد هالكا أي: لا وجود له ، فلم يبق إلا وجود الرب، فقال : وأنتم ذلك، وكذلك قال : الله فقط ، والكثرة وهم ، فإنه على قوله لا موجود إلا الله.

ولهذا كان يقول هو وأصحابه في ذكرهم : ليس إلا الله، بدل قول المسلمين: لا إله إلا الله.

وكان الشيخ قطب الدين بن القسطلاني(٢) يسميهم « الليسية» ويقول: احذروا هؤلاء الليسية، ولهذا قال : وهم الكثرة وهذا تناقض ، فإن قوله: «وهم» يقتضى متوهما، فإن كان المتوهم هو الوهم فيكون الله هو الوهم، وإن كان المتوهم هو غير الوهم فقد تعدد

(١) المين:الكذب . انظر: القاموس المحيط ، مادة «مان».

(٢) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن علي القيسي الشاطبي القسطلاني، عالم بالحديث ورجاله، أصله توزر بإفريقية، ومولده بمصر ، وتوفى في القاهرة سنة ٦٨٦هـ.[الأعلام٥/ ٣٢٣].

الوجود، وكذلك إن كان المتوهم هو الله فقد وصف الله بالوهم الباطل، وهذا ـ مع أنه كفر ـ فهو يناقض قوله: الوجود واحد ، وإن كان المتوهم غيره، فقد أثبت غير الله ، وهذا يناقض أصله، ثم متى أثبت غيراً لزمت الكثرة، فلا تكون الكثرة وهماً ، بل تكون حقا.

والبيتان المذكوران عن ابن عربي ـ مع تناقضهما ـ مبنيان على هذا الأصل ، فإن قوله:

يا صورة أُنس سرها معنائي

خطاب على لسان الحق ، يقول لصورة الإنسان: يا صورة أنس سرها معنائي، أي هي الصورة وأنا معناها ، وهذا يقتضى أن المعنى غير الصورة ، وهو يقتضى التعدد ، والتفريق بين المعنى والصورة، فإن كان وجود المعنى هو وجود الصورة ـ كما يصرح به ـ فلا تعدد ، وإن كان وجود هذا غير وجود هذا فهو متناقض في قوله.

وقوله:

ما خلقك للأمر ترى لولائي

كلام مجمل يمكن أن يريد به معنى صحيحا، أي لولا الخالق لما وجد المكلفون ولا خلق لأمر الله، لكن قد عرف أنه لا يقول بهذا ، وأن مراده الوحدة والحلول والاتحاد؛ ولهذا قال:

شئناك فأنشأناك خلقاً بشراً كي تشهدنا في أكمل الأشياء

فبين أن العبيد يشهدونه في أكمل الأشياء وهي الصورة الإنسانية ، وهذا يشير إلى الحلول ـ وهو حلول الحق في الخلق ـ لكنه متناقض في كلامه، فإنه لا يرضى بالحلول، ولا يثبت موجودين حل أحدهما في الآخر، بل عنده وجود الحال هو عين وجود المحل، لكنه يقول بالحلول بين الثبوت والوجود ، فوجود الحق حل في ثبوت الممكنات، وثبوتها حل في وجوده، وهذا الكلام لا حقيقة له في نفس الأمر، فإنه لا فرق بين هذا وهذا، لكنه هو مذهبه المتناقض في نفسه.

وأما الرجل الذي طلب من والده الحج، فأمره أن يطوف بنفس الأب فقال : طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين قط، فهذا كفر بإجماع المسلمين، فإن الطواف بالبيت العتيق مما أمر الله به ورسوله، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين، ومن اعتقد ذلك دينا فهو كافر، سواء، طاف ببدنه أو بقبره.

وقوله : ما فارقه الله طرفة عين قط إن أراد به الحلول المطلق العام فهو مع بطلانه متناقض، فإنه لا فرق حينئذ بين الطائف والمطوف به، فلم يكن طواف هذا بهذا أولى من العكس، بل هذا يستلزم أنه يطاف بالكلاب، والخنازير، والكفار، والنجاسات، والأقذار، وكل خبيث وكل ملعون، لأن الحلول والاتحاد العام يتناول هذا كله.

وقد قال مرة شيخهم الشيرازي ،لشيخه التلمساني، وقد مر بكلب أجرب ميت: هذا أيضاً من ذات الله؟ فقال: وثمَّ خارج عنه ؟ ومر التلمساني ومعه شخص بكلب، فركضه الآخر برجله، فقال: لا تركضه فإنه منه، وهذا ـ مع أنه من أعظم الكفر والكذب الباطل في العقل والدين ـ فإنه متناقض، فإن الراكض والمركوض واحد، وكذلك الناهي والمنهي، فليس شيء من ذلك بأولى بالأمر والنهي من شيء، ولا يعقل مع الوحدة تعدد، وإذا قيل: مظاهر ومجالى ، قيل: إن كان لها وجود غير وجود الظاهر والمتجلى ، فقد ثبت التعدد وبطلت الوحدة، وإن كان وجود هذا هو وجود هذا لم يبق بين الظاهر، والمظهر، والمتجلي فيه فرق .

وإن أراد بقوله : ما فارقه الله طرفة عين الحلول الخاص ـ كما تقوله النصارى في المسيح ـ لزم أن يكون هذا الحلول ثابتا له من حين خلق ـ كما تقوله النصارى في المسيح ـ فلا يكون ذلك حاصلا له بمعرفته وعبادته وتحقيقه وعرفانه.

وحينئذ فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الآدميين، فلماذا يكون الحلول ثابتا له دون غيره ؟ وهذا شر من قول النصارى ، فإن النصارى ادعوا ذلك في المسيح لكونه خلق من غير أب، وهؤلاء الشيوخ لم يفضلوا في نفس التخليق، وإنما فضلوا بالعبادة والمعرفة، والتحقيق والتوحيد .

وهذا أمر حصل لهم بعد أن لم يكن لهم، فإذا كان هذا هو سبب الحلول، وجب أن يكون الحلول فيهم حادثا لا مقارنا لخلقهم، وحينئذ فقولهم: إن الرب ما فارق أبدانهم أو قلوبهم طرفة عين قط، كلام باطل كيفما قدر.

وأما ما ذكر عن رابعة العدوية من قولها عن البيت : إنه الصنم المعبود في الأرض، فهو كذب على رابعة ، ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب، فإن تاب وإلا قتل ، وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون، ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به، والصلاة إليه، وكذلك ما نقل من قولها : والله ما ولجه الله ولا خلا منه، كلام باطل عليها.

وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره في هذا المعنى، فلأي مزية يطاف به ويصلى إليه ويحج دون غيره من البيوت؟

وقول القائل : ما ولج الله فيه كلام صحيح . وأما قوله :ما خلا منه فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى، فهو باطل وهو مناقض لقوله: ما ولج فيه، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير حال فيه، فهذا مع أنه كفر وباطل يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت إذ الموجودات كلها عندهم كذلك.

وأما البيتان المنسوبان إلى الحلاج :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب

حتى بدا في خلقه ظاهرا ... في صورة الآكل والشارب

فهذه قد بين بها الحلول الخاص ـ كما تقول النصارى في المسيح ـ وكان أبو عبدالله ابن خفيف الشيرازي ـ قبل أن يطلع على حقيقة أمر الحلاج ـ يذب عنه، فلما أنشد هذين البيتين قال : لعن الله من قال هذا .

وقوله: وله :

عقد الخلائق في الإله عقائدا ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

فهذا البيت يعرف لابن عربي ، فإن كان قد سبقه إليه الحلاج وقد تمثل هو به، فإضافته إلى الحلاج صحيحة، وهو كلام متناقض باطل.

فإن الجمع بين النقيضين في الاعتقاد في غاية الفساد . والقضيتان المتناقضتان بالسلب والإيجاب على وجه يلزم من صدق أحدهما كذب الأخرى لا يمكن الجمع بينهما.

وهؤلاء يزعمون أنه يثبت عندهم في الكشف ما يناقض صريح العقل ، وإنهم يقولون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين، وأن من سلك طريقهم يقول بمخالفة المعقول والمنقول، ولا ريب أن هذا من أفسد ما ذهب إليه أهل السفسطة.

ومعلوم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أعظم من الأولياء ، والأنبياء جاؤوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيؤوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول، وهؤلاء الملاحدة يدعون أن محالات العقول صحيحة، وأن الجمع بين النقيضين صحيح، وأن ما خالف صريح المعقول وصحيح المنقول صحيح.

ولا ريب أنهم أصحاب خيال وأوهام، يتخيلون في نفوسهم أموراً يتخيلونها

ويتوهمونها، فيظنونها ثابتة في الخارج، وإنما هي من خيالاتهم، والخيال الباطل يتصور فيه ما لا حقيقة له.

ولهذا يقولون : أرض الحقيقة هي أرض الخيال ، كما يقول ذلك ابن عربي وغيره، ولهذا يحكون حكاية ذكرها سعيد الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض، وكان من شيوخهم.

وأما قوله :

بيني وبينك إني تزاحمني   فارفع بحقك إنيي من البين

فإن هذا الكلام يفسر بمعاني ثلاثة ، يقوله الملحد ، ويقوله الزنديق، ويقوله الصديق.

فالأول : مراده به طلب رفع ثبوت إنيته حتى يقال: إن وجوده هو وجود الحق، وإنيته هي إنية الحق ، فلا يقال: إنه غير الله ولا سواه.

ولهذا قال سلف هؤلاء الملاحدة : إن الحلاج نصف رجل ، وذلك أنه لم ترفع له الإنية بالمعنى، فرفعت له صورة. يقولون: إنه لما لم ترفع إنيته في الثبوت في حقيقة شهوده رفعت صورة فقتل ، وهذا القول مع ما فيه من الكفر والإلحاد، فهو متناقض ينقض بعضه بعضا فإن قوله :

بيني وبينك إنيٌّ تزاحمني

خطاب لغيره، وإثبات إنية بينه وبين ربه، وهذا إثبات أمور ثلاثة ولذلك يقول :

فارفع بحقك إنيى من البين

طلب من غيره أن يرفع إنيته، وهذا إثبات لأمور ثلاثة.

وهذا المعنى الباطل هو الفناء الفاسد ، وهو الفناء عن وجود السوى ، فإن هذا فيه طلب رفع الإنية ـ وهو طلب الفناء ـ والفناء ثلاثة أقسام:

فناء عن وجود السوى ، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن عبادة السوى.

فالأول : هو فناء أهل الوحدة الملاحدة، كما فسروا به كلام الحلاج ـ وهو أن يجعل الوجود وجوداً واحداً

وأما الثاني : وهو الفناء عن شهود السوى ، فهذا هو الذي يعرض لكثير من السالكين، كما يحكى عن أبي يزيد وأمثاله وهو مقام الاصطلام، وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده، وبمعبوده عن عبادته، وبمشهوده عن شهادته، وبمذكوره عن ذكره، فيفنى من

لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهذا كما يحكى أن رجلا كان يحب آخر، فألقى المحبوب نفسه في الماء، فألقى المحب نفسه خلفه فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت؟ فقال : غبت بك عني ، فظننت أنك أني. فهذا حال من عجز عن شهود شيء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق ،وهو أمر يعرض لطائفة من السالكين.

ومن الناس من يجعل هذا من السلوك، ومنهم من يجعله غاية السلوك، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية،فلا يفرقون بين المأمور والمحظور،والمحبوب والمكروه.

وهذا غلط عظيم، غلطوا فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهي ، وعبادة الله وحده وطاعة رسوله، فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار، لم يكن محموداً على هذا ولكن قد يكون معذوراً.

وأما النوع الثالث : وهو الفناء عن عبادة السوى ، فهذا حال النبيين وأتباعهم، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، فهذا تحقيق توحيد الله وحده لا شريك له، وهو الحنيفية ملة إبراهيم.

ويدخل في هذا : أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فهذا هو الفناء الديني الشرعي، الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه.

ومن قال :

فارفع بحقك إنيي من البين

بمعنى أن يرفع هو نفسه فلا يتبع هواه، ولا يتوكل على نفسه وحوله وقوته، بل يكون عمله لله لا لهواه، وعمله بالله وبقوته لا بحوله وقوته، كما قال تعالى :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] فهذا حق محمود.

وهذا كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: رأيت رب العزة في المنام فقلت: خدايي كيف الطريق إليك؟ قال : إترك نفسك وتعال ـ أي اترك أتباع هواك والاعتماد على نفسك ـ فيكون عملك لله واستعانتك بالله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣].

والقول المحكي عن ابن عربي :

وبي حلفت وإن المقسم الله

هو أيضا من إلحادهم وإفكهم جعل نفسه حالفة بنفسه ، وجعل الحالف هو الله، فهو الحالف والمحلوف به ، كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا بنفسه، فهو المرسل والمرسل إليه والرسول . وكما قال ابن الفارض في قصيدته نظم السلوك:

لها صلواتي بالمقــــام أقيمــــــها وأشـــهد فيـــها أنها لي صلـــت

كلانا مصل واحـــد ساجد إلـــى حقيـــقته بالجمع في كل سجـــدة

وما كان بي صلى سواي ولـم تكـن صلاتي لغـيري في أدا كـل ركعـة

إلى أن قال :

وما زلت إياها وإياي لم تـــــزل ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبـــت

وقد رفعت تاء المخاطب بيننـــــا وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكـن منادى أجابت من دعاني ولبـــت

إلى رسولا كنت مـــــني مرســلا وذاتي بآياتـــي على استـدلـــــت

وأما المنقول عن عيسى ابن مريم ـ صلوات الله عليه ـ فهو كذب عليه، وهو كلام ملحد كاذب وضعه على المسيح، وهذا لم ينقله عنه مسلم ولا نصراني، فإنه لا يوافق قول النصارى، فإن قوله : إن الله اشتاق أن يرى ذاته المقدسة فخلق من نوره آدم، وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها، وإني أنا ذلك النور وآدم المرآة، فهذا الكلام ـ مع ما فيه من الكفر والإلحاد ـ متناقض، وذلك أن الله ـ سبحانه ـ يرى نفسه كما يسمع كلام نفسه، وهذا رسول الله ﷺ ـ وهو عبد مخلوق لله ـ قال لأصحابه :«إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من بين يدي»(١). فإذا كان المخلوق قد يرى ما خلفه ـ وهو أبلغ من رؤية نفسه ـ فالخالق تعالى كيف لا يرى نفسه ؟ وأيضا فإن شوقه إلى رؤية نفسه حتى خلق آدم، يقتضي أنه لم يكن في الأزل يرى نفسه حتى خلق آدم.

ثم ذلك الشوق إن كان قديما، كان ينبغي أن يفعل ذلك في الأزل، وإن كان محدثا فلابد من سبب يقتضى حدوثه، مع أنه قد يقال : الشوق أيضا صفة نقص ، ولهذا لم يثبت ذلك في حق الله تعالى ، وقد روى : « طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشوق» (٢) وهو حديث ضعيف.

وقوله :«فخلق من نوره آدم وجعله كالمرآة، وأنا ذلك النور وآدم هو المرآة» يقتضي أن

---

(١) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٤٤) ومسلم فى الصلاة (٤٢٣ / ١٠٨) وأحمد ٣/ ١٠٣، ١٢٥ .

(٢) تذكرة الموضوعات للفتنى (١٩٦) .

يكون آدم مخلوقا من المسيح، وهذا نقيض الواقع، فإن آدم خلق قبل المسيح، والمسيح خلق من مريم، ومريم من ذرية آدم فكيف يكون آدم مخلوقاً من ذريته؟

وإن قيل : المسيح هو نور الله فهذا القول ـ وإن كان من جنس قول النصارى ـ فهو شر من قول النصارى ، فإن النصارى يقولون : إن المسيح؛ هو الناسوت واللاهوت الذي هو الكلمة هي جوهر الابن . وهم يقولون : اتحاد اللاهوت والناسوت متجدد حين خلق بدن المسيح، لا يقولون : إن آدم خلق من المسيح ، إذ المسيح عندهم اسم اللاهوت والناسوت جميعا، وذلك يمتنع أن يخلق منه آدم، وأيضا فهم لا يقولون : إن آدم خلق من لاهوت المسيح.

وأيضا ، فقول القائل : إن آدم خلق من نور الله الذي هو المسيح: إن أراد به نوره الذي هو صفة لله ، فذاك ليس هو المسيح الذي هو قائم بنفسه، إذ يمتنع أن يكون القائم بنفسه صفة لغيرة، وإن أراد بنوره ما هو نور منفصل عنه، فمعلوم أن المسيح لم يكن شيئا موجودا منفصلا قبل خلق آدم، فامتنع على كل تقدير أن يكون آدم مخلوقا من نور الله الذي هو المسيح.

وأيضا فإذا كان آدم كالمرآة، وهو ينظر إلى ذاته المقدسة فيها ، لزم أن يكون الظاهر في آدم هو مثال ذاته، لا أن آدم هو ذاته، ولا مثال ذاته، ولا كذاته.

وحينئذ، فإن كان المراد بذلك أن آدم يعرف الله تعالى ، فيرى مثال ذاته العلمي في آدم، فالرب ـ تعالى ـ يعرف نفسه، فكان المثال العلمي إذا أمكن رؤيته كانت رؤيته للعلم المطابق له القائم بذاته أولى من رؤيته للعلم القائم بآدم، وإن كان المراد أن آدم نفسه مثال لله، فلا يكون آدم هو المرآة ، بل يكون هو كالمثال الذي في المرآة.

وأيضا، فتخصيص المسيح بكونه ذلك النور ، هو قول النصارى الذين يخصونه بأنه الله أو ابن الله ، وهؤلاء الاتحادية ضموا إلى قول النصارى قولهم بعموم الاتحاد ، حيث جعلوا في غير المسيح من جنس ما تقوله النصارى في المسيح.

وأما قول ابن الفارض :

وشاهد إذا استجليت ذاتــك من ترى بغير مــراء في المرآة الصقيلـة

أغيرك فيـــها لاح أم أنــت ناظر إليك بها عند انعكاس الأشعة؟

فهذا تمثيل فاسد، وذلك أن الناظر في المرآة يرى مثال نفسه، فيرى نفسه بواسطة المرآة لا يرى نفسه بلا واسطة، فقولهم بوحدة الوجود باطل، وبتقدير صحته ليس هذا مطابقا له.

وأيضا ،فهؤلاء يقولون بعموم الوحدة والاتحاد والحلول في كل شيء ،فتخصيصهم بعد هذا آدم أو نحو المسيح يناقض قولهم بالعموم، وإنما يخص المسيح ونحوه من يقول بالاتحاد الخاص ، كالنصارى والغالية من الشيعة، وجهال النساك ونحوهم.

وأيضا، فلو قدر أن الإنسان يرى نفسه في المرآة ، فالمرآة خارجة عن نفسه، فيرى نفسه أو مثال نفسه في غيره، والكون عندهم ليس فيه غير ولا سوى، فليس هناك مظهر مغاير للظاهر، ولا مرآة مغايرة للرائي.

وهم يقولون : إن الكون مظاهر الحق ، فإن قالوا : المظاهر غير الظاهر لزم التعدد وبطلت الوحدة، وإن قالوا : المظاهر هي الظاهر لم يكن قد ظهر شيء في شيء، ولا تجلى شيء في شيء، ولا ظهر شيء لشيء، ولا تجلى شيء لشيء، وكان قوله:

وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى

كلاما متناقضا؛ لأن هنا مخاطِبا ومخاطَبا ومرآة تستجلى فيها الذات، فهذه ثلاثة أعيان، فإن كان الوجود واحداً بالعين بطَل هذا الكلام ، وكل كلمة يقولونها تنقض أصلهم.

فصــــل

وأما ما ذكره من قول ابن إسرائيل : الأمر أمران: أمر بواسطة وأمر بغير واسطة، إلى آخره ـ فمضمونه أن الأمر الذي بواسطة هو الأمر الشرعي الديني، والذي بلا واسطة هو الأمر القدري الكوني ، وجعله أحد الأمرين بواسطة والآخر بغير واسطة كلام باطل، فإن الأمر الديني يكون بواسطة وبغير واسطة ، فإن اللّٰه كلم موسى وأمره بلا واسطة، وكذلك كلم محمداً ﷺ ، وأمره ليلة المعراج، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية.

وأما الأمر الكوني : فقول القائل: إنه بلا واسطة خطأ، بل الله ـ تعالى ـ خلق الأشياء بعضها ببعض، وأمر التكوين ليس هو خطابًا يسمعه المكون المخلوق، فإن هذا ممتنع؛ ولهذا قيل : إن كان هذا خطابا له بعد وجوده لم يكن قد كون بكن؛ بل كان قد كون قبل الخطاب، وإن كان خطابا له قبل وجوده فخطاب المعدوم ممتنع. وقد قيل في جواب هذا : إنه خطاب لمعلوم لحضوره في العلم، وإن كان معدوما في العين.

وأما ما ذكره الفقير فهو سؤال وارد بلا ريب.

وأما ما ذكره عن شيخه من أن آدم كان توحيده ظاهراً وباطنًا فكان قوله: لا تقرب

ظاهراً ، وكان أمره «بكل» باطنا.

فيقال : إن أريد بكونه قال: «كل» باطنا أنه أمره بذلك في الباطن أمر تشريع ودين، فهذا كذب وكفر. وإن كان أراد أنه خلق ذلك وقدره وكونه، فهذا قدر مشترك بين آدم وبين سائر المخلوقات، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وإن قيل : إن آدم شهد الأمر الكوني القدري وكان مطيعاً لله بامتثاله له، كما يقول هؤلاء : إن العارف الشاهد للقدر يسقط عنه الملام، فهذا مع أنه معلوم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام فهو كفر باتفاق المسلمين.

فيقال: الأمر الكوني يكون موجودًا قبل وجود المكون، لا يسمعه العبد، وليس امتثاله مقدوراً له، بل الرب هو الذي يخلق ما كونه بمشيئته وقدرته، والله ـ تعالى ـ ليس له شريك في الخلق والتكوين.

والعبد وإن كان فاعلاً بمشيئته وقدرته، والله خالق كل ذلك، فتكوين الله للعبد ليس هو أمرًا لعبد موجود في الخارج يمكنه الامتثال ، وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله خلقه بمشيئته وقدرته و**﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**[يس:٨٢]، فكل ما كان من المكونات فهو داخل في هذا الأمر.

وأكل آدم من الشجرة، وغير ذلك من الحوادث، داخل تحت هذا كدخول آدم ، فنفس أكل آدم هو الداخل تحت هذا الأمر كما دخل آدم.

فقول القائل : إنه قال لآدم في الباطن: «كل» مثل قوله: إنه قال للكافر: اكفر، وللفاسق: افسق، والله لا يأمر بالفحشاء، ولا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يوجد منه خطاب باطن، ولا ظاهر للكفار والفساق ، والعصاة بفعل الكفر والفسوق والعصيان، وإن كان ذلك واقعا بمشيئته، وقدرته وخلقه وأمره الكوني ، فالأمر الكوني ليس هو أمراً للعبد أن يفعل ذلك الأمر، بل هو أمر تكوين لذلك الفعل في العبد، أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال.

فهو ـ سبحانه ـ الذي خلق الإنسان هلوعا**﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾** [المعارج: ٢٠، ٢١]، وهو الذي جعل المسلمين مسلمين، كما قال الخليل : **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾** [البقرة:١٢٨] فهو ـ سبحانه ـ جعل العباد على الأحوال التي خلقهم عليها، وأمره لهم بذلك أمر تكوين، بمعنى أنه قال لهم: كونوا كذلك فيكونون كذلك، كما قال للجماد : كن فيكون.

فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماد والحيوان، وهو لا يفتقر إلى علم المأمور ولا إرادته ولا قدرته، لكن العبد قد يعلم ما جرى به القدر في أحواله، كما يعلم ما جرى به القدر في أحوال غيره، وليس في ذلك علم منه بأن الله أمره في الباطن، بخلاف ما أمره في الظاهر، بل أمره بالطاعة باطنا وظاهرًا، ونهاه عن المعصية باطنا وظاهراً، وقدر ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطنا وظاهرًا، وخلق العبد وجميع أعماله باطنا وظاهرًا، وكون ذلك بقوله: كن باطنا وظاهراً.

وليس في القدر حجة لابن آدم ولا عذر، بل القدر يؤمن به ولا يحتج به، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين، متناقض، فإن القدر إن كان حجة وعذرًا لزم ألا يلام أحد، ولا يعاقب ولا يقتص منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه ـ إذا ظلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته ـ ألا ينتصر من الظالم، ولا يغضب عليه، ولا يذمه، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة، لا يمكن أحد أن يفعله، فهو ممتنع طبعا محرم شرعا.

ولو كان القدر حجة وعذراً ، لم يكن إبليس ملوما ولا معاقبا، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ، ولا إقامة الحدود جائزاً، ولا قطع السارق ، ولا جلد الزاني ولا رجمه، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه.

ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلا في فطر الخلق وعقولهم، لم تذهب إليه أمة من الأمم، ولا هو مذهب أحد من العقلاء، الذين يطردون قولهم، فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد، لا في دنياه ولا آخرته، ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة، إن لم يكن أحدهما ملتزما مع الآخر نوعاً من الشرع، فالشرع نور الله في أرضه ، وعدله بين عباده.

لكن الشرائع تتنوع: فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل، وتارة لا تكون كذلك ، ثم المنزلة : تارة تبدل وتغير ـ كما غير أهل الكتاب شرائعهم ـ وتارة لا تغير ولا تبدل، وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل .

وأما القدر، فإنه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه، فإذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجده ، من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القدر، كما قال المشركون : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[الأنعام:١٤٨، ١٤٩]. فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين، وإنما يتبعون الظن.

والقوم لم يكونوا ممن يسوغ لكل أحد الاحتجاج بالقدر، فإنه لو خرب أحد الكعبة، أو شتم إبراهيم الخليل ، أو طعن في دينهم لعادوه وآذوه، كيف وقد عادوا النبي ﷺ على ما جاء به من الدين، وما فعله هو أيضا من المقدور.

فلو كان الاحتجاج بالقدر حجة لكان للنبي ﷺ وأصحابه. فإن كان كل ما يحدث في الوجود فهو مقدر، فالمحق والمبطل يشتركان في الاحتجاج بالقدر، إن كان الاحتجاج به صحيحاً ، ولكن كانوا يعتمدون على ما يعتقدونه من جنس دينهم وهم في ذلك يتبعون الظن ليس لهم به علم بل هم يخرصون.

وموسى لما قال لآدم: « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» فقال آدم عليه السلام ـ فيما قال لموسى ـ:« لم تلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين عاماً ؟ فحج آدم موسى»[1] ،لم يكن آدم ـ عليه السلام ـ محتجا على فعل ما نهى عنه بالقدر، ولا كان موسى ممن يحتج عليه بذلك فيقبله، بل آحاد المؤمنين لا يفعلون مثل هذا ، فكيف آدم وموسى؟

وآدم قد تاب مما فعل واجتباه ربه وهدى، وموسى أعلم بالله من أن يلوم من هو دون نبي على فعل تاب منه، فكيف بنبي من الأنبياء؟ وآدم يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يحتج إلى التوبة، ولم يجر ما جرى من خروجه من الجنة وغير ذلك، ولو كان القدر حجة لكان لإبليس وغيره، وكذلك موسى يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يعاقب فرعون بالغرق، ولا بنو إسرائيل بالصعقة وغيرها، كيف وقد قال موسى: ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي**﴾ [القصص:١٦]، وقال: ﴿ **أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾ [الأعراف :١٥٥] ، وهذا باب واسع.

وإنما كان لوم موسى لآدم من أجل المصيبة التي لحقتهم بآدم من أكل الشجرة؛ ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ واللوم لأجل المصيبة التي لحقت الإنسان نوع، واللوم لأجل الذنب الذي هو حق الله نوع آخر، فإن الأب لو فعل فعلا افتقر به حتى تضرر بنوه، فأخذوا يلومونه لأجل ما لحقهم من الفقر، لم يكن هذا كلومه لأجل كونه أذنب.

---

(١) البخارى فى القدر (٦٦١٤) ومسلم في القدر(٢٦٥٢/١٣ ـ ١٥) عن أبي هريرة .

والعبد مأمور أن يصبر على المقدور، ويطيع المأمور، وإذا أذنب استغفر، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[غافر:٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]. قال طائفة من السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

فمن احتج بالقدر على ترك المأمور، وجزع من حصول ما يكرهه من المقدور فقد عكس الإيمان والدين، وصار من حزب الملحدين المنافقين، وهذا حال المحتجين بالقدر.

فإن أحدهم إذا أصابته مصيبة عَظُمَ جَزَعُه وقَلَّ صَبْرُه، فلا ينظر إلى القدر ولا يسلم له، وإذا أذنب ذنباً أخذ يحتج بالقدر، فلا يفعل المأمور، ولا يترك المحظور، ولا يصبر على المقدور، ويدعي مع هذا أنه من كبار أولياء الله المتقين، وأئمة المحققين الموحدين، وإنما هو من أعداء الله الملحدين، وحزب الشيطان اللعين.

وهذا الطريق إنما يسلكه أبعد الناس عن الخير والدين والإيمان، تجد أحدهم أجبر الناس إذا قدر، وأعظمهم ظلما وعدوانا، وأذل الناس إذا قهرْ، وأعظمهم جزعا ووهنا، كما جربه الناس من الأحزاب البعيدين عن الإيمان بالكتاب،والمقاتلة من أصناف الناس.

والمؤمن إن قدر عدل وأحسن،وإن قهر وغلب صبر واحتسب،كما قال كعب بن زهير في قصيدته التي أنشدها للنبي ﷺ - التي أولها: بانت سعاد إلخ - في صفة المؤمنين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم   يوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وسئل بعض العرب عن شيء من أمر النبي ﷺ فقال: رأيته يغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر.

وقد قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦]،فذكر الصبر والتقوى في هذه المواضع الأربعة، فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور، والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحظور.

فمن رزق هذا وهذا فقد جمع له الخير، بخلاف من عكس فلا يتقى الله بل يترك طاعته متبعا لهواه ويحتج بالقدر،ولا يصبر إذا ابتلي ولا ينظر حينئذ إلى القدر، فإن هذا

حال الأشقياء ، كما قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

يقول : أنت إذا أطعت جعلت نفسك خالقا لطاعتك، فتنسى نعمة الله عليك أن جعلك مطيعا له، وإذا عصيت لم تعترف بأنك فعلت الذنب، بل تجعل نفسك بمنزلة المجبور عليه بخلاف مراده، أو المحرك الذي لا إرادة له ولا قدرة ولا علم، وكلاهما خطأ.

وقد ذكر أبو طالب المكي(١) عن سهل بن عبد الله التستري(٢) أنه قال:إذا عمل العبد حسنة فقال : أي رب، أنا فعلت هذه الحسنة، قال له ربه: أنا يسرتك لها وأنا أعنتك عليها. فإن قال : أي رب، أنت أعنتني عليها ويسرتني لها، قال له ربه: أنت عملتها وأجرها لك، وإذا فعل سيئة فقال: أي رب، أنت قدرت على هذه السيئة. قال له ربه: أنت اكتسبتها وعليك وزرها،فإن قال : أي رب، إني أذنبت هذا الذنب وأنا أتوب منه، قال له ربه : أنا قدرته عليك وأنا أغفره لك. وهذا باب مبسوط في غير هذا الموضع.

وقد كثر في كثير من المنتسبين إلى المشيخة والتصوف شهود القدر فقط، من غير شهود الأمر والنهي، والاستناد إليه في ترك المأمور وفعل المحظور، وهذا أعظم الضلال.

ومن طرد هذا القول والتزم لوازمه، كان أكفر من اليهود والنصارى والمشركين، لكن أكثر من يدخل في ذلك يتناقض ولا يطرد قوله.

وقول هذا القائل هو من هذا الباب فقوله : آدم كان أمره بكل باطنا فأكل، وإبليس كان توحيده ظاهراً فأمر بالسجود لآدم فرآه غيراً فلم يسجد فغير الله عليه وقال : ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾الآية [الأعراف:١٨]،فإن هذا ـ مع ما فيه من الإلحاد ـ كذب على آدم وإبليس فإن آدم اعترف بأنه هو الفاعل للخطيئة،وأنه هو الظالم لنفسه وتاب من ذلك، ولم يقل: إن الله ظلمني ، ولا إن الله أمرني في الباطن بالأكل، قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، وقال تعالى :﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]،وإبليس أصر واحتج بالقدر فقال : ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر:٣٩] .

(١) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي ، المكي المنشأ، العجمي الأصل ، شيخ الصوفية ، وكان مجتهداً في العبادة ، وحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوقين أضر من الخالق، فبدعه الناس وهجروه، توفى ٣٨٦هـ.[تاريخ بغداد ٣/ ٨٩، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٦].

(٢) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، كان صاحب كرامات ، ولم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع. ولد سنة ٢٠١هـ وتوفى سنة ٢٧٣هـ. [وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩].

وأما قوله : «رآه غيراً فلم يسجد» ، فهذا شر من الاحتجاج بالقدر، فإن هذا قول أهل الوحدة الملحدين، وهو كذب على إبليس، فإن إبليس لم يمتنع من السجود لكونه غيراً بل قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، ولم تؤمر الملائكة بالسجود لكون آدم ليس غيراً ، بل المغايرة بين الملائكة وآدم ثابتة معروفة، والله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

وكانت الملائكة وآدم معترفين بأن الله مباين لهم، وهم مغايرون له، و لهذا دعوه دعاء العبد ربه، فآدم يقول : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[الأعراف: ٢٣]، والملائكة تقول : ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[البقرة: ٣٢]، وتقول: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾الآية [غافر: ٧] ، وقد قال تعالي : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام: ١١٤].

فلو لم يكن هناك غيره لم يكن المشركون أمروه بعبادة غير الله ، ولا اتخاذ غير الله ولياً ولا حكماً، فلم يكونوا يستحقون الإنكار، فلما أنكر عليهم ذلك دل على ثبوت غير يمكن عبادته واتخاذه ولياً وحكماً، وأنه من فعل ذلك فهو مشرك بالله كما قال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُ(١) مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢] ، وأمثال ذلك.

وأما قول القائل : إن قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[آل عمران: ١٢٨] عين الإثبات للنبي ﷺ كقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] فهذا بناء على قول أهل الوحدة والاتحاد، وجعل معنى قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أن فعلك هو فعل الله لعدم المغايرة، وهذا ضلال عظيم من وجوه:

أحدها : أن قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ نزل في سياق قوله : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨].

---

(١) في المطبوعة : «ولا» والصواب ما أثبتناه.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يدعو على قوم من الكفار أو يلعنهم في القنوت[1]، فلما أنزل الله هذه الآية ترك ذلك، فعلم أن معناها إفراد الرب تعالى بالأمر، وأنه ليس لغيره أمر، بل إن شاء الله ـ تعالى ـ قطع طرفاً من الكفار، وإن شاء كَبَتَهُم فانقلبوا بالخسارة، وإن شاء تاب عليهم وإن شاء عذبهم.

وهذا كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف:١٨٨]، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الوجه الثاني: أن قوله :﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] لم يرد به أن فعلَ العبد هو فعل الله ـ تعالى ـ كما تظنه طائفة من الغالطين ـ فإن ذلك لو كان صحيحا لكان ينبغي أن يقال لكل أحد، حتي يقال للماشي : ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى، ويقال للراكب : وما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب، ويقال للمتكلم: ما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم، ويقال مثل ذلك للآكل والشارب، والصائم والمصلي ونحو ذلك.

وطرد ذلك يستلزم أن يقال للكفار: ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر، ويقال للكاذب: ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب.

ومن قال مثل هذا فهو كافر ملحد، خارج عن العقل والدين.

ولكن معنى الآية أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم، ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلى جميعهم فإنه إذ رماهم بالتراب وقال : « شاهت الوجوه»[2] لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم، فالله تعالى أوصل ذلك الرمي إليهم كلهم بقدرته. يقول : وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل ، فالرمي الذي أثبته له ليس هو الرمي الذي نفاه عنه، فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين، بل نفى عنه الإيصال والتبليغ، وأثبت له الحذف والإلقاء ، وكذلك إذا رمى سهما فأوصله الله إلى العدو إيصالا خارقاً للعادة، كان الله هو الذي أوصله بقدرته.

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٦٠) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٩/٣٠٧، ٣٠٨) .

(٢) مسلم في الجهاد والسير(١٧٧٧/ ٨١) وأحمد ١ / ٣٦٨ والدارمى فى السير ٢ / ٢٢٠ .

وقوله: « شاهت» أي : قبحت. انظر: النهاية ٢/ ٥١١.

الوجه الثالث: أنه لو فرض أن المراد بهذه الآية: أن الله خالق أفعال العباد فهذا المعنى حق ، وقد قال الخليل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨]، فالله هو الذي جعل المسلم مسلما، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج:١٩-٢١]، فالله هو الذي خلقه هلوعا، لكن ليس في هذا أن الله هو العبد، ولا أن وجود الخالق هو وجود المخلوق، ولا أن الله حال في العبد.

فالقول بأن الله خالق أفعال العباد حق ، والقول بأن الخالق حال في المخلوق أو وجوده وجود المخلوق باطل .

وهؤلاء ينتقلون من القول بتوحيد الربوبية إلى القول بالحلول والاتحاد، وهذا عين الضلال والإلحاد.

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح : ١٠] لم يرد به: أنك أنت الله، وإنما أراد :أنك أنت رسول الله ومبلغ أمره ونهيه، فمن بايعك فقد بايع الله، كما أن من أطاعك فقد أطاع الله، ولم يرد بذلك أن الرسول هو الله، ولكن الرسول أمر بما أمر الله به.

فمن أطاعه فقد أطاع الله، كما قال النبي ﷺ :«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني»(١) ومعلوم أن أميره ليس هو إياه.

ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أن المراد به: أن فعلك هو فعل الله، أو المراد: أن الله حال فيك ونحو ذلك ، فهو ـ مع جهله وضلاله بل كفره وإلحاده ـ قد سلب الرسول خاصيته وجعله مثل غيره .

وذلك أنه لو كان المراد به: كون الله فاعلا لفعلك، لكان هذا قدراً مشتركا بينه وبين سائر الخلق، وكان من بايع أبا جهل فقد بايع الله، ومن بايع مسيلمة الكذاب فقد بايع الله، ومن بايع قادة الأحزاب فقد بايع الله، وعلى هذا التقدير فالمبايع هو الله أيضا، فيكون الله قد بايع الله، إذ الله خالق لهذا ولهذا، وكذلك إذا قيل بمذهب أهل الحلول والوحدة والاتحاد، فإنه عام عندهم في هذا وهذا ، فيكون الله قد بايع الله .

وهذا يقوله كثيرمن شيوخ هؤلاء الحلولية الاتحادية، حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال

---

(١) البخاري في الجهاد (٢٩٥٧)، وفي الأحكام (٧١٣٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٥/ ٣٢، ٣٣)، والنسائي في البيعة (٤١٩٣)، وأحمد ٢/ ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٧٠، ٣١٣، ٣٤٢، ٤١٦، ٤٦٧، ٤٧١، ٥١١، كلهم عن أبي هريرة.

العدو يقول : أقاتل الله ؟ ما أقدر أن أقاتل الله، ونحو هذا الكلام الذي سمعناه من شيوخهم، وبينا فساده لهم وضلالهم فيه غير مرة.

وأما الحلول الخاص فليس هو قول هؤلاء ، بل هو قول النصارى ومن وافقهم من الغالية وهو باطل أيضا ، فإن الله ـ سبحانه ـ قال له : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن:١٩]، وقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء:١]، وقال : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] ، وقال : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:١٨، ١٩].

فقوله : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ بيِّن قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾؛ ولهذا قال : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠]. ومعلوم أن يد النبي ﷺ كانت مع أيديهم، كانوا يصافحونه ويصفقون على يده في البيعة، فعلم أن يد الله فوق أيديهم ليست هي يد النبي ﷺ ، ولكن الرسول عبد الله ورسوله، فبايعهم عن الله وعاهدهم وعاقدهم عن الله ، فالذين بايعوه بايعوا الله الذي أرسله وأمره ببيعتهم.

ألا ترى أن كل من وكل شخصا يعقد مع الوكيل ، كان ذلك عقداً مع الموكل ؟ ومن وكل نائبا له في معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنيبه، كانوا معاهدين لمستنيبه؟ ومن وكل رجلا في إنكاح أو تزويج، كان الموكل هو الزوج الذي وقع له العقد؟ وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾الآية [التوبة:١١١]، ولهذا قال في تمام الآية : ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠].

فتبين أن قول ذلك الفقير هو القول الصحيح، وأن الله إذا كان قد قال لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فإيش نكون نحن؟ وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

وأما قول القائل :

ما غبت عن القلب ولا عن عيني ... ما بينكم وبيننا من بين

(١) البخاري في الأنبياء(٣٤٤٥)، والدارمي في الرقائق ٢/ ٣٢٠، وأحمد ١/ ٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥،كلهم عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

فهذا قول مبنى على قول هؤلاء، وهو باطل متناقض، فإن مبناه على أنه يرى الله بعينه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[1].

وقد اتفق أئمة المسلمين على أن أحداً من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا ، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصة، مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ، والصحابة وأئمة المسلمين.

ولم يثبت عن ابن عباس، ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما، أنهم قالوا: إن محمداً رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية وإما تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله : « أتاني البارحة ربي في أحسن صورة» الحديث الذي رواه الترمذي وغيره[2]، إنما كان بالمدينة في المنام، هكذا جاء مفسراً.

وكذلك حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس وغيرهما ـ مما فيه رؤية ربه ـ إنما كان بالمدينة كماجاء مفسراً في الأحاديث ، والمعراج كان بمكة كما قال تعالى: **﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾** [الإسراء: ١]، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع. وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له : **﴿ لَن تَرَانِي ﴾** [الأعراف: ١٤٣]، وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء، كما قال تعالى : **﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾** [النساء: ١٥٣]، فمن قال: إن أحدًا من الناس يراه ، فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران،ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتاباً من السماء.

والناس في رؤية الله على ثلاثة أقوال :

فالصحابة والتابعونَ وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عيانًا ، وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه، لكن يرى في المنام ويحصل للقلوب ـ من المكاشفات والمشاهدات ـ ما يناسب حالها.

ومن الناس من تقوى مشاهدة قلبه، حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه، وهو غالط ،

---

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣١/١٦٩)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٥) وقال : «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٣٣) ، وقال : « وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلاً وقد رواه قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس» ، وأحمد ١ / ٣٦٨ .

ومشاهدات القلوب تحصل بحسب إيمان العبد، ومعرفته في صورة مثالية، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والقول الثاني: قول نفاة الجهمية: أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

والثالث: قول من يزعم أنه يرى في الدنيا والآخرة.

وحلولية الجهمية يجمعون بين النفي والإثبات، فيقولون: إنه لا يري في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه يري في الدنيا والآخرة، وهذا قول ابن عربي ـ صاحب الفصوص ـ وأمثاله؛ لأن الوجود المطلق الساري في الكائنات لا يرى، وهو وجود الحق عندهم.

ثم من أثبت الذات قال: يرى متجلياً فيها، ومن فرق بين المطلق والمعين قال: لا يرى إلا مقيداً بصورة.

وهؤلاء قولهم دائر بين أمرين: إنكار رؤية الله، وإثبات رؤية المخلوقات، ويجعلون المخلوق هو الخالق، أو يجعلون الخالق حالا في المخلوق، وإلا فتفريقهم بين الأعيان الثابتة في الخارج وبين وجودها هو قول من يقول: بأن المعدوم شيء في الخارج، وهو قول باطل، وقد ضموا إليه أنهم جعلوا نفس وجود المخلوق هو وجود الخالق.

وأما التفريق بين المطلق والمعين ـ مع أن المطلق لا يكون هو في الخارج مطلقاً ـ فيقتضي أن يكون الرب معدوما، وهذا هو جحود الرب وتعطيله، وإن جعلوه ثابتا في الخارج جعلوه جزءا من الموجودات، فيكون الخالق جزءا من المخلوق أو عرضا قائما بالمخلوق، وكل هذا مما يعلم فساده بالضرورة، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وأما تناقضه فقوله:

ما غبت عن القلب ولا عن عيني ما بينكم وبيننا من بين

يقتضي المغايرة، وأن المخاطَب غير المخاطِب، وأن المخاطَب له عين وقلب لا يغيب عنهما المخاطب، بل يشهده القلب والعين، و الشاهد غير المشهود.

وقوله:

ما بينكم وبيننا من بين

فيه إثبات ضمير المتكلم وضمير المخاطب، وهذا إثبات لاثنين، وإن قالوا: هذه مظاهر ومجالي، قيل: فإن كانت المظاهر والمجالي غير الظاهر والمتجلي، فقد ثبتت التثنية وبطلت الوحدة، وإن كان هو إياها فقد بطل التعدد، فالجمع بينهما تناقض.

وقول القائل :

فارق ظلم الطبع وكن متحدا   بالله وإلا فكل دعواك محال

إن أراد الاتحاد المطلق، فالمفارق هو المفارق ، وهو الطبع وظلم الطبع، وهو المخاطب بقوله : وكن متحداً بالله وهو المخاطب بقوله : كل دعواك محال وهو القائل هذا القول، وفي ذلك من التناقض ما لا يخفى.

وإن أراد الاتحاد المقيد، فهو ممتنع، لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإن كانا بعد الاتحاد اثنين ـ كما كانا قبل الاتحاد ـ فذلك تعدد وليس باتحاد.

وإن كانا استحالا إلى شيء ثالث ـ كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد، ونحو ذلك مما يثبته النصارى بقولهم في الاتحاد ـ لزم من ذلك أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته، كسائر ما يتحد مع غيره، فإنه لابد أن يستحيل .

وهذا ممتنع على الله ـ تعالى ـ ينزه عنه؛ لأن الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً ، والرب ـ تعالى ـ واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له، يمتنع العدم على شيء من ذلك؛ ولأن صفات الرب اللازمة له صفات كمال ، فعدم شيء منها نقص يتعالى الله عنه، ولأن اتحاد المخلوق بالخالق يقتضي أن العبد متصف بالصفات القديمة اللازمة لذات الرب، وذلك ممتنع على العبد المحدث المخلوق، فإن العبد يلزمه الحدوث والافتقار والذل.

والرب ـ تعالى ـ يلازمه القدم والغنى والعزة، وهو ـ سبحانه ـ قديم غني عزيز بنفسه، يستحيل عليه نقيض ذلك، فاتحاد أحدهما بالآخر يقتضي أن يكون الرب متصفا بنقيض صفاته من الحدوث والفقر والذل، والعبد متصفاً بنقيض صفاته من القدم، والغني الذاتي، والعز الذاتي، وكل ذلك ممتنع ، وبسط هذا يطول .

ولهذا سئل الجنيد عن التوحيد فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم، فبين أنه لابد من تمييز المحدث عن القديم.

ولهذا اتفق أئمة المسلمين على أن الخالق بائن عن مخلوقاته، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، بل الرب رب ، والعبد عبد: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا .وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[مريم: ٩٣ـ٩٥].

وإن كان المتكلم بهذا البيت أراد الاتحاد الوصفي ـ وهو أن يحب العبد ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويرضى بما يرضى الله ،ويغضب لما يغضب الله،ويأمر بما يأمر الله به، ،وينهى عما ينهى الله عنه ،ويوالي من يواليه الله ،ويعادي من يعاديه الله ، ويحب لله ويبغض لله، ويعطى لله ويمنع لله، بحيث يكون موافقا لربه تعالى ـ فهذا المعنى حق وهو حقيقة الإيمان وكماله،كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه»[1].

وهذا الحديث يحتج به أهل الوحدة وهو حجة عليهم من وجوه كثيرة:

منها: أنه قال : « من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة» فأثبت نفسه ووليه ومعادي وليه، وهؤلاء ثلاثة ، ثم قال : « وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه» فأثبت عبداً يتقرب إليه بالفرائض ثم بالنوافل ، وأنه لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه كان العبد يسمع به، ويبصر به، ويبطش به، ويمشي به.

وهؤلاء هو عندهم قبل أن يتقرب بالنوافل ، وبعده هو عين العبد وعين غيره من المخلوقات فهو بطنه وفخذه، لا يخصون ذلك بالأعضاء الأربعة المذكورة في الحديث، فالحديث مخصوص بحال مقيد ، وهم يقولون بالإطلاق والتعميم، فأين هذا من هذا؟

وكذلك قد يحتجون بما في الحديث الصحيح: « إن الله يتجلى لهم يوم القيامة ثم يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه. ثم يأتيهم في الصورة التي رأوه فيها في أول مرة فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا»[2] فيجعلون هذا حجة لقولهم: إنه يرى في الدنيا في كل صورة بل هو كل صورة.

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) وعبارة «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش ، وبي يسعى» لم ترد في الحديث، وذكرها ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٤٤.

(٢) البخاري في الرقاق (٦٥٧٣).

وهذا الحديث حجة عليهم في هذا أيضا ،فإنه لا فرق عندهم بين الدنيا والآخرة وهو عندهم ـ في الآخرة ـ المنكرون الذين قالوا: نعوذ بالله منك،هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا.

وهؤلاء الملاحدة يقولون: إن العارف يعرفه في كل صورة، فإن الذين أنكروه يوم القيامة في بعض الصور كان لقصور معرفتهم. وهذا جهل منهم ، فإن الذين أنكروه يوم القيامة ثم عرفوه لما تجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة هم الأنبياء والمؤمنون، وكان إنكارهم مما حمدهم ـ سبحانه وتعالى ـ عليه ، فإنه امتحنهم بذلك حتى لا يتبعوا غير الرب الذي عبدوه ؛ فلهذا قال في الحديث: « وهو يسألهم ويثبتهم وقد نادى المنادى: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون»[1].

ثم يقال لهؤلاء الملاحدة : إذا كان عندكم هو الظاهر في كل صورة، فهو المنكر وهو المنكر، كما قال بعض هؤلاء لآخر: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب ، وقال له الآخر: فمن هو الذي كذب؟

وذكر ابن عربي أنه دخل على مريد له في الخلوة وقد جاءه الغائط فقال : ما أبصر غيره أبول عليه؟ فقال له شيخه: فالذي يخرج من بطنك من أين هو ؟ قال : فرجت عني.

ومر شيخان منهم التلمساني هذا والشيرازي على كلب أجرب ميت، فقال الشيرازي للتلمساني: هذا أيضا من ذاته؟ فقال التلمساني: هل ثم شيء خارج عنها؟

وكان التلمساني قد أضل شيخاً زاهداً عابداً ببيت المقدس يقال له:أبو يعقوب المغربي المبتلى ، حتى كان يقول : الوجود واحد ، وهو الله ولا أرى الواحد، ولا أرى الله، ويقول: نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود ، والوجود واحد لا ثنوية فيه، ويجعل هذا الكلام له تسبيحا، يتلوه كما يتلو التسبيح.

وأما قول الشاعر :

إذ بلغ الصب الكمال من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فشاهد حقا حين يشهده الهوى بأن صلاة العارفين من الكفر

فهذا الكلام ـ مع أنه كفر ـ هو كلام جاهل لا يتصور ما يقول ، فإن الفناء والغيب: هو أن يغيب بالمذكور عن الذكر، وبالمعروف عن المعرفة، وبالمعبود عن العبادة، حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، وهذا مقام الفناء الذي يعرض لكثير من السالكين؛

(١) مسلم في الإيمان (١٨٣/٣٠٢) عن أبي سعيد الخدري.

لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة، بخلاف الفناء الشرعي، فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، فإن هذا تحقيق التوحيد والإيمان.

وأما النوع الثالث من الفناء ـ وهو الفناء عن وجود السوي بحيث يرى أن وجود الخالق هو وجود المخلوق ـ فهذا هو قول هؤلاء الملاحدة أهل الوحدة.

والمقصود هنا أن قوله : يغيب عن المذكور، كلام جاهل ، فإن هذا لا يحمد أصلا، بل المحمود أن يغيب بالمذكور عن الذكر، لا يغيب عن المذكور في سطوات الذكر، اللهم إلا أن يريد أنه غاب عن المذكور فشهد المخلوق، وشهد أنه الخالق ولم يشهد الوجود إلا واحدًا، ونحو ذلك من المشاهد الفاسدة، فهذا شهود أهل الإلحاد لا شهود الموحدين، ولعمري إن من شهد هذا الشهود الإلحادي فإنه يري صلاة العارفين من الكفر.

وأما قول القائل :

الكون يناديك أما تسمعني   من ألف أشتاتي ومن فرقني ؟

انظر لتراني منظراً معتبراً   ما في سوى وجود من أوجدني

فهو من أقوال هؤلاء الملاحدة، وأقوالهم كفر متناقض باطل في العقل والدين، فإنه إذا لم يكن فيه إلا وجود من أوجده، كان ذلك الوجود هو الكون المنادى، وهو المخاطب المنادى، وهو الأشتات المؤلفة المفرقة، وهو المخاطب الذي قيل له : انظر.

وحينئذ يكون الوجود الواجب القديم الأزلي، قد أوجد نفسه وفرقها وألفها . فهذا جمع بين النقيضين، فإن الواجب بنفسه لا يكون مفعولا مصنوعا، والشيء الواحد لا يكون خالقا مخلوقا، قديما محدثا ، واجبا بنفسه واجبا بغيره، فإن هذا جمع بين النقيضين.

فالواجب هو الذي لا تقبل ذاته العدم، والممكن هو الذي تقبل ذاته العدم، فيمتنع أن يكون الشيء الواحد قابلا للعدم غير قابل للعدم، والقديم هو الذي لا أول لوجوده، والمحدث هو الذي له أول ، فيمتنع كون الشيء الواحد قديما محدثا.

ولولا أنه قد علم مرادهم بهذا القول، لأمكن أن يراد بذلك ما في سوى الوجود الذي خلقه من أوجدني، وتكون إضافة الوجود إلى الله إضافة الملك، لكن قد علم أنه لم يرد هذا؛ ولأن هذه العبارة لا تستعمل في هذا المعنى، وإنما يراد بوجود الله وجود ذاته لا وجود مخلوقاته، وهكذا قول القائل:

ذات وجود الـــــــ ـكون للخلق شهـــود
أن ليس لموجـــــــو د سوى الحق وجـــود

مراده به أن وجود الكون هو نفس وجود الحق ، وهذا هو قول أهل الوحدة ، وإلا فلو أراد أن وجود كل موجود من المخلوقات هو من الحق تعالى ـ فليس لشيء وجود من نفسه، وإنما وجوده من ربه، والأشياء باعتبار أنفسها لا تستحق سوى العدم، وإنما حصل لها الوجود من خالقها وبارئها، فهي دائمة الافتقار إليه لا تستغني عنه لحظة، لا في الدنيا ولا في الآخرة ـ لكان قد أراد معنى صحيحا وهو الذي عليه أهل العقل والدين، من الأولين والآخرين.

وهؤلاء القائلون بالوحدة قولهم متناقض ؛ ولهذا يقولون : الشيء ونقيضه ، وإلا فقوله : منه وإلا علاه يبدي ويعيد، يناقض الوحدة ، فمن هو البادي والعائد منه وإليه إذا لم يكن إلا واحدًا. وقوله:

وما أنا في طراز الكون شيء لأني مثل ظل مستحيـــــل

يناقض الوحدة ؛ لأن الظل مغاير لصاحب الظل، فإذا شبه المخلوق بالظل لزم إثبات اثنين، كما إذا شبهه بالشعاع، فإن شعاع الشمس ليس هو نفس قرص الشمس، وكذلك إذا شبهه بضوء السراج وغيره.

والنصارى تشبه الحلول والاتحاد بهذا.

وقلت لمن حضرني منهم وتكلم بشيء من هذا : فإذا كنتم تشبهون المخلوق بالشعاع الذي للشمس والنار، والخالق بالنار والشمس ، فلا فرق في هذا بين المسيح وغيره، فإن كل ما سوى الله ـ على هذا ـ هو بمنزلة الشعاع والضوء، .فما الفرق بين المسيح وبين إبراهيم وموسى ؟ بل ما الفرق بينه وبين سائر المخلوقات على هذا ؟

وجعلت أردد عليه هذا الكلام، وكان في المجلس جماعة حتى فهمه فهما جيداً، وتبين له وللحاضرين أن قولهم باطل لا حقيقة له، وأن ما أثبتوه للمسيح إما ممتنع في حق كل أحد وإما مشترك بين المسيح وغيره، وعلى التقديرين فتخصيص المسيح بذلك باطل.

وذكرت له : أنه ما من آية جاء بها المسيح إلا وقد جاء موسى بأعظم منها، فإن المسيح ﷺ وإن كان جاء بإحياء الموتى فالموتى الذين أحياهم الله على يد موسى أكثر، كالذين قالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ ثم بعثهم الله بعد موتهم . ما قال : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[البقرة: ٥٥، ٥٦] ، وكالذي ضرب ببعض البقرة ،

وغير ذلك.

وقد جاء بإحياء الموتى غير واحد من الأنبياء والنصارى يصدقون بذلك.

وأما جعل العصا حيّة، فهذا أعظم من إحياء الميت ، فإن الميت كانت فيه حياة فردت الحياة إلى محل كانت فيه الحياة، وأما جعل خشبة يابسة حيوانا تبتلع العصِيّ والحبال، فهذا أبلغ في القدرة ، وأنذر، فإن الله يحيي الموتي، ولا يجعل الخشب حيات.

وأما إنزال المائدة من السماء، فقد كان ينزل على قوم موسى كل يوم من المن والسلوى، وينبع لهم من الحجر من الماء ما هو أعظم من ذلك، فإن الحلوى أو اللحم دائما هو أجل في نوعه وأعظم في قدره مما كان على المائدة، من الزيتون والسمك وغيرهما.

وذكرت له نحوا من ذلك ، مما يبين أن تخصيص المسيح بالاتحاد ودعوى الإلهية ليس له وجه، وأن سائر ما يذكر فيه إما أن يكون مشتركا بينه وبين غيره من المخلوقات، وإما أن يكون مشتركا بينه وبين غيره من الأنبياء والرسل، مع أن بعض الرسل كإبراهيم وموسى، قد يكون أكمل في ذلك منه، وأما خلقه من امرأة بلا رجل، فخلق حواء من رجل بلا امرأة أعجب من ذلك، فإنه خلق من بطن امرأة، وهذا معتاد ، بخلاف الخلق من ضلع رجل، فإن هذا ليس بمعتاد.

فما من أمر يذكر في المسيح ﷺ إلا وقد شركه فيه أو فيما هو أعظم منه غيره من بني آدم، فعلم قطعا أن تخصيص المسيح باطل ، وأن ما يدعونه له إن كان ممكنا فلا اختصاص له به ، وإن كان ممتنعا فلا وجود له فيه ولا في غيره.

ولهذا قال هؤلاء الاتحادية: إن النصارى إنما كفروا بالتخصيص ، وهذا أيضا باطل ، فإن في الاتحاد عموماً وخصوصا .

والمقصود هنا : أن تشبيه الاتحادية أحدهم بالظل المستحيل يناقض قولهم بالوحدة، وكذلك قول الآخر:

أحن إليه وهو قلبي وهل يـــرى ... سواي أخو وجد يحن لقلبه؟

ويحجب طرفي عنه إذ هو ناظري ... وما بعده إلا لإفراط قربـــــه

هو - مع ما قصده به من الكفر والاتحاد - كلام متناقض، فإن حنين الشيء إلى ذاته متناقض ؛ ولهذا قال : وهل يرى سواي أخو وجد يحن لقلبه؟

وقوله: وما بعده إلا لإفراط قربه. متناقض، فإنه لا قرب ولا بعد عند أهل الوحدة،

فإنها تقتضي اثنين يقرب أحدهما من الآخر، والواحد لا يقرب من ذاته ولا يبعد من ذاته.

وأما قول القائل: التوحيد لا لسان له والألسنة كلها لسانه، فهذا ـ أيضاً ـ من قول أهل الوحدة، وهو ـ مع كفره ـ قول متناقض؛ فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لسان الشرك لا يكون له لسان التوحيد، وأن أقوال المشركين الذين قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، والذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣]، والذين قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٣، ٥٤]، والذين قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨]، ونحو هؤلاء ليس هذا هو لسان التوحيد.

وأما تناقض هذا القول على أصلهم، فإن الوجود إن كان واحداً كان إثبات التعدد تناقضا، فإذا قال القائل: الوجود واحد، وقال الآخر: ليس بواحد، بل متعدد، كان هذان القولان متناقضين، فيمتنع أن يكون أحدهما هو الآخر.

وإذا قال قائل: الألسنة كلها لسانه، فقد صرح بالتعدد، في قوله: الألسنة كلها، وذلك يقتضى ألا يكون هذا اللسان هو هذا اللسان، فثبت التعدد وبطلت الوحدة.

وكل كلام لهؤلاء ولغيرهم فإنه ينقض أصلهم، فإنهم مضطرون إلى إثبات التعدد.

فإن قالوا: الوجود واحد، بمعنى أن الموجودات اشتركت في مسمى الوجود فهذا صحيح، لكن الموجودات المشتركات في مسمى الواحد لا يكون وجود هذا عين وجود هذا، بل هذا اشتراك في الاسم العام الكلي، كالاشتراك في الأسماء التي يسميها النحاة اسم الجنس، ويقسمها المنطقيون إلى جنس، ونوع، وفصل، وخاصة، وعرض عام.

فالاشتراك في هذه الأسماء هو مستلزم لتباين الأعيان، وكون أحد المشتركين ليس هو الآخر. وهذا مما يعلم به أن وجود الحق مباين لوجود المخلوقات، فإنه أعظم من مباينة هذا الموجود لهذا الموجود، فإذا كان وجود الفلك مبايناً مخالفاً لوجود الذرة والبعوضة، فوجود الحق ـ تعالى ـ أعظم مباينة لوجود كل مخلوق من مباينة وجود ذلك المخلوق لوق آخر.

رغيره مما يبين بطلان قول ذلك الشيخ حيث قال: لا يعرف التوحيد إلا الواحد، ح العبارة عن التوحيد، وذلك أنه لا يعبر عنه إلا بغير، ومن أثبت غيراً فلا توحيد

فإن هذا الكلام ـ مع كفره ـ متناقض، فإن قوله: لا يعرف التوحيد إلا واحد يقتضي

أن هناك واحداً يعرفه وأن غيره لا يعرفه، هذا تفريق بين من يعرفه ومن لا يعرفه، وإثبات اثنين أحدهما يعرفه والآخر لا يعرفه، وإثبات للمغايرة بين من يعرفه ومن لا يعرفه، فقوله بعد هذا : ومن أثبت غيراً فلا توحيد له يناقض هذا.

وقوله :إنه لا تصح العبارة عن التوحيد كفر بإجماع المسلمين، فإن الله قد عبر عن توحيده، ورسوله عبر عن توحيده، والقرآن مملوء من ذكر التوحيد ، بل إنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب بالتوحيد .

وقد قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ولو لم يكن يصح عنه عبارة لما نطق به أحد،

وأفضل ما نطق به الناطقون هو التوحيد ، كما قال النبي ﷺ :«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» [1]،وقال:«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[2].

لكن التوحيد الذي يشير إليه هؤلاء الملاحدة ـ وهو وحدة الوجود ـ أمر ممتنع في نفسه، لا يتصور تحققه في الخارج، فإن الوحدة العينية الشخصية تمتنع في الشيئين المتعددين، ولكن الوجود واحد في نوع الوجود، بمعنى: أن اسم الموجود اسم عام يتناول كل أحد ، كما أن اسم الجسم والإنسان ونحوهما يتناول كل جسم وكل إنسان، وهذا الجسم ليس هو ذاك، وهذا الإنسان ليس هو ذاك، وكذلك هذا الوجود ليس هو ذاك.

وقوله : لا يعبر عنه إلا بغير ، يقال له: أولا: التعبير عن التوحيد يكون بالكلام، والله يعبر عن توحيده بكلامه، فكلام الله وعلمه وقدرته وغير ذلك من صفاته، لا يطلق عليه عند السلف والأئمة القول بأنه الله، ولا يطلق عليه بأنه غير الله؛ لأن لفظ الغير قد يراد به ما يباين غيره، وصفات الله لا تباينه، ويراد به ما لم يكن إياه، وصفة الله ليست إياه، ففي أحد الاصطلاحين يقال: إنه غيره، وفي الاصطلاح الآخر لا يقال: إنه غير.

فلهذا لا يطلق أحدهما إلا مقروناً ببيان المراد؛ لئلا يقول المبتدع: إذا كانت صفة الله غيره فكل ما كان غير الله فهو مخلوق ، فيتوسل بذلك إلى أن يجعل علم الله وقدرته وكلامه ليس هو صفة قائمة به، بل مخلوقة في غيره، فإن هذا فيه من تعطيل صفات

---

(١) ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) عن جابر بن عبد الله.

(٢) البخاري في الجنائز معلقا (الفتح ١٠٩/٣) ، وأبو داود في الجنائز (٣١١٦) عن معاذ بن جبل.

الخالق وجحد كماله ما هو من أعظم الإلحاد، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف والأئمة تكفيرا مطلقًا، وإن كان الواحد المعين لا يكفر إلا بعد قيام الحجة التي يكفر تاركها.

وأيضا، فيقال لهؤلاء الملاحدة: إن لم يكن في الوجود غيره بوجه من الوجوه لزم أن يكون كلام الخلق، وأكلهم وشربهم، ونكاحهم وزناهم، وكفرهم وشركهم وكل ما يفعلونه من القبائح هو نفس وجود الله .

ومعلوم أن من جعل هذا صفة لله كان من أعظم الناس كفراً وضلالا، فمن قال: إنه عين وجود الله كان أكفر وأضل ، فإن الصفات والأعراض لا تكون عين الموجود القائم بنفسه، وأئمة هؤلاء الملاحدة ـ كابن عربي ـ يقول :

وكل كلام في الوجود كلامه　　　سواء علينا نثره ونظامه

فيجعلون كلام المخلوقين ـ من الكفر والكذب وغير ذلك ـ كلاماً لله، وأما هذا الملحد فزاد على هؤلاء، فجعل كلام الخلق وعبادتهم نفس وجوده، لم يجعل ذلك كلاماً له، بل نفى أن يكون هذا كلاماً له لئلا يثبت غيراً له.

وقد علم بالكتاب والسنة والإجماع ، وبالعلوم العقلية الضرورية إثبات غير الله تعالى، وأن كل ما سواه من المخلوقات فإنه غير الله تعالى ، ليس هو الله ولا صفة من صفات الله .

ولهذا أنكر الله على من عبد غيره ـ ولو لم يكن هناك غير لما صح الإنكار ـ قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾[الزمر: ٦٤] ،وقال تعالى : ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[الأنعام: ١٤]، وقال تعالى : ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [فاطر:٣]، وقال تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وكذلك قول القائل : وجدت المحبة غير المقصود ؛ لأنها لا تكون إلا من غير لغير، وغير ما ثم ، ووجدت التوحيد غير المقصود ؛ لأن التوحيد ما يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عبدا ولا معبودًا ـ هو كلام فيه من الكفر والإلحاد والتناقض ما لا يخفى.

فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين، ومحبتهم له، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[المائدة:

٥٤]، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[التوبة: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤، ٧]، ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد بِهِنَّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(١).

وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء ـ عليه السلام.

وأول من أظهر ذلك في الإسلام الْجَعْد بن درْهم(٢)، فَضَحَّى به خالد بن عبد الله القَسْرِي يوم الأضحى بواسط، وقال: أيها الناس، ضَحُّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً! ثم نزل فذبحه.

وقوله: المحبة ما تكون إلا من غير لغير، وغير ما ثم كلام باطل من كل وجه، فإن قوله: لا تكون إلا من غير، ليس بصحيح، فإن الإنسان يحب نفسه وليس غيراً لنفسه، والله يحب نفسه، وقوله: ما ثم غير، باطل؛ فإن المخلوق غير الخالق، والمؤمنون غير الله وهم يحبونه، فالدعوى باطلة، فكل واحدة من مقدمتي الحجة باطلة ـ قوله: لا تكون إلا من غير لغير وقوله: غير ما ثم ـ فإن الغير موجود، والمحبة تكون من المحب لنفسه ولهذا كثير من الاتحادية يناقضه في هذا القول ويقول كما قال ابن الفارض.

وكذلك قوله: التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عابداً ولا معبودًا كلا المقدمتين باطل، فإن التوحيد يكون من الله لنفسه، فإنه يوحد نفسه بنفسه كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: ١٨]، والقرآن مملوء من توحيد الله لنفسه، فقد وحد نفسه بنفسه، كقوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[النحل: ٥١]، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

---

(١) البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣/٦٧)، والنسائي في الإيمان(٤٩٨٨)، كلهم عن أنس بن مالك.

(٢) الجعد بن درهم، من الموالي، مبتدع، له أخبار في الزندقة. وقال الذهبي فيه: تابعي مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر نحو عام ٧٣٦م. [ميزان الاعتدال ٢/ ١٣٣، ١٣٤، والأعلام ٢/ ١٢٠].

إلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وأمثال ذلك.

وأما المقدمة الثانية : قوله: إن الناس لو أنصفوا ما رأوا عابداً ولا معبوداً ـ مع أنه غاية في الكفر والإلحاد ـ كلام متناقض، فإنه إذا لم يكن ثم عابد ولا معبود بل الكل واحد، فمن هم الذين لا ينصفون؟ إن كانوا هم الله؟ فيكون الله هو الذي لا ينصف، وإن كانوا غير الله فقد ثبت الغير، ثم إذا فسروه على كفرهم وقالوا: إن الله هو الذي لا ينصف ، وهو الذي يأكل ، ويشرب ويكفر ، كما يقول ذلك كثير منهم، مثل ما قال بعضهم لشيخه: الفقير إذا صح أكل بالله، فقال له الآخر: الفقير إذا صح أكل الله.

وقد صرح ابن عربي وغيره من شيوخهم بأنه هو الذي يجوع ويعطش، ويمرض ويبول، ويَنْكَح ويُنْكِح، وأنه موصوف بكل نقص وعيب؛ لأن ذلك هو الكمال عندهم.

كما قال في الفصوص: فالعلى بنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستقصى به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفا وعقلا وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلا وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة. وقال : ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص والذم؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق؟ فهي كلها من أولها إلى آخرها صفات للعبد، كما أن صفات العبد من أولها إلى آخرها صفات الله تعالى .

وهذا المتكلم بمثل هذا الكلام يتناقض فيه، فإنه يقال له : فأنت الكامل في نفسك، الذي لا ترى عابداً ولا معبوداً نعاملك بموجب مذهبك فتضرب وتوجع، وتهان وتُصْفَع، وإذا تَظَلَّم ممن فعل به ذلك واشتكى وصاح منه وبكى، قيل له : ما ثم غير ، ولا عابد ولا معبود، فلم يفعل بك هذا غيرك، بل الضارب هو المضروب والشاتم هو المشتوم، والعابد هو المعبود. فإن قال : تظلم من نفسه واشتكي من نفسه، قيل له أيضا : فقل: عبد نفسه، فإذا أثبت ظالما ومظلوما وهما واحد ، قيل له : فأثبت عابداً ومعبوداً وهما واحد.

ثم يقال له : هذا الذي يضحك ويضرب، هو نفس الذي يبكي ويصيح؟ وهذا الذي شبع وروى، هو نفس هذا الذي جاع وعطش؟ فإن اعترف بأنه غيره أثبت المغايرة، وإذا أثبت المغايرة بين هذا وهذا، فبين العابد والمعبود أولى وأحرى.

وإن قال: بل هو هو، عومل معاملة السوفسطائية، فإن هذا القول من أقبح السفسطة. فيقال : فإذا كان هو هو، فنحن نضربك ونقتلك ، والشيء قتل نفسه وأهلك نفسه.

والإنسان قد يظلم نفسه بالذنوب فيقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣] لكون نفسه أمرته بالسوء، والنفس أمارة بالسوء، لكن جهة أمرها ليست جهة فعلها، بل لابد من نوع تعدد، إما في الذات وإما في الصفات، وكل أحد يعلم بالحس والاضطرار أن هذا الرجل الذي ظلم ذاك ليس هو إياه، وليس هو بمنزلة الرجل الذي ظلم نفسه. وإذا كان هذا في المخلوقين ، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقين من هذا لهذا، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام، ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق، وأفضل أهل الطريق، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين، وأكابر مشايخ الدين ـ لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال ، وإيضاح هذا الضلال.

ولكن يعلم أن الضلال لا حد له ، وأن العقول إذا فسدت لم يبق لضلالها حد معقول، فسبحان من فرق بين نوع الإنسان، فجعل منه من هو أفضل العالمين ، وجعل منه من هو شر من الشياطين، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء، كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب، هو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين، الذين يفسدون الدنيا والدين.

والمقصود هنا : رد هذه الأقوال ، وبيان الهدى من الضلال.

وأما توبة من قالها وموته على الإسلام، فهذا يرجع إلى الملك العلام، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن الممكنات أنه قد تاب على أصحاب هذه المقالات، والله تعالى غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب، والذنب وإن عظم، والكفر وإن غلظ وجسم، فإن التوبة تمحو ذلك كله ، والله ـ سبحانه ـ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، بل يغفر الشرك وغيره للتائبين، كما قال تعالي : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] ،وهذه الآية عامة مطلقة؛ لأنها للتائبين.

وأما قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] فإنها مقيدة خاصة، لأنها في حق غير التائبين ، لا يغفر لهم الشرك، وما دون الشرك معلق بمشيئة الله تعالى .

وأما الحكاية المذكورة عن الذي قال : إنه التقم العالم كله، وأراد أن يقول: أنا الحق

وأختها التي قيل فيها : إن الإلهية لا يدعيها إلا أجهل خلق الله أو أعرف خلق الله ـ هو من هذا الباب.

والفقير الذي قال : ما خلق الله أقل عقلا ممن ادعى أنه إله ـ مثل فرعون ونمروذ وأمثالهما ـ هو الذي أصاب ونطق بالصواب، وسدد في الخطاب.

ولكن هؤلاء الملاحدة يعظمون فرعون وأمثاله، ويدعون أنهم خير من موسى وأمثاله، حتى إنه حدثني بهاء الدين عبد السيد الذي كان قاضي اليهود وأسلم وحسن إسلامه ـ رحمه الله ـ وكان قد اجتمع بالشيرازي أحد شيوخ هؤلاء ، ودعاه إلى هذا القول ، وزينه له فحدثني بذلك، فبينت له ضلال هؤلاء وكفرهم، وأن قولهم من جنس قول فرعون، فقال لي : إنه لما دعاه حسن الشيرازي إلى هذا القول قال له : قولكم هذا يشبه قول فرعون ، فقال : نعم، ونحن على قول فرعون، وكان عبد السيد إذ ذاك لم يسلم بعد، فقال: أنا لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون، قال له: ولم ؟ قال: لأن موسى أغرق فرعون. فانقطع، فاحتج عليه بالنصر القدري الذي نصر الله به موسى لا بكونه كان رسولا صادقا. قلت لعبد السيد : وأقر لك أنه على قول فرعون ؟ قال: نعم، قلت: فمع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة، أنا كنت أريد أن أبين لك أن قولهم هو قول فرعون، فإذا كان قد أقر بهذا فقد حصل المقصود.

فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الباطل ، قد نبهنا على بعض ما به يعرف معناها وأنه باطل ، والواجب إنكارها، فإن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى، الذي لا يضل به المسلمون، لاسيما وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى وفرعون، ومن عرف معناها واعتقدها كان من المنافقين، الذين أمر الله بجهادهم بقوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣، التحريم:٩]. والنفاق إذا عظم كان صحابه شراً من كفار أهل الكتاب، وكان في الدرك الأسفل من النار.

وليس لهذه المقالات وجه سائغ ، ولو قدر أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صحيحاً فإنما يحمل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها، وهؤلاء قد عرف مقصودهم ، كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة، ولهم في ذلك كتب مصنفة، وأشعار مؤلفة، وكلام يفسر بعضه بعضا.

وقد علم مقصودهم بالضرورة ، فلا ينازع في ذلك إلا جاهل لا يلفت إليه، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها، وخيف عليه أن يحسن الظن بها أو أن

يضل ، فإن ضررها على المسلمين أعظم من ضرر السموم التي يأكلونها ولا يعرفون أنها سموم، وأعظم من ضرر السُّرّاق والخونة، الذين لا يعرفون أنهم سراق وخونة.

فإن هؤلاء غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله، وهذه مصيبة في دنياه قد تكون سببا لرحمته في الآخرة، وأما هؤلاء فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء الله وأوليائه، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله، وهم في الباطن من المحاربين لله ورسوله، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين، في قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمنا وليا لله، فيصير منافقا عدوا لله.

ولقد ضربت لهم مرة مثلا بقوم أخذوا طائفة من الحجاج ليحجوا بهم، فذهبوا بهم إلى قبرص لينصروهم، فقال لي بعض من كان قد انكشف له ضلالهم من أتباعهم: لو كانوا يذهبون بنا إلى قبرص لكانوا يجعلوننا نصارى، وهؤلاء كانوا يجعلوننا شراً من النصارى، والأمر كما قاله هذا القائل.

وقد رأيت وسمعت عمن ظن هؤلاء من أولياء الله، وأن كلامهم كلام العارفين المحققين من هو من أهل الخير والدين ما لا أحصيهم، فمنهم من دخل في إلحادهم وفهمه وصار منهم، ومنهم من كان يؤمن بما لا يعلم، ويعظم ما لا يفهم، ويصدق بالمجهولات.

وهؤلاء هم أصلح الطوائف الضالين، وهم بمنزلة من يعظم أعداء الله ورسوله، ولا يعلم أنهم أعداء الله ورسوله، ويوالى المشركين وأهل الكتاب، ظانا أنهم من أهل الإيمان وأولي الألباب ، وقد دخل بسبب هؤلاء الجهال المعظمين لهم من الشر على المسلمين، ما لا يحصيه إلا رب العالمين.

وهذا الجواب لم يتسع لأكثر من هذا الخطاب، والله أعلم بالصواب.

وسئل :

ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين، و هداة المسلمين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ في الكلام الذي تضمنه كتاب « فصوص الحكم» وما شاكله من الكلام الظاهر في اعتقاد قائله: أن الرب والعبد شيء واحد، ليس بينهما فرق ، وأن ما ثمَّ غير ، كمن قال في شعره :

أنا وهو واحد ما معنا شـــىء

ومثل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا

ومثل :

إذا كنـــت ليلى وليــــلى أنا

وكقول من قال : لو عرف الناس الحق مــــا رأوا عابداً ولا معبـــــــوداً.

وحقيقة هذه الأقوال لم تكن في كتاب الله عز وجل ، ولا في السنة ، ولا في كلام الخلفاء الراشدين، والسلف الصالحين.

ويدعي القائل لذلك: أنه يحب الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى يقول : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، والله سبحانه وتعالى ذكر خير خلقه بالعبودية في غير موضع ، فقال تعالى عن خاتم رسله ﷺ : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]، وكذلك قال في حق عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وقال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾الآية [النساء: ١٧٢] .

فالنصارى كفار بقولهم مثل هذا القول في عيسى بمفرده، فكيف بمن يعتقد هذا الاعتقاد : تارة في نفسه، وتارة في الصور الحسنة من النسوان والمردان؟!

ويقولون : إن هذا الاعتقاد له سر خفي ، وباطن حق، وإنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص الخلق.

فهل في هذه الأقوال سر خفي يجب على من يؤمن بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله

أن يجتهد على التمسك بها والوصول إلى حقائقها ـ كما زعم هؤلاء ـ أم باطنها كظاهرها؟ وهذا الاعتقاد المذكور هو حقيقة الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به ، أم هو الكفر بعينه؟

وهل يجب على المسلم أن يتبع في ذلك قول علماء المسلمين ، ورثة الأنبياء والمرسلين، أم يقف مع قول هؤلاء الضالين المضلين؟ وإن ترك ما أجمع عليه أئمة المسلمين، ووافق هؤلاء المذكورين، فماذا يكون من أمر الله له يوم الدين؟

أفتونا مأجورين ، أثابكم الله الكريم.

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية ـ رحمه الله ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام: فإنه كفر باطنا وظاهرًا، وباطنه أقبح من ظاهره. وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة، وأهل الحلول، وأهل الاتحاد. وهم يسمون أنفسهم المحققين.

وهؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقاً ، كما هو مذهب صاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله: مثل ابن سبعين، وابن الفارض، والقونوي، والششتري، والتلمساني، وأمثالهم ممن يقول : إن الوجود واحد،ويقولون : إن وجود المخلوق هو وجود الخالق، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر، بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق.

ويقولون : إن وجود الأصنام هو وجود الله، وإن عبَّاد الأصنام ما عبدوا شيئا إلا الله.

ويقولون : إن الحق يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذم.

ويقولون : إن عبّاد العجل ما عبدوا إلا الله، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل، وإن موسى كان ـ بزعمهم ـ من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء، بل يرونه عين كل شيء ، وأن فرعون كان صادقاً في قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، بل هو عين الحق، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص.

ويقول أعظم محققيهم: إن القرآن كله شرك؛ لأنه فرق بين الرب والعبد، وليس التوحيد إلا في كلامنا.

فقيل له : فإذا كان الوجود واحداً ، فلم كانت الزوجة حلالا والأم حراماً؟ فقال : الكل عندنا واحد، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام. فقلنا: حرام عليكم.

وكذلك ما في شعر ابن الفارض في قصيدته التي سماها نظم السلوك كقوله :

لها صلواتي بالمقـام أقيمـهـا وأشهـد فيها أنها لي صلـت

كلانا مصـل واحـد ساجد إلـى حقيقتة بالجمع في كل سجـدة

وما كان لي صلى سواي، ولم تكن صلاتي لغيري في أداء كل سجدة

وقوله:

وما زلت إياها، وإياي لم تزل ولا فرق ، بل ذاتي لذاتي أحبت

وقوله:

إليّ رسولا ، كنت مني مرسلا وذاتي بآياتي عليّ استدلـت

فأقوال هؤلاء ونحوها باطنها أعظم كفراً وإلحاداً من ظاهرها ، فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين، أهل التحقيق والتوحيد، وأما باطنها فإنه أعظم كفرًا وكذباً وجهلاً من كلام اليهود والنصارى وعبّاد الأصنام.

ولهذا فإن كل من كان منهم أعرف بباطن المذهب وحقيقته، كان أعظم كفرًا وفسقا، كالتلمساني، فإنه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب، وأخبرهم بحقيقته، فأخرجه ذلك إلى الفعل فكان يعظم اليهود والنصارى والمشركين، ويستحل المحرمات ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم ، يقرهم فيها على عقيدتهم الشركية.

وكذلك ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء ، وكان له من الكفر والسحر ـ الذي يسمى السيميا ـ والموافقة للنصارى، والقرامطة والرافضة، ما يناسب أصوله.

فكل من كان أخبر بباطن هذا المذهب ، ووافقهم عليه، كان أظهر كفراً وإلحاداً.

وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفهمونه، ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين، الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس ، فهؤلاء تجد فيهم إسلاما وإيمانًا، ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدي، وتجد فيهم إقرارا

لهؤلاء وإحسانا للظن بهم، وتسليما لهم بحسب جهلهم وضلالهم، ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد، أو جاهل ضال.

وهؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون : إن الله بذاته حال في كل مكان ، ولكن أهل وحدة الوجود حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية.

وأما النوع الثاني : فهو قول من يقول بالحلول والاتحاد في معين، كالنصارى الذين قالوا بذلك في المسيح عيسى، والغالية الذين يقولون بذلك في علي بن أبي طالب وطائفة من أهل بيته، والحاكمية الذين يقولون بذلك في الحاكم، والحلاَّجية الذين يقولون بذلك في الحلاج، واليونسية الذين يقولون بذلك في يونس، وأمثال هؤلاء ممن يقول بإلهية بعض البشر، وبالحلول والاتحاد فيه، ولا يجعل ذلك مطلقا في كل شيء.

ومن هؤلاء من يقول بذلك في بعض النسوان والمردان، أو بعض الملوك أو غيرهم، فهؤلاء كفرهم شر من كفر النصارى الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم.

وأما الأولون : فيقولون بالإطلاق . ويقولون : النصارى إنما كفروا بالتخصيص .

وأقوال هؤلاء شر من أقوال النصارى ، وفيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى ، ولهذا يقولون بالحلول تارة ، وبالاتحاد أخرى، وبالوحدة تارة ، فإنه مذهب متناقض في نفسه، ولهذا يُلَبِّسون على من لم يفهمه.

فهذا كله كفر باطنا وظاهراً بإجماع كل مسلم، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر، كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين.

ولكن هؤلاء يشبهون بشيء آخر،وهو ما يعرض لبعض العارفين في مقام الفناء والجمع والاصطلام والسكر،فإنه قد يعرض لأحدهم ـ لقوة استيلاء الوجد والذكر عليه ـ من الحال ما يغيب فيه عن نفسه وغيره، فيغيب بمعبوده عن عبادته، وبمعروفه عن معرفته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده.

ومثل هذا قد يعرض لبعض المحبين لبعض المخلوقين، كما يذكرون أن رجلا كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه في اليم ، فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال له : أنا وقعت، فما الذي أوقعك ؟ فقال : غبت بك عني، فظننت أنك أني.

وينشدون :

رق الزجاج ، وراقت الخمر ... وتشاكلا ، فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

وهذه الحال تعرض لكثير من السالكين، وليست حالا لازمة لكل سالك، ولا هي أيضا غاية محمودة ، بل ثبوت العقل والفهم والعلم مع التوحيد باطنا وظاهراً كحال نبينا ﷺ وأصحابه أكمل من هذا وأتم.

والمعنى الذي يسمونه الفناء ينقسم ثلاثة أقسام : فناء عن عبادة السوى، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن وجود السوي.

فالأول : أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وهذا هو حقيقة التوحيد والإخلاص الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو تحقيق « لا إله إلا الله» فإنه يفنى من قلبه كل تأله لغير الله، ولا يبقى في قلبه تأله لغير الله، وكل من كان أكمل في هذا التوحيد كان أفضل عند الله.

والثاني : أن يفنى عن شهود ما سوى الله ، وهذا الذي يسميه كثير من الصوفية حال الاصطلام والفناء والجمع، ونحو ذلك.

وهذا فيه فضيلة من جهة إقبال القلب على الله، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه، فإنه إذا شهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه المعبود لا إله إلا هو ، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله، فشهد حقائق أسمائه وصفاته وأحكامه خلقا وأمراً ـ كان أتم معرفة وشهوداً، وإيماناً وتحقيقا ، من أن يفنى بشهود معنى عن شهود معنى آخر، وشهود التفرقة في الجمع ، والكثرة في الوحدة ، وهو الشهود الصحيح المطابق. لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه عن شهود هذا وهذا، كان معذوراً للعجز ، لا محموداً على النقص والجهل.

والثالث : الفناء عن وجود السوى ، وهو قول الملاحدة أهل الوحدة كصاحب الفصوص وأتباعه الذين يقولون : وجود الخالق هو وجود المخلوق، وما ثم غير ولا سوى في نفس الأمر.

فهؤلاء قولهم أعظم كفراً من قول اليهود والنصارى وعباد الأصنام.

وأيضا، فإن ولاية الله هي موافقته بالمحبة لما يحب، والبغض لما يبغض والرضا بما يرضى، والسخط بما يسخط، والأمر بما يأمر به، والنهي عما ينهى عنه، و الموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي

بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش ، وبي يسعى، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه »[1] ،فهذا أصح حديث روى في الأولياء .

فالملاحدة والاتحادية يحتجون به على قولهم ، لقوله : « كنت سمعه وبصره ويده ورجله» والحديث حجة عليهم من وجوه كثيرة:

منها قوله : «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة» فأثبت معاديا محارباً ووليا غير المعادي ، وأثبت لنفسه ـ سبحانه ـ هذا وهذا.

ومنها قوله: « وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» فأثبت عبداً متقرباً إلى ربه، وربا افترض عليه فرائض.

ومنها قوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» فأثبت متقرِّبًا ومتقرَّبًا إليه، ومحبا ومحبوباً غيره. وهذا كله ينقض قولهم: الوجود واحد .

ومنها قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به» إلى آخره، فإنه جعل لعبده بعد محبته هذه الأمور، وهو عندهم قبل المحبة وبعدها واحد ، وهو عندهم هذه الأعضاء : بطنه، وفرجه، وشعره ، وكل شيء، لا تعدد عندهم، ولا كثرة في الوجود، ولكن يثبتون مراتب ومجالي ومظاهر، فإن جعلوها موجودة نقضوا قولهم.

وإن جعلوها ثابتة في العدم ـ كما يقوله ابن عربي ـ أو جعلوها المعينات، والمطلق هو الحق، كانوا قد بنوا ذلك على قول من يقول : المعدوم شيء، وقول من جعل الكليات ثابتة في الخارج زائدة على المعينات.

والأول : قول طائفة من المعتزلة، وهو قول ابن عربي .

والثاني : قول طائفة من الفلاسفة، وهو قول القونوي صاحب ابن عربي ، وكلا القولين باطل عند العقلاء، ولهذا كان التلمساني أحذق منهما فلم يثبت شيئا وراء الوجود.

كما قيل :

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) وعبارة «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يسعى» لم ترد في الحديث، وذكرها ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٤٤.

وما البحر إلا الموج ، لا شىء غيره   وإن فرقته كثرة المتعـــــدد

لكن هؤلاء الضلال من الفلاسفة والمعتزلة ما قالوا : وجود المخلوق هو وجود الخالق، وهؤلاء الملاحدة قالوا : هذا هو هذا ، ولهذا صاروا يقولون بالحلول من وجه، لكون الوجود في كل الذوات، أو بالعكس، وبالاتحاد من وجه لاتحادهما، وحقيقة قولهم هي وحدة الوجود.

وفي الحديث وجوه أخرى تدل على فساد قولهم.

والحديث حق ، كما أخبر به النبي ﷺ ، فإن ولى الله لكمال محبته لله وطاعته لله يبقى إدراكه لله وبالله، وعمله لله وبالله، فما يسمعه مما يحبه الحق أحبه، وما يسمعه مما يبغضه الحق أبغضه، وما يراه مما يحبه الحق أحبه، وما يراه مما يبغضه الحق أبغضه، ويبقى في سمعه وبصره من النور ما يميز به بين الحق والباطل، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «اللهم، اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نورا، واجعل لي نورا»(١).

فولى الله فيه من الموافقة لله ما يتحد به المحبوب والمكروه، والمأمور والمنهي ونحو ذلك، فيبقى محبوب الحق محبوبه، ومكروه الحق مكروهه، ومأمور الحق مأموره، وولى الحق وليه، وعدو الحق عدوه، بل المخلوق إذا أحب المخلوق محبة تامة حصل بينهما نحو من هذا ، حتى قد يتألم أحدهما بتألم الآخر، ويلتذ بلذته.

ولهذا قال ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٢) ؛ولهذا كان المؤمن يسره ما يسر المؤمنين، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ومن لم يكن كذلك لم يكن منهم.

فهذا الاتحاد الذي بين المؤمنين ليس هو أن ذات أحدهما هي بعينها ذات الآخر، ولا حلت فيه، بل هو توافقهما واتحادهما في الإيمان بالله ورسوله وشعب ذلك مثل محبة الله ورسوله، ومحبة ما يحبه الله ورسوله.

---

(١) البخاري في الدعوات (٦٣١٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣/ ١٨١)، وأبو داود في الصلاة (١٣٥٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤١٩) وقال :« حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي ليلي من هذا الوجه »، وأحمد ١/ ٢٨٤، ٣٤٣، ٣٥٢، ٣٧٣، كلهم عن ابن عباس.

(٢) البخاري في الأدب (٦٠١١) ، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦/ ٦٦) عن النعمان بن بشير.

فإذا كان هذا معقولا بين المؤمنين فالعبد إذا كان موافقا لربه تعالى فيما يحبه ويبغضه، ويأمر به وينهى عنه، ونحو ذلك مما يحبه الرب من عبده: كيف تكون ذات أحدهما هي الأخرى أو حالة فيها؟

فإذا عرفت هذه الأصول من الحلول والاتحاد المطلق والمعين، الذي هو باطل ، ومما هو من أحوال أهل الإيمان، ومن ولاية الله تعالى وموافقته فيما يحبه ويرضاه وتوابع ذلك، تبين لك جواب مسائل السائل.

وهؤلاء قد يجدون من كلام بعض المشايخ كلمات مشتبهة مجملة ، فيحملونها على المعاني الفاسدة، كما فعلت النصارى فيما نقل لهم عن الأنبياء، فيدعون المحكم، ويتبعون المتشابه [1].

فقول القائل : إن الرب والعبد شيء واحد ، ليس بينهما فرق : كفر صريح، لا سيما إذا دخل في ذلك كل عبد مخلوق، وأما إذا أراد بذلك عباد الله المؤمنين وأولياءه المتقين، فهؤلاء يحبهم ويحبونه ويوافقونه فيما يحبه ويرضاه ويأمر به، فقد رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولما رضوا ما يرضى وسخطوا ما يسخط، كان الحق يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ ذلك متلازم من الطرفين.

ولا يقال في أفضل هؤلاء: إن الرب والعبد شيء واحد ليس بينهما فرق، لكن يقال لأفضل الخلق كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء: ٨٠] ، وقال : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[التوبة: ٦٢] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وأمثال ذلك.

وأما سائر العباد، فإن الله خالقهم ومالكهم وربهم، وخالق قدرتهم وأفعالهم، ثم ما كان من أفعالهم موافقا لمحبته ورضاه، كان محبا لأهله مكرمًا لهم، وما كان منها مما يسخطه ويكرهه، كان مبغضا لأهله مهينا لهم.

وأفعال العباد مفعولة مخلوقة لله، ليست صفة له ولا فعلاً قائما بذاته.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، فمعناه : وما

---

(١) في المطبوعة :« المتشابهة» والصواب ما أثبتناه.

أوصلت إذ حذفت ، ولكن الله أوصل المرمى ، فإن النبي ﷺ كان قد رمي المشركين بقبضة من تراب،وقال: «شاهت الوجوه»[1] فأوصلها الله إلى وجوه المشركين وعيونهم، وكانت قدرة النبي ﷺ عاجزة عن إيصالها إليهم، والرمي له مبدأ،وهو الحذف، ومنتهى وهو الوصول، فأثبت الله لنبيه المبدأ بقوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ونفى عنه المنتهى،وأثبته لنفسه بقوله: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ وإلا فلا يجوز أن يكون المثبت عين المنفى، فإن هذا تناقض.

والله تعالى ـ مع أنه هو خالق أفعال العباد ـ فإنه لا يصف نفسه بصفة من قامت به تلك الأفعال، فلا يسمي نفسه مصليا ولا صائما ، ولا آكلا ولا شاربا، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وقول القائل : ما ثم غير إذا أراد به ما يريده أهل الوحدة، أي ما ثم غير موجود سوى الله : فهذا كفر صريح. ولو لم يكن ثم غير لم يقل : ﴿أَغَيْرَ[2] اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] ولم يقل: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾[الزمر:٦٤] فإنهم كانوا يأمرونه بعبادة الأوثان، فلو لم يكن غير الله لم يصح قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولم يقل: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤] ولم يقل الخليل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥ـ٧٧] ولم يقل : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧] فإن إبراهيم لم يعاد ربه، ولم يتبرأ من ربه، فإن لم تكن تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها هم وآباؤهم الأقدمون غير الله، لكان إبراهيم قد تبرأ من الله وعادى الله، وحاشا إبراهيم من ذلك.

وهؤلاء الملاحدة في أول أمرهم ينفون الصفات ، ويقولون : القرآن هو الله ، أو غير الله . فإذا قيل لهم : غير الله . قالوا : فغير الله مخلوق.

وفي آخر أمرهم يقولون : ما ثم موجود غير الله، أو يقولون: العالم لا هو الله ولا هو غيره.

ويقولون:

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامـــــه

فينكرون على أهل السنة إذا أثبتوا الصفات، ولم يطلقوا عليها اسم الغير، وهم لا

(١) سبق تخريجه ص ٢٠١ .

(٢) في المطبوعة :« أفغير» والصواب ما أثبتناه.

يطلقون على المخلوقات اسم الغير، وقد سمعت هذا التناقض من مشايخهم، فإنهم في ضلال مبين.

وأما قول الشاعر في شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا؟

وقوله :

إذا كنت ليلى وليلى أنا.

فهذا إنما أراد به هذا الشاعر الاتحاد الوضعي ، كاتحاد أحد المتحابين بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغض ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ، وهو تشابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، إذ كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه، كقول الآخر:

غبت بك عني فظننت أنك أني

فإما أن يكون غالطاً مستغرقاً بالفناء ، أو يكون عني التماثل والتشابه، واتحاد المطلوب والمرهوب، لا الاتحاد الذاتي . فإن أراد الاتحاد الذاتي - مع عقله لما يقول - فهو كاذب مفتر، مستحق لعقوبة المفترين .

وأما قول القائل :لو رأى الناس الحق لما رأوا عابداً ولا معبوداً، فهذا من جنس قول الملاحدة الاتحادية، الذين لا يفرقون بين الرب والعبد، وقد تقدم بيان قول هؤلاء، وهؤلاء يجمعون بين الضلال والغي ، بين شهوات الغي في بطونهم وفروجهم، وبين مضلات الفتن.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغَيِّ في بطونكم وفروجكم» (١)،حتى يبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يهوى المردان، ويزعم أن الرب تعالى تجلى في أحدهم، ويقولون : هو الراهب في الصومعة، وهذه مظاهر الجمال ، ويقبل أحدهم الأمرد، ويقول: أنت الله.

ويذكر عن بعضهم أنه كان يأتي ابنه، ويدعي أنه الله رب العالمين، أو أنه خلق السموات والأرض،ويقول أحدهم لجليسه: أنت خلقت هذا ، وأنت هو ، وأمثال ذلك.

فقبح الله طائفة يكون إلهها الذي تعبده هو موطؤها الذي تفترشه، وعليهم لعنة الله

---

(١) أحمد ٤/ ٤٢٠، ٤٢٣ عن أبي برزة الأسلمي.

والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منهم صَرْفا ولا عَدْلا .

ومن قال : إن لقول هؤلاء سراً خفياً وباطن حقٍ، وأنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص خواص الخلق، فهو أحد رجلين : إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال ، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال. فالزنديق يجب قتله، والجاهل يعرف حقيقة الأمر، فإن أصر على هذا الاعتقاد الباطل بعد قيام الحجة عليه وجب قتله.

ولكن لقولهم سر خفي وحقيقة باطنة لا يعرفها إلا خواص الخلق. وهذا السر هو أشد كفراً وإلحادا من ظاهره، فإن مذهبهم فيه دقة وغموض وخفاء، قد لا يفهمه كثير من الناس.

ولهذا تجد كثيراً من عوام أهل الدين والخير والعبادة ينشد قصيدة ابن الفارض، ويتواجد عليها ويعظمها ، ظانا أنها من كلام أهل التوحيد والمعرفة ، وهو لا يفهمها ولا يفهم مراد قائلها، وكذلك كلام هؤلاء يسمعه طوائف من المشهورين بالعلم والدين، فلا يفهمون حقيقته ، فإما أن يتوقفوا عنه أو يعبروا عن مذهبهم بعبارة من لم يفهم حقيقته، وإما أن ينكروه إنكاراً مجملا من غير معرفة بحقيقته، ونحو ذلك، وهذا حال أكثر الخلق معهم.

وأئمتهم إذا رأوا من لم يفهم حقيقة قولهم طمعوا فيه، وقالوا : هذا من علماء الرسوم، وأهل الظاهر، وأهل القشر، وقالوا : علمنا هذا لا يعرف إلا بالكشف والمشاهدة، وهذا يحتاج إلى شروط، وقالوا : ليس هذا عشك فادرج عنه، ونحو ذلك مما فيه تعظيم له وتشويق إليه، وتجهيل لمن لم يصل إليه.

وإن رأوه عارفا بقولهم نسبوه إلى أنه منهم ، وقالوا : هو من كبار العارفين.

وإذا أظهر الإنكار عليهم والتكفير قالوا : هذا قام بوصف الإنكار لتكميل المراتب والمجالي .

وهكذا يقولون في الأنبياء ونهيهم عن عبادة الأصنام.

وهذا كله وأمثاله مما رأيته وسمعته منهم.

فضَلالُهم عظيم، وإفكُهم كبير، وتلْبيسُهم شديد، والله ـ تعالى ـ يظهر ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، والله أعلم.

فصـــل

فيما عليه أهل العلم والإيمان من الأولين والآخرين ، مما يشبه الاتحاد والحلول الباطل وهو حق ـ وإن سمي حلولا أو اتحاداً ـ وهو ما عليه أهل الإسلام وأهل السنة والجماعة، وأهل المعرفة واليقين من جميع الطوائف بدلالة الكتاب والسنة.

أما الحلول : فلا ريب أن من علم شيئا فلابد أن يبقى في قلبه منه أثر ونعت، وليس حاله بعد العلم به كحاله قبل العلم به، حتى يكون العلم نسبة محضة بمنزلة العلو والسفول. فإن المستعلي إذا نزل زال علوه، والسافل إذا اعتلى زال سفوله، والعلم لا يزول، بل يبقى أثره بكل حال ، فإذا كان مع العلم به يحبه أو يرجوه أو يخافه، كان لهذه الأحوال أثر ونعت آخر وراء العلم والشعور، وإن كانا قد يتلازمان.

فإذا ذكره بلسانه، كانت هذه الآثار أعظم، وإذا خضع له بسائر جوارحه، كان ذلك أعظم وأعظم.

وهذه المعاني هي في الأصل مشتركة في كل مدرِك ومُدرَك، ومحب ومحبوب، وذاكر ومذكور، وسواء كان على وجه العبادة ، كعبادة الله وحده لا شريك له، أو عبادة الأنداد من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، أو على غير وجه العبادة، كمحب الإخوان والولدان، والنسوان و الأوطان، وغير ذلك من الأكوان.

فالمؤمن الذي آمن بالله بقلبه وجوارحه إيمانه يجمع بين علم قلبه وحال قلبه: تصديق القلب وخضوع القلب، ويجمع قول لسانه وعمل جوارحه ، وإن كان أصل الإيمان هو ما في القلب أو ما في القلب واللسان، فلابد أن يكون في قلبه التصديق بالله والإسلام له، هذا قول قلبه، وهذا عمل قلبه، وهو الإقرار بالله.

والعلم قبل العمل ، والإدراك قبل الحركة ، والتصديق قبل الإسلام، والمعرفة قبل المحبة، وإن كانا يتلازمان، لكن علم القلب موجب لعمله، ما لم يوجد معارض راجح، وعمله يستلزم تصديقه؛ إذ لا تكون حركة إرادية ولا محبة إلا عن شعور، لكن قد تكون الحركة والمحبة فيها فساد إذا لم يكن الشعور والإدراك صحيحا.

قال عمر بن عبد العزيز: من عَبَدَ اللهَ بغير علم كان ما يُفْسِد أكثر مما يُصْلِح، فأما العمل الصالح بالباطن والظاهر فلا يكون إلا عن علم ؛ ولهذا أمر الله ورسوله بعبادة الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له ونحو ذلك، فإن هذه الأسماء تنتظم العلم والعمل

جميعا: علم القلب وحاله، وإن دخل في ذلك قول اللسان وعمل الجوارح أيضا، فإن وجود الفروع الصحيحة مستلزم لوجود الأصول ، وهذا ظاهر ، ليس الغرض هنا بسطه، وإنما الغرض[1] .

فصـــل

وهو أن المؤمن لابد أن يقوم بقلبه من معرفة الله والمحبة له، ما يوجب أن يكون للمعروف المحبوب في قلبه من الآثار ما يشبه الحلول من بعض الوجوه، لا أنه حلول ذات المعروف المحبوب، لكن هو الإيمان به ومعرفة أسمائه وصفاته .

قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾الآية [النور: ٣٥]، قال أُبَيّ بن كعب: مثل نوره في قلب المؤمن فهذه هي الأنوار التي تحصل في قلوب المؤمنين.

وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة : ٥] إنه الكفر بذلك، فإن من كفر بالإقرار الذي هو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله والإسلام له، المتضمن للاعتقاد والانقياد لإيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات، وإباحة المباحات، فهو كافر ، إذ المقصود لنا من إنزال الكتب وإرسال الرسل هو حصول الإيمان لنا، فمن كفر بهذا فهو كافر بذاك، وهذا قد يسمى المثل والمثال؛ لأنه قد يقال : إن العلم مثال المعلوم في العالم، وكذلك الحب يكون فيه تمثيل المحبوب في المحب.

ثم من الناس من يدعي أن كل علم وكل حب ففيه هذا المثال ، كما يقوله قوم من المتفلسفة ، ومنهم من ينكر حصول شيء من هذا المثال في شيء من العلم والحب .

والتحقيق : أنه قد يحصل تمثل وتخيل لبعض العالمين والمحبين، حتى يتخيل صورة المحبوب، وقد لا يحصل تخيل حسي ، وليس هذا المثل من جنس الحقيقة أصلا، وإنما لما كان العلم مطابقا للمعلوم وموافقا له ، غير مخالف له ، كان بين المطابِق والمطَابَق، والموافِق والموافَق نوع تناسب وتشابه ، ونوع ما من أنواع التمثيل ، فإن المثل يضرب للشيء لمشاركته إياه من بعض الوجوه ، وهنا قطعا اشتراك ما واشتباه ما .

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٧] أنه هذا، وفي حديث مأثور: «ما وسعني أرضي ولا

---

(١) هكذا في الأصل.

سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن النقي التقي الوادع اللين»[1]،ويقال : القلب بيت الرب، وهذا هو نصيب العباد من ربهم، وحظهم من الإيمان به ، كما جاء عن بعض السلف أنه قال : إذا أحب أحدكم أن يعلم كيف منزلته عند الله ،فلينظر كيف منزلة الله من قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه.

وروى مرفوعا من حديث أيوب بن عبد الله بن خالد بن صفوان، عن جابر بن عبدالله، رواه أبو يعلى الموصلي [2]، وابن أبي الدنيا في كتاب الذكر، ولهذا قال أبناء يعقوب: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ [3] ﴾[البقرة:١٣٣]، فإن ألوهية الله متفاوتة في قلوبهم على درجات عظيمة تزيد وتنقص، ويتفاوتون فيها تفاوتاً لا ينضبط طرفاه، حتى قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حق شخصين: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»[4] .فصار واحد من الآدميين خيراً من ملء الأرض من بني جنسه، وهذا تباين عظيم لا يحصل مثله في سائر الحيوان .

وإلى هذا المعنى أشار من قال : « ما سبقكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وَقَرَ في قلبه»[5] ، وهو اليقين والإيمان ومنه قوله ﷺ : « وزنتُ بالأمة فرجَحْتُ، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح، ثم وزن عمر بالأمة فرجح، ثم رفع الميزان»[6]،وقال ﷺ، فيما رواه عنه الصديق :« أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية ، فلم يعط أحد بعد اليقين خيراً من العافية»[7] رواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه. وقال رقبة بن مصقلة للشعبي: رزقك الله اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه، ولا يعتمد في الدين إلا عليه.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ١٦ ، وقال العراقي : «لم أر له أصلا» وذكره صاحب المقاصد الحسنة ص ٣٧٣ برقم (٩٩٠)، وكشف الخفا ٢/ ١٩٥ برقم (٢٢٥٦).

(٢) أبو يعلى ٣/ ٣٩٠، ٣٩١ (١٨٦٥) وإسناده ضعيف لضعف عمر بن عبد الله مولى غفرة، وأيوب بن خالد ليس بذاك. وباقي رجاله ثقات ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٠ وقال: «رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ، وفيه عمر بن عبد الله مولى غفرة، وقد وثقه غير واحد وضعفه جماعة ، وبقية رجالهم رجال الصحيح » وصححه الحاكم ١/ ٤٩٤، ٤٩٥، وتعقبه الذهبي بقوله:« عمر ضعيف».

(٣) في المطبوعة لفظ:« يعقوب» بعد إسحاق ، والصواب ما أثبتناه.

(٤) البخاري في النكاح (٥٠٩١) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠) عن سهل بن سعد الساعدي.

(٥) ذكره العراقي في تخريج الإحياء ١/ ٣٤ وعزاه إلى الحكيم الترمذي في النوادر وقال:« لم أجده مرفوعًا». وانظر : الأسرار المرفوعة ص ٢٩٨.

(٦) أحمد ٢/ ٧٦ عن ابن عمر ، ٥/ ٢٥٩ عن أبي أمامة.

(٧) الترمذي في الدعوات (٣٥٥٨) وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » ، ورواه النسائي في اليوم والليلة ٦/ ٢٢٠ (١٠٧١٥، ١٠٧١٦، ١٠٧١٧) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤٩).

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن [سيار، وحدثنا جعفر عن عمران القصير][1] قال: قال موسى : «يارب، أين أجدك؟ قال: يا موسي ، عند المُنْكَسِرةِ قلوبُهُم من أجلي ، أقترب إليها كل يوم شبراً ، ولولا ذلك لاحترقت قلوبهم»[2].

وقد يتوسع في العبارة عن هذا المعنى ، حتى يقال : ما في قلبي إلا الله، ما عندي إلا الله، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله عز وجل :« أما علمت أن عبدي فلانا مرض؟ فلو عُدْتَه لوجدتني عنده» [3]ويقال:

ساكن في القلب يعمره لست أنساه فأذكره

ويقال :

مثالك في عيني ، وذكراك في فمي ومثواك في قلبي ، فأين تغيـــب ؟

وهذا القدر يقوى قوة عظيمة ، حتى يعبر عنه بالتجلي والكشف ونحو ذلك باتفاق العقلاء، ويحصل معه القرب منه، كما قال النبي ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» [4] وقال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي : «من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا»[5] .

لكن هل في تقرب العبد إلى الله حركة إلى اللّه أو إلى بعض الأماكن؟ اتفقوا على أنه قد تحصل حركة بدن العبد إلى بعض الأمكنة المشرفة، التي يظهر فيها الإيمان بالله من معرفته وذكره وعبادته، كالحج إلى بيته، والقصد إلى مساجده، ومنه قول إبراهيم : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الصافات:٩٩].

وأما حركة روحه إلى مثل السموات وغيرها من الأمكنه، فأقر به جمهور أهل الإسلام، وأنكره الصابئة الفلاسفة المشاؤون ومن وافقهم، وحركة روحه أو بدنه إلى الله أقرَّ بها أهل الفطرة، وأهل السنة والجماعة، وأنكرها كثير من أهل الكلام.

وأما القرب من الله إلى عبده: هل هو تابع لتقرب العبد وتقريبه الذي هو علمه أو عمله، أو هناك قرب آخر من الرب؟

هذا فيه كلام ليس هذا موضعه.

---

(١) نقص في المطبوعة، والمثبت من كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل (٣٨٩).

(٢) الزهد للإمام أحمد ص ١٢٠ برقم (٣٨٩) .

(٣) مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٩/٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مسلم في الصلاة (٤٨٢/ ٢١٥)، والنسائي في المواقيت (١١٣٧)، وأحمد ٢/ ٤٢١، كلهم عن أبي هريرة.

(٥) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٨٧ / ٢٢) .

ومن لم يثبت إلا الأول، فهم في قرب الرب على قولين:

أحدهما : أنه تجليه وظهوره له.

والثاني : أنه مع ذلك دنو العبد منه، واقترابه الذي هو بعمله وحركته. وللقرب معنى آخر: وهو التقارب بمعنى المناسبة ، كما يقال : هذا يقارب هذا ، وليس هذا موضعه.

فصـــل

وأما ما يشبه الاتحاد ، فإن الذاتين المتميزتين لا تتحد عين إحداهما بعين الأخرى ، ولا عين صفتها بعين صفتها، إلا إذا استحالتا بعد الاتحاد إلى ذات ثالثة، كاتحاد الماء واللبن، فإنهما بعد الاتحاد شيء ثالث، وليس ماء محضاً ولا لبنا محضا.

وأما اتحادهما وبقاؤهما بعد الاتحاد على ما كانا عليه فمحال ، ومن هنا يعلم أن الله لا يمكن أن يتحد بخلقه، فإن استحالته محال ، وإنما تتحد الأسباب والأحكام في العين، وتتحد الأسماء والصفات في النوع ، مثل المتحابين المتخالين الذين صار أحدهما يحب عين ما يحبه الآخر، ويبغض ما يبغضه ، ويتنعم بما يتنعم به ويتألم بما يتألم به، وهذا فيه مراتب ودرجات لا تنضبط ، فأسماؤهما وصفاتهما صارتا من نوع واحد .

وعين الأحكام والأسباب المتعلقة بهما ، التي هي ـ مثلا ـ المحبوب والمكروه هو واحد بالعين، كالرسول الذي يحبه كل المؤمنين، فهم متحدون في محبته، بمعنى أن محبوبهم واحد، ومحبة هذا من نوع محبته هذا، لا أنها عينها.

فهذا في اتحاد الناس بعضهم ببعض، وهي الأخوة والخلة الإيمانية ، التي قال فيها النبي ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر» أخرجاه في الصحيحين [(١)]، فجعل المؤمن مع المؤمن بمنزلة العضو مع العضو اللذين تجمعهما نفس واحدة.

ولهذا سمى الله الأخ المؤمن نفسا لأخيه في غير موضع من الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[النور: ٦١]، وقال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٥٤].

---

(١) البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦/٦٦)، كلاهما عن النعمان بن بشير.

فالعبد المؤمن إذا أناب إلى ربه، وعبده ووافقه، حتى صار يحب ما يحب ربه، ويكره ما يكره ربه، ويأمر بما يأمر به ربه، وينهى عما ينهى عنه ربه، ويرضى بما يرضى ربه، ويغضب لما يغضب له ربه، ويعطى من أعطاه ربه، ويمنع من منع ربه، فهو العبد الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه أبو داود من حديث القاسم عن أبي أمامة ـ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان»[1] وصار هذا العبد دينه كله لله ، وأتى بما خلق له من العبادة.

فقد اتحدت أحكام هذه الصفات التي له وأسبابها بأحكام صفات الرب وأسبابها.

وهم في ذلك على درجات، فإن كان نبيا كان له من الموافقة لله ما ليس لغيره، والمرسلون فوق ذلك، وأولو العزم أعظم، ونبينا محمد ﷺ له الوسيلة العظمى في كل مقام.

فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ، سواء كان واجبا أو مستحبا ، وفي مثل هذا جاءت نصوص الكتاب والسنة. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠]،وقال :﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : ٦٢] ،وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء : ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال تعالى :﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[التوبة : ٢٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال :١].

ومن هذا الباب قول المسيح ـ إن ثبت هذا اللفظ عنه ـ :«أنا وأبى واحد، من رآني فقد رأى أبى» ونحو ذلك ، فإنه مثل قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، وقوله :﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ونحو ذلك من اللفظ الذي فيه تشابه.

فصـــل

وجاء في أولياء الله الذين هم المتقون نوع من هذا: فروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،وبصره الذي يبصر به،ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها،ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن

---

(١) أبو داود في السنة (٤٦٨١).

شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه»(١).

فأول ما في الحديث قوله : «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة» فجعل معاداة عبده الولي معاداة له، فعين عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما شيئين متميزين، ولكن ليس الله هو عين عبده، ولا جهة عداوة عبده عين جهة عداوة نفسه، وإنما اتفقا في النوع.

ثم قال :«فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله» وفي رواية في غير الصحيح: «فبي يسمع ، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي» فقوله: «بي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش، وبي يمشي» بين معنى قوله: « كنت سمعه وبصره ويده ورجله» لا أنه يكون نفس الحَدَقَة والشحْمَة والعَصَب والقدم، وإنما يبقى هو المقصود بهذه الأعضاء والقوى وهو بمنزلتها في ذلك، فإن العبد بحسب أعضائه وقواه يكون إدراكه وحركته، فإذا كان إدراكه وحركته بالحق، ليس بمعنى خلق الإدراك والحركة، فإن هذا قدر مشترك في من يحبه وفي من لا يحبه، وإنما للمحبوب الحق من الحق من هذه الإعانة بقدر ما له من المعية والربوبية والإلهية، فإن كل واحدة من هذه الأمور عامة وخاصة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «يقول الله تعالى : عبدي، مرضت فلم تَعُدْني، فيقول : رب، كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا مرض ؟ فلو عدته لوجدتني عنده، عبدي ،جُعْتُ فلم تُطْعِمْنِي. فيقول : رب، كيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا جاع؟ فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي » (٢) ففي هذا الحديث ذكر المعنيين الحقين، ونفى المعنيين الباطلين، وفسرهما.

فقوله : « جعت ومرضت» لفظ اتحاد يثبت الحق.

وقوله :« لوجدتني عنده ، ووجدت ذلك عندي » نفى للاتحاد العيني بنفي الباطل ، وإثبات لتمييز الرب عن العبد.

وقوله: «لوجدتني عنده» لفظ ظرف، وبكل يثبت المعنى الحق من الحلول الحق، الذي هو بالإيمان لا بالذات.

ويفسر قوله:«مرضت فلم تعدني» فلو كان الرب عين المريض والجائع، لكان إذا عاده

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣٤ .

وإذا أطعمه يكون قد وجده إياه، وقد وجده قد أكله.

وفي قوله في المريض: «وجدتني عنده» وفي الجائع: «لوجدت ذلك عندي» فُرْقَان حسن، فإن المريض الذي تستحب عيادته ويجد الله عنده هو المؤمن بربه، الموافق لإلهه الذي هو وليه، وأما الطاعم فقد يكون فيه عموم لكل جائع يستحب إطعامه، فإن الله يقول: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[البقرة: ٢٤٥]. فَمَن تصدق بصدقة واجبة أو مستحبة، فقد أقرض الله ـ سبحانه ـ بما أعطاه لعبده.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يأخذها بيمينه فيُربّيها كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه، أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل العظيم»[1]، وقال: «إن الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل»[2].

لكن الأشبه: أن هذا العبد المذكور في الجوع هو المذكور في المرض، وهو العبد الولي الذي فيه نوع اتحاد، وإن كان الله يثيب على طعام الفاسق والذمي.

ونظير القرض النصر، في مثل قوله تعالي: ﴿وَلِيَعْلَمَ[3] اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾[محمد: ٧] ونحو ذلك، لكن النصر فيه معنى، لكن لا يقال في مثله: جعت.

فقد ذكر الله في القرآن القرض والنصر وجعله له، هذا في الرزق، وهذا في النصر، وجاء في الحديث العيادة، وهذه الثلاثة هي المذكورة في قوله تعالي: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وإنما في الحديث أمر البأساء والضراء فقط، لأن ذلك ينفرد به الواحد المخاطب بقوله: «عبدي، مرضت وجعت» فلذلك عاتبه.

---

(١) البخاري في الزكاة (١٤١٠) وفي التوحيد (٧٤٣٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤/٦٣)، وأحمد ٢/ ٣٣١، ٤١٩، كلهم عن أبي هريرة.

وقوله: «يعدل»، أي: بمثل. و «فَلُوَّه»: أي مُهْره الصغير. والفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه. انظر: لسان العرب. مادة «فلو، عدل، فصل».

(٢) أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٨١ عن فضالة بن عبيد مرفوعًا، وقال: «غريب من حديث وهب بن منبه، لم نكتبه إلا من حديث علاقة عن ثور»، والطبراني في الكبير ٩/ ١١٤ (٨٥٧١) موقوفا على ابن مسعود، وذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ١١٤ وقال: «رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الله بن قتادة المحاربي ولم يضعفه أحد، وبقية رجاله ثقات».

(٣) في المطبوعة: «ولينصرن» والصواب ما أثبتناه.

وأما النصر، فيحتاج في العادة إلى عدد، فلا يعتب فيه على أحد معين غالباً، أو المقصود بالحديث التنبيه، وفي القرآن النصر والرزق، وليس فيه العيادة؛ لأن النصر والقرض فيه عموم لا يختص بشخص دون شخص.

وأما العيادة، فإنما تكون لمن يجد الحق عنده.

فصــل

فهذان المعنيان صحيحان ثابتان، بل هما حقيقة الدين واليقين والإيمان.

أما الأول ـ وهو كون الله في قلبه بالمعرفة والمحبة ـ : فهذا فرض على كل أحد ولابد لكل مؤمن منه، فإن أدى واجبه فهو مقتصد ، وإن ترك بعض واجبه فهو ظالم لنفسه، وإن تركه كله فهو كافر بربه.

وأما الثاني ـ وهو موافقة ربه فيما يحبه ويكرهه، ويرضاه ويسخطه ـ: فهذا على الإطلاق إنما هو للسابقين المقربين ، الذين تقربوا إلى الله بالنوافل ، التي يحبها ولم يفرضها ، بعد الفرائض التي يحبها ويفرضها ويعذب تاركها.

ولهذا كان هؤلاء لما أتوا بمحبوب الحق من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة المنتظمة للمعارف والأحوال والأعمال ، أحبهم الله تعالى . فقال : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[1] .فعلوا محبوبه فأحبهم، فإن الجزاء من جنس العمل، مناسب له مناسبة المعلول لعلته.

ولا يتوهم أن المراد بذلك: أن يأتي العبد بعين كل حركة يحبها الله، فإن هذا ممتنع. وإنما المقصود أن يأتي بما يقدر عليه من الأعمال الباطنة والظاهرة، والباطنة يمكنه أن يأتي منها بأكثر مما يأتي به من الظاهرة، كما قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في جسمه، وقوة المنافق في جسمه، وضعفه في قلبه؛ ولهذا قال ﷺ :« المرء مع من أحب» [2]،وقال :« إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر» [3]،وقال:«فهما في الأجر سواء» [4]في حديث القادر على الإنفاق والعاجز عنه، الذي قال:«لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما عمل»[5] فإنهما لما

(١) سبق تخريجه ص ١٣٩ .

(٢) البخارى فى الأدب (٦١٦٨ ـ ٦١٧٠) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٤٠ / ١٦٥) .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمارة (١٩١١/١٥٩) .

(٤ ، ٥) الترمذي في الزهد(٢٣٢٥)وقال:«حديث حسن صحيح»،وابن ماجة فى الزهد (٤٢٢٨)، وأحمد ٤/ ٢٣١.

استويا في عمل القلب وكان أحدهما معذور الجسم استويا في الجزاء ، كما قال النبي ﷺ: « إذا مرض العبد أو سافر، كتب له من العمل مثل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»(١) .

فصـــل

وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد ، فإن الاتحاد فيه حق وباطل، لكن لما ورد عليه ما غيب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه، كان معذوراً غير معاقب عليه ما دام غير عاقل ، فإن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق، وإن كان مخطئا في ذلك كان داخلا في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ(٢) فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الأحزاب:٥].

وهذا كما يحكى أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر فوقع المحبوب في اليم، فألقى الآخر نفسه خلفه. فقال: أنا وقعت، فما الذي أوقعك؟ فقال: غبت بك عني ، فظننت أنك أني.

فهذه الحال تعتري كثيرا من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق، وفي غير جانبه، وإن كان فيها نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده، فقد يقول في هذه الحال : أنا الحق أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله ونحو ذلك، وهو سكران بوجد المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز.

وذلك السكران ، يطوى ولا يروى إذا لم يكن سكره بسبب محظور.

فأما إذا كان السبب محظوراً، لم يكن السكران معذورا.

وأما أهل الحلول ، فمنهم من يغلب عليه شهود القلب وتجليه، حتى يتوهم أنه رأى الله بعيني رأسه.

ولهذا ذكر ذلك طائفة من العباد الأصحاء، غلطاً منهم .

وقد ثبت في صحيح مسلم: عن النواس بن سمعان: أن النبي ﷺ لما ذكر الدجال،

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩٩٦) وأحمد ٤/ ٤١٠ عن أبي موسى .

(٢) في المطبوعة : «ولا جناح عليكم» والصواب ما أثبتناه.

ودعواه الربوبية، قال: «واعلموا أن أحداً منكم لن يري ربه حتى يموت»[1] ، وروى هذا المعني عن النبي ﷺ من وجوه أخرى متعددة حسنة في حديث الدجال.

فإنه لما ادعى الربوبية، ذكر النبي ﷺ فرقانين ظاهرين لكل أحد:

أحدهما : أنه أعور ، والله ليس بأعور.

الثاني : أن أحدًا منا لن يرى ربه حتى يموت، وهذا إنما ذكره في الدجال مع كونه كافراً؛ لأنه يظهر عليه من الخوارق التي تُقَوِّى الشبهة في قلوب العامة.

فصـــل

فإذا عرف الاتحاد المعين مما يشبه الحلول أو الاتحاد الذي فيه نوع حق تبين أيضا ما في المطلق من ذلك .

فنقول : لا ريب أن الله رب العالمين، رب السموات والأرضين وما بينهما ورب العرش العظيم، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا، ربكم ورب آبائكم الأولين، رب الناس ملك الناس إله الناس، وهو خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

وهو رب كل شيء ومليكه، وهو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الرحمن على العرش استوى ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير **﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾**[هود:٥٦] .

قلوب العباد ونواصيهم بيده،وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. وهو الذي أضحك وأبكى ، وأغنى وأقنى. وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، ويبث فيها من كل دابة.

وهو الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. **﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا**

---

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣١/١٦٩).

﴿حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٢٥]، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو القائم بالقسط القائم على كل نفس بما كسبت، الخالق البارئ المصور، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، وما شاء الله لا قوة إلا بالله فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ منه إلا إليه.

فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته وملكه، وخلقه ورزقه، وهدايته ونصره، وإحسانه وبره، وتدبيره وصنعه، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

فهذا كله حق، وهو محض توحيد الربوبية، وهو مع هذا قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين.

وهذا صنع الله الذي أتقن كل شيء والخير كله بيديه، وهو أرحم الراحمين، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، كما أقسم على ذلك النبي ﷺ فقال: « والله، لله أرحم بعباده من هذه الوالدة بولدها»[1]،إلى نحو هذه المعاني التي تقتضى شمول حكمته وإتقانه، وإحسانه خلق كل شيء ، وسعة رحمته وعظمتها ، وأنها سبقت غضبه، كل هذا حق.

فهذان الأصلان ـ عموم خلقه وربوبيته، وعموم إحسانه وحكمته ـ أصلان عظيمان، وإن كان من الناس من يكفر ببعض الأول، كالقدرية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه ، ويضيفونها إلى محض فعل ذي الاختيار، أو الطبيعة الذين يقطعون إضافة الفعل إلى الله ـ سبحانه ـ ويضيفونه إما إلى الطبع، أو إلى جسم فيه طبع، أو إلى فلك، أو إلى نفس أو غير ذلك مما هو من مخلوقاته العاجزة عن إقامة نفسها، فهي عن إقامة غيرها أعجز.

ومن الناس من يجحد بعض الثاني، أو يعرض عنه، متوهما خلو شيء من مخلوقاته عن إحسان خلقه وإتقانه، وعن حكمته، ويظن قصور رحمته، وعجزها، من القدرية الإبليسية، أو المجوسية وغيرهم.

وإذا كان كذلك، فجميع الكائنات آيات له، شاهدة دالة مظهرة لما هو مستحق له من

(١) البخارى فى الأدب (٥٩٩٩) ومسلم في التوبة (٢٧٥٤/ ٢٢) عن عمر بن الخطاب .

الأسماء الحسنى، و الصفات العلى، وعن مقتضى أسمائه وصفاته خلق الكائنات.

فإن الرحم شُجْنَة [1]من الرحمن، خلق الرحم وشق لها من اسمه، وهو الرزاق ذو القوة المتين، يرزق من يشاء بغير حساب، وهو الهادي النصير، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وهو الحكيم العليم الرحيم، الذي أظهر من آثار علمه وحكمته ورحمته ما لا يحصيه إلا هو.

فهو رب العالمين ، والعالمون ممتلئون بما فيهم من آثار أسمائه وصفاته، وكل شيء يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، من الناس من يدرك ما فيها من الدلالة والشهادة بالعلم والمعرفة، ومن خرق الله سمعه سمع تأويب الجبال والطير ، وعلم منطق الطير.

فإذا فسر ظهوره وتجليه بهذا المعنى ، فهذا صحيح، ولكن لفظ الظهور والتجلي فيه إجمال، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وإذا قال القائل : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله؛ لأنه ربه، والرب متقدم على العبد، أو رأيت الله بعده، لأنه آياته ودليله وشاهده ، والعلم بالمدلول بعد الدليل، أو رأيت الله فيه، بمعنى ظهور آثار الصانع في صنعته، فهذا صحيح. بل القرآن كله يبين هذا ويدل عليه، وهو دين المرسلين، وسبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو اعتقاد المسلمين أهل السنة والجماعة، ومن يدخل فيهم من أهل العلم والإيمان، ذوي المعرفة واليقين أولياء الله المتقين.

فصل
في الغلط في ذلك

ثم إن كثيراً من أهل التوجه إلى الله إذا أقبلوا على ذكره وعبادته والإنابة إليه، شهدوا بقلوبهم هذه الربوبية الجامعة، وهذه الإحاطة العامة، فإنه بكل شيء محيط، وهو ـ سبحانه ـ الحق الذي خلق السموات والأرض، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وهو ـ سبحانه ـ نور السموات والأرض ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية[النور: ٣٥] .

(١) أي قرابة. انظر النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٤٧.

وهو ـ سبحانه ـ ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه. هكذا قال عبدالله بن مسعود: «لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض السقط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، أو النار، لو كشفها لأحرقت سبُحَات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[1] ،هكذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى.

فقد يشهد العبد القدر المشترك بين المصنوعات، وهو الحق الموجود فيها، الذي هو شامل لها، فيظن أنه الخالق، لمطابقته له في نوع من العموم، وإنما هو صنعه وخلقه، ثم قد يرتقي إلى حجاب من حجبه النورية أو النارية، فيظن أنه هو ، ثم يرتقي إلى نوره، وما يظهر من أثر صفاته، فقد يقع بعض هؤلاء في نحو من مذهب أهل الاتحاد المطلق العام، فإن تداركهم الله برحمته فاعتصموا بحبل الله واتبعوا هدى الله، علموا أن هذا كله مخلوق لله، وأن الخالق ليس هو المخلوق، وأن جميعهم عباد لله، وربما قد يقع هذا في نوع من الفناء أو السكر، فيكون مخطئا غالطا، وإن كان ذلك مغفورا له ، إذا كان بسبب غير محظور، كما ذكرنا نظيره في الاتحاد المعين.

فصل

وهو كما يشهد ربوبيته وتدبيره العالم المحيط وحكمته ورحمته، فكذلك يشهد إلهيته العامة، فإنه الذي في السماء إله وفي الأرض إله، إله في السماء، وإله في الأرض﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن: ٢٩]، وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾الآية [الأنعام: ٣] على أحد القولين، على وقف من يقف عند قوله ﴿وَفِي الأَرْضِ﴾ فإن المعنى: هو في السموات الله، و في الأرض الله، ليس فيهما من هو الله غيره.

وهذا وإن كان مشابها لقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾[الزخرف: ٨٤] فهو أبلغ منه. ونظيره قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقد قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ

---

(١) مسلم في الإيمان (١٧٩/٢٩٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٥) ، وأحمد ٤٠١/٤، ٤٠٥، ولم أعثر عليه عند البخاري.

تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[الحج: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٦، ٢٧] ، وقوله : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١، الصف: ١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١] ونحو ذلك من معاني ألوهيته، وخضوع الكائنات وإسلامها له ، وافتقارها إليه وسؤالها إياه، ودعاء الخلق إياه، إما دعاء عبادة ، وإما دعاء مسألة ، وإما دعاؤهما جميعا.

ومن أعرض عنه وقت الاختيار : ﴿ وَإِذَا (١) مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧] ، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل: ٦٢] ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه، فإنه باطل، إلا وجهه الكريم، كما نشهد أنها كلها مفتقرة إليه في مبدئها ، نشهد أنها مفتقرة إليه في منتهاها، وإلا كانت باطلة.

فهذه المعاني التي فيها تأله الكائنات إياه، وتعلقها به، والمعاني الأول التي فيها ربوبيته إياهم، وخلقه لهم ، يوجب أن يعلم أنه رب الناس ملك الناس إله الناس ، وأنه رب العالمين، لا إله إلا هو، والكائنات ليس لها من نفسها شيء، بل هي عدم محض ونفى صرف، وما بها من وجود فمنه وبه.

ثُم إنه إليه مصيرها ومرجعها ، وهو معبودها وإلهها ، لا يصلح أن يعبد إلا هو كما لم يخلقها إلا هو، لما هو مستحقه بنفسه ومتفرد به من نعوت الإلهية التي لا شريك له فيها، ولا سمى له، وليس كمثله شيء.

فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، وهو معنا أينما كنا، ونعلم أن معيته مع عباده على أنواع ، وهم فيها درجات.

---

(١) في المطبوعة : « فإذا» والصواب ما أثبتناه.

وكذلك ربوبيته لهم وعبوديتهم التي هم بها معبدون له، وكذلك ألوهيتهم إياه، وألوهيته لهم، وعبادتهم التي هم بها عابدون، وكذلك قربه منهم وقربهم منه.

فصـــل

فهذا فيما يشبه الاتحاد أو الحلول في معين، كنبي أو رجل صالح، ونحو ذلك .

قد بينا ما فيه من الحق المحض، وما فيه من الحق الملبوس بباطل، وسنبين إن شاء الله ما فيه من الباطل المحض.

وهذا القسم إنما يقع فيمن يعبد الله ـ سبحانه ـ ويتولاه، أو يظن به ذلك، فإنه بذلك تظهر ألوهية الله في عبده، وتظهر إنابة العبد إلى ربه، وموافقته له في محبته ورضاه ، وأمره ونهيه.

وقد يشتبه بهذا قسم آخر، وهو ما يظهره الرب من آثار ربوبيته في بعض عباده وإن كان ذلك ليس مأمورا به،ولا هو عبادة له،مثل ما يعطيه من ملكه وسلطانه بعض الملوك المسلطين، ممن قد يكون مسلماً ،وقد لا يكون، كفرعون وجنكسخان ونحوهما، وما يهبه من الرزق والمال لبعض عباده، وما يقسمه من الجمال لبعض عباده من الرجال والنساء.

وكذلك ما يهبه من العلوم والمعارف ، أو يهبه من الأحوال ، أو يعطيه من خوارق العادات من أنواع المكاشفات والتأثيرات، سواء كان هؤلاء مؤمنين، أو كفاراً مثل الأعور الدجال ونحوه.

فإنه في هذا القسم يقوم في العبد المعين من آثار الربوبية وأحكام القدرة أكثر مما يقوم بغيره، كما يقوم بالقسم الأول من آثار الألوهية وأحكام الشرع أكثر مما يقوم بغيره، وقد يجتمع القسمان في عبد، كما يجتمع في الملائكة والأنبياء والأولياء مثل نبينا ﷺ، والمسيح ابن مريم وغيرهما.

فهذا القسم وحده كاف في أحكام الكلمات الكونية ، كالقسم الأول في أحكام الكلمات الدينية، فإن الحوادث إنما تكون بمشيئة الله وقدرته، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ ويعوذ، ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجر.

فالكلمات التي بها كوّن الله الكائنات لا يخرج عنها بر ولا فاجر، فما من ملك ولا سلطان، ولا مال ولا جمال، ولا علم ولا حال ،ولا كشف ولا تصرف إلا وهو بمشيئته وقدرته، وكلماته التامات، ولكن من ذلك ما هو محبوب لله مأمور به، ومنه ما هو

مكروه لله منهي عنه بل مباح أو عفو. وإذا كان واقعاً بمشيئة الله وقدرته وكلمته، ولا يقدر على ذلك غيره وهو مضاف إلى الله من جهة ربوبيته وملكه، فبينه وبين القسم الأول من الاشتراك والمشابهة ما أوجب أن أقواماً غلطوا في أمر الله، فجعلوه في القسمين واحداً.

بل غلطوا ـ أيضا ـ في نفس الرب، فألحقوا بعض العباد المعبدين من القسم الثاني ببعض العباد العابدين من القسم الأول، ودخلوا في الاتحاد والحلول من هذا الوجه، حتى عبد من عبد فرعون والدجال، وعبد آخرون الصور الجميلة ونحو ذلك، ويزعمون أن هذا مظاهر الجمال، وكفر هؤلاء بالعبادات والإيمان تارة، وبالمعبود أخرى.

ولما كان المقصود هنا بيان الحق من ذلك، أو ما فيه حق، ذكرنا هذا.

أما الأول : فإن الله ـ سبحانه ـ قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلقه الكوني. فإن الله ـ سبحانه ـ خالق كل شيء، و رب كل شيء ومليكه، سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته شيء ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته.

وقد كذب ببعض ذلك القدرية المجوسية من هذه الأمة وغيرها، وهم الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال عباده من الملائكة والجن والإنس والبهائم، ولا يقدر على أن يفعل بعباده من الخير أكثر مما فعله بهم، بل ولا على أفعالهم، فليس هو على كل شيء قدير، أو أن ما كان من السيئات فهو واقع على خلاف مشيئته وإرادته. وهم ضلال مبتدعة، مخالفون للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، ولما عرف بالعقل والذوق.

ثم إنه قابلهم قوم شر منهم، وهم القدرية المشركية، الذين رأوا الأفعال واقعة بمشيئته وقدرته. فقالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ولو كره الله شيئا لأزاله، وما في العالم إلا ما يحبه الله ويرضاه، وما ثم عاص، وأنا كافر برب يعصى ، وإن كان هذا قد عصى الأمر فقد أطاع الإرادة، وربما استدلوا بالجبر، وجعلوا العبد مجبوراً، و المجبور معذور، والفعل لله فيه لا له، فلا لوم عليه.

فهؤلاء كافرون بكتب الله ورسله، وبأمر الله ونهيه، وثوابه وعقابه، ووعده ووعيده، ودينه وشرعه، كفراً لا ريب فيه، وهم أكفر من اليهود والنصارى ، بل أكفر من الصابئة والبراهمة الذين يقولون بالسياسات العقلية.

فإن هؤلاء كافرون بالديانات والشرائع الإلهية، وبالآيات والسياسات العقلية.

وأما الأولون: ففي تكفيرهم تفصيل ليس هذا موضعه.

وهؤلاء أعداء الله وأعداء جميع رسله، بل أعداء جميع عقلاء بني آدم، بل أعداء أنفسهم، فإن هذا القول لا يمكن أحداً أن يطرده، ولا يعمل به ساعة من زمان، إذ لازمه: ألا يدفع ظلم ظالم، ولا يعاقب معتد، ولا يعاقب مسيء لا بمثل إساءته، ولا بأكثر منها.

وأكثر هؤلاء إنما يشيرون إلى ذلك عند أهواء أنفسهم لرفع الملام عنهم، وإلا فإذا كان لهم هذا مع أحد قابلوه وقاتلوه واعتدوا عليه أيضا، ولا يقفون عند حد، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذِمَّة، بل هم كما قال الله: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢]، ظلمة جهال، مثل السبع العادي، يفعلون بحكم الأهواء المحضة، ويدفعون عن أنفسهم الملام والعذل، أو ما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالجبر الباطل، وبملاحظة القدر النافذ، معرضين عن الأمر والنهي، ولا يفعلون مثل ذلك بمن اعتدى عليهم وظلمهم وآذاهم، بل ولا بمن قصر في حقوقهم، بل ولا بمن أطاع الله، فأمر بما أمر الله به، ونهى عما نهى الله عنه، وقد بسطت الكلام في هؤلاء القدرية والقسم الأول، وذكرت القدرية الإبليسية في غير هذا الموضع، وإنما الغرض هنا التنبيه على معاقد الأقوال.

وقد فرق الله في كتابه بين القسمين ـ بين من قام بكلماته الكونيات، وبين من اتبع كلماته الدينيات ـ وذلك في أمره وإرادته وقضائه، وحكمه وإذنه وبعثه وإرساله، فقال في الأمر الديني الشرعي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧].

وقال في الأمر الكوني القدري: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] على أحد الأقوال.

وقال في الإرادة الدينية الشرعية: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦].

وقال في الإرادة الكونية القدرية: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ

لَكُمْ إن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي : هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا ؟ فإن التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية، وإن كان مستلزماً للإرادة الدينية الشرعية.

وقال في الإذن الديني: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥].

وقال في الإذن الكوني : ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال في القضاء الديني : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: أمر ربك بذلك.

وقال في القضاء الكوني : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال في الحكم الديني : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١]، وقال: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال في الحكم الكوني: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠].

وقد يجمع الحكمين مثل ما في قوله: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧]، وكذلك فعله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

وقال في البعثين والإرسالين : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]، وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥]، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقد قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[مريم: ٨٣]، وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

فصــل

وأما كفرهم بالمعبود، فإذا كان لهم في بعض المخلوقات هوى فقد يعبدونه بشبهة الحلول أو الاتحاد الفاسد، مثل من يعبد الصور الجميلة ، ويقول : هذا مظهر الجمال ، أو الملك المطاع الجبار، ويقول : هو مظهر الجلال ، أو مظهر رباني ونحو ذلك ، وليس في هذه المخلوقات نوع من الاتحاد أو الحلول الحق، لكن يشبه ما فيه الحق من جهة ، إذ كلاهما بالله ومن الله، وأنه لله، ولهذا يسوى بينهما أهل الحلول والاتحاد المطلق ، كما سنبينه إن شاء الله.

فهؤلاء الاتحادية والحلولية ـ الذين يخصونه ببعض المصنوعات التي ليس فيها عبادة وإثابة ـ هم فرع على أولئك ، ليس معهم من الحق شيء ولا شبهة حق، كما مع أولئك ألفاظ متشابهة عن بعض الأنبياء والصالحين ، ولكن مع هؤلاء قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، و ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، وقول الدجال: «أنا ربكم» ونحو ذلك .

فهذه الألفاظ التي معهم من ألفاظ الكفار والمنافقين، ومعهم تشبيه الكونيات بالدينيات، والكونيات عامة لا اختصاص فيها، فلهذا كان هؤلاء أدخل في الاتحاد والحلول المطلق منهم في المعين، اعتقادا وقولا، وإن كانوا من جهة الحال والهوى يخصون بعض الأعيان ـ كما هو الواقع ـ لشبهة اختصاصه ببعض الأحكام الكونية، وسنتكلم عليهم إن شاء الله في الحلول الفاسد.

وإنما ذكرتهم هنا لما أردت أن أذكر كل ما فيه شَوْبُ (١) اتحاد أو حلول بحق، فنبهت على ذلك ليفطن لموضع ضلالهم، فإذا علم حقيقة هذه الأمور علم حقيقة قول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل(٢)

فإن الباطل ضد الحق، والله هو الحق المبين.

والحق له معنيان، أحدهما: الوجود الثابت، والثاني: المقصود النافع، كقول النبي

---

(١) أي : خلط. انظر: مختار الصحاح ، مادة «شوب».

(٢) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١) وفي الأدب (٦١٤٧) ومسلم في الشعر (٦/٢٢٥٦) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧)، وأحمد ٢/٢٤٨، ٣٩٣، ٤٧٠، كلهم عن أبي هريرة.

ﷺ: «الوتر حق»[1].

والباطل نوعان أيضا:

أحدهما : المعدوم. وإذا كان معدوما كان اعتقاد وجوده والخبر عن وجوده باطلا، لأن الاعتقاد والخبر تابع للمعتقد المخبر عنه، يصح بصحته، ويبطل ببطلانه، فإذا كان المعتقد المخبر عنه باطلا كان الاعتقاد والخبر كذلك، وهو الكذب.

الثاني : ما ليس بنافع ولا مفيد، كقوله تعالى : **﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾** [ص:٢٧]، وكقول النبي ﷺ :«كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته فإنهن من الحق» [2]،وقوله عن عمر: « إن هذا رجل لا يحب الباطل» [3].وما لا منفعة فيه : فالأمر به باطل ، وقصده وعمله باطل، إذ العمل به والقصد إليه والأمر به باطل.

ومن هذا قول العلماء : العبادات والعقود تنقسم إلى صحيح وباطل .

فالصحيح : ما ترتب عليه أثره، وحصل به مقصوده.

والباطل: ما لم يترتب عليه أثره، ولم يحصل به مقصوده؛ ولهذا كانت أعمال الكفار باطلا.

فإن الكافر من جهة كونه كافراً يعتقد ما لا وجود له، ويخبر عنه فيكون ذلك باطلا، ويعبد ما لا تنفعه عبادته، ويعمل له ويأمر به فيكون ذلك أيضا باطلا.

ولكن لما كان لهم أعمال وأقوال صاروا يشبهون أهل الحق ، فلذلك قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** [النور:٣٩] ،وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ .ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** [محمد:١-٣٣]، وقال: **﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾** [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى :**﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**

---

(١) أبو داود في الصلاة (١٤١٩) عن عبد الله بن بريدة .

(٢) الترمذي في فضائل الجهاد(١٦٣٧) وقال: « هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه في الجهاد(٢٨١١).

(٣) أحمد ٣ / ٤٣٥ ، وذكره الهيثمي في المجمع ٩ / ٦٩ وقال : « رواه أحمد والطبراني بنحوه » .

وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فبين أن المن والأذى يبطل الصدقة، فيجعلها باطلا، لا حقا، كما يبطل الرياء وعدم الإيمان الإنفاق أيضا. وقد عمم بقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] أي: لا تَجعلوها باطلة، لا منفعة فيها ولا ثواب، ولا فائدة.

وقد غلط طائفة من الناس من الاتحادية وغيرهم، كابن عربي، فرأوا أن الحق هو الموجود، فكل موجود حق. فقالوا: ما في العالم باطل، إذ ليس في العالم عدم.

قالوا: والكفر إنما هو عدم وجود الشريك مثلا.

وإنما أتوا من جهة اللفظ المجمل.

فإن الشيء له مرتبتان: مرتبة باعتبار ذاته، فهو إما موجود، فيكون حقا، وإما معدوم، فيكون باطلا. ومرتبة باعتبار وجوده في الأذهان واللسان والبنان، وهو العلم والقول والكتاب، فالاعتقاد والخبر والكتابة أمور تابعة للشيء، فإن كانت مطابقة موافقة كانت حقا، وإلا كانت باطلا، فإذا أخبرنا عن الحق الموجود أنه حق موجود، وعن الباطل المعدوم أنه باطل معدوم، كان الخبر والاعتقاد حقا، وإن كان بالعكس كان باطلا، وإن كان الخبر والاعتقاد أمراً موجوداً. فكونه حقاً أو باطلا باعتبار حقيقته المخبر عنها، لا باعتبار نفسه.

ولا يجوز إطلاق القول بأنه حق لمجرد كونه موجوداً إلا بقرينة تبين المراد.

وهكذا العمل والقصد والأمر إنما هو حق باعتبار حقيقته المقصودة، فإن حصلت وكانت نافعة، كان حقاً، وإن لم تحصل، أو حصل ما لا منفعة فيه كان باطلا.

وبهذين الاعتبارين يصير في الوجود ما هو من الباطل، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، مع ما يوافق ذلك من عقل وذوق وكشف، خلاف زعم هذه الطائفة الضالة المضلة.

قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

شبه ما ينزل من السماء على القلوب من الإيمان والقرآن، فيختلط بالشبهات والأهواء

لمغوية بالمطر الذي يحتمل سيله الزبد، وبالذهب والفضة والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار، فاحتمل الزبد فقذفه بعيداً عن القلب، وجعل ذلك الزبد هو مثل ذلك الباطل الذي لا منفعة فيه، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مثل الحق النافع، فيستقر ويبقى في القلب.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾ [محمد: ١ـ٣].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن سبب إضلال أعمال هؤلاء الذين كفروا حتى لم تنفعهم، وأن أعمال هؤلاء الذين آمَنوا نفعتهم، فكفرت سيئاتهم وأصلح الله بالهم ـ أن هؤلاء اتبعوا الباطل قولا وعملاً ، اعتقاداً واقتصاداً ، خبراً وأمراً، وهؤلاء اتبعوا الحق من ربهم، ولم يتبعوا ما هو من غير ربهم، وإن كان حقا من وجه.

وهذا تحقيق ما قلناه، فإن الخبر والعمل تابع للمخبر عنه، وللمقصود بالعمل ،فإذا كان ذلك باطلا لاحقيقة له كان التابع كذلك، وإن كان موجوداً.

وكذلك ما تقدم من قوله: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿**وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد:٣٣] ونحو ذلك من إبطال ما قد مضى ووجد ، إنما هو عدم لعدم فائدته لا عدم ذاته، فإن ذاته انقضت كما انقضى ما لم يبطل من الأعمال، فكيف يقال: لا باطل في الوجود؟ ثم يجعل هذا ذريعة إلى أن ذلك الموجود الذي فيه الحق والباطل هو عين الله؛ لأنه هو الحق، ولا يميز بين الحق الخالق والحق المخلوق؟

فتدبر ، كيف اشتمل مثل هذا الكلام على هاتين المقدمتين الباطلتين؟ وكيف استزلوا عقول الضعفاء بهذه الشبهة؟

وقالوا : قوله: « ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1] والباطل هو المعدوم، فكل ما سوى الله معدوم، والموجود ليس بمعدوم، فالموجود ليس فيه سوى ، وإنما السوى هو العدم.

فإن هذا مبني على المقدمتين الباطلتين:

إحداهما: قولهم: إن الباطل هو المعدوم،فإنه ليس كذلك، بل المعدوم باطل، وليس كل موجود باطلا، بل في الموجود ما هو حق ، وفيه ما هو باطل، كما تقدم، وهو

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٠ .

الأعمال التي لا تنفع، والأخبار التي ليست بصدق، وما يندرج في هذين من المقاصد والعقائد.

الثانية : لوكان لا باطل إلا المعدوم، لكان الموجود حقاً ،وكل موجود فقد يسمى حقا مع القرينة المفسرة باعتبار وجوده، وإن كان باطلا، لانتفاء حقيقته التي بها جاز إطلاق الحق عليه، لكان الحق حقان: حق خالق، وحق مخلوق.

وقد كان النبي ﷺ ـ في الحديث المتفق عليه، الذي رواه ابن عباس ـ يقول إذا قام من الليل: « اللهم، لك الحمد، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق ، ووعدك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم، لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت»(1).

وإذا ظهر أن في الوجود ما هو باطل في الحقيقة، ومنه ما هو حق من مخلوقات الله، ليس هو الله ، ظهر تمويههم بقولهم: إن الباطل هو السوى، وهو العدم، وأما الموجود فهو هو.

وأيضا، فنفس الحديث حجة عليهم. فإن قوله : « ألا كُل شيء ما خلا الله باطل» لفظ عام يدخل فيه كل موجود سوى الله، فإن لفظ: «الشيء» يعم كل الموجود بالاتفاق، ويدخل فيه ما له وجود ذهني، أو لفظي أو رسمي كتابي وإن لم يكن له وجود حقيقي من المعدومات والممتنعات، فهذا نص في أن كثيراً من الموجودات باطل، ولا يجوز أن يراد به كل معدوم ما خلا الله، فهو باطل لخمسة(2) أوجه:

أحدها : أنه قد استثنى الله ـ تعالى ـ وهو الحق المبين، من لفظ إثبات، ومثل هذا الاستثناء يدل على التناول، بخلاف الاستثناء من غير موجب، كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء:١٥٧] فإن ذلك لا يدل على التناول ، فلوا كان التقدير : كل معدوم ما خلا الله باطل، للزم أن يكون الحق تعالى معدوماً وهذا أبطل الباطل.

الثاني : أن« كل شيء» نص في الوجود، لا يجوز قصرها على المعدومات بالاتفاق.

---

(1) البخارى فى التجهد (١١٢٠) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٩/١٩٩) .

(2) في المطبوعة :«الثلاثة».

الثالث : أن المعدوم لا يدخل في لفظ «كل شيء» عند أهل السنة وعامة العقلاء، فضلا عن كونه يختص به.

الرابع : أنه لو كان المعنى: كل معدوم فهو باطل، لكان هذا من باب تحصيل الحاصل، بل لفظ «العدم» أدل على النفي من لفظ الباطل. فكيف يبين الجلي بالخفي؟

الخامس: أنه لو أراد هذا لقال: «كل ما سوى الله باطل» فإنه هذه العبارة أقرب إلى احتمال مراد هؤلاء الملاحدة من هذا اللفظ، وإن كانت تلك العبارة لا تدل أيضا على مرادهم.

وإذا لم يكن معنى الحديث ما ادعوه، فقد عرف أن كل ما سوى الله فهو باطل بوجهي الباطل اللذين تقدم تفسيرهما:

أحدهما: وهو المقصود النافع . والباطل ما لا منفعة في قصده، وكل شيء ما خلا الله ـ إذا كان له القصد والعمل ـ كان ذلك باطلا، والأمر به باطل وهذا يشبه حال المشركين، الذين كانوا يعبدون غير الله أو يعبدون الله بغير أمر الله ولا شرعه.

فإن قيل : فالباطل هو نفس القصد والعمل لا نفس العين المقصودة.

قلت: بل نفس العين المقصودة باطل بالاعتبار الذي قصدت له، كما جاء في الحديث: «أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم»[1].

وذلك أنه إذا كان الباطل في الأصل هو العدم، والعدم هو المنفي، فالشيء ينفى لانتفاء وجوده في الجملة ، كقوله تعالى: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص :٣، ٤] و﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى:١١]، وقوله :﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ** ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقوله: ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [الصافات:٣٥]، وقول النبي ﷺ :«لا نبي بعدي» [2].

وقد ينفى لانتفاء فائدته ومقصوده وخاصته التي هو بها هو، كما ذكرناه، فإن ما لا فائدة فيه فهو باطل، والباطل معدوم، وهذا كقوله ﷺ لما سئل عن الكهان: «ليسوا بشيء»[3] ،ومنه قوله تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [المائدة:٦٨].

وقد ينفى الشيء لانتفاء كماله وتمامه، إما مطلقاً، وإما بالنسبة إلى غيره، كقول النبي

---

(١) لم نقف عليه . (٢) سبق تخريجه ص ٤٣ .

(٣) البخاري في الطب (٥٧٦٢) ومسلم في السلام (٢٢٢٨/١٢٣) عن عائشة .

ﷺ: « ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، وإنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يتفطن له فيتصدق عليه،ولا يسأل الناس إلحافاً»[1].
ونحو ذلك قوله في المفلس والرقوب[2]، ونظائر كل من هذه الأقسام الثلاثة كثيرة.

فالشيء المقصود لأمر هو باطل منتف إذا انتفت فائدته ومقصوده، فكل ما سوى الله لا يجوز أن يكون معبودا ولا مستعانا، فقد انتفى مما سوى الله هذا المعنى المقصود، فهو باطل ، وكل ما سوى الله لا يجوز أن يكون صمداً مقصودا ولا معبودا، ولا فائدة في قصده، ولا منفعة في عبادته واستعانته، فهو باطل وهذا واضح، وهذا عموم محفوظ لا يستثنى منه شيء.

وبيان ذلك: أن كل ما سوى الله فإما أن يقصد لنفسه، وإما أن يقصد لغيره.

فالمقصود لغيره: مثل ما يقصد الخبز للأكل ، والثوب للبس، والسلاح للدفع، ونحو ذلك، وهو ما خلقه الله لنفع بني آدم من الأعيان ، فإن هذه إنما تقصد لغيرها لا لذاتها، وكذلك المال الذي يقصد به جلب منفعة أو دفع مضرة إنما يقصد لغيره، لا لنفسه، وكل ما قصد لغيره فإنما المقصود في الحقيقة ذلك الغير.

وهذا مراد له بحيث أن حصل ذلك الغير المقصود لنفسه وإلا كان هذا مما لا فائدة فيه ولا منفعة ، فيكون من باب الباطل الذي ينفى، ويقال فيه : ليس بشيء، وهو باطل ، ويلحق بالمعدوم.

فثبت أنه إن لم يحصل في كل قصد مقصود لنفسه، وإلا كان باطلا، والمقصود لنفسه إن لم يكن هو الله كان باطلا، فإن المقصود لنفسه هو المعبود. ومن عَبَدَ غير الله كان باطلا، وعبادته باطلة، لأنه لا منفعة فيه ولا في عبادته، بل ذلك ضرر محض، قال الله تعالى: ﴿ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج:١٣] وهذا عام في كل معبود، وهذا حقيقة الدين.

فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض ليستعينوا به على عبادته ، فمن لم يستعن بهذه الأشياء على عبادته فعمله كله وقصده باطل، ولا منفعة فيه، بل فيه الضرر.

---

(١) البخاري في التفسير (٤٥٣٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠٣٩/١٠١) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٣١)، وأحمد ٢/ ٢٦٠، ٣١٦، ٣٩٥، ٤٤٥، ٤٦٩، ٥٠٦، كلهم عن أبي هريرة.

(٢) هو الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٤٩.

فثبت أن كل قصد ومقصود سوى الله باطل، سواء كان مقصوداً لنفسه أو لغيره سوى الله، وإنما الحق أن يقصد الله، أو يقصد ما يستعان به على قصد الله. وهذا تحقيق قوله: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1] بأحد وجهي الحق والباطل، وهو كونه مقصوداً ومطلوبا، وهو أظهر وجهيه.

الثاني: أن كل ما خلا الله فهو معدوم بنفسه، ليس له من نفسه وجود، ولا حركة ولا عمل، ولا نفع لغيره منه، إذ ذلك جميعه خلق الله وإبداعه وبرؤه وتصويره، فكل الأشياء إذا تخلى عنها الله فهي باطل، يكفي في عدمها وبطلانها نفس تخليه عنها، وألا يقيمها هو بخلقه ورزقه، وإذا كانت باطلة في أنفسها ـ والحق إنما هو لله وبالله ومن الله ـ صدق قول القائل: ألا كل شيء ما خلا الله باطل باعتبارين:

أحدهما: أن صنعه على هذا التقدير ليس مستغنيا عنه، ولا قائما بسواه، ولا خارجا عنه، فأدخل في اسمه على سبيل التبع، لا لأنه جزء من المسمى، وكثيراً ما يدخل في الاسم الجامع والأسماء العامة أشياء على سبيل التبع، لا لأنها جزء من المسمى، كما لو قال: بعتك هذا الفرس، دخل فيه نعله، ولو قال القائل: دخل زيد إلى داري، كانت ثيابه داخلة في حكم اسمه، وكذلك إذا قيل: حملت زيداً، وركب زيد على الدابة، وإذا قيل: بنو هاشم، دخل فيهم مواليهم؛ لقوله ﷺ: «مولى القوم منهم»[2] وقد يدخل فيهم الحليف وابن الأخت، وهذا مشهور في كلام العرب وأهل المغازي.

الاعتبار الثاني: أن القائل إذا قال: جاء القوم ما خلا زيداً، فإن «خلا» هنا فعل ناقص من أخوات «كان» وزيدا منصوب به، وفيه ضمير مرفوع، وذلك الضمير عائد على «ما» أخت الذي، وهي الموصولة، وهذه الجملة صلة «ما» وكان تقدير الكلام: قام القوم الذين هم خلا زيداً، لكن «ما» يحتمل الواحد والاثنين والجميع، والضمير يعود إلى لفظها أكثر من معناها، فقوله: رأيت ما رأيته من الرجال، أحسن من قولك: ما رأيتهم من الرجال. وباب: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥، محمد: ١٦] أكثر وأفصح من قوله: «من يستمعون»؛ ولهذا قوي، فصار ما خلا زيداً، يقوم مقام الذي

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٠.

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٢٨) وفي الفرائض (٦٧٦١، ٦٧٦٢)، وأبو داود في الزكاة (١٦٥٠)، والترمذي في الزكاة (٦٥٧) والنسائي في الزكاة، (٢٦١٢) والدارمي في السير ٢/ ٢٤٣، ٢٤٤، وأحمد٣/٤٤٨، ٤/ ٣٥، ٣٤٠، ٦/ ٨، ١٠.

خلا، والذين خلوا، واللاتي خلون، ونحو ذلك. تقول : قامت النسوة ما خلا هندا.

ولفظ «ما» إما أن يكون له موضع من الإعراب ، وهو الوصف لما قبله، أو النصب على الحال ، أو لا موضع له. وإذا كان التقدير : كل شيء في حال خلوه عن الله باطل، أو كل شيء خلا الله فهو باطل، أو كل الأشياء حال كونها خلت الله، أو التي خلت الله باطل، فخلوها الله قد يتضمن معنى خلوها منه.

ومعلوم أنها متى خلته، أي خلت منه كان باطلا، وإنما قيامها بألا تتخلى منه، بل تتقوم به. وهذا. . . [1] في الأصل دون غيره من أدوات الاستثناء.

وأصل هذا المعنى مقصود من هذا . . .[2] في قول النبي ﷺ .

وهذا التوحيد وتفسيره المذكور في قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3] هو نحو مما ذكر في قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ** ﴾ بعد قوله: ﴿ **فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ . وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٨٦ ـ ٨٨]. فإن ذكره ذلك بعد نهيه عن الإشراك، وأن يدعو معه إلها آخر، وقوله : «لا إله إلا هو» يقتضى أظهر الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان والأعمال وغيرهما.

روى عن أبي العالية قال: إلا ما أريد به وجهه. وعن جعفر الصادق : إلا دينه. ومعناهما واحد.

وقد روى عن عبادة بن الصامت قال: يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميِّزوا ما كان لله منها. قال : فيماز ما كان لله منها، ثم يؤمر بسائرها فيلقى في النار.

وقد روى عن على ما يعم . ففي تفسير الثعلبي عن صالح بن محمد، عن سليمان ابن عمرو، عن سالم الأفطس، عن الحسن وسعيد بن جبير، عن على بن أبي طالب: أن رجلا سأله، فلم يعطه شيئا. فقال : أسألك بوجه الله. فقال له على : كذبت ليس بوجه الله سألتني، إنما وجه الله الحق، ألا ترى إلى قوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ يعني الحق ـ ولكن سألتني بوجهك الخلق. وعن مجاهد: إلا هو. وعن الضحاك كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار، والعرش. وعن ابن كيسان: إلا ملكه.

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٥٠.

وذلك أن لفظ « الوجه» يشبه أن يكون في الأصل مثل الجهة، كالوعد والعدة، والوزن والزنة، والوصل والصلة، والوسم والسمة، لكن فعله حذفت فاؤها وهي أخص من الفعل ، كالأكل والأكلة. فيكون مصدراً بمعنى التوجه والقصد ، كما قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه   رب العباد إليه الوجه والعمل

ثم إنه يسمى به المفعول، وهو المقصود المتوجه إليه، كما في اسم الخلق، ودرهم ضرب الأمير ونظائره ، ويسمى به الفاعل المتوجه، كوجه الحيوان، يقال : أردت هذا الوجه، أي هذه الجهة والناحية. ومنه قوله : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١١٥] أي: قبلة الله ووجهة الله، هكذا قال جمهور السلف، وإن عدها بعضهم في الصفات، وقد يدل على الصفة بوجه فيه نظر، وذلك أن معني قوله: ﴿**فَأَيْنَمَا**[(١)] **تُوَلُّوا**﴾ أي: تتولوا، أي تتوجهوا وتستقبلوا يتعدى إلى مفعول واحد، بمعني يتولاها، ونظير: «ولى وتولى» : قدم وتقدم، وبين وتبين، كما قال: ﴿**لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [الحجرات:١]، وقال : ﴿**بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ [النساء:١٩،الأحزاب:٣٠] وهو الوجه الذي لله، والذي أمر الله أن نستقبل. فإن قوله:﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ يدل على أن وجه الله هناك من المشرق والمغرب الذي هو لله، كما في آية القبلة : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:١٤٢].

فلما سألوا عن سبب التولي عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب.

وأما لفظ «وجهة» مثل قوله:﴿ **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا** ﴾ [البقرة:١٤٨]، فقد يظن أيضا أنه مصدر كالوجه، كالوعدة مع الوعد ، وأنها تركت صحيحة فلم تحذف فاؤها ، وليس كذلك.

لأنه لو كان مصدرا لحذفت واوه، وهو الجهة . وكان يقال: ولكل جهة أو وجه ، وإنما الفعلة هنا بمعنى المفعول ، كالقبلة والبدعة، والذبحة ونحو ذلك . فالقبلة: ما استقبل ، والوجهة: ما توجه إليه، والبدعة: ما ابتدع، والذبحة: ما ذبح ، ولهذا صح ولم تحذف فاؤه؛ لأن الحذف إنما هو من المصدر لا من بقية الأسماء ، كالصفات وما يشبهها، مثل أسماء الأمكنة والأزمنة، والآلات والمفاعيل وغير ذلك .

وأما قول بعض الفقهاء : إن الوجه مشتق من المواجهة: فلا دليل عليه، بل قد

---

(١) في المطبوعة :«أينما» والصواب ما أثبتناه.

عارضه من قال : هو مشتق من الوجاهة، وكلاهما ضعيف. وإنما المواجهة مشتقة من الوجه ، كما أن المشافهة مشتقة من الشفة، والمناظرة ـ بمعنى المقابلة ـ مشتقة من النظر، والمعاينة من العين.

وأما اشتقاق الوجه الذي هو المتوجه، من الوجه الذي هو التوجه، فهذا أشبه؛ لأن توجهه: هو فعله المختص به الذي لا يفتقر فيه إلى غيره، بخلاف المواجهة، فإنها تستدعي اثنين، والإنسان هو حارث همام ، وهمه هو توجهه، وإنما يتوجه بهذا العضو إلى أي شيء أراده وتوجه إليه.

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [البقرة:١١٢] ،وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:١٢٥] ،وقول الخليل ونبينا والمؤمنين في الصلاة: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]، وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]، وقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم:٤٣]، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:١٠٥]، وقول النبي ﷺ للذي علمه دعاء النوم: «اللهم، أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك»[1] ،وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

أسلمت وجهي لمن أسلمت ... لـه المزن تحمل عذبـاً زلالا

فهذه ثلاثة ألفاظ : أسلم وجهه، ووجَّه وجهه، وأقام وجهه.

قال قدماء المفسرين في قوله تعالى: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ [البقرة:١١٢] أي: أخلص في دينه وعمله لله، وقال بعضهم: فوَّض أمره إلى الله ، وقد قيل : خضع وتواضع لله.

وهذا الثالث يليق بالإسلام اللازم، فإن وجهه هو قصده، وتوجهه الذي هو أصل عمله، وهو عمل قلبه الذي هو ملك بدنه، فإذا توجه قلبه تبعه أيضا توجه وجهه، فاستتبع القصد الذي هو الأصل من القلب، الذي هو الأصل للعمل، الذي هو تبع من

(١) البخاري في الوضوء(٢٤٧) وفي الدعوات (٦٣١١)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧١٠/٥٦، ٥٧)، والترمذي في الدعوات (٣٥٧٤) كلهم عن البراء بن عازب.

الوجه وسائر البدن الذي هو تبع، فيكون قد أسلم عمله الباطن والظاهر، وأعضاءه الباطنة والظاهرة لله، أي سلمه له، وأخلصه لله، كما في الإسلام اللازم، وهو قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وقوله عن بلقيس: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقوله عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨] أي: منقادة مخلصة.

وكذلك توجيه الوجه للذي فطر السموات والأرض: توجيه قصده، وإرادته وعبادته، وذلك يستتبع الوجه وغيره، وإلا فمجرد توجيه العضو من غير عمل القلب لا يفيد شيئا.

قال الزجاج في قوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام:٧٩]، أي جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله رب العالمين، كذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف:٢٩]، فإن الوجوه التي هي المقاصد، والنيات التي هي عمل القلب، وهي أصل الدين: تارة تقام وتارة تزاغ، كما قال النبي ﷺ: «ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[1]. فإقامة الوجه ضد إزاغته وإمالته، وهو الصراط المستقيم.

فإذا قوم قصده وسدده ولم ينحرف يمينا ولا شمالا كان قصده لله رب العالمين، كما قال: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور:٣٥]، وكذلك قال الربيع بن أنس: اجعلوا سجودكم خالصا لله، فلا تسجدوا إلا لله.

وروى عن الضحاك وابن قتيبة: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم: أصلي في مسجدي. كأنه أراد: صلوا لله عند كل مسجد، لا تخصوا مسجداً دون مسجد.

وعلى هذين القولين يتوجه ما ذكرناه.

وروي عن مجاهد والسدي وابن زيد: توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة.

وعلى هذا، فإقامة الوجه استقبال الكعبة وهذا فيه نظر، فإن هذه الآية مكية، والكعبة إنما فرضت في المدينة، إلا أن يراد بإقامة الوجه الاستقبال المأمور به.

وإنما وقع النزاع هنا لقوله تعالى: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٢٩]، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم:٣٠].

فقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] أي: دينه وإرادته وعبادته، والمصدر

---

(١) مسلم في القدر(٢٦٥٤/١٧)، وأحمد ١٨٢/٤، والترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) واللفظ لأحمد.

يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى، وهو قولهم : ما أريد به وجهه، وهو نظير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]. فكُلٌّ معبود دون الله باطل، وكل ما لا يكون لوجهه فهو هالك فاسد باطل، وسياق الآية يدل عليه وفيه المعنى الآخر.

فإن الإلهية تستلزم الربوبية، ولهذا قال :﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وفي هذا قول آخر، يقوله كثير من أهل العلم : أن الوجه في مثل قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ [البقرة: ١١٢] و﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس: ١٠٥] و﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٩]: هو الوجه الظاهر، كما أنه كذلك بالاتفاق في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾، وفي قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وفي قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة :٦].

وقد جاء الوجه في صفات الله في مواضع من الكتاب والسنة ، ليس هذا موضعها.

قالوا: لكن الوجه إذا وجه تبعه سائر الإنسان، وإذا أسلم فقد أسلم سائر الإنسان، وإذا أقيم فقد أقيم سائره؛ لأنه هو المتوجه أولا من الأعضاء الظاهرة للقاصد الطالب؛ ولهذا يذكر كثيراً على وجه الاستلزام لسائر صاحبه،ويعبر به عنه، لكن هل هذا من باب الحقيقة العرفية التي تقلب الاسم من الخصوص إلى العموم، أو الحقيقة اللغوية باقية، وهو من باب الدلالة اللزومية ؟ فيه قولان.

وكذلك في سائر الأعضاء،حتى لو قال لعبده: يدك،أو رجلك حر،أو قال لزوجته: يدك أو رجلك طالق إن أعطيتني ألفاً، ثم قطع العضو قبل الإعطاء، فمن قال: إن اللفظ عبارة عن الجميع أوقع الطلاق والعتق. ومن قال: إن الاسم للعضو فقط، لم يسر العتق عنده إلى سائر الجملة؛لعدم تبعيضه. وقال:إنه لا يقع شيء في هذه الصورة.

وإلى هذا الأصل يعود معني قول من قال : كل شيء هالك إلا وجهه، كما قد قيل في قوله :﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فإن بقاء وجهه المذوى بالجلال والإكرام، هو بقاء ذاته.

فصـــل

وأما اتحاد ذات العبد بذات الرب، بل اتحاد ذات عبد بذات عبد، أو حلول حقيقة في حقيقة ـ كحلول الماء في الوعاء ـ فهذا باطل قطعاً، بل ذلك باطل في العبد مع العبد، فإنه لا تتحد ذاته بذاته، ولا تحل ذات أحدهما في ذات الآخر.

وهذا هو الذي وقعت فيه الاتحادية والحلولية من النصارى وغيرهم، من غالية هذه الأمة وغيرها، وهو اتحاد متجدد بين ذاتين كانتا متميزتين، فصارتا متحدتين، أو حلول إحداهما في الأخرى، فهذا بيِّن البطلان.

وأبطل منه قول من يقول : ما زال واحدا وما ثم تعدد أصلا، وإنما التعدد في الحجاب، فلما انكشف الأمر رأيت أني أنا، وكل شيء هو الله، سواء قال بالوحدة مطلقاً، أو بوحدة الوجود المطلق، دون المعين، أو بوحدة الوجود دون الأعيان الثابتة في العدم.

فهذه وما قبلها مذاهب أهل الكفر والضلال، كما أن الأولى مذهب أهل الإيمان والعلم، والهدى.

ومن كفر بالحق من ذلك أو آمن بالباطل. فهما في طرفي نقيض . كاليهود والنصارى.

وأما المؤمنون، فيؤمنون بحق ذلك دون باطله، وكتاب الله وسنة رسوله فيهما الهدى والنور، وفيهما بيان الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فأما إثبات الحق من ذلك ، وهو ما يحصل لأنبياء الله وأوليائه، الذين هم المتقون من السابقين والمقتصدين، وما قد يحصل من ذلك لكل مؤمن، مثل محبتهم لله تعالى ، ومحبته لهم، ورضوانهم عنه، ورضوانه عنهم، فقد قال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى :﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ٧٦] ،وقال تعالى:﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة: ٧]، وقال: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٤]، وقال: ﴿فَأْتُوهُنَّ(١) مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

---

(١) في المطبوعة :« فاتوهن» والصواب ما أثبتناه.

﴿الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[النساء: ١٢٥] وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[البينة: ٧، ٨].

وقال النبي ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[(١)]، «إن الله جميل يحب الجمال»[(٢)]، «إن الله نظيف يحب النظافة»[(٣)]، «إن الله وتر يحب الوتر»[(٤)]، «إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سَفْسَافَها»[(٥)]، وقال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أموركم»[(٦)].

وفي القرآن من ذكر الاصطفاء والاجتباء والتقريب والمناجاة والمناداة والخلة ونحو ذلك، ما هو كثير، وكذلك في السنة.

وهذا مما اتفق عليه قدماء أهل السنة والجماعة، وأهل المعرفة والعبادة والعلم والإيمان.

وخالف في حقيقته قوم من الملحدة المنافقين، المضارعين للصابئين ومن وافقهم، والمضارعين لليهود والنصارى، من الجهمية أو من فيه تجهم، وإن كان الغالب عليه السنة.

---

(١) مسلم في الزهد (٢٩٦٥/١١)، وأحمد ١/١٦٩، ١٧٧ عن عامر بن سعد بن أبي وقاص.

(٢) مسلم في الإيمان (٩١/١٤٧) عن عبد الله بن مسعود، وأحمد١/١٣٣، ١٣٤ عن أبي ريحانة.

(٣) الترمذي في الأدب (٢٧٩٩) وقال: «حديث غريب، وخالد بن إلياس يضعف»، عن سعيد بن المسيب.

(٤) البخاري في الدعوات (٦٤١٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٧/ ٥، ٦)، وأبو داود في الصلاة (١٤١٦)، والترمذي في الصلاة (٤٥٣)، والنسائي في قيام الليل (١٦٧٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٦٩) وأحمد ١/ ١١٠، ١٤٣.

(٥) الطبراني في الأوسط (٢٩٤٠) والهيثمي في المجمع عن جابر ٨/ ١٩١ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفه».

(٦) مالك فى الموطأ فى كتاب الكلام (٢٠)، وأحمد ٢/ ٣٦٧ عن أبي هريرة.

فتارة ينكرون أن الله يخالل أحدا، أو يحب أحداً ، أو يواد أحدا ، أو يكلم أحدا، أو يتكلم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيفسرون ذلك تارة بإحسانه إلى عباده، وتارة بإرادته الإحسان إليهم، وتارة ينكرون أن الله يحب أو يخالل.

ويحرفون الكلم عن مواضعه في محبة العبد له، بأنه إرادة طاعته، أو محبته على إحسانه.

وأما إنكار الباطل، فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد، وكفر من جعل له ولداً أو والدا أو شريكا، فقال تعالى في السورة التي تعدل ثلث القرآن ـ التي هي صفة الرحمن، ولم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن ما صح في فضلها ، حتى أفرد الحفاظ مصنفات في فضلها، كالدارقطني، وأبي نعيم، وأبي محمد الخلال، وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة ـ قال فيها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[سورة الإخلاص].

وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة في التوحيد ، كالإمام أحمد، والفضيل بن عياض، وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم.

فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء، وهي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن، بل والنبات ونحو ذلك، فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولابد أن يكون له شيء يناسبه، إما أصل ، وإما فرع، وإما نظير، أو اثنان من ذلك، أو ثلاثة.

وهذا في الآدميين والجن والبهائم ظاهر.

وأما الملائكة، فإنهم وإن لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الأمثال والأشباه، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٤٩ ، ٥٠] قال بعض السلف: لعلكم تتذكرون، فتعلمون أن خالق الأزواج واحد.

ولهذا كان في هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين.

فإن قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ رد لقول من يقول: إن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر، مثل من يقول: الملائكة بنات الله، أو يقول: المسيح، أو عزير ابن الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[الأنعام: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلا إِنَّهُم

مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ـ ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، وقد أخبر أن هذا مضاهاة لقول الذين كفروا من قبل .

وقد قيل : إنهم قدماؤهم. وقيل : مشركو العرب، وفيهما نظر. فإن مشركي العرب الذين قالوا هذا ليسوا قبل اليهود والنصارى وقدمائهم منهم، فلعله الصابئون المشركون، الذين كانوا قبل موسى والمسيح بأرض الشام ومصر وغيرها، الذين يجعلون الملائكة أولادا له، كما سنبينه.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢] ،وهو قول من قال من العرب إن الملائكة بنات الله.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ . وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٥٦ـ ٦٠]، وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ .وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ١٥ـ ١٩].

وهذا القدر الذي عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب، مع كراهتهم أن يكون لهم بنات، فنظيره في النصارى، فإنهم يجعلون لله ولداً، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولدا، فيجعلون لله ما يكرهونه لأكبار دينهم.

وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا .وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾[مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً . لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

فنهى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وعن أن يقولوا على الله إلا الحق، وذكر القول الحق في المسيح، ثم قال لهم: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾؛ لأنهم كفروا بالله بتثليثهم، وكفروا برسله بالاتحاد والحلول. فكفروا بأصلي الإسلام العام، التي هي الشهادة لله بالوحدانية في الألوهية، والشهادة للرسل بالرسالة، وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته؛ لأن من الناس من جعل الملائكة أولاده كالمسيح، وعبدوا الملائكة والمسيح.

ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٧٩، ٨٠]، فَذَكَرَ الملائِكَةَ وَالنَّبِيينَ جَمِيعًا.

وقد نفى في كتابه عن نفسه الولادة، ونفى اتخاذ الولد جميعًا. فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾[الإسراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾الآية[المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾[الفرقان: ٢]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ . وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ . أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ

اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١٦-٢٢]، وقال: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٦- ٢٨].

ومعلوم أن الذين خرقوا له بنين وبنات بغيرعلم، والذين قالوا: ولد الله، وإنهم لكاذبون، والذين قالوا : المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، لم يرد عقلاؤهم ولادة حسية، من جنس ولادة الحيوان بانفصال جزء من ذكره في أنثاه، يكون منه الولد، فإن النصارى والصابئين متفقون على نفي ذلك وكذلك مشركو العرب، ما أظن عقلاؤهم كانوا يعتقدون ذلك، وإنما وصفوا الولادة العقلية الروحانية، مثل ما يقوله النصارى: إن الجوهر الذي هو الله من وجه، وهو الكلمة من وجه، تدرعت [1] بإنسان مخلوق من مريم، فيقولون:تدرع اللاهوت بالناسوت ، فظاهره ـ وهو الدرع والقميص ـ بشر، وباطنه ـ وهو المتدرع ـ لاهوت، هو الابن الذي هو الكلمة لتولد هذا من الأب الذي هو جوهر الوجود.

فهذه البنوة مركبة عندهم من أصلين:

أحدهما: أن الجوهر الذي هو الكلمة تولد من الجوهر الذي هو الأب، كتولد العلم والقول من العالم القائل.

والثاني : أن هذا الجوهر اتحد بالمسيح وتدرع به، وذلك الجوهر هو الأب من وجه، وهو الابن من وجه، فلهذا حكى الله عنهم ، تارة أنهم يقولون: المسيح ابن الله، وتارة أنهم يقولون : إن الله هو المسيح ابن مريم.

وأما حكايته عنهم أنهم قالوا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾[المائدة:٧٣]، فالمفسرون يقولون: الله والمسيح وأمه، كما قال: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [المائدة :١١٦]، ولهذا قال في سياق الكلام: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**﴾ [المائدة:٧٥] أي غاية المسيح: الرسالة، وغاية أمه: الصديقية، لا يبلغان إلى اللاهوتية، فهذا حجة هذا، وهو ظاهر.

ومن الناس من يزعم أن المراد بذلك الأقانيم الثلاثة، وهي الآب والابن وروح القدس، وهذا فيه نظر.

فأما قوله : ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ**

---

(١) تقدم معناها.

وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١] فإن قوله: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما ، كما ذكر مثل ذلك في البقرة،وليس المراد أنهما بديعة سمواته وأرضه ، كما تحتمله العربية لولا السياق؛لأن المقصود نفى ما زعموه من خرق البنين والبنات له ، ومن كونه اتخذ ولداً. وهذا ينتفي بضده كونه أبدع السموات ، ثم قال : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وذكر ثلاث أدلة على نفي ذلك :

أحدها : كونه ليس له صاحبة، فهذا نفي الولادة المعهودة:وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ نفي للولادة العقلية، وهي التولد؛ لأن خلق كل شيء ينافى تولدها عنه.وقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يشبه ـ والله أعلم ـ أن يكونَ لمَا ادَّعَت النَّصَارَى أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم، والصابئة القائلون بالتولد والعلة، لا يجعلونه عالما بكل شيء ـ ذكر أنه بكل شيء عليم، لإثبات هذه الصفة له، رداً على الصابئة ، ونفيها عن غيره رداً على النصارى.

وإذا كان كذلك فقول من قال بتولد العقول والنفوس ـ التي يزعمون أنها الملائكة ـ أظهر في كونهم يقولون: إنه ولد الملائكة، وإنهم بنوه وبناته فالعقول بنوه، والنفوس بناته من قول النصارى.

ودخل في هذا من تفلسف من المنتسبة إلى الإسلام، حتى إنى أعرف كبيراً لهم سئل عن العقل والنفس فقال: بمنزلة الذكر والأنثى، فقد جعلهم كالابن والبنت، وهم يجعلونهم متولدين عنه تولد المعلول عن العلة، فلا يمكنه أن يفك ذاته عن معلوله ولا معلوله عنه، كما لا يمكنه أن يفصل نفسه عن نفسه، بمنزلة شعاع الشمس مع الشمس وأبلغ.

وهؤلاء يقولون : إن هذه الأرواح التي ولدها متصلة بالأفلاك ـ الشمس والقمر والكواكب ـ كاتصال اللاهوت بجسد المسيح، فيعبدونها كما عبدت النصارى المسيح، إلا أنهم أكفر من وجوه كثيرة، وهم أحق بالشرك من النصارى، فإنهم يعبدون ما يعلمون أنه منفصل عن الله وليس هو إياه، ولا صفة من صفاته، والنصارى يزعمون أنهم ما يعبدون إلا ما اتحد بالله، لا لما ولده من المعلولات.

ثم من عَبَدَ الملائكة والكواكب وأرواح البشر وأجسادهم، اتخذ الأصنام على صورهم وطبائعهم، فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأصنام.

ولهذا كان الخليل إمام الحنفاء مخاطباً لهؤلاء الذين عبدوا الكواكب والشمس والقمر، والذين عبدوا الأصنام مع إشراكهم واعترافهم بأصل الجميع.

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير موضع، وأولئك هم الصابئون المشركون الذين ملكهم نمروذ. وعلماؤهم الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم ، الذين كانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق وغيرها، وجزائر البحر قبل النصارى، وكانوا بهذه البلاد في أيام بني إسرائيل، وهم الذين كانوا يقاتلون بني إسرائيل ، فيغلبون تارة ويُغلبون تارة، وسنحاريب وبختنصر ونحوهما: هم ملوك الصابئة بعد الخليل ، والنمروذ الذي كان في زمانه.

فتبين بذلك ما في القرآن من الرد لمقالات المتقدمين قبل هذه الأمة والكفار والمنافقين فيها، من إثبات الولادة لله، وإن كان كثير من الناس لا يفهم دلالة القرآن على هذه المقالات؛ لأن ذلك يحتاج إلى شيئين: إلى تصور مقالتهم بالمعنى لا بمجرد اللفظ، وإلى تصور معنى القرآن، والجمع بينهما. فتجد المعنى الذي عنوه قد دل القرآن على ذكره وإبطاله.

وأما اتحاد الولد فيفسر بعين الولادة..وهو من باب الأفعال ، لا من باب الصفات، كما يقوله طائفة من النصاري في المسيح.

فصــل

فهذا نفي كونه ـ سبحانه ـ والدًا لشيء، أو متخذا لشيء ولدًا، بأي وجه من وجوه الولادة، أو اتخاذ الولد أيا كان.

وأما نفي كونه مولودًا ، فيتضمن نفي كونه متولدًا بأي نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره، فهو رد على من قال :المسيح هو الله، ورد على الدجال الذي يقول : إنه الله ، ورد على من قال في بشر: إنه الله، من غالية هذه الأمة في عليٍّ وبعض أهل البيت، أو بعض المشايخ، كما قال قوم ذلك في على وطائفة من أهل البيت، وقالوه في الأنبياء أيضا، وقاله قوم في الحلاج، وقوم في الحاكم بمصر، وقوم في الشيخ عدي ، وقوم في يونس العنيني، وقوم يعمونه في المشايخ، ويصوبون هذا كله.

فقوله سبحانه: ﴿ لَمْ يُولَدْ﴾ نفي لهذا كله ، فإن هؤلاء كلهم مولودون ، والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال: ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ بخلاف سائر الأنبياء ، كقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ﴾ [المائدة١٧ ، ٧٢]،وقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[المائدة:٧٥]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾[المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة :١١٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وقوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء : ١٥٧].

وفي ذلك فائدتان:

إحداهما : بيان أنه مولود ، والله لم يولد.

والثانية : نسبته إلى مريم، بأنه ابنها ليس هو ابن الله.

وأما قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾الآية[النساء:١٧٢]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣٠] : فإنه حكى قولهم الذي قالوه، وهم قد نسبوه إلى الله أنه ابنه، فلم يضمّنوا ذلك قولهم المسيح ابن مريم.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:٤] نفى للشركاء والأنداد ، يدخل فيه كل من جعل شيئا كفواً لله في شيء من خواص الربوبية، مثل خلق الخلق، والإلهية، كالعبادة له، ودعائه ونحو ذلك.

فهذه نكت، تبين اشتمال كتاب الله على إبطال قول من يعتقد في أحد من البشر الإلهية، باتحاد أو حلول أو غير ذلك.

فصـــل

وأما هؤلاء الملاحدة : فإنهم لا يقتصرون في كفرهم على أنه ولد شيئا أو اتخذ ولدا، أو أنه بشر مولود ؛ لاتحاد الرب به.

فإن هذا جميعه يقتضى إثبات شيئين متميزين، اتحد أحدهما بالآخر أو حل فيه، وهذا إنما يقوله من يقول بالاتحاد الخاص المقيد، أو الحلول الخاص المقيد.

وهؤلاء عندهم ما ثم غيره، ولا سواه، ولم يخلق شيئا، ولا هو رب شيء ولا مالك شيء، ولا له عبد ولا عابد، ولا داع يدعوه فيجيبه، ولا مضطر يضطر إليه فيجيبه، ولا سائل يسأله فيجيبه، وإنما يشهد العبد هذه المعاني، إذا كان محجوبا عن شهود الوحدة المطلقة في خياله.

فإذا انكشف حجاب قلبه عندهم، رأى ما ثم اثنين بوجه من الوجوه، حتى يكون أحدهما خالقا والآخر مخلوقا، أو أحدهما عابدًا والآخر ربا، أو أحدهما والدًا والآخر مولودًا، أو أحدهما شريكا للآخر أو شفيعا عنده، حتى يتقرب بعبادته إليه.

وهذا قول الحذاق منهم، كالتلمساني ، وابن الفارض. والتلمساني أعرف بحقائق قولهم.

وأما ابن عربي فيقول : هذا كله في الذوات الثابتة في العدم، لا في شيء موجود ، فأما الوجود فلا يتصور أن يكون فيه رب وعبد، وخالق ومخلوق، وداع ومجيب، وإنما الوجود لما فاض على الأعيان فظهر فيها حصل التفرق من جهة الأعيان، كتفرق النور في الزجاج ، لاختلاف ألوانه.

فهؤلاء يرد عليهم القرآن في مواضع لا تحصى، وقصص الله التي قصها عن فرعون الذي هو رئيسهم: يتضمن الرد عليهم، فإن فرعون أنكر رب العالمين، وأن يكون لموسى إله يطلع إليه، ولم ينكر هذا الوجود الذي هو العالم.

وكذلك هؤلاء إنما يقرون بهذا الوجود الذي هو هذا العالم، فما ثم غيره عندهم، ويقولون : هو الله، وهو الإنسان الكبير.

وقال شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الشيخ العارف القدوة، السالك الناسك أبي الفتح نصر فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه، ونصره على شياطين الإنس والجن في جهره وإخفائه، ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعته، وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته، وإرادته ومحبته، حتى يظهر للناس الفرق بين الكلمات الكونية والكلمات الدينية، وبين المؤمنين الصادقين الصالحين، ومن تشبه بهم من المنافقين ، كما فرق الله بينهما في كتابه وسنته.

أما بعد ، فإن الله تعالى قد أنعم على الشيخ، وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا، وجعل له عند خاصة المسلمين ـ الذين لا يريدون عُلُوًا في الأرض ولا فسادا ـ منزلة علية، ومودة إلهية؛ لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد، فإن العلم والإرادة، أصل لطريق الهدى والعبادة.

وقد بعث الله محمداً ﷺ بأكمل محبة في أكمل معرفة، فأخرج بمحبة الله ورسوله ـ التي هي أصل الأعمال ـ المحبة التي فيها إشراك وإجمال، كما قال تعالي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال تعالي: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[التوبة: ٢٤].

ولهذا كانت المحبة الإيمانية هي الموجبة للذوق الإيماني،والوجد الديني، كما في الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقي في

النار»(1) ،فجعل ﷺ وجود حلاوة الإيمان معلقا بمحبة الله ورسوله الفاضلة، وبالمحبة فيه في الله، وبكراهة ضد الإيمان.

وفي صحيح مسلم عن العباس قال : قال رسول الله ﷺ:«ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا»(2) ،فجعل ذوق طعم الإيمان معلقا بالرضى بهذه الأصول، كما جعل الوجد معلقا بالمحبة؛ ليفرق ﷺ بين الذوق والوجد، الذي هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة، وبين ما أمر الله به ورسوله وبين غيره كما قال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، إذ كان كل من أحب شيئا فله ذوق بحسب محبته .

ولهذا طالب الله تعالى مدعي محبته بقوله : ﴿ **إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران:31]، قال الحسن البصري : ادعى قوم على عهد رسول الله صلى اللّه تعالى عليه وسلم أنهم يحبون الله ، فطالبهم بهذه الآية، فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده.

وقد ذكر نعت المحبين في قوله : ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾[المائدة: 54]، فنعت المحبين المحبوبين بوصف الكمال، الذي نعت الله به رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال، المفرق في الملتين قبلنا، وهو الشدة والعزة على أعداء الله، والذلة والرحمة لأولياء الله ورسوله، ولهذا يوجد كثير ممن له وجد وحب مجمل مطلق، كما قال فيه كبير من كبرائهم:

مشرد عن الوطـــن

مبعد عن السكـــن

يبكي الطول والدمـن

يهوى ولا يدري لمن

فالشيخ ـ أحسن الله إليه ـ قد جعل الله فيه من النور والمعرفة ـ الذي هو أصل المحبة والإرادة ـ ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة، عن المجملة المشتركة، وكما يقع هذا الإجمال في المحبة يقع أيضا في التوحيد، قال الله تعالى في أم الكتاب ، التي هي

(1) البخاري في الإيمان (21)، ومسلم في الإيمان (43/67، 68)

(2) مسلم في الإيمان (34/56).

مفروضة على العبد ـ وواجبة في كل صلاة ـ أن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] .

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الله يقول: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله: أثني عليَّ عبدي، وإذ قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال : مجدني عبدي أو قال: فوض إلى عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال : فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ قال : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»[١] .

ولهذا روى أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في القرآن، ومعاني القرآن في المفصل ،ومعاني المفصل في أم الكتاب،ومعاني أم الكتاب،في هاتين الكلمتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا المعنى قد ثناه الله في مثل قوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود :١٢٣]، وفي مثل قوله: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[الشورى: ١٠]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠] .

وكان النبي ﷺ يقول في نسكه : « اللهم، هذا منك ولك»[٢].

فهو ـ سبحانه ـ مستحق التوحيد ، الذي هو دعاؤه وإخلاص الدين له : دعاء العبادة بالمحبة والإنابة، والطاعة والإجلال، والإكرام والخشية ، والرجاء، ونحو ذلك من معاني تألهه وعبادته، ودعاء المسألة والاستعانة بالتوكل عليه، والالتجاء إليه، والسؤال له، ونحو ذلك مما يفعل ـ سبحانه ـ بمقتضى ربوبيته، وهو ـ سبحانه ـ الأول والآخر ، والباطن والظاهر.

ولهذا جاءت الشريعة الكاملة في العبادة باسم الله ، وفي السؤال باسم الرب، فيقول المصلى والذاكر: الله أكبر ، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وكلمات الأذان: الله أكبر الله أكبر إلى آخرها ونحو ذلك .

---

(١) مسلم في الصلاة (٣٨/٣٩٥) ، وأبو داود في الصلاة (٨٢١)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٣)، وقال: «حديث حسن»، والنسائي في افتتاح الصلاة (٩٠٩)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٤)، وأحمد ٢٤١/٢، ٢٨٥، عن أبي هريرة .

(٢) أبو داود في الأضاحي (٢٧٩٥) عن جابر بن عبد الله.

وفي السؤال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، ﴿رَبِّ إِنِّي[1] ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، ونحو ذلك .

وكثير من المتوجهين السالكين يشهد في سلوكه الربوبية، والقيومية الكاملة الشاملة لكل مخلوق، من الأعيان والصفات.

وهذه الأمور قائمة بكلمات الله الكونية ، التي كان النبي ﷺ يستعيذ بها فيقول: «أعوذ بكلمات الله التامات، التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن»[2].

فيغيب ويفني بهذا التوحيد الرباني عما هو مأمور به أيضا ومطلوب منه، وهو محبوب الحق ومرضيه من التوحيد الإلهي ، الذي هو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، والأمر بما أمر به، والنهي عما نهى عنه، والحب فيه، والبغض فيه، ومن أعرض عن هذا التوحيد وأخذ بالأول، فهو يشبه القدرية المشركية الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ومن أخذ بالثاني دون الأول، فهو من القدرية المجوسية الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد، ولا شاء جميع الكائنات، كما تقول المعتزلة والرافضة، ويقع في كلام كثير من المتكلمة والمتفقهة.

والأول ذهب إليه طوائف من الإباحية المنحلين عن الأوامر والنواهي ، وإنما يستعملون ذلك عند أهوائهم وإلا فهو لا يستمر، وهو كثير في المتألهة الخارجين عن الشريعة خفو العدو[3] وغيرهم، فإن لهم زهادات وعبادات فيها ما هو غير مأمور به، فيفيدهم أحوالا فيها ما هو فاسد ، يشبهون من بعض الوجوه الرهبان وعباد البدود[4].

ولهذا قال الشيخ عبد القادر ـ قدس الله روحه ـ: كثير من الرجال إذا دخلوا إلى

---

(١) سقطت لفظ «إني» من المطبوعة، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الموطأ ٢/ ٩٥٠، ٩٥١(١٠) مرسل ، عن يحيى بن سعيد، وأحمد ٣/٤١٩ من حديث عبد الرحمن بن خنبش.

(٣) هكذا الأصل.

(٤) أي الأصنام. انظر: لسان العرب، مادة «بدد».

القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنَة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والولي من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا له .

وهذا الذي قاله الشيخ تكلم به على لسان المحمدية، أي أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به، ويدفع ما نهى الله عنه، وإن كانت أسبابه قد قدرت، فيدفع قدر الله بقدر الله، كما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ : « إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض»(1) ،وفي الترمذي قيل: يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوي بها، ورقى نسترقى بها، وتقى نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: «هن من قدر الله»(2).

وإلى هذين المعنين أشار الحديث الذي رواه الطبراني أيضا عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: يا ابن آدم، إنما هي أربع: واحدة لي ، وواحدة لك ،وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي . فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا، وأما التي لك فعملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه، وأما التي هي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التي بينك وبين خلقي فأت إلى الناس بما تحب أن يأتوه إليك»(3).

ثم إن التوحيد الجامع لتوحيد الألوهية والربوبية، أو توحيد أحدهما، للعبد فيه ثلاث مقامات:

أحدها: مقام الفرق والكثرة بإنعامه من كثرة المخلوقات والمأمورات.

والثاني: مقام الجمع والفناء، بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده، وبمعبوده عن عبادته، وبموحده عن توحيده، وبمذكوره عن ذكره ، وبمحبوبه عن حبه، فهذا فناء عن إدراك السوى وهو فناء القاصرين.

وأما الفناء الكامل المحمدي، فهو الفناء عن عبادة السوى، والاستعانة بالسوى، وإرادة وجه السوى، وهذا في الدرجة الثالثة، وهو شهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، فيشهد قيام الكائنات مع تفرقها بإقامة الله تعالى وحده وربوبيته.

ويرى أنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وأنه على كل شيء وكيل، وأنه رب

---

(1) الطبراني في الدعاء ٢/ ٨٠٠ (٣٣) وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٤٩: « رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه وفيه زكريا بن منظور، وثقه أحمد بن صالح المصري وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات».

(2) الترمذي في الطب (٢٠٦٥) وقال: « حديث حسن صحيح». والحديث عن أبي خزامة عن أبيه.

(3) الطبراني فى كتاب الدعاء ص ٧٩٢ برقم (١٦) وأبو يعلى الموصلى (٢٧٥٧) .

العالمين، وأن قلوب العباد ونواصيهم بيده، لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار، ولا معطي ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواه، ويشهد أيضا فعل المأمورات من كثرتها، وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له .

وهذا هو الدين الجامع العام الذي اشترك فيه جميع الأنبياء، والإسلام العام والإيمان العام، وبه أنزلت السور المكية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى :١٣] ،وبقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، وبقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]؛ ولهذا ترجم البخاري عليه « باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد».

وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]، فجمع في الملل الأربع: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وذلك قبل النسخ والتبديل.

وخص في أول الآية المؤمنين، و هو الإيمان الخاص الشرعي الذي قال فيه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، والشرعة هي الشريعة ، والمنهاج هو الطريقة، والدين الجامع هو الحقيقة الدينية ، وتوحيد الربوبية ، هو الحقيقة الكونية، فالحقيقة المقصودة الدينية الموجودة الكونية متفق عليها بين الأنبياء والمرسلين.

فأما الشرعة والمنهاج الإسلاميان فهو لأمة محمد ﷺ : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وبها أنزلت السور المدنية ؛ إذ في المدينة النبوية شرعت الشرائع، وسنت السنن، ونزلت الأحكام والفرائض والحدود.

فهذا التوحيد، هو الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب، وإليه تشير مشايخ الطريقة وعلماء الدين، لكن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوي، والسكر وجد بلا تمييز.

فقد يقول في تلك الحال : سبحاني ، أو ما في الجبة إلا الله، أو نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن أبي يزيد البسطامي أو غيره من الأصحاء ، وكلمات السكران تطوى ولا تروى ولا تؤدى، إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو وجه منهي عنه.

فأما إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً، لا فرق في ذاك بين السكر الجسماني والروحاني، فسكر الأجسام بالطعام والشراب، وسكر النفوس بالصور، وسكر الأرواح بالأصوات.

وفي مثل هذا الحال، غَلَطَ من غَلَطَ بدعوى الاتحاد والحلول العيني، في مثل دعوى النصارى في المسيح، ودعوى الغالية في عَلِيٍّ وأهل البيت، ودعوى قوم من الجهال الغالية في مثل الحلاج أو الحاكم بمصر أو غيرهما، وربما اشتبه عليهم الاتحاد النوعي الحكمي بالاتحاد العيني الذاتي.

فالأول كما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «يقول الله: عبدي ، مرضت فلم تعدني، فيقول : كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أنه مرض عبدي فلان، فلو عدْته لوجدتني عنده؟، عبدي ، جعت فلم تطعمني ، فيقول: رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟»(1).

ففسر ما تكلم به في هذا الحديث أنه جوع عبده ومحبوبه لقوله : « لوجدت ذلك عندي » ولم يقل لوجدتني قد أكلته، ولقوله : « لوجدتني عنده»،ولم يقل:لوجدتني إياه؛ وذلك لأن المحب يتفق هو ومحبوبه بحيث يرضى أحدهما بما يرضاه الآخر، ويأمر بما يأمر به، ويبغض ما يبغضه ، ويكره ما يكرهه، وينهى عما ينهى عنه.

وهولاء هم الذين يرضى الحق لرضاهم، ويغضب لغضبهم، والكامل المطلق في هؤلاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

ولهذا قال تعالى فيه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال : ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠].

وقد جاء في الإنجيل الذي بأيدي النصارى كلمات مجملة - إن صح أن المسيح قالها - فهذا معناها، كقوله: « أنا وأبي واحد. من رآني فقد رأى أبي» ونحو ذلك وبها ضلت النصارى، حيث اتبعوا المتشابه، كما ذكر الله عنهم في القرآن، لما قدم وفد نجران على النبي ﷺ وناظروه في المسيح.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

---

(1) سبق تخريجه ص ٢٣٤ .

ﷺ «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولايزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»(1) ، فأخبر في هذا الحديث أن الحق ـ سبحانه ـ إذا تقرب إليه العبد بالنوافل المستحبة التي يحبها الله بعد الفرائض أحبه الحق على هذا الوجه.

وقد غلط من زعم أن هذا قرب النوافل ، وأن قرب الفرائض أن يكون هو إياه، فإن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فهذا القرب يجمع الفرائض والنوافل ، فهذه المعاني وما يشبهها هي أصول مذهب أهل الطريقة الإسلامية ، أتباع الأنبياء والمرسلين.

وقد بلغني أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام في مذهب الاتحادية، وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى حال هؤلاء، ولم يكن القصد به ـ والله ـ واحدًا بعينه، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين ، فعلينا أن نعينه في الدين والدنيا، بما هو اللائق به، وأما هؤلاء الاتحادية فقد أرسل إليَّ الداعي من طلب كشف حقيقة أمرهم.

وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ ، وقد كتب سيدنا الشيخ عماد الدين في ذلك رسائل، والله ـ تعالى ـ يعلم ـ وكفى به عليما ـ لولا أني أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى، السالكين إليه من أعظم الواجبات ـ وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين ـ لم يكن للمؤمنين بالله ورسوله حاجة إلى أن تكشف أسرار الطريق، وتهتك أستارها، ولكن الشيخ ـ أحسن الله تعالى إليه ـ يعلم أن مقصود الدعوة النبوية، بل المقصود بخلق الخلق، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل : أن يكون الدين كله لله، هو دعوة الخلائق إلى خالقهم بما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] ، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهؤلاء موهوا على السالكين التوحيد ـ الذى أنزل الله تعالى به الكتب ، وبعث به الرسل ـ بالاتحاد الذي سموه توحيداً، وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق.

---

(1) سبق تخريجه ص ١٣٩ .

وإنما كنت قديما ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه، لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من « الفتوحات» ، والكنة، والمحكم المربوط والدرة الفاخرة، ومطالع النجوم، ونحو ذلك. ولم نكن بَعْدُ اطلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع الفصوص ونحوه، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق ، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا.

فلما قدم من المشرق مشايخ معتبرون، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية، والدين الإسلامي وحقيقة حال هؤلاء، وجب البيان.

وكذلك كتب إلينا ـ من أطراف الشام ـ رجال سالكون أهل صدق وطلب، أن أذكر النكت الجامعة لحقيقية مقصودهم.

والشيخ ـ أيده الله تعالى بنور قلبه، وذكاء نفسه وحقق قصده من نصحه للإسلام وأهله، ولإخوانه السالكين ـ يفعل في ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته في الدنيا والآخرة.

وهؤلاء الذين تكلموا في هذا الأمر، لم يعرف لهم خبر من حين ظهرت دولة التتار، وإلا فكان الاتحاد القديم هو الاتحاد المعين، وذلك أن القسمة رباعية ، فإن كل واحد من الاتحاد والحلول، إما معين في شخص وإما مطلق.

أما الاتحاد والحلول المعين ، كقول النصارى والغالية في الأئمة من الرافضة وفي المشائخ من جهال الفقراء والصوفية ، فإنهم يقولون به في معين، إما بالاتحاد كاتحاد الماء واللبن، وهو قول اليعقوبية وهم السودان ومن الحبشة والقبط، وإما بالحلول وهو قول النسطورية، وإما بالاتحاد من وجه دون وجه وهو قول الملكانية.

وأما الحلول المطلق وهو أن الله تعالى بذاته حال في كل شيء، فهذا تحكيه أهل السنة والسلف عن قدماء الجهمية، وكانوا يكفرونهم بذلك.

وأما ما جاء به هؤلاء من الاتحاد العام، فما علمت أحدا سبقهم إليه إلا من أنكر وجود الصانع ، مثل فرعون والقرامطة ـ وذلك أن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق ، وأن وجود ذات الله خالق السموات والأرض ، هي نفس وجود المخلوقات ، فلا يتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره، ولا أنه رب العالمين، ولا أنه غني ، وما سواه فقير.

لكن تفرقوا على ثلاثة طرق، وأكثر من ينظر في كلامهم لا يفهم حقيقة أمرهم؛ لأنه أمر مبهم.

الأول: أن يقولوا : إن الذوات بأسرها كانت ثابتة في العدم ذاتها أبدية أزلية، حتى ذوات الحيوان، والنبات والمعادن، والحركات والسكنات، وأن وجود الحق فاض على تلك الذوات، فوجودها وجود الحق ، وذواتها ليست ذوات الحق ، ويفرقون بين الوجود والثبوت، فما كنت به فى ثبوتك ظهرت به في وجودك.

ويقولون : إن الله ـ سبحانه ـ لم يعط أحداً شيئا، ولا أغنى أحداً ، ولا أسعده ولا أشقاه، وإنما وجوده فاض على الذوات، فلا تحمد إلا نفسك، و لا تذم إلا نفسك.

ويقولون : إن هذا هو سر القدر ، وأن الله ـ تعالى ـ إنما علم الأشياء من جهة رؤيته لها ثابتة في العدم خارجاً عن نفسه المقدسة.

ويقولون : إن الله ـ تعالى ـ لا يقدر أن يغير ذرة من العالم، وأنهم قد يعلمون الأشياء من حيث علمها الله ـ سبحانه ـ فيكون علمهم وعلم الله تعالي من معدن واحد، وأنهم يكونون أفضل من خاتم الرسل من بعض الوجوه؛ لأنهم يأخذون من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به الرسل .

ويقولون: إنهم لم يعبدوا غير الله، ولا يتصور أن يعبدوا غير الله تعالي، وأن عبّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله سبحانه، وأن قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] معنى حكم، لا معنى أمر، فما عبد غير الله في كل معبود، فإن الله تعالى ما قضى بشيء إلا وقع.

ويقولون : إن الدعوة إلى الله تعالى مكر بالمدعو فإنه ما عدم من البداية، فيدعى إلى الغاية ، وإن قوم نوح قالوا: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا﴾ [نوح:٢٣]؛ لأنهم لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا منهم؛ لأن للحق في كل معبود وجها يعرفه من عرفه، وينكره من أنكره، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ، وأن العارف منهم يعرف من عبدَ وفي أي صورة ظهر حتى عبد .

فإن الجاهل يقول : هذا حجر وشجر، والعارف يقول: هذا مجلى إلهى ينبغي تعظيمه فلا يقتصر، فإن النصارى إنما كفروا؛ لأنهم خصصوا، وإن عبّاد الأصنام ما أخطؤوا إلا من حيث اقتصارهم على عبادة بعض المظاهر، والعارف يعبد كل شيء.

والله يعبد ـ أيضا ـ كل شيء لأن الأشياء غذاؤه بالأسماء والأحكام، وهو غذاؤها بالوجود، وهو فقير إليها وهي فقيرة إليه، وهو خليل كل شيء بهذا المعنى، ويجعلون أسماء الله الحسنى هي مجرد نسبة ، وإضافة بين الوجود والثبوت وليست أموراً عدمية.

ويقولون: من أسمائه الحسنى : العلى ،عن ماذا وما ثم إلا هو ؟ وعلى ماذا وما ثم غيره؟ فالمسمى محدثات وهي العلية لذاتها وليست إلا هو، وما نكح سوى نفسه، وما ذبح سوى نفسه ، والمتكلم هو عين المستمع.

وأن موسى إنما عتب على هارون حيث نهاهم عن عبادة العجل لضيقه وعدم اتساعه وأن موسى كان أوسع في العلم، فعلم أنهم لم يعبدوا إلا الله، وأن أعلى ما عبد الهوى، وأن كل من اتخذ إلهه هواه فما عبد إلا الله، وفرعون كان عندهم من أعظم العارفين، وقد صدقه السحرة في قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وفي قوله : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

وكنت أخاطب بكشف أمرهم لبعض الفضلاء الضالين ، وأقول: إن حقيقة أمرهم هو حقيقة قول فرعون، المنكر لوجود الخالق الصانع، حتى حدثني بعض عن كثير من كبرائهم أنهم يعترفون ، ويقولون: نحن على قول فرعون.

وهذه المعاني كلها هي قول صاحب الفصوص، والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات،الأحياء منهم والأموات ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والمقصود أن حقيقة ما تضمنه كتاب الفصوص ، المضاف إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جاء به : وهو ما إذا فهمه المسلم علم بالاضطرار أن جميع الأنبياء والمرسلين، وجميع الأولياء والصالحين، بل جميع عوام أهل الملل، من اليهود والنصارى والصابئين : يبرؤون إلى الله تعالى من بعض هذا القول فكيف منه كله؟

ونعلم أن المشركين عباد الأوثان والكفار أهل الكتاب يعترفون بوجود الصانع الخالق البارئ المصور، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ربهم ورب آبائهم الأولين ، رب المشرق والمغرب.

ولا يقول أحد منهم: إنه عين المخلوقات، ولا نفس المصنوعات، كما يقوله هؤلاء ، حتى إنهم يقولون: لو زالت السموات والأرض زالت حقيقة الله، وهذا مركب من أصلين:

أحدهما: أن المعدوم شيء ثابت في العدم ـ كما يقوله كثير من المعتزلة والرافضة ـ وهو مذهب باطل بالعقل الموافق للكتاب السنة والإجماع. وكثير من متكلمة أهل الإثبات ـ

كالقاضي أبي بكر ـ كفر من يقول بهذا.

وإنما غلط هؤلاء من حيث لم يفرقوا بين علم الله بالأشياء قبل كونها ـ وأنها مثبتة عنده في أم الكتاب في اللوح المحفوظ ـ وبين ثبوتها في الخارج عن علم الله تعالى. فإن مذهب المسلمين أهل السنة والجماعة: أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق قبل أن يخلقها ، فيفرقون بين الوجود العلمي وبين الوجود العيني الخارجي.

ولهذا كان أول ما نزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سورة: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [العلق:١ـ٥] فذكر المراتب الأربع : وهي الوجود العيني الذي خلقه، والوجود الرسمي المطابق للفظي الدال على العلمي، وبين أن الله تعالى علمه، ولهذا ذكر التعليم بالقلم، فإنه مستلزم للمراتب الثلاثة.

وهذا القول ـ أعني قول من يقول : إن المعدوم شيء ثابت في نفسه، خارج عن علم الله ـ تعالي ـ وإن كان باطلا ودلالته واضحة لكنه قد ابتدع في الإسلام من نحو أربعمائة سنة، وابن عربي وافق أصحابه، وهو أحد أصلى مذهبه الذي في الفصوص.

والأصل الثاني : أن وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ليس غيره ولا سواه، وهذا هو الذي ابتدعه وانفرد به عن جميع من تقدمه من المشايخ والعلماء، وهو قول بقية الاتحادية، لكن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام، وأحسن كلاما في مواضع كثيرة، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر، فيقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشائخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا كثير من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم، فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفقهون حقائقه، ومن فهمها منهم ووافقه فقد تبين قوله.

وأما صاحبه ـ الصدر الرومي ـ فإنه كان متفلسفا، فهو أبعد عن الشريعة والإسلام؛ ولهذا كان الفاجر التلمساني ـ الملقب بالعفيف ـ يقول : كان شيخي القديم متروحنًا متفلسفًا، والآخر فيلسوفا متروحنا ـ يعني الصدر الرومي ـ فإنه كان قد أخذ عنه، ولم يدرك ابن عربي في كتاب مفتاح غيب الجمع والوجود، وغيره يقول: إن الله تعالى هو الوجود المطلق والمعين، كما يفرق بين الحيوان المطلق والحيوان المعين، والجسم المطلق والجسم المعين، والمطلق لا يوجد إلا في الخارج مطلقا، لا يوجد المطلق إلا في الأعيان الخارجة.

فحقيقة قوله : إنه ليس لله ـ سبحانه ـ وجود أصلا،ولا حقيقة ولا ثبوت إلا نفس الوجود القائم بالمخلوقات؛ ولهذا يقول هو وشيخه: إن الله تعالى لا يرى أصلا ، وأنه ليس له في الحقيقة اسم ولا صفة، ويصرحون بأن ذات الكلب والخنزير، والبول والعذرة ، عين وجوده ـ تعالى الله عما يقولون.

وأما الفاجر التلمساني، فهو أخبث القوم وأعمقهم في الكفر، فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي، ولا يفرق بين المطلق والمعين كما يفرق الرومي ، ولكن عنده ما ثم غير ولا سوى بوجه من الوجوه، وإن العبد إنما يشهد السوى ما دام محجوبا، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثم غير يبين له الأمر.

ولهذا كان يستحل جميع المحرمات، حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول: البنت والأم والأجنبية شيء واحد، ليس في ذلك حرام علينا، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام، فقلنا: حرام عليكم.

وكان يقول: القرآن كله شرك ليس فيه توحيد، وإنما التوحيد في كلامنا.

وكان يقول : أنا ما أمسك شريعة واحدة، وإذا أحسن القول يقول :القرآن يوصل إلى الجنة، وكلامنا يوصل إلى الله تعالى ، وشرح الأسماء الحسنى على هذا الأصل الذي له.

وله ديوان شعر قد صنع فيه أشياء، وشعره في صناعة الشعر جيد، ولكنه كما قيل: (لَحْمُ خِنْزِيرٍ في طَبَقٍ صيني) وصنف للنصيرية عقيدة، وحقيقة أمرهم أن الحق بمنزلة البحر، وأجزاء الموجودات بمنزلة أمواجه.

وأما ابن سبعين ، فإنه في البدو والإحاطة يقول أيضا بوحدة الوجود، وأنه ما ثم غير، وكذلك ابن الفارض في آخر نظم السلوك، لكن لم يصرح: هل يقول بمثل قول التلمساني، أو قول الرومي، أو قول ابن عربي؟ وهو إلى كلام التلمساني أقرب، لكن ما رأيت فيهم من كفر هذا الكفر الذي ما كفره أحد قط مثل التلمساني، وآخر يقال له: البلياني من مشايخ شيراز. ومن شعره:

وفــي كل شيء لـه آيــة ... تــدل علـى أنـه عينه

وأيضا :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه ... ويفهم هذا السر من هو ذائقــه

وأيضا:

وتلتذ إن مرت على جسدي يدي | لأني في التحقيق لست سواكم

وأيضا :

ما بال عيسك لا يقر قرارهـــا | وإلام ظلك لا يني متنقــلا؟
فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن | إلا إليك إذا بلغــت المنــزلا

وأيضا :

ما الأمر إلا نسق واحـــد | ما فيه من حمـــد ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت | والطبع والشارع في الحكم

وأيضا :

يا عاذلي أنـــت تنهانـــي وتأمرني | والوجد أصدق نهاء وأمــــــار
فإن أطعك وأعص الوجد عدت عمي | عن العيان إلى أوهام أخبــــــار
فعين ما أنت تدعونـــي إليـــه إذا | حققته تره المنهي يا جـــــاري

وأيضا :

وما البحر إلا الموج لا شيء غيره | وإن فرقته كثرة المتعـــــــدد

إلى أمثال هذه الأشعار، وفي النثر ما لا يحصى ، ويوهمون الجهال أنهم مشائخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة، مثل سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، والشافعي، وأبي سليمان، وأحمد بن حنبل ، وبشر الحافي، وعبد الله بن المبارك، وشقيق البلخي، ومن لا يحصى كثرة.

إلى مثل المتأخرين، مثل الجنيد بن محمد القواريري ، وسهل بن عبد الله التستري، وعمر بن عثمان المكي، ومن بعدهم ، إلى أبي طالب المكي ، إلى مثل الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ عدي ، والشيخ أبي البيان، والشيخ أبي مدين، والشيخ عقيل، والشيخ أبي الوفاء، والشيخ رسلان، والشيخ عبد الرحيم ، والشيخ عبد الله اليونيني،والشيخ القرشي، وأمثال هؤلاء المشايخ الذين كانوا بالحجاز والشام والعراق، ومصر والمغرب وخراسان، من الأولين والآخرين.

كل هؤلاء متفقون على تكفير هؤلاء ومن هو أرجح منهم، وإن الله ـ سبحانه ـ ليس هو خلقه ولا جزءاً من خلقه ولا صفة لخلقه، بل هو ـ سبحانه وتعالى ـ متميز بنفسه المقدسة، بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته، وبذلك جاءت الكتب الأربعة الإلهية، من التوراة ، والإنجيل ، والزبور، والقرآن ، وعليه فطر الله تعالى عباده، وعلى ذلك دلت العقول.

وكثيرا ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء أكبر أسباب ظهور التتار، واندراس[1] شريعة الإسلام، وأن هؤلاء مقدمة الدجال الأعور الكذاب، الذي يزعم أنه هو الله.

فإن هؤلاء عندهم كل شيء هو الله، ولكن بعض الأشياء أكبر من بعض وأعظم.

وأما على رأي صاحب الفصوص، فإن بعض المظاهر والمستجليات يكون أعظم لعظم ذاته الثابتة في العدم، وأما على رأي الرومي فإن بعض المتعينات يكون أكبر، فإن بعض جزئيات الكلي أكبر من بعض ، وأما على البقية فالكل أجزاء منه، وبعض الجزء أكبر من بعض .

فالدجال عند هؤلاء مثل فرعون من كبار العارفين ، وأكبر من الرسل بعد نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإبراهيم وموسى ، وعيسى ـ عليهم السلام ـ فموسى قاتل فرعون الذي يدعي الربوبية، ويسلط الله تعالى مسيح الهدى ـ الذي قيل فيه: إنه الله تعالى وهو بريء من ذلك ـ على مسيح الضلالة الذي قال : إنه الله.

ولهذا كان بعض الناس يعجب من كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إنه أعور»[2]، وكونه قال: «واعلموا أن أحداً منكم لن يري ربه حتى يموت»[3]. وابن الخطيب أنكر أن يكون النبي ﷺ قال هذا؛ لأن ظهور دلائل الحدوث والنقص على الدجال ، أبين من أن يستدل عليه بأنه أعور.

فلما رأينا حقيقة قول هؤلاء الاتحادية ، وتدبرنا ما وقعت فيه النصارى والحلولية، ظهر سبب دلالة النبي ﷺ لأمته بهذه العلامة، فإنه بعث رحمة للعالمين، فإذا كان كثير من الخلق يجوز ظهور الرب في البشر، أو يقول :إنه هو البشر، كان الاستدلال على ذلك بالعور دليلا على انتفاء الإلهية عنه.

---

(١) أي محوها وذهابها. انظر: لسان العرب ، مادة «درس».

(٢) البخاري في الفتن (٧١٣١)، ومسلم في الفتن (٢٩٣٣/١٠١)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١٦)، والترمذي في الفتن (٢٢٤٥) عن أنس بن مالك .

(٣) سبق تخريجه ص ١١١ .

وقد خاطبني قديما شخص من خيار أصحابنا ـ كان يميل إلى الاتحاد ثم تاب منه ـ وذكر هذا الحديث فبينت له وجهه.

وجاء إلينا شخص كان يقول: إنه خاتم الأولياء ، فزعم أن الحلاج لما قال : أنا الحق كان الله تعالى هو المتكلم على لسانه كما يتكلم الجني على لسان المصروع، وأن الصحابة لما سمعوا كلام الله تعالى من النبي ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ كان من هذا الباب، فبينت له فساد هذا، وإنه لو كان كذلك كان الصحابة بمنزلة موسى بن عمران، وكان من خاطبه هؤلاء أعظم من موسى ، لأن موسى سمع الكلام الإلهي من الشجرة وهؤلاء يسمعون من الجن الناطق .

وهذا يقوله قوم من الاتحادية ، لكن أكثرهم جهال لا يفرقون بين الاتحاد العام المطلق الذي يذهب إليه الفاجر التلمساني وذووه، وبين الاتحاد المعين الذي يذهب إليه النصارى والغالية.

وقد كان سلف الأمة، وسادات الأئمة ، يرون كفر الجهمية أعظم من كفر اليهود، كما قال عبد الله بن المبارك والبخاري وغيرهما، وإنما كانوا يلوحون تلويحاً ، وقل أن كانوا يصرحون بأن ذاته في مكان.

وأما هؤلاء الاتحادية فهم أخبث وأكفر من أولئك الجهمية، ولكن السلف والأئمة أعلم بالإسلام وبحقائقه، فإن كثيراً من الناس قد لا يفهم تغليظهم في ذم المقالة، حتى يتدبرها ويرزق نور الهدى ، فلما اطلع السلف على سر القول نفروا منه.

وهذا كما قال بعض الناس متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئا، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شيء ؛ وذلك لأن متكلمهم ليس في قلبه تأله ولا تعبد، فهو يصف ربه بصفات العدم والموات.

وأما المتعبد ففي قلبه تأله وتعبد، والقلب لا يقصد إلا موجوداً لا معدوما فيحتاج أن يعبد المخلوقات، إما الوجود المطلق وإما بعض المظاهر، كالشمس والقمر، والبشر والأوثان وغير ذلك ، فإن قول الاتحادية يجمع كل شرك في العالم، وهم لا يوحدون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات، فهم بربهم يعدلون.

ولهذا حدثني الثقة أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند، وقال : إن أرض الإسلام لا تسعه؛ لأن الهند مشركون يعبدون كل شيء حتى النبات والحيوان.

وهذا حقيقة قول الاتحادية، وأعرف ناسا لهم اشتغال بالفلسفة والكلام وقد تألهوا على

طريق هؤلاء الاتحادية ، فإذا أخذوا يصفون الرب ـ سبحانه ـ بالكلام قالوا: ليس بكذا، ليس بكذا، ووصفوه بأنه ليس هو رب المخلوقات كما يقوله المسلمون، لكن يجحدون صفات الخالق التي جاءت بها الرسل ـ عليهم السلام.

وإذا صار لأحدهم ذوق ووجد، تأله وسلك طريق الاتحادية، وقال: إنه هو الموجودات كلها، فإذا قيل له: أين ذلك النفي من هذا الإثبات ؟ قال : ذلك وجدي ، وهذا ذوقي. فيقال لهذا الضال: كل ذوق ووجد لا يطابق الاعتقاد فأحدهما أو كلاهما باطل ، وإنما الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات، فإن علم القلب وحاله متلازمان، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال.

ولو سلك هؤلاء طريق الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له،ووصفوه بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله ـ واتبعوا طريق السابقين الأولين، لسلكوا طريق الهدى، ووجدوا بَرْد اليقين وقُرَّة العين، فإن الأمر كما قال بعض الناس: إن الرسل جاؤوا بإثبات مُفَصَّل ونفي مجمل، والصابئة المعطلة جاؤوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فالقرآن مملوء من قوله تعالى في الإثبات **﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[المائدة: ٩٧] و**﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[فاطر: ١]، و**﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** [لقمان: ٢٨]، **﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾** [غافر : ٧] ، وفي النفي **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى : ١١] ، **﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** [الإخلاص : ٤] ، **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾** [مريم: ٦٥]، **﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾** [الصافات: ١٨٠، ١٨١].

وهذا الكتاب مع أني قد أطلت فيه الكلام على الشيخ ـ أيَّد الله تعالى به الإسلام ، ونفع المسلمين ببركة أنفاسه، وحسن مقاصده ونور قلبه ـ فإن ما فيه نكت مختصرة ، فلا يمكن شرح هذه الأشياء في كتاب ، ولكن ذكرت للشيخ ـ أحسن الله تعالى إليه ـ ما اقتضى الحال أن أذكره ـ وحامل الكتاب مستوفز عجلان، وأنا أسأل الله العظيم أن يصلح أمر المسلمين، عامتهم وخاصتهم، ويهديهم إلى ما يقربهم، وأن يجعل الشيخ من دعاة الخير، الذين قال الله سبحانه فيهم : **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [آل عمرن: ١٠٤].

سئل شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ:

ما تقول أئمة الإسلام في الحلاج؟ وفيمن قال : أنا أعتقد ما يعتقده الحلاج: ماذا يجب عليه ؟ ويقول : إنه قتل ظلماً كما قتل بعض الأنبياء ، ويقول: الحلاج من أولياء الله. فماذا يجب عليه بهذا الكلام ، وهل قتل بسيف الشريعة؟

فأجـــاب :

الحمد لله ، من اعتقد ما يعتقده الحلاج من المقالات التي قتل الحلاج عليها فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين، فإن المسلمين إنما قتلوه على الحلول والاتحاد، ونحو ذلك من مقالات أهل الزندقة والإلحاد، كقوله: أنا الله ، وقوله : إله في السماء وإله في الأرض.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا إله إلا الله، وأن الله خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق و﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾[مريم: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ**﴾[النساء: ١٧١] الآيات ، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ الآيتين [المائدة: ١٧، ٧٢].

فالنصارى الذين كفرهم الله ورسوله، واتفق المسلمون على كفرهم بالله ورسوله، كان من أعظم دعواهم الحلول والاتحاد بالمسيح ابن مريم، فمن قال بالحلول والاتحاد في غير المسيح ـ كما تقوله الغالية في علي ، وكما تقوله الحلاجية في الحلاج ، والحاكمية في الحاكم، وأمثال هؤلاء ـ فقولهم شر من قول النصارى؛ لأن المسيح ابن مريم أفضل من هؤلاء كلهم.

وهؤلاء من جنس أتباع الدجال، الذي يدعى الإلهية ليتبع، مع أن الدجال يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: انبتي فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك، فتخرج معه كنوز الذهب والفضة، ويقتل رجلا مؤمنا ثم يأمر به فيقوم ، ومع هذا فهو الأعور الكذاب الدجال ، فمن ادعى الإلهية بدون هذه الخوارق، كان دون هذا الدجال.

والحلاج كانت له مخاريق وأنواع من السحر، وله كتب منسوبة إليه في السحر.

وبالجملة، فلا خلاف بين الأمة أن من قال بحلول الله في البشر، واتحاده به، وإن

البشر يكون إلها، وهذا من الآلهة ، فهو كافر مباح الدم، وعلى هذا قتل الحلاج.

ومن قال : إن الله نطق على لسان الحلاج، وإن الكلام المسموع من الحلاج كان كلام الله، وكان الله هو القائل على لسانه: أنا الله، فهو كافر باتفاق المسلمين، فإن الله لا يَحِل في البشر، ولا تكلم على لسان بشر، ولكن يرسل الرسل بكلامه، فيقولون عليه ما أمرهم ببلاغه ،فيقول على ألسنة الرسل ما أمرهم بقوله ، كما قال النبي ﷺ : «أما إن الله قال على لسان نبيه :سمع الله لمن حمده» (١).

فإن كل واحد من المرسل والرسول قد يقال: إنه يقول على لسان الآخر كما قال الإمام أحمد بن حنبل للمروذي: قل على لساني ما شئت، وكما يقال : هذا يقول على لسان السلطان كيت وكيت، فمثل هذا معناه مفهوم.

وأما أن الله هو المتكلم على لسان البشر كما يتكلم الجني على لسان المصروع ، فهذا كفر صريح، وأما إذا ظهر مثل هذا القول عن غائب العقل قد رفع عنه القلم، لكونه مصطلما في حال من أحوال الفنا والسكر، فهذا تكلم به في حال رفع عنه فيهما القلم، فالقول وإن كان باطلا لكان القائل غير مؤاخذ.

ومثل هذا يعرض لمن استولى عليه سلطان الحب مع ضعف العقل ، كما يقال: إن محبوباً ألقى نفسه في اليم فألقى المحب نفسه خلفه، فقال : أنا وقعت فلم وقعت خلفي؟ قال : غبت بك عني فظننت أنك أني .

وقد ينتهي بعض الناس إلى مقام يغيب فيه بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته.

فإذا ذهب تمييز هذا وصار غائب العقل ـ بحيث يرفع عنه القلم ـ لم يكن معاقبا على ما تكلم به في هذه الحال، مع العلم بأنه خطأ وضلال، وأنه حال ناقص لا يكون لأولياء الله.

وما يحكى عن الحلاج من ظهور كرامات له عند قتله، مثل كتابة دمه على الأرض : الله ، الله، وإظهار الفرح بالقتل أو نحو ذلك ، فكله كذب. فقد جمع المسلمون أخبار الحلاج في مواضع كثيرة ، كما ذكر ثابت بن سنان في أخبار الخلفاء ـ وقد شهد مقتله ـ وكما ذكر إسماعيل بن على الحطفي في تاريخ بغداد ـ وقد شهد قتله ـ وكما ذكر الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه، وكما ذكر القاضي أبو يعلى في المعتمد،وكما ذكر القاضي أبوبكر بن الطيب ، وأبو محمد بن حزم وغيرهم ،وكما ذكر أبو يوسف القزويني

(١) مسلم في الصلاة (٤٠٤ / ٦٢ ـ ٦٤) والنسائي في التطبيق (١٠٦٤ ، ١١٧٢) .

وأبوالفرج بن الجوزي، فيما جمعا من أخباره.

وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية ، أن أكثر المشايخ أخرجوه عن الطريق ، ولم يذكره أبو القاسم القشيري في رسالته من المشايخ الذين عدهم من مشايخ الطريق. وما نعلم أحداً من أئمة المسلمين ذكر الحلاج بخير، لا من العلماء ولا من المشايخ، ولكن بعض الناس يقف فيه؛ لأنه لم يعرف أمره، وأبلغ من يحسن به الظن يقول : إنه وجب قتله في الظاهر، فالقاتل مجاهد والمقتول شهيد ، وهذا أيضا خطأ.

وقول القائل : إنه قتل ظلمًا، قول باطل، فإن وجوب قتله على ما أظهره من الإلحاد أمر واجب باتفاق المسلمين، لكن لما كان يظهر الإسلام ويبطن الإلحاد إلى أصحابه، صار زنديقاً ، فلما أخذ وحبس أظهر التوبة، والفقهاء متنازعون في قبول توبة الزنديق، فأكثرهم لا يقبلها، وهو مذهب مالك وأهل المدينة ، ومذهب أحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو أحد القولين في مذهب أبى حنيفة ، ووجه في مذهب الشافعي، والقول الآخر تقبل توبته.

وقد اتفقوا على أنه إذا قتل مثل هذا لا يقال: قتل ظلمًا.

وأما قول القائل : إن الحلاج من أولياء الله، فالمتكلم بهذا جاهل قطعا، متكلم بما لا يعلم ، لو لم يظهر من الحلاج أقوال أهل الإلحاد، فإن ولي الله من مات على ولاية الله، يحبه ويرضى عنه، والشهادة بهذا لغير من شهد له النبي ﷺ بالجنة، لا تجوز عند كثير من العلماء أو أكثرهم.

وذهبت طائفة من السلف ـ كابن الحنفية، وعلى بن المديني ـ: إلى أنه لا يشهد بذلك لغير النبي ﷺ . وقال بعضهم : بل من استفاض في المسلمين الثناء عليه شهد له بذلك؛ لأن النبي ﷺ مرَّ عليه بجنازة فأثنوا خيراً ، فقال : «وجبت وجبت» ، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً فقال: «وجبت وجبت» قال:«هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت: وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت: وجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[1].

فإذا جوز أن يشهد لبعض الناس أنه ولي الله في الباطن، إما بنص وإما بشهادة الأمة ـ

---

(١) البخاري في الجنائز (١٣٦٧) ، ومسلم في الجنائز (٩٤٩/ ٦٠) والنسائي في الجنائز (١٩٣٢)، عن أنس بن مالك.

فالحلاج ليس من هؤلاء ، فجمهور الأمة يطعن عليه ويجعله من أهل الإلحاد ـ إن قدر على أنه يطلع على بعض الناس أنه ولي الله، ونحو ذلك مما يختص به بعض أهل الصلاح.

فهذا الذي أثنى على الحلاج ووافقه على اعتقاده ضال من جوه:

أحدها : أنه لا يعرف فيمن قتل بسيف الشرع على الزندقة أنه قتل ظلماً وكان وليا لله، فقد قتل الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وغيلان القدري، ومحمد بن سعيد المصلوب، وبشار بن برد الأعمى، والسهروردي، وأمثال هؤلاء كثير، ولم يقل أهل العلم والدين في هؤلاء أنهم قتلوا ظلماً ، وأنهم كانوا من أولياء الله، فما بال الحلاج تفرد عن هؤلاء.

وأما الأنبياء فقتلهم الكفار، وكذلك الصحابة الذين استشهدوا قتلهم الكفار، وعثمان، وعلى، والحسين ونحوهم قتلهم الخوارج البغاة، لم يقتلوا بحكم الشرع على مذاهب فقهاء أئمة الدين، كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم. فإن الأئمة متفقون على تحريم دماء هؤلاء ، وهم متفقون على دم الحلاج وأمثاله.

الوجه الثاني : أن الاطلاع على أولياء الله لا يكون إلا ممن يعرف طريق الولاية، وهو الإيمان والتقوى.

ومن أعظم الإيمان والتقوى أن يجتنب مقالة أهل الإلحاد ـ كأهل الحلول والاتحاد ـ فمن وافق الحلاج على مثل هذه المقالة، لم يكن عارفاً بالإيمان والتقوى ، فلا يكون عارفاً بطريق أولياء الله ، فلا يجوز أن يميز بين أولياء الله وغيرهم.

الثالث : أن هذا القائل قد أخبر أنه يوافقه على مقالته، فيكون من جنسه، فشهادته له بالولاية شهادة لنفسه، كشهادة اليهود والنصارى والرافضة لأنفسهم على أنهم على الحق، وشهادة المرء لنفسه فيما لا يعلم فيه كذبه ولا صدقه مردودة، فكيف يكون لنفسه ولطائفته الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم أهل ضلال؟

الرابع: أن يقال : أما كون الحلاج عند الموت تاب فيما بينه وبين الله أو لم يتب، فهذا غيب يعلمه الله منه، وأما كونه إنما كان يتكلم بهذا عند الاصطلام فليس كذلك، بل كان يصنف الكتب ويقوله وهو حاضر ويقظان .

وقد تقدم أن غيبة العقل تكون عذراً في رفع القلم، وكذلك الشبهة التي ترفع معها قيام الحجة، قد تكون عذراً في الظاهر.

فهذا لو فرض، لم يجز أن يقال :قتل ظلما، ولا يقال: إنه موافق له على اعتقاده ، ولا يشهد بما لا يعلم، فكيف إذا كان الأمر بخلاف ذلك وغاية المسلم المؤمن إذا عذر الحلاج أن يدعى فيه الاصطلام والشبهة. وأما أن يوافقه على ما قتل عليه فهذا حال أهل الزندقة والإلحاد، وكذلك من لم يجوز قتل مثله فهو مارق من دين الإسلام.

ونحن إنما علينا أن نعرف التوحيد الذي أمرنا به، ونعرف طريق الله الذي أمرنا به، وقد علمنا بكليهما أن ما قاله الحلاج باطل، وأنه يجب قتل مثله، وأما نفس الشخص المعين، هل كان في الباطن له أمر يغفر الله له به من توبة أو غيرها؟ فهذا أمر إلى الله ، ولا حاجة لأحد إلى العلم بحقيقة ذلك، والله أعلم.

سئل شيخ الإسلام وحجة الأنام أبو العباس بن تيمية ـ رضي الله عنه ـ عمن يقول : إن ما ثم إلا الله . فقال شخص : من قال هذا الكلام فقد كفر.

فأجاب ـ رضي الله عنه ـ:

الحمد لله ، قول القائل :ما ثم إلا الله : لفظ مجمل، يحتمل معنى صحيحاً ومعنى باطلا، فإن أراد ما ثم خالق إلا الله، ولا رب إلا الله، ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله ـ فهو الذي يعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل وهو الذي يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ، ويستعاذ به ويلتجئ العباد إليه، فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، كما قال تعالى في فاتحة الكتاب: **﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة:٥]، وقال تعالى : **﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾** [هود:١٢٣]، وقال: **﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾** [الرعد: ٣٠].

فهذه المعاني كلها صحيحة، وهي من صريح التوحيد ، وبها جاء القرآن، فالعباد لا ينبغى لهم أن يخافوا إلا الله ، كما قال تعالى: **﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾** [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى : **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾** إلى قوله: **﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾** [آل عمران:١٧٣ـ١٧٥].

وكذلك لا ينبغى أن يرجى إلا الله، قال الله تعالى: **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [فاطر:٢]، وقال تعالى: **﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر: ٣٨].

ولا ينبغي لهم أن يتوكلوا إلا على الله كما قال تعالى: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [إبراهيم:١٢]، ولا ينبغي لهم أن يعبدوا إلا اللّه، كما قال تعالى: **﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾** [البينة: ٥].

ولا يدعوا إلا الله ، كما قال تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**

[الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلا(١) تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة.

وأما إن أراد القائل: ما ثم إلا الله ما يقوله أهل الاتحاد، من أنه ما ثم موجود إلا الله، ويقولون: ليس إلا الله، أي ليس موجود إلا الله، ويقولون: إن وجود المخلوقات هو وجود الخالق، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، والعبد هو الرب، والرب هو العبد، ونحو ذلك من معاني الاتحادية، الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، ولا يثبتون المباينة بين الرب والعبد، ونحو ذلك من المعاني، التي توجد في كلام ابن عربي الطائي، وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمساني، ونحوهم من الاتحادية.

وكذلك من يقول بالحلول كما يقوله الجهمية، الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، ويجعلونه مختلطا بالمخلوقات، حتى إن هؤلاء يجعلونه في الكلاب والخنازير والنجاسات، أو يجعلون وجود ذلك وجوده، فمن أراد هذه المعاني فهو مُلْحِد ضال، يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

---

(١) في المطبوعة: «ولا» والصواب ما أثبتناه.

سئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عن قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»(1) فهل هذا موافق لما يقوله الاتحادية ؟ بينوا لنا ذلك؟

فأجـــاب :

الحمد لله . قوله: « لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»: مروي بألفاظ أخر، كقوله: «يقول الله : يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار» وفي لفظ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر ، يقلب الليل والنهار» وفي لفظ: «يقول ابن آدم : يا خيبة الدهر، وأنا الدهر»(2).

فقوله في الحديث: « بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار» يبين أنه ليس المراد به أنه الزمان، فإنه قد أخبر أنه يقلب الليل والنهار، والزمان هو الليل والنهار،فدل نفس الحديث على أنه هو يقلب الزمان ويصرفه. كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣، ٤٤] . وإزجاء السحاب :سوقه. والودق :المطر.

فقد بين ـ سبحانه ـ خلقه للمطر، وإنزاله على الأرض، فإنه سبب الحياة في الأرض، فإنه ـ سبحانه ـ جعل من الماء كل شيء حي، ثم قال : « يقلب الله الليل والنهار» إذ تقليبه الليل والنهار: تحويل أحوال العالم بإنزال المطر، الذي هو سبب خلق النبات والحيوان والمعدن، وذلك سبب تحويل الناس من حال إلى حال ، المتضمن رفع قوم وخفض آخرين.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ بخلقه الزمان في غير موضع، كقوله: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ،وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

---

(1) البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، وفي الأدب (٦١٨١) ، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦/ ١، ٢، ٣)، وأبو داود في الأدب (٥٢٧٤) وأحمد ٢/ ٢٣٨، عن أبي هريرة.

(2) البخاري في الأدب (٦١٨٢)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦/ ٤، ٥)، الموطأ في الكلام ٢/ ٩٨٤(٣)، وأحمد ٢/ ٢٥٩، عن أبي هريرة.

[الأنبياء: ٣٣]، وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وغير ذلك من النصوص التي تبين أنه خالق الزمان.

ولا يتوهم عاقل أن الله هو الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة، والحركة مقدارها من باب الأعراض والصفات القائمة بغيرها، كالحركة والسكون والسواد والبياض.

ولا يقول عاقل: إن خالق العالم هو من باب الأعراض والصفات، المفتقرة إلى الجواهر والأعيان، فإن الأعراض لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به، والمفتقر إلى ما يغايره لا يوجد بنفسه، بل بذلك الغير فهو محتاج إلى ما به في نفسه من غيره، فكيف يكون هو الخالق؟

ثم أن يستغنى بنفسه، وأن يحتاج إليه ما سواه، وهذه صفة الخالق سبحانه، فكيف يتوهم أنه من النوع الأول؟

وأهل الإلحاد ـ القائلون بالوحدة أو الحلول أو الاتحاد ـ لا يقولون: إنه هو الزمان ، ولا أنه من جنس الأعراض والصفات، بل يقولون : هو مجموع العالم، أو حال في مجموع العالم.

فليس في الحديث شبهة لهم، لو لم يكن قد بين فيه أنه ـ سبحانه ـ مقلب الليل والنهار ـ فكيف وفي نفس الحديث أنه بيده الأمر يقلب الليل والنهار.

إذا تبين هذا ، فللناس في الحديث قولان معروفان لأصحاب أحمد وغيرهم.

أحدهما: وهو قول أبي عبيد وأكثر العلماء: أن هذا الحديث خرج الكلام فيه لرد ما يقوله أهل الجاهلية ، ومن أشبههم، فإنهم إذا أصابتهم مصيبة أو منعوا أغراضهم أخذوا يسبون الدهر والزمان، يقول أحدهم: قبح الله الدهر الذي شتت شملنا، ولعن الله الزمان الذي جرى فيه كذا وكذا.

وكثيراً ما جرى من كلام الشعراء وأمثالهم نحو هذا ، كقولهم : يا دهر، فعلت كذا . وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور، ويضيفونها إلى الدهر، فيقع السب على الله تعالى ، لأنه هو الذي فعل تلك الأمور وأحدثها، والدهر مخلوق له، هو الذي يقلبه ويصرفه.

والتقدير: أن ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور وأنا فعلتها، فإذا سب الدهر فمقصوده

سب الفاعل، وإن أضاف الفعل إلى الدهر، فالدهر لا فعل له، وإنما الفاعل هو الله وحده.

وهذا كرجل قضى عليه قاض بحق أو أفتاه مُفْت بحق، فجعل يقول : لعن الله من قضى بهذا أو أفتى بهذا، ويكون ذلك من قضاء النبي ﷺ وفتياه فيقع السب عليه ، وإن كان الساب ـ لجهله ـ أضاف الأمر إلى المبلغ في الحقيقة ، والمبلغ له فعل من التبليغ، لخلاف الزمان فإن الله يقلبه ويصرفه.

والقول الثاني : قول نُعَيْم بن حماد ، وطائفة معه من أهل الحديث والصوفية: أن الدهر من أسماء الله تعالى ، ومعناه: القديم الأزلي.

ورووا في بعض الأدعية : يا دهر يا ديهور، يا ديهار، وهذا المعنى صحيح؛ لأن الله ـ سبحانه ـ هو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء، فهذا المعنى صحيح إنما النزاع في كونه يسمى دهراً بكل حال.

فقد أجمع المسلمون ـ وهو مما علم بالعقل الصريح ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس هو الدهر الذي هو الزمان، أو ما يجري مجرى الزمان، فإن الناس متفقون على أن الزمان الذي هو الليل والنهار.

وكذلك ما يجري مجرى ذلك في الجنة، كما قال تعالى : ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم:٦٢] . قالوا :على مقدار البكرة والعشي في الدنيا، وفي الآخرة يوم الجمعة يوم المزيد، والجنة ليس فيها شمس ولا قمر، ولكن تعرف الأوقات بأنوار أخر، قد روى أنها تظهر من تحت العرش، فالزمان هنالك مقدار الحركة التي بها تظهر تلك الأنوار.

وهل وراء ذلك جوهر قائم بنفسه سيال هو الدهر؟ هذا مما تنازع فيه الناس، فأثبته طائفة من المتفلسفة من أصحاب أفلاطون، كما أثبتوا الكليات المجردة في الخارج، التي تسمى المثل الأفلاطونية والمثل المطلقة، وأثبتوا الهيولي التي هي مادة مجردة عن الصور، وأثبتوا الخلاء جوهراً قائما بنفسه.

وأما جماهير العقلاء من الفلاسفة وغيرهم، فيعلمون أن هذا كله لا حقيقة له في الخارج، وإنما هي أمور يقدرها الذهن ويفرضها ، فيظن الغالطون أن هذا الثابت في الأذهان هو بعينه ثابت في الخارج عن الأذهان، كما ظنوا مثل ذلك في الوجود المطلق ، مع علمهم أن المطلق بشرط الإطلاق وجوده في الذهن، وليس في الخارج إلا شيء معين وهو الأعيان، وما يقوم بها من الصفات، فلا مكان إلا الجسم أو ما يقوم به ، ولا زمان إلا مقدار الحركة، ولا مادة مجردة عن الصور، بل ولا مادة مقترنة بها غير الجسم الذي

يقوم به الأعراض، ولا صورة إلا ما هو عرض قائم بالجسم، أو ما هو جسم يقوم به العرض، وهذا وأمثاله مبسوط في غير هذا الموضع.

وإنما المقصود التنبيه على ما يتعلق بذلك على وجه الاختصار ،والله أعلم.

تم الموجود الآن من كتاب توحيد الربوبية ويليه كتاب مجمل اعتقاد السلف

فهرس المجلد الثانى

رقم الإيداع : ٥٨٩٠ / ١٩٩٧ م

I.S.B.N:977 - 15 - 0198 - 4

